الدكتور علي الوردي

الأحلام

بين العلم والعقيدة



al-WARDI

al-Ahlam bayn al-ilm wa-al-aqidah

الإسلام

بين العلم والعقيدة

☆ الاحلام بين العلم والعقيدة

☆ د. علي الوردي

☆ الطبعة الثانية 1994

☆ دار كوفان لندن

الدكتور علي الوردي

الأحلام

بين العلم والعقيدة

بحث في الأحلام من حيث تأثيرها في عقائد الناس وعاداتهم
وما توصل اليه العلم الحديث في ذلك من نظريات

دار كوفان للنشر
توزيع دارالكنوز الادبية
ص. ب. ١١/٦٢٢٧
بيروت - لبنان

Second Addition in the United Kingdom in 1994

P.O. Box 2320 Kensington

London W8 7ZE U.K.

P.O. Box 5182/13 Hamra

Beirut / Lebanon

ISBN 1 - 898124 - 08 - 6

الطبعة الثانية 1994

مقدمة

كلمة لابد منها

لهذا الكتاب الذى بين يدى القارىء قصة لاتخلو من طرافة. فقد بدأت بطبع الكتاب فى شهر نيسان من عام 1957 ، وكان المقرر الانتهاء من طبعه فى صيف ذلك العام. ولهذا فقد اعلنت عن قرب صدروه فى الصحف المحلية عدة مرات .

والكتاب كما سيرى القارىء مقسم الى ثلاثة اقسام.ولم تكد المطبعة تنتهى من طبع القسمين الأولين منه حتى طلبت منها أن تؤجل إكمال طبعه ، وأن تضع الملازم المطبوعة منه على الرف. ففعلت المطبعة ذلك دون أن تعرف السر فيه. وبقيت الملازم المطبوعة من الكتاب مطروحة فى مخازن المطبعة يعلوها التراب وتلفحها اشعة الشمس.

لست اريد فى هذه المناسبة ان ادعي البطولة لنفسى ، أو أزعم ان الكتاب يحتوي على معارضة صارخة للوضع السياسى البائد. الواقع أن الكتاب خالياً من ذلك. وستتضح للقارىء صحة ماأقول حين يقرأ الكتاب . اما تأجيل طبع الكتاب فقد حدث من جراء نصيحة أدلى بها صديق نبهّنى فيها الى أمر لم أكن افطن اليه من قبل.

كان من عادتي في أواخر العهد البائد اني لا اخرج كتاباً الى الناس الا بعد أن أعرضه على بعض الاصدقاء من الذين يدركون بواطن الأمور ويعرفون مداخل السياسة

ومخارجها. وكنت استمع الى نصحهم فى ذلك لكي لا اتورط فى مشكلة انا فى غنى عنها، او ادخل فى موضوع يؤدي بي الى السجن.

وذهبت الى احد اولئك الاصدقاء اعرض عليه مواضيع كتابى هذا. فاطّلع الصديق عليها ثم رفع حاجبيه وعلى فمه ابتسامة يائسة حيث قال: انصحك يا اخى ان لا تخرج الكتاب فى الوقت الحاضر .

وعجبت من نصيحة الصديق هذه. فقد كنت واثقاً بأن الكتاب يبحث فى الاحلام وليس فيه دخل بالسياسة من قريب او بعيد. وهو فى الواقع اقل الكتب التى اصدرتها فى وخزاته ولذعاته...ولكن الصديق قال عن الكتاب انه يمس بصورة مباشرة عواطف الأسرة المالكة، اذ ان فيه تعريضاً خفياً بـ"الشرفاء" من ذرية النبى . وهذا التعريض سوف يغضب الملك او اقربانه، لأنهم يستندون فى سلطانهم على ما يزعمون لأنفسهم من حق موروث بإعتبارهم من "اهل البيت" الطاهر.

وخلص الصديق بعد ذلك الى القول بانهم قد يصبرون على النقد الذى يوجُه نحو سياسة الوزراء او الموظفين ولكنهم لايصبرون على النقد الموجّه نحو العائلة المالكة او القوة الخفيّة التى تدعمها من وراء الستار.فالعائلة المالكة تعتبر رمزاً للنظام القائم، ونقد الرمز هو فى نظرهم ابشع جريمة يمكن ان يقترفها انسان فى هذا البلد، إذ هو بمثابة الدعوة الى هدم الاساس الذى يقوم عليه كيان النظام.

ولم تمض مدة طويلة على هذا الحديث الذى دار بينى وبين الصديق، حتى اثيرت ضجة مفتعلة فى العراق ولبنان والاردن من مقالةنشرها احد الكتاب المصريين اشار فيها الى ان الاسلام يساوى بين الناس فلا فرق بين شريف ومشروف وليس فيه طبقات تمتاز على غيرها بالنسب. وانتهز "جلاوزة" العهد البائد هذه الفرصة فاخذوا يصولون ويجولون زاعمين ان إنكار فضيلة النسب الشريف مروق عن الدين.

وقد وجدت انا فى هذه الضجة المفتعلة عاملاً جديداً يدعونى الى تاجيل إصدار الكتاب مرة اخرى. ولوكنت قد اصدرت الكتاب اثناء الضجة لما تردد بعض المتزلفين و المشعوذين من قتلى قربة الى الله– كما حاولوا ان يفعلوا إثر صدور كتاب "وعاظ السلاطين" .

وأود ان الفت نظر القارىء هنا الى انى لم اقصد فى كتابى هذا الحطّ من شان اهل البيت. واني فى الواقع من المؤمنين بفضل اهل البيت، وقد ذكرت اثرهم المجيد فى الاسلام فى بعض كتبي السابقة.

ولكنا إذ نقدس اهل البيت، لانستند فى ذلك على النسب وحده. فالنسب لايغني عند الله شيئاً. وقد ساوى الاسلام بين السيد القرشي والعبد الحبشي كما هو معروف. إن مقياس الفضيلة فى الاسلام هو العمل الصالح. اما السيد الشريف الذي يقترف المنكر ويظلم الناس فلا يشفع له عند الله كونه من ذرية الرسول. والمأثور عن النبى محمد انه قال لأهل بيته ذات مرة: "اني لا اغني عنكم من الله شيئاً! " .

لقد نال اهل البيت المنزلة الرفيعة فى صدر الاسلام لأنهم كانوا ثواراً مجاهدين قدموا انفسهم وأموالهم فى سبيل مكافحة الطغيان والظلم. اما من كان مؤيداً للطغاة منهم فقد إحتقره المسلمون الأولون كما إحتقروا اي جلواز يسير فى ركاب الحكام الذين يتخذون مال الله دولاً وعباده خولاً.

كان النبي يحارب الطبقة المتعالية بانسابها على الناس. وليس من المعقول إذن ان يجعل النبى من اولاده طبقة جديدة تحل محل الطبقة البائدة. لست انكر فى هذا الصدد أن يكون النبي قد اوصى امته باهل بيته خيراً. ولكن هذا لايعني ان تنشأ من اهل بيته طبقة تبقى متعالية بنسبها الشريف الى الابد.

لقد أوصى النبي بأهل بيته لأنه ادرك بثاقب بصره ان بعض الموتورين منه سينتقمون بعد موته من اهل بيته كما كان يفعل اهل الجاهلية باقرباء الواترين عليهم. وقد اوصى النبي خيراً بالانصار وغيرهم لعين السبب الذي أوصى من أجله بأهل بيته– والله أعلم.

* * *

قد يسألنى سائل: ماهى الصلة التى تربط كتابى هذا، وهو يبحث فى الاحلام، بموضوع الشرف والشرفاء من أهل البيت؟

الحقيقة التى يجدر بالقارىء ان يعرفها قبل أن يبدأ بقراءة كتابى هذا هى أني لم اكتب فيه عن الاحلام على منوال ما كتب عنها علماء النفس. واعترف بأنى لست

من المختصّين فى موضوع الاحلام من الناحية النفسية . إن اختصاصى، كما يعرف القاريء، هو علم الاجتماع. ولكني وجدت أن الاحلام تمس موضوع إختصاصى من طريق غير مباشر.وهذا أمر قد لايهتم له علماء الاجتماع فى البلاد المتمدنة، إذ هم لايرون للأحلام صلة وثيقة بالمواضيع الاجتماعية فى بلادهم. أما فى بلادنا، فالأمر يجرى على النقيض من ذلك.

أستطيع أن اقول بأننا من أكثر الامم تأثراً بالاحلام من الناحية الاجتماعية. فكثير من عقائدنا وعاداتنا نشأت فينا ونمت من جراء ما نسبغ على أحلامنا من صبغة قدسية. وبعض رجال الدين عندنا يعتقدون بأن الاحلام تنطق أحياناً بالوحي الذى لايجوز الشك فيه. وقد جرى العوام وراء رجال الدين فى هذا الشأن الى درجة كان لها أثر اجتماعى بالغ فى السوء.

وتتركز هذه العقيدة فيهم حين يرون فى أحلامهم النبى أو احد الأئمة يقول لهم شيئاً أو يأمرهم بشيء. وهم عند ذلك يؤمنون بأن رؤياهم كانت صادقة ولهذا نراهم يندفعون فى تحقيق ما قال النبي او الامام لهم فى النوم كانه قال لهم ذلك اثناء اليقظة.

من الاحاديث التى تروى فى هذا الشأن ما نقله أهل السنة فى صحاحهم عن النبي أنه قال: " من رآني فقد رآى ، فإن الشيطان لايتكونني " [1].. وكذلك روي الشيعة عن أئمتهم أنهم قالوا: " من رآنا فقد رآنا حقاً فإن الشيطان لايتمثل بنا " [2].

وهناك أحاديث أخرى من هذا النوع منتشرة فى كتب الحديث. وهى تدل على ان الطوائف الاسلامية كلها، بإستثناء المعتزلة والزيدية، تذهب الى القول بصحة ما يأتي على لسان النبي أو الامام عند ظهوره فى النوم. وقد أدى ذلك بالمسلمين الى اعتناق آراء وعقائد ماأنزل بها من سلطان.

من هذه العقائد التى نشأت بين المسلمين بسبب الاحلام عقيدة التقديس للشرفاء او السادة من ذرية النبي بغض النظر عما يقومون به من أفعال أو يتصفون به من أخلاق.

وقد ذكرت فى الفصل الرابع من كتابى هذا قصص بعض الأحلام التى رآى أحد

المسلمين فيها النبي او إبنته فاطمة الزهراء أو أحد الأئمة من أهل البيت وهم يأمرونه باحترام السادة وبرعايتهم وطاعتهم على الرغم من تسفلهم أو ظلمهم. وقد إعتاد بعض المسلمين أن يتداولوا مثل هذه القصص ويعدونها من صلب الشريعة الاسلامية مع الاسف الشديد.

سيرى القارىء فى الفصل الرابع من هذا الكتاب أني خصصت بالذكر فيه تلك الاحلام التى قصّها ابن حجر الهيتمي فى كتابه "الصواعق المحرقة" . وكتاب ابن حجر هذا له أهمية خاصه بالنسبة لنا نحن العراقيين. فقد كان ابن حجر حين ألف كتابه يعيش فى الحجاز تحت وطأة الاسرة الهاشمية التى وقعنا نحن أيضا تحت وطأتها فى المدة الاخيرة وعانينا من ظلمها وتسفلها ما عانينا.

والظاهر أن ابن حجر كان من وعاظ السلاطين. ولهذا وجدناه فى كتابه يمدح الأسرة الهاشمية الحاكمة ويذكر الاحلام التى رؤي النبي وابنته الزهراء فيها وهما يأمران المسلمين بحب "الاشراف" وبالرضوخ لحكمهم وبوجوب إكرامهم وإحترامهم.

أخلاق وعقائد

ولم يقتصر تاثير الاحلام فى عقول المسلمين من الناحية السالفة الذكر وحدها. فهناك نواحٍ عديدة اخرى كان للآحلام فيهاأثر اجتماعى بالغ، اتيت على ذكر بعضها فى هذا الكتاب وفاتني أن أذكر البعض الاخر.

عثرت فى الآونة الاخيرة على كتاب صغير له صلة بموضوعنا، وهو يتضمن سيرة الشيخ احمد الأحسائى مكتوبة بقلمه.

والشيخ الأحسائى لا يعرفه كثير من القراء، وهو رجل جدير بأن يعرفوه ويدرسوا آثاره. إنه اسس فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى طائفة إسلامية خاصة به لها اتباع كثيرون وهم منتشرون اليوم فى بعض نواحى العراق وإيران. وقد إشتهرت هذه الطائفة بغلوها المفرط فى الأئمة الاثنى عشر، ومنها إنبعثت اخيراً الطائفة الكشفية والبابية والبهائية وغيرها.

وحين ندرس سيرة الشيخ احمد الاحسائي نجد انه إستلهم معظم عقائده المغالية من الاحلام، واستند فيها على الحديث القائل: "من رآنا فقد رآنا حقاً..."

يقول الشيخ عن نفسه انه فى اول مرة راى فى بعض أحلامه الحسن بن علي عليه السلام، ورجا منه ان يعلمه شيئاً إذا قرأه إستطاع ان يراه او يرى غيره من الأئمة فى النوم. فعلمه الحسن بضعة ابيات من الشعر. وكانت هذه الابيات مفتاح كنز عظيم من العلوم للشيخ بعد ذلك.حيث إستطاع بها ان يرى اي إمام يشاء فى نومه عند الحاجة.

والى القاريء شيئاً مما ذكره الشيخ احمد عن احلامه بالنص:

"والحاصل اني رايت اكثر الأئمة عليهم السلام. وظني كلهم الا الجواد عليه السلام فإنى متوهم فى رؤيته. وكل من رايت منهم يجيبنى فى كل ما طلبت. وكنت مدة إقبالي سنين متعددة مايشتبه شيء عليّ فى اليقظة الا واتاني فى المنام، واشياء ما اقدر ضبطها لكثرتها.واعجب من هذا: ماارى فى المنام الا على اكمل ماأريده فى اليقظة بحيث ينفتح لى جميع ما يؤيد ادلته ويمنع ما يعارضه..وإذا اردت ان تعرف صدق كلامي، فانظر فى كتبي الحكمية فإنى فى اكثرها، فى اغلب المسائل، خالفت الحكماء والمتكلمين. فإذا تاملت فى كلامي رايته مطابقاً لأحاديث ائمة الهدى عليهم السلام. ولا تجد حديثاً يخالف شيئاً من كلامي. وترى كلام اكثر الحكماء والمتكلمين مخالفاً لكلامي ولأحاديث الأئمة عليهم السلام...فإنى لااتكلم الا بدليل منهم عليهم السلام".

ويحدثنا الشيخ انه راى الحسن فى النوم ذات ليلة فساله عن مسائل فأجابه الحسن عليه السلام عنها ثم وضع فمه الشريف على فم الشيخ وبقى يمج فى فمه من ريقه والشيخ يشرب منه قدر نصف ساعة، وكان الريق ساخناً الا انه كان الذُّ من العسل...(3).

لا اريد بهذا تفنيد عقائد الطائفة الشيخية او الطوائف الاخرى التى إنبثقت منها، فعلى القارىء ان يقرأ كتب هذه الطوائف ليحكم لها او عليها. إنما اريد أن أذكر نماذج من تأثير الاحلام فى عقائد بعض المسلمين.

واكاد اعتقدان للاحلام أثراً فى الاخلاق والنظام الاجتماعى كما كان لها اثراً فى

العقائد والآراء. ويتضح هذا مما ذكرته في الفصل الرابع من قصة ابن عكاشة. فقد راى هذا الرجل النبي في منامه وقال له النبي، من جملة ماقال،إن من اصول السنة المحمدية ان يسير المسلم تحت لواء السلطان مهما كان ظالماً وان لايخرج على الامراء بالسيف وإن جاروا...

معنى هذا ان الثورة على السلطان الجائر مخالفة للشريعة الاسلامية وان طاعة السلطان من طاعة الله.

ويأتى ابن حجر فى كتاب "الصواعق المحرقة" بأحلام "مقدسة" تدل على ان السلطان مهما كان عاتياً سفاكاً فإن الله قد يغفر له ظلمه بشفاعة النبي أو أهل بيته. فتيمورلنك مثلاً، الذى اعترف ابن حجر بانه كان اظلم خلق الله، رؤى فى النوم وهو مغفور له لأنه كان يحب ذرية النبي.

ويحدثنا ابن حجر كذلك ان احد اليمانيين ذهب الى مكة للحج مع عياله، فقسى عليه فى الطريق جلاوزة "الشريف" الذى كان يحكم الحجاز آنذاك. واخذ اليمانى يدعو الله علىالشريف، ولكن النبي ظهر له فى النوم وقال له: أما رايت فى الظلمة من هو اظلم من ولدي هذا ؟!" . فاستيقظ اليمانى مرعوباً وتاب الى الله من ان يتعرض لأحد من ذرية النبي الذين أوجب الله إحترامهم على العباد.

وفى بعض القصص التى يرويها بعض المؤلفين حول الاحلام "المقدسة" ما يدل على أن شفاعة النبي وأهل بيته قد تنجي المسلم من كل خطيئة إقترفها مهما كانت فظيعة.

وجدت فى كتاب صدر فى الاسواق قبل بضعة عشرة سنة قصصاً عديدة من هذا الطراز. والى القارىء نموذجاً منها حيث ذكر المؤلف قصة شاعر سكير كان يحب أهل البيت ويمدحهم بشعره. ولما دنت منه الوفاة إسود وجهه وانعقد لسانه. ولكن ولده رآه فى المنام بعد موته فوجد عليه قلنسوة وثياباً بيضاء، فسأله عما فعل الله به؟ فأجاب الشاعر: بأن الذى ظهر منه قبيل الموت من إسوداد الوجه وإنعقاد اللسان كان من جراء شربه للخمر فى الدنيا. ولكنه بعد الموت راى رسول الله وانشده بعض شعره الذي مدح به أهل البيت. فشفع له النبي وأعطاه ثيابه البيضاء(4) .

إن هذه القصة، كما لا يخفى على القاريء، تؤثر فى الناس تأثيراً اجتماعياً وأخلاقياً سيئاً. فهى تشجعهم على أن يفعلوا فى دنياهم ما يشتهون ثم يأتيهم النبي بعد الموت فيشفع لهم وينقذهم من عذاب الجحيم.

وروى المؤلف قصة أخرى تماثل القصة السابقة فى تأثيرها السيء. وخلاصتها أن شاعرا رأى الامام على ابن ابي طالب فى النوم فانشد بين يديه قصيدة فى المدح على المنوال التالى:

ابا حسن أنت عين الآله	فهل عنك تعزب من خافية
وأنت مدير رحى الكائنات	وإن شئت تشفع بالناصية
وأنت الذى أم الانبياء	لديك إذا حشرت جاثية
فمن بك قد تم إيمانه	يساق الى جنة عالية
وأما الذين تولوا سواك	يساقون دعًا الى الهاوية

قال الراوي: فتبسم الامام وقال للشاعر "احسنت" . فدنى الشاعر وقبّل يدي الإمام. ثم استيقظ من النوم وهو ينشد القصيدة واخذ الناس يتناقلونها عنه ويشطرونها ويخمسونها(5).

هنا اود ان أسأل: ماذا سيكون تأثير هذه القصيدة على عقول الذين يسمعونها ويصدقون بها؟

إن هذه القصيدة ستنقلب الى عقيدة لدى كثير من الناس باعتبار ان الامام قد استحسنها واجازها، وهى كما لايخفي من القصائد المغالية التى تجعل المسلم واثقاً من النجاة فى الآخرة بمجرد تمسكه بولاية الامام ولا باس أن يفعل فى دنياه ما يشتهى.

أضرحة وهمية:

أود أن لا تفوتنى الفرصة هنا لأشير الى ظاهرة اجتماعية معروفة لدى المسلمين منذ زمان قديم، ولها صلة كبيرة بالاحلام. هى ظاهرة القبور الوهمية التى يزورها الناس يتبركون بها وينذرون لها النذوور بينما هى فى حقيقة امرها لاسند لها من التاريخ.

فقد يرى احد الناس فى منامه ما يدل على وجود قبر لبعض الاولياء او ابناء الأئمة فى موضع معين. فيستيقظ الرجل من النوم فرحاً ويعلن أمر القبر الى الناس فيصدقونه وينهالون على القبر يتبركون به. ويجني الرجل من ذلك نذوراً كثيرة ومنزلة اجتماعية سامية..

يحدثنا الاستاذ جعفر الخليلي فى احد كتبه عن قصة رجل اسمه "مزعل الفحام" وكان هذا الرجل فقيراً كل الفقر يكدح طيلة العام فى عمله دون ان يجد فيه نفعاً. وتفتق ذهنه اخيراً عن حيلة يدرأ بها العوز عن نفسه وعن عائلته البائسة، فاعلن ذات يوم بان "الخضر" ظهر له فى النوم واخبره بوجود قبر لبعض الأولياء فى بيته اي فى بيت مزعل الفحام!

وشاع خبر الحلم بين الناس، وفرح به سكان القرية التى يقع فيها بيت مزعل الفحام حيث ادركوا بان قريتهم ستصبح مزاراً مقدساً. وقد اصبحت القرية بالفعل مزاراً كبيراً يحج اليه الناس من كل صوب واضحى مزعل الفحام شيخاً محترماً تجبى له الاموال(6).

ان هذه القصة قد تكون خيالية ولكن لها شبهاً كبيراً بما يحدث بين الناس احياناً من حوادث واقعية فى هذا الشان.

يروى الدكتور مصطفى جواد قصة حلم وقعت فى بغداد عام 535 هـ. وانتهت اخيراً الى فضيحة عقائدية كبرى. وخلاصة القصة ان احد المشعوذين الذين يتظاهرون بالزهد والتقوى ذهب فى الظلام الى قبر صبي كان قد دفن حديثاً فنبشه واخرج جثة الصبي منه ودفنها فى موضع آخر، ثم اعلن بعد ذلك بانه راى فى المنام عمر بن الخطاب وعلى ابن ابى طالب وقالا له:إن فى هذا الموضع صبياً من أولاد امير المؤمنين علي بن ابي طالب.

وانثال الناس الى الموضع فحفروه ووجدوا الصبى فيه... واخذوا يتقاسمون كفنه للبركة فمن وصلت اليه قطعة من شعر كانه قد ملك الدنيا. وخرج ارباب الدولة واهل بغداد وانقلب البلد وطرح فى الموضع دساتيج ماء الورد والبخور. وازدحم الناس على الموضع حتى لم يصل اليه احد من كثرة الزحام، وتنافسوا على اخذ التراب

تبركا. ثم رجع الناس الى المشعوذ الذى اكتشف الموضع فصاروا يتهافتون عليه ويقبلون يديه وهو يظهر التمنع والبكاء لشدة زهده.

وبقيت الجثة مكشوفة على الارض اياماً والناس لاينفكون يقبلونها ويزدحمون عليها حتى ظهرت رائحتها. وممن جاء مع الناس والد الطفل الميت فابصره، وصاح قائلا: "هذا والله ولدى...!" فلما سمع المشعوذ ذلك هرب فلحقه الناس وامسكوا به وقرروه، فاقر بانه فعل ذلك حيلة. فعوقب بان اركب حماراًيجرى به فى الاسواق للتشهير[7] .....

ووقعت فى بغداد فى ايام المغول قصة ابشع من هذه التى تحدثنا عنها آنفا. فقد عمد رجل شريف ممن يدعون النسب العلوي الى طفل فقتله ثم دفنه بقميصه وكان فى جيبه كعاب مما يلعب به الاطفال. ووضع الرجل تحت راس القتيل ورقة كتب عليها: "هذا قبر عمر بن عبد الله" . ثم اعلن بعد ذلك بانه رأى فى المنام ما يدل على وجود قبر لبعض ابناء الائمة فى الموضع الذى دفن فيه الطفل. فهرع الناس الى الموضع وحفروه واخرجوا الجثة. وعند ذلك صرخ احد الحاضرين وقال: "هذا والله ولدى وانى فقدته منذ ايام" ..ولما سمع صاحب الديوان بذلك عزم على قتل الرجل الذي تبين كذبه، ولكن الاكابر والوجهاء شفعوا له لنسبه الشريف[8].

هناك حوادث اخرى جرت فى بغداد حيث إدعى بعض الناس بأنهم رأوا فى أحلامهم ما يدل على وجود قبور لأولاد الأئمة. وصدق الناس بها دون أن ينكشف وجه الحيلة فيها. فشيدت فوقها الاضرحة وبذلت فيها الاموال. ولعل بعضها لايزال معموراً الى يومنا هذا.

لست أقصد من هذا أن جميع الذين اكتشفوا قبور الأولياء عن طريق الاحلام كانوا كاذبين أو مشعوذين. فمن الممكن ان يكون بعضهم صادقاً فيما رأى فى احلامه. وقد يظهر الأنبياء أو الأئمة له فى النوم فعلاً ويخبرونه بوجود قبر مقدس فى مكان ما . ولكن ذلك لايصح أن يكون دليلاً على صحة وجود القبر من الناحية التاريخية.

إن الانسان قد يرى الانبياء والأئمة فى منامه كما يرى غيرهم فيه.وقد إتضح علمياً بأن الانسان كثيراً ما يحلم بالشئ الذي يفكر به أو يتمناه فى يقظته على وجه

من الوجوه. ولا يجوز إذاً ان يتخذ الحلم دليلاً على شيء حتى لو ظهر فى الحلم جميع الانبياء والقديسّين.

حدثّني احد الثقاة من النجفيين ان كثيراً من قبور الانبياء ومقامات الأئمة الموجودة الان فى جامع الكوفة وجامع السهلة هى من صنع الاحلام فى ارجح الظن. وقد ظهر قبل مئة سنة تقريباً قبر قرب مدينة الهندية قيل انه لحفيد جعفر الصادق اسمه صكبان . والغريب ان هذا الاسم اعجمي ومعناه حارس الكلب. ولست ادرى كيف يمكن لحفيد جعفر الصادق ان يسمى بمثل هذا الاسم الغريب. ومهما يكن الحال فقد صدق الناس به وانهالوا عليه بالتبرك وإهداء النذور. ومما يجدر ذكره ان سبب ظهور القبر حلم رآه قروي من ابناء تلك المنطقة حينذاك.

وسمعت قصة اخرى من هذا القبيل حدثت قرب النجف قبل اربعين سنة تقريباً. وخلاصتها ان فلاحاً من قرية القريشات الواقعة بين الكوفة والسهلة راى فى الحلم كأن ولياً اسمه السيد محمد مدفوناً بجوار بيته. ولم تمض ايام على شيوع خبر الحلم حتى اقبل الناس على القبر من انحاء بعيدة يتبركون به. واثرى الفلاح من جراء ذلك مما دعا غيره ان يحلم بقبر آخر لولّي اسمه السيد ابراهيم. ثم ظهر قبر ثالث ورابع حتى ازدحم المكان بالقبور المقدسة بشكل يدعو الى السخرية.

وفى الاونة الاخيرة قرات فى إحدى المجلات المصرية خبر قبر لولي جديد ظهر فى مدينة بني سويف حيث أصبح قبره مزاراً عجيباً يزدحم عليه الوافدون ويطلبون منه الحاجات، واتضح من التحقيق الذى قامت به المجلة ان صاحب القبر لم يكن سوى شاب مجنون كان يخاف من الموت خوفاً شديداً ويغمى عليه كلما راى جنازة مارة به. وعندما مات ظهر لأبيه فى المنام وطلب منه ان يبني فوق قبره ضريحاً، واخذ الناس يلمحون من بعيد انواراً تتلألأ فوق الضريح. ثم صار بعض المرضى يرونه فى احلامهم فيخيل اليهم انه شفاهم من امراضهم وقد يشفى بعضهم فعلاً بتاثير الايحاء النفسى.

وشاهد محرر المجلة شيخاً من رجال الدين عند الضريح فسأله عن أمره فاجاب: بانه عندما سمع بكرامات "الولي" الجديد لم يصدق بها اول الامر ولكن الولي ظهر له فى المنام وطلب منه ان يزور ضريحه... وهاهو ذا قد عاهد نفسه أن يزوره كل اسبوع(9) .

نتائج وأسباب:

أود أن الفت نظر القارىء هنا الى أن هؤلاء الناس الذين يصدقون بالاحلام ويتهافتون على القبور الوهمية من جرانها قد يجدون فيها شيئاً من المنفعة النفسية .فالكثيرون منهم فقراء متألمون لايجدون فى دنياهم علاجاً لأمراضهم او حلاً لمشكلاتهم المستعصية. وهم إذنً يلجأون الى الاوهام فيجدون فيها عزاءاً أو إيحاءاً نفسياً. وكثيراً ما ينفعهم هذا الايحاء والعزاء. ولكن ذلك قد يضُر بهم من الناحية الاخرى، حيث يؤدي بهم الى إتخاذ عقائد وعادات سخيفة تخدر عقولهم وتعرقل عليهم سبل الحياة.

إننا قد نجد عذراً لشيوع الاوهام فى العصور القديمة. ولكننا فى هذا العصر الذى نعيش فيه يجب ان لانتهاون فى أمر مكافحتها. وليس فى مقدور أمة تعيش فى القرن العشرين أن تظل متمسكة بأوهام القرون البائدة.

* * *

قلت فيما مضى أن المسلمين هم أكثر من غيرهم تمسكاً بأوهام الاحلام. وهذا لايعني أن الامم الاخرى خالية من هذه الاوهام نهائياً.الواقع أن الامم جميعاً قد مرت بمثل ما مرً به المسلمون قليلاً او كثيراً . ولكن المسلمين إمتازوا عن غيرهم بكونهم ادخلوا بعض الاحلام فى صلب شريعتهم وأيدوها بما أوتوا من كتاب أو سنة. فصارت لديهم بمثابة الوحي المنزّل.

قرأت فى كتاب الشيخ المفيد قولاً أراد به تفنيد رأي المعتزلة والزيدية فى إنكارهم لصحة الاحلام. ففي رأي الشيخ أن القرآن نفسه يؤيد صحة الاحلام(10) . اما أنا فاعتقد كما اعتقد المعتزلة والزيدية من قبل: أن القرآن أجلُ وأسمى من أن يغشً أتباعه أو يسلك بهم سبيل الاوهام.

* * *

إن الايمان بصحة الاحلام عادة قديمة ورثها الناس من الشعوب البدائية. فقد وجد الباحثون فى الشعوب البدائية، كما أشرت اليه فى الفصل الاول من هذا الكتاب، أن الانسان البدائي لايرى فرقاً كبيراً بين مايراه فى المنام او مايراه فى

اليقظة. فالاحلام فى نظره إنما تنشأ من جراء خروج الروح من البدن عند النوم، وهى عند ذاك تتجول فى الآفاق وتكتشف الحقائق القريبة والبعيدة.

والانسان البدائي لايستطيع ان يكذب الروح فيما تأتي به من اخبار اثناء النوم. فإذا رأى فى نومه مثلاً انه يمتلك شيئاً يعود لغيره جاز له ان يذهب فى الصباح الى صاحب ذلك الشيء يطالبه به. وصاحب الشيء لايمتنع عن إعطائه إياه.

والبدائيون لايستغربون من رجل يخاصم رجلاً آخر اويعاتبه على ذنب اقترفه معه فى أحلام النوم. والمذنب المزعوم لايجرأ أن ينكر ذنبه. فما دام قد رؤي فى الحلم وهو يقوم بعمل ما فلا بد من أن يعترف بذنبه وأن يتحمل مسؤوليته.

يحدثنا الاستاذ هادفيلد عن رجل من الهنود الحمر انه رأى فى منامه أحد المبشرين يسرق يقطيناً من مزرعته. فاستيقظ الرجل من نومه وهو غضبان وعزم على مطالبة المبشر بالتعويض، هذا مع العلم أن المبشر كان فى مكان يبعد عن مزرعة الرجل الهندى بمنتى ميل.والتفت الرجل الى مزرعته فرأى اليقطين موجوداً فيها لم يمسه احد. ولكنه اصر على طلب التعويض حيث اعتقد بأن رؤية المبشر فى الحلم سارقاً دليل قاطع على انه مستعد للسرقة لو كان قريباً من المزرعة. ولم يثن الرجل عن رايه اي دليل مقنع.

ويحدثنا هادفيلد ايضاً عن شابة حديثة العهد بالزواج أنها رأت فى منامها كأن زوجها يغازل امراة شقراء. فاستيقظت فزعة حانقة، واخذت تشاكس زوجها وتتهمه بالخيانة الزوجية. ولما قيل لهابأن زوجها بريء مما اتهمته به، اجابت: إذاكان زوجى يغازل الشقراوات فى أحلامي فماذا تراه يفعل فى احلامه؟ (11).

مما تجدر الاشارة اليه ان هذه الاوهام البدائية في الاحلام تشبه تلك التى انتشرت بين المسلمين من ناحية، وتختلف عنها من ناحية أخرى. فالبدائيون يصدقون بجميع الاحلام من غير تفريق، بينما المسلمون يصدقون الاحلام التى يظهر فيها الانبياء او الائمة فقط. وقد فات المسلمين أن الاحلام كلها سواء لافرق بين مايظهر فيها قديس او يظهر فيها شيطان،إذ انها ناشئة عما يخالج ذهن الانسان أثناء يقظته ثم يراه فى النوم على وجه من الوجوه.

يقول الشيخ المفيد: لسنا نثبت الاحكام الدينية من جهة المنامات وإنما نثبت من

تأويلها ماجاء الاثر به عن ورثة الانبياء عليهم السلام. وهذا القول من الشيخ يمكن ان نعتبره استدراكاً جميلاً ، ولكنه مع ذلك لايردع العوام عن إندفاعهم فى الاوهام والعقائد الباطلة الناتجة عن الاحلام.

إن العوام قد إعتادوا فى جميع العصور ان يأخذوا عقائدهم من محيطهم الذى نشأوا فيه. وكثيراً ما تكون عقائدهم باطلة ولكنهم يعتقدون بانها عقائد حقة يرضى عنها الانبياء والأئمة وان جميع الذين يخالفونها كفار مجرمون. وليس من المستبعد ان ينام احد هؤلاء العوام فيرى فى منامه نبيًا او إماماً يؤيده فى عقيدته الباطلة. وربما امره النبي فى النوم ان يشهر سيفه وينثال على الكفار ذبحاً وسبياً، والعياذ بالله! وحين يستيقظ هذا المؤمن من نومه قد لايجد غضاضة فى ان يشهر سيفه فعلاً ويضعه فى رقاب الناس. وهو إذ يفعل هذا لايشعر بواخز من ضميره.ولعله على العكس من ذلك يعتقد بانه مجاهد فى سبيل الله وان الله سيرزقه الجنة على ما سفك من دماء وسلب من اموال.

خلاصة القول :ان الايمان بالاحلام كثيراً مايؤدي الى الضرر من الناحية النفسية والاجتماعية. ولايفوتني ان انكر هنا باني التقيت ببعض الناضجين من رجال الدين اسالهم عن هذا الامر فرايتهم يذهبون فيه مذهب المعتزلة والزيدية القدامى ويقولون بان الاحلام كلها لاتصلح دليلاً على شيء.

إني اتمنى ان ينتشر هذا الراي الرصين بين جمهور المسلمين.وهذا هو مقصدى الاول من تاليف هذا الكتاب.

* * *

أقسام الكتاب:

اشرت فى أول المقدمة الى ان الكتاب مقسم الى ثلاثة اقسام. ومما يجدر ذكره ان القصد الاول من تاليف الكتاب ينحصر فى القسم الاول منه، إذ هو يبحث فى الاحلام من الناحية الاجتماعية. ولكني وجدت عند الفراغ من كتابة القسم الاول ان الموضوع سيبقى ناقصاً مالم يعقبه بحث فى النظريات والآراء التى ظهرت اخيراً حول الاحلام.

وهذه النظريات والآراء تتفرع الى فرعين. احدهما يدرس الاحلام فى ضوء علم

التحليل النفسي، والاخر يدرسها فى ضوء علم جديد يطلق عليه الان اسم "الباراسيكولوجى" . ولهذا فقد حاولت فى القسم الثانى من الكتاب تلخيص النظريات النفسية فى الاحلام، ثم حاولت فى القسم الثالث تلخيص النظريات البارانية .

وهنا اود ان اعترف باني لم اوفق توفيقاً كثيراً فى القسم الثاني من الكتاب. فقد كان تلخيصي للنظريات النفسية فيه جزئياً غير شامل، ولعله اقرب الى النقص منه الى الكمال. وسبب ذلك اني اهتممت فيه بالنظريات التى ظهرت فى بلاد الغرب كنظرية برجسون وفرويد وادلر وماالشبه، دون ان اعتني بالنظريات الاخرى التى ظهرت فى بلاد الشرق كالصين الشعبية والاتحاد السوفياتى.

وقد علمت اثناء سفرتى الاخيرة الى الصين وروسيا ان هناك نظريات نفسية فى هذا الشان لايستهان بها. ولكني مع الاسف لم استطع ان ادرسها دراسة وافية لقصر المدة التى بقيت فيها هناك من جهة، ولجهلي بلغة القوم من الجهة الاخرى. وعساني اتمكن من سد هذا النقص فى وقت قريب او بعيد، لاسيما بعد ان فتحت الثورة ابواب العالم شرقاً وغرباً وجعلتنا قادرين على دراسة جميع النظريات والآراء العلمية من غير حِجر او تحديد.

مهما يكن الحال، فإني اظن بان القسم الثاني على نقصه قد يكون ذا نفع للقارىء. ولعل القارىء سيجد فيه بعض ما ينوره فى موضوع الاحلام أو يغريه الاستزادة منه. وسيتضح له عندئذ مدى الخطأ الذى تورط فيه القدماء حين استمدوا من الاحلام جذور كثير من عقائدهم وعاداتهم البالية.

* * *

اما القسم الثالث من الكتاب وهو القسم الذى يبحث النظريات "البارانية" فسيجد القارىء فيه بعض المعلومات المثيرة عن الاحلام، وكيف انها تستطيع احياناً ان تخترق حجاب الزمان والمكان وان تستشف شيئاً من حوادث المستقبل.

ولابد لى من ان اقف هنا قليلاً لأجيب على بعض الاعتراضات التى قد تثار حول هذا الموضوع. فقد يقول قائل: كيف جاز لك ان تفنّد العقائد القائمة على الاحلام فى

القسم الاول من الكتاب ثم تاتي فى القسم الثالث منه لتؤيد ما يشاع عن الاحلام من خوارق عجيبة؟ أليس فى هذا تناقض؟

جوابى على هذا الاعتراض: أن ليس فى الامر تناقض! فالاحلام التى تستند على مألوفات الناس وعقائدهم الموروثة من شأنها أن تأتي بما يلائم تلك المألوفات والعقائد،وليس فيها إذن من الحقيقة الموضوعية نصيب. ولكن الاحلام على الرغم من ذلك قد تكشف أحياناً عما فى داخل النفس من قوى خارقة او ومضات مبدعة. وهذا أمر اقره البحث التجريبي الحديث الى درجة يصعب الشك فيها.

لايجوز لنا أن نندفع فى كراهة الاحلام "العقائدية" وفى الثورة عليها إلى أن نتطرف فى الجانب المضاد لها تطرفاً غير محمود. وقد أشرت فى القسم الثانى من الكتاب إلى أن "رد الفعل" دفع بعض الباحثين فى العصور الحديثة الى استنكار كل الاراء التى انتشرت فى العصور القديمة من غير استثناء. وهذا أمر يخالف طبيعة المنهج العلمى.

إننا يجب ان لا نتطرف فى موضوع الاحلام الى جانب الذين يصدقون بها أو إلى جانب الذين يكذبونها.ولابد لنا من أن نتخذ بين هؤلاء وأولئك طريقاً وسطاً لكي نكون فى دراستنا موضوعيين على قدر الامكان.

إن علم "الباراسيكولوجي" يتبع فى دراسة الاحلام هذا الطريق الوسط. فقد عمد الى وضع الاحلام على طاولة البحث التجريبي والاحصائي، ووصل بها الى نتائج موضوعية باردة ليس فيها من التطرف او التعصب شيئا[12].

* * *

فى عام 1945 ظهر فى مصر كتاب مسهب عن الاحلام لمؤلفه الدكتور توفيق الطويل. وهو كتاب قيّم لعله خير ما كتب فى اللغة العربية عن الاحلام. ولكن المؤلف حين يتطرق الى موضوع الخوارق المنسوبة الى الاحلام يتسرع فى الحكم عليها ويقول عنها بانها من الامور المنافية للعقل[13].

الظاهر ان الدكتور الطويل لم يدرس ماجاء فى علم "الباراسيكولوجي" اخيرا. ولعله لايدرى بوجود علم بهذا الاسم. هذا مع العلم انه قدم كتابه الى كلية الاداب فى

جامعة القاهرة لينال به شهادة الدكتوراة[14] . وكان الواجب عليه أن يبحث فى كتابه عن كل ماله صلة بموضوع الاحلام قليلاً او كثيراً.

أكاد أعتقد أن الذى حدا بالدكتور الطويل الى نفى الخوارق المنسوبة الى الاحلام هو تاثره بالنزعة المادية التى كانت تسود عقول العلماء فى القرن التاسع عشر. ويبدو ان كثيراً من المفكرين عندنا لايزالون متاثرين بهذه النزعة على منوال ماتأثر بها الدكتور الطويل غير دارين بالتحول العظيم الذى طرا فى القرن العشرين.

لست أريد بهذا ان افند النزعة "المادية" او أعلن خطاها. والواقع أن هذه النزعة هى الاساس الذى يقوم عليه العلم الحديث. ولكن الذى اريد قوله هو أن مفهوم "المادة" قد تغير فى القرن الحالى عما كان عليه فى القرن الماضى.

كان علماء القرن التاسع عشر يفهمون "المادة" كما يفهمها الاغريق القدماء، وهى هذه المادة المحسوسة التى نراها فى كل مكان. وكانوا يعتقدون أن الكون كله مؤلف منها ولا يحتوى على شيء سواها. وقد اصدر بوخنر فى منتصف القرن الماضى كتاباً أسماه "القوة والمادة" حاول فيه أن يفسر الكون كله، من ابسط الاشياء فيه الى اكثرها تعقيداً،بتفاعل المادة والحركة. وقد اصبح هذا الكتاب مرجع الماديين الاكبر فى ذلك القرن حيث اعتبروه إنجيلهم الذى لايتطرق اليه الشك. ومن هنا صاروا لايؤمنون بصحة اى ظاهرة طبيعية ليس لها سبب مادي على النمط الذى يفهمونه من طبيعة المادة.

ومنذ القرن العشرين شرع العلماء يكتشفون فى الكون سراً اذهلهم وقلب كثيراً من مفاهيمهم القديمة. لقد ادركوا بان الكون مؤلف من امواج كهرطيسية[16] . لا يحصى لأنواعها عددا.اما هذه المادة الظاهرة لنا فليست سوى نوع خاص من تلك الامواج قد تكونت على نمط معين.

ان العلم لم يكتشف من الامواج التى يزخر بها الكون سوى عدد قليل، ولكنه فى سبيل ان يكتشف منه اكثر فاكثر كلما تحسنت لديه الوسائل والآلآت. ومعنى هذا ان الفضاء الذى نعيش فيه مملوء بأمواج غير منظورة يعجز العد عن إحصائها وهى تتراطم على اجسامنا فى كل لحظة من غير ان نحس بها او ندرك مبلغ اثرها فينا.

وأرجو أن يعلم القاريء أن هذا المفهوم الجديد ليس خاصاً بعلماء الغرب أوعلماء الشرق. إنما هو مفهوم علمى عام يشترك فيه جميع علماء العالم بغض النظر عن إتجاههم الفكرى أو السياسى.

خلاصة القول:أن العلماء اليوم لايزالون ماديين فى تفكيرهم، ولكن المادة إنقلبت بين أيديهم من شكل الى آخر.فبعد ماكانت المادة مؤلفة من ذرات صغيرة جداً لايمكن تجزئتها، اصبحت مؤلفة من طاقة على شكل أمواج كهربائية مغناطيسية.

وهذا التحول أو التغير فى مفهوم المادة فتح للعلماء آفاقاً واسعة فى التفكير لم يكونوا يألفونها من قبل. ومن هنا اصبحت الامور التى لايمكن تصديقها فى الماضى قابلة للتصديق فى يومنا هذا. ومن هذه الامور تلك التى تتعلق بخوارق الاحلام وغيرها.

فالعلماء اليوم لايستغربون إذا سمعوا مثلاً بقصة إمرأة تحلم بموت ابنها وهى على بعد مئات الاميال منه، فتستيقظ فزعة باكية ثم تاتى الاخبار بعد ذلك تؤيد صحة ما حلمت به.لقد كانت هذه القصة غير قابلة للتصديق فى القرن التاسع عشر ولكنها الان قابلة للتصديق فى ضوء التفسير المادى الحديث.

لقد اثبتت الابحاث "المادية" الحديثة بأن المخ البشرى كأي شيء فى هذا الكون له أمواج كهرطيسيةخاصة به. ومن المعقول إذن أن يكون هناك تجاوب "موجي" بين الولد ومخ أمه على الرغم من بعد المسافة بينهما.والمسافة اليوم ليس لها من الاهمية مثلما كان لها بالامس، كما هو معروف.

أعود فاقول بأن الدكتور الطويل قد تسرع كثيراًحين اصدر حكمه على خوارق الاحلام فجعلها كلها منافية للعقل. إنه لم يسأل نفسه:اي عقل هذا الذى ينافي خوارق الاحلام، اهو عقل القرن التاسع عشر أم عقل القرن العشرين.

إن الدنيا قد تبدلت دون ان تبدل معها الأفهام.

* * *

كنت قد اصدرت فى عام 1952 كتاباً بعنوان "خوارق اللاشعور" ذكرت فيه بعض خوارق النفس البشرية من النوع الذى سيجده القاريء فى القسم الثالث من

هذا الكتاب. وقد ساءني أن أجد بعض المفكرين والادباء من بيننا يمطُون شفاههم سخرية به وإستخفافاً، ويعتبرونه كتاباً خرافياً غير معقول. وإني اخشى أن ينظر هؤلاء فى كتابي هذا على منوال مانظروا فى كتابى السابق.

مشكلة هؤلاء بوجه عام أنهم مغرورون بعقولهم يدورون بها كما توحي به اليهم مالوفاتهم القديمة دون أن يكلفوا انفسهم مشقة النظر فى ما ياتى به العلم من ابحاث تجريبية. فهم يحكمون على شيء بانه خرافي او معقول بعد ان يتاملوا فيه تاملاً تجريدياً. وفاتهم أن التامل العقلي المجرد لايلائم المنهج المادى الذى يقوم عليه العلم الحديث.

إنهم بعبارة اخرى لايرون فرقاً بين العلم والعقل، مع انهما قد يفترقان ويختلفان احياناً كثيرة. فالعقل إذا كان تجريدياً ياخذ مقاييسه من المالوفات التى نشأ عليها. ولهذا نجده يحكم اليوم على شيء بانه غير معقول ثم يكتشف اخيراً بانه معقول بعد أن يعتاد عليه. اما العلم فلا يحكم على شيء إلا بعد ان يجري عليه التجربة ويتثبت منه تثبتاً موضوعياً. وهو لايبالي عند ذلك بمالوفات الناس او اعتباراتهم العقلية.

يقول الاستاذ راين: "إن العلم لايعرف المستحيل"(18). وهذا قول يجدر بنا ان نضعه نصب أعيننا كلما أردنا البحث في ظواهر الكون المختلفة. وكم من امر اعتبرناه مستحيلاً من الناحية العقلية ثم ظهر لنا باننا كنا فيه مخطئين. ولو بعث اجدادنا من قبورهم ونظروا الى هذه المكتشفات والمخترعات الخارقة التى تزخر بها حياتنا الان لما صدقوا بها. ونحن انفسنا لم نصدق بها حين سمعنا بها اول الامر، ولكن اعتدنا عليها فصارت معقولة فى نظرنا، وصرنا نتبجح بكمال عقولنا..

عند زيارتي للصين الشعبية وجدت زعيم الصين وفيلسوفها الكبير ماوتسى تونغ يعانى من بعض المفكرين الصينيين مثلما نعانيه نحن من بعض مفكريينا وادبائنا. فقد عمد اولئك الى الجدل الطويل العريض اعتماداً على ما يوحي به اليهم تفكيرهم المجرد دون أن يقفوا قليلاً ليدرسوا الواقع الملموس ويتفهموا مايكمن فيه من أمر جديد.

ان العلم غير العقل. وليس معنى هذا اننا نبخس قيمة العقل البشرى. فالواقع

أن العقل البشرى سلاح بشرى جبار كان له دور هائل فيما وصلت اليه الحضارة من قمم شاهقة. ولكن الذى نود أن نلفت النظر اليه أن العقل سلاح ذو حدين. فهو لدى الباحث التجريبي وسيلة التطور ، انما هو لدى العاقل المغرور عقبة فى سبيل التطور.

كلمة أخيـرة:

بعد أن تحدثت عن أقسام الكتاب، كل قسم على حده، أود أن أتحدث عن الكتاب كله بوجه عام. إن الكتاب، كما ذكرت من قبل، كنت قد ألفته وطبعت الجزء الاكبر منه قبل قيام الثورة. ومعنى ذلك انه لايختلف من حيث اسلوبه وطبيعة أفكاره عن كتبي السابقة التى صدرت فى العهد البائد. ولابد لي من أن اعترف هنا فأقول بانه كتاب، إن كان يصلح لعهد مضى، فهو لايصلح للعهد الثورى الجديد. أقول هذا من باب الاعتراف بالواقع وان كان مرءاً. وهو اعتراف لابد من أن ابوح به لكى يكون القارىء على بصيرة من أمره حين يقرأ هذا الكتاب أو اي كتاب آخر من كتبي السابقة. هناك حقيقة لايجوز لى أن أتناساها هى أن ذوق القارىء العراقى قد تغير تغيراً كبيراً إثر قيام الثورة. فبعدما كان القارىء يتلذذ بما أكتب ويكتب أمثالي من مواضيع إجتماعية ونفسية لاتمس السياسة الا مساً خفيفاً،أصبح اليوم يريد من الكاتب ان يكتب فى صميم السياسة وأن يعلن رايه جهراً فيما هو حق أو باطل من المباديء التي يتنازع حولها الناس.

ويخيل لي أن القارىء سيقرأ كتابى هذا وعلى شفتيه ابتسامة اشفاق وإزدراء، ولعله سيقول: انظروا الى هذا الكاتب الذى يتحدث عن الاحلام فى الوقت الذى صعد البشر فيه الى القمر . نعم.إني لا انكر صحة مايقول هذا القارىء. ولوكنت مكانه لقلت مثل الذى قال. فالذى لاشك فيه أن ثورة 14تموز كانت ثورة جذرية كبرى هزّت عقول الناس وقلبت مفاهيمهم. واعتقد أن عهد الثورة يحتاج الى كتاب وادباء من نوع جديد يختلف عن ذلك النوع من الادباء والكتاب الذين اعتاد الناس عليهم فى عهد مضى.

ورب سائل يسألني: إذا كان الامر كما تقول فلماذا لاتغير اسلوبك ياأخي فتجعله ملائماً للعهد الجديد؟

والجواب على هذا القول بأن ليس من السهل على الكاتب بوجه عام أن يغيرّ أسلوبه بإرادته، فالاسلوب جزء من الشخصية وهو إذن لايتغير الا إذا تغير تركيب الشخصية كله، وهذا أمر عسير جداً لاسيما فيمن هو مثلي قد إجتاز طور الشباب ودخل طور الكهولة منذ زمن غير قصير. واتذكر أني قلت مثل هذا القول فى اجتماع لاتحاد الادباء ذات يوم، فلم يرض عنه بعض الشبان من الادباء الحاضرين.

يرى هؤلاء الشبان أن الكاتب قادر على تغيير أسلوبه كمايشاء ومتى أراد. ولعلهم يرون هذا الرأي لانهم لايزالون فى ميعة الشباب حيث لم تتحجر شخصيتهم كما تحجرت شخصيتنا نحن المخضرمين. وليسمحوا لي إذا قلت لهم بأن الكثير منهم لايملكون الاسلوب الكتابي الخاص بهم حتى يصح أن يقال بأنهم قادرون على تغييره. فقد خبرنا ما كتب البعض منهم فى عهدالثورة فلم نجدفيه الاسلوب الذى تتميز به شخصية الفرد منهم. وربما كان الكثير مما انتجوا متماثلاً فى عباراته وكأنه يصدر من معين واحد، إذ ليس فيه سوى الرنين والرتابة المملة. ولوكنت أريد أن اكتب كما يكتبون لجننت بالكثير منه. ولكن المشكلة أعمق من هذا فى نظري.

ويعجبني فى هذا الصدد ما قاله اديب كبير فى اجتماع اتحاد الادباء المذكور. فقد انحى هذا الاديب الكبير باللائمة على بعض ادباء العراق إذ هم فى رأيه قد ساروا وراء الجماهير ولم يسيروا امامها، وكان ذلك من اسباب ما تورطت به الجماهير من اخطاء مؤلمة عرقلت سبيل الحياة فى هذا البلد الامين.

* * *

وردتني رسائل عديدة من القراء يسألونني فيها عن سبب الصمت الذى لذت به فى هذه المرحلة الهامة من تاريخنا.إن اصحاب هذه الرسائل يريدون مني أن أستمر فى الكتابة كما كنت افعل من قبل، وهم يظنون أن الامر بيدي وأن قلمي مطواع استطيع أن اسيره كمااشاء اوتشاء لى الظروف الاجتماعية الجديدة.

الواقع اني حاولت فى بدء الثورة أن أكتب للصحف مقالات احلل فيها طبيعة الثورة. وبعد أن نشرت تلك المقالات شعرت أني كنت فاشلاً. فلقد كانت مقالات تافهة او باردة فى نظر الكثيرين، وجوبهت باللوم والعتاب من اجلها غير مرة.

ويعلم الله أني شعرت بالاسف الممُض حين وجدت نفسي عاجزاً عن مواكبة الثورة بقلمي كما كان المنتظر مني . ولكن الاسف لايجدي فى الامر شيئاً.

إن الذى يقرأ كتبي السابقة قد يستشعر منها أني مولع بالنبش عن عيوب المجتمع وما يسيطر على عقول أبنائه من عقائد وعادات ضارة. وربما صح القول بأني تخصصت فى هذا النوع من الكتابة الاجتماعية بحيث أصبحت غير قادر على الكتابة فى غيره الا قليلاً. وقد كان لي فى ما مضى مجال أن أكتب فيه وأن القى من القراء شيئاً من التشجيع عليه. أما الآن بعد أن فتحت الثورة باب النشر والكتابة على مصراعيها فقد حق لي ولامثالي ان نعتزل وأن نترك المجال لغيرنا من أرباب الادب الجديد.

ولهذا فاني ارجو من القراء أن يتحملوا عبء كتابى هذا وأن يصبروا عليه. فالواقع انى ما كنت راغباً فى إصداره لو لم يكن قد تم طبع الجزء الاكبر منه قبل قيام الثورة. وقد مرت بي فترة كنت فيها عازماً أن اترك إصداره نهائياً فأخسر المال والجهد اللذين بذلتهما فيه. ومهما يكن الحال فللقراء أن يعتبروا هذا الكتاب بمثابة فلم سينمائي غير موفق. وقد آثرت لذلك أن أجعل ثمن النسخة منه مقارباً لثمن بطاقة الدخول الى السينما .وما أكثر الافلام التى يشاهدها الناس ثم يخرجون منها نادمين.

* * *

لي كتب كنت قد أعددتها للطبع منذ سنوات. وقد أعلنت عنها ذات مرة اعلاناً ساخراً فقلت: "إنها ستصدر بعد موت المؤلف إن شاء الله". وكان سبب هذا الاعلان الساخر أني كنت لا أتوقع أن تحدث الثورة عندنا فى وقت قريب. والآن وقد حدثت الثورة بأسرع مما كنت أتوقع، فهل تراني قادراً على إخراج تلك الكتب العتيدة؟ كلا!

من هذه الكتب المعدةً للطبع كتاب بذلت فى تاليفه جهداً كبيراً وأسميته "أخلاق أهل العراق". إنه على اي حال كتاب يبحث في عيوب المجتمع العراقي وما فيه من قيم سيئة وتطرف قد لاتحمد عواقبه أحيانا. وكل من يدرس الاوضاع السياسية والاجتماعية التى مر بها الشعب العراقي فى عهوده البائدة لابد أن يستنتج منها

مثلما استنتجته. ولكني مع ذلك واثق باني لو اخرجت هذا الكتاب الان لقابله كثير من القراء بالنفور.ولا لوم على القراء فى هذا، فهم يطلبون من الكاتب فى هذه المرحلة الثورية ان يكتب للشعب فيما يشجعه ويمجّد افعاله، لا ان يثبطه ويحصي عليه عيوبه.

* * *

جاء فى احد الامثال القديمة: لكل زمان دولة ورجال. ويصح ان نقول جرياً على هذا المثل: لكل زمان كتاب وقراء. وعلى كل حال فالامر لله الواحد القهار!.

على الوردي

هوامش المقدمة

(1) انظر: مصطفى محمد عمارة، جواهر البخاري، ص 515 .
(2)انظر: محمد السماوي، ظرافة الاحلام، ص 5 .
(3)انظر: الدكتور حسين محفوظ، سيرة الشيخ أحمد الاحسائي، ص 17 .
(4)انظر: محمد السماوي، ظرافة الاحلام، ص 15 – 16 .
(5)انظر: المصدر السابق نفسه، ص 31 – 32 .
(6)انظر: جعفر الخليلي. أولاد الخليلي، ص 11 – 14 .
(7)انظر: مصطفى جواد، ونسيم سوسة، بغداد، ص 320 – 321 .
(8)انظر: المصدر السابق نفسه، ص 322 .
(9)انظر: آخر ساعةبعددها الصادر في 1959/2/11 .
(10)انظر: مقالات الشيخ المفيد، ص 92 – 93 .
(11)انظر: Hddfield, Dreams and Nightmares, p 3 - 4
(12)انظر: Rhine, New World of the mind
(13)انظر: توفيق الطويل، الاحلام، ص 20 .
(14)وقد منحته الكلية الشهادة فعلاً واصبح بحمد الله دكتورا يشار اليه بالبنان.
(15)انظر: Ross, Outline of the Modern Knowledge, p 36 - 37 .
(16)انظر: Electro - magnitic Waves
(17)انظر: Jeans, Mysterious Universe, p 93 - 94
(18)انظر: Rhine, Reach of Mind , p 50.

القسم الأول

الأحلام والعقيدة

الفصل الأول

آراء القدماء في الأحلام

الأحلام عند البدائيين:

يتميز الفرد البدائي بسذاجة تفكيره، فهو يرى الظواهر الغريبة محيطة به من كل جانب، يحاول تعليلها بما يلائم مفاهيمه البسيطة.

ومما أثار دهشة الفرد البدائي لغز الأحلام. ولعله يسأل نفسه أحياناً كيف يتأتى له ان يرى في منامه اموراً ليست موجودة بالقرب منه. وربما دفعه ذلك إلى الاعتقاد بأن الأحلام تنشأ عن تدخل الآلهة او الشياطين. ففي نظره أن الآلهة والشياطين وحدها تستطيع ان تفعل ذلك.

وصار البدائيون يعتقدون بأن الأحلام لها وظيفة كبرى للإنسان، إذ هي تكشف له عما تخفي عنه الأيام من مكنون الغيب[1].

ويقال ان الفرد في بعض القبائل البدائية لا يجد فرقاً بين افعاله الواقعية التي يقوم بها اثناء اليقظة وافعاله التي يحلم بها اثناء النوم، فإذا رأى في منامه شخصاً يهدده أو يعتدي عليه، ايقن ان الشخص يفعل ذلك حقاً، وهو قد لا يتردد في الذهاب إليه صباحاً ليعاتبه أو ينتقم منه. ومن المضحك أن نرى رجلين من البدائيين يتخاصمان خصاماً عنيفاً من جراء حلم رآه احدهما حيث كان الآخر يعتدي عليه. والناس حوله يعتبرون ذلك امراً طبيعياً لا داعي للعجب منه.

ويجيز العرف في بعض القبائل البدائية أن يتخذ الرجل إحدى الفتيات زوجة له إذا كان قد رآها في النوم وهي تحته[2]. فما دام قد اتصل بها في الحلم اتصالاً جنسياً جاز له بعدئذ أن يواصل ذلك الاتصال...

الأحلام والدين البدائي:

وقد ظهرت في علم الاجتماع نظريتان تعزو كل منهما إلى الأحلام أهمية كبيرة في نشوء الدين لدى البدائيين، هما نظرية سبنسر ونظرية تيلر.

يقول سبنسر أن البدائيين لا يفرقون بين الموت والنوم. ففي كليهما تخرج الروح من بدن صاحبها. ولكنها ترجع إليه بعد النوم، بينما تتركه نهائياً بعد الموت. وفي رأي سبنسر أن هذه العقيدة البدائية هي التي أدت إلى ظهور الأديان المختلفة. فإذا مات أحدهم أسرع أقرباؤه إلى القيام بالطقوس وتقديم القرابين إلى روحه بغية التضرع إليها وإلتماس العون منها. ومن هنا نشأت عبادة الأسلاف التي هي أولى العبادات بين البشر [3].

ويقول تيلر بأن فكرة الروح نشأت عند الانسان البدائي من ملاحظة نفسه عند النوم. فالرؤى العجيبة التي يراها في منامه تدفعه إلى تخيل وجود الروح في بدنه. وقد أدى به ذلك إلى الاعتقاد بأن كل شيء في هذه الدنيا له روح وبدن. والعالم بهذا الاعتبار مملوء بعدد لا نهاية له من الأرواح، وهي قادرة على نفع الانسان وعلى الاضرار به. وما الآلهة إلا نخبة ممتازة من هذه الأرواح سمت على غيرها وصارت موضع الخشية والعبادة[4].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هاتين النظريتين أصبحتا عتيقتين في نظر المجددين من علماء الاجتماع، حيث ظهرت مكانهما نظريات أخرى أحدث منهما في تعليل منشأ الدين. ولكنهما على أي حال تشيران إلى ما كان للأحلام من تأثير في تفكير البدائين.

الأحلام في المدنيات القديمة:

يبدو أن الشعوب المتمدنة القديمة لم تكن تختلف كثيراً عن الشعوب البدائية في أمر تقديس الأحلام وفي اعتبارها إلهاماً. يقال أن البابليين كان لهم إله خاص بالأحلام اسمه "ماخر". وكذلك كان للمصريين القدماء مثل هذا الإله اسمه

"بس"، وقد نقشت صورته على كثير من الوسائد التي يضع المصريون رؤوسهم عليها عند النوم[5].

ويحدثنا القرآن والتوراة عن الاهتمام البالغ الذي كان المصريون القدماء يولونه لتأويل الأحلام، وكيف استطاع يوسف الصديق ان يصل إلى مركز عال في الدولة بوساطة الحذق في تعبير الرؤيا.

وكان الأغريق القدماء يشبهون المصريين من هذه الناحية. ولعلهم اقتبسوا بعض عقائدهم في الأحلام عن المصريين عبر البحر. والمعروف عن حكام اسبارطة انهم كانوا يتعمدون النوم في معبد معين لكي يتلقوا اثناء نومهم فيه أنباء الغيب. وكان للأحلام اثر كبير في توجيه سياستهم في حكم البلد.

وفي اثينا كانت المحكمة العليا تأخذ بما تقرره الرؤيا من إدانة المتهمين او تبرائهم. والمأثور عن شيخ فلاسفتهم، افلاطون، انه كان يؤمن بصدق الرؤيا.

اما في روما فلم يكن الحال يختلف عما كان عليه في أثينا واسبارطة. والغريب أن مجلس الأعيان الروماني كان يستجيب لما تشير به رؤيا احد العامة[6].

أول مؤلف في الأحلام:

عندما انتشرت بين الأغريق القدماء عادة التأليف في العلوم المختلفة، ظهر من بينهم مؤلف اختص بدراسة الأحلام اسمه ارطميدورس. ونحن لا ندري على وجه اليقين: هل سبقه من هذه الناحية أحد غيره أم لا. وكل ما نعرفه أن ارطميدورس أول مؤلف في موضوع الأحلام في تاريخ العالم. وقد كتب فيه خمسة كتب ترجمت إلى اللغة العربية في العهد العباسي، وكان لها اثر لا يستهان به في التفكير الإسلامي.

ويعزو ارطميدورس الأحلام كلها إلى تدخل الآلهة. ولكنه يقسمها إلى نوعين. فمنها ما هو صريح سافر ينبىء عن الغيب مباشرة، ومنها ما هو رمزي أو مقنع. ووضع ارطميدورس في كتبه قواعد لتفسير هذا النوع الأخير من الأحلام. وحين نقرأ كتبه نجد شبهاً غريباً بينها وبين الكتب المنتشرة بين المسلمين في تأويل الأحلام.

ويعتقد ارطميدورس ان الرموز في الأحلام تستمد جذورها من شخصية الحالم

ومن مركزه وظروفه وعادات مجتمعه. ولهذا يجب على مفسر الأحلام أن يفهم هذه الأمور فهماً تاماً لكي يكون قادراً على معرفة ما ترمز إليه الأحلام من أنباء الغيب(7).

نظرية أرسطو في الأحلام:

امتاز ارسطو طاليس من بين المفكرين القدماء بانه درس الأحلام دراسة موضوعية وجردها من تدخل الآلهة. ويمكن اعتبار أرسطو أول زنديق نظامي من هذه الناحية. وهو يقول ان معظم الأحلام تنشأ من مؤثرات حسية. فكثيراً ما يخالج الانسان شيء من الألم واللذة أثناء يقظته ولكنه لا يهتم به لانشغاله بهموم الحياة. فإذا نام ظهر له ذلك في أحلامه واضحاً. ومعنى هذا ان الحلم يحوّل الاحساسات الخفيفة إلى احساسات مكبرة. فالنائم الذي يسمع صلصلة خفيفة في أذنيه يرى في حلمه كان برقاً أو رعداً وقع عليه. وإذا جرى في بلعومه قليل من البلغم، ظنه في الحلم شهداً ذا طعم لذيذ. وإذا اتصل بجسمه شيء من الحرارة، توهم في حلمه انه يقتحم النار او يصطلي بها.

وفطن ارسطو كذلك إلى اثر الميول والعواطف والأمزجة في تشكيل الأحلام. فالمحب يرى في منامه ما يلائم نزعات هواه، والخائف يتمثل سبب الخوف في حلمه، وكثيراً ما يرى الانسان في منامه أموراً كانت موضع تفكيره في يقظته(8).

وتتمثل عظمة ارسطو الفكرية عند تعرضه للرؤيا الصادقة، وهي الأحلام التي تتحق فعلاً بعد رؤيتها في المنام. ويقول ارسطو فيها أن تحققها الفعلي لا يدل على صحة تنبؤها بالغيب كما يقول افلاطون وغيره. إنما هو يرجع إلى عوامل أخرى لا صلة لها بالروح او تدخل الآلهة.

ويحدد أرسطو هذه العوامل بأربعة على المنوال التالي:

(1) عامل المصادفة: وهو الأمر الذي يحدث للإنسان في يقظته ومنامه أحياناً كثيرة. فالإنسان قد يتنبأ بحدوث شيء ثم يقع ذلك الشيء مصادفة واتفاقاً.

(2) عامل الإيحاء: ومعناه ان الإنسان قد يحلم بوقوع حادث، فيصبح الحلم بمثابة إيحاء يسيطر على عقله وقد يدفعه بعد ذلك إلى تحقيقه.

(3) الاحساس المضخم: فالإنسان قد يحلم أحياناً بمرض أو موت يقعان عليه. ومرد ذلك إلى احساسه باضطرابات عضوية دقيقة أثناء النوم. وهذا الاحساس يدل على وجود مرض خفي لا يشعر به الإنسان أثناء يقظته لانشغاله بأمور الحياة.

(4) الاهتمام الخاص: وذلك أن الانسان يهتم بأحوال اقربائه وأصدقائه أكثر مما يهتم بأحوال غيرهم. وهو قد يرى في نومه حادثاً يقع عليهم من جراء ما خبر من أحوالهم أثناء اليقظة، ثم يقع الحادث فعلاً.

نظرية الرواقيين:

تعد النظرية الرواقية في الأحلام معاكسة لتلك التي جاء بها ارسطو. وقد أبلى الرواقيون بلاءً حسناً في الدفاع عن الرؤيا الصادقة وفي اعتبارها وحياً إلهياً. فهم يقولون أن النفس البشرية تكون أثناء اليقظة فريسة للشهوات البدنية، وهي تتحرر من هذه الشهوات بالنوم وبذلك تقوى على التنبؤ واستشفاف الغيب.

كان ارسطو يعتمد على العقل في انكاره للرؤيا الصادقة. وجاء الرواقيون يقولون بأن العقل لا يصح أن يكون حكماً في مثل هذه الأمور، وإن الانسان لا يجوز له أن ينكر شيئاً لمجرد أن عقله عاجز عن فهمه أو تصوره.

والرواقيون يأتون لتأييد رايهم بمثل مشهور هو المغناطيس. فالذي يجهل سر المغناطيسية ينكر جذب المغناطيس للحديد وهو يراه بعينه(9). وعندما اعتاد الناس على رؤية الجاذبية المغناطيسية اعتبروها أمراً معقولاً مع انها في حقيقة أمرها بعيدة عن أي تعليل منطقي معقول.

تلخيص وتفريق:

هذه هي خلاصة الآراء التي قيلت في الأحلام قبل ظهور الاسلام. ونستطيع أن نصنفها إلى الأصناف التالية.

(1) الآراء العامة، وهي التي كانت تعزو الأحلام إلى تدخل الآلهة والشياطين، وكانت غالبة على عقول معظم المفكرين.

(2) الآراء الارسطوطاليسية، وهي التي تعلل الأحلام تعليلاً عقلياً لا أثر للقوى الغيبية فيه.

(3) الآراء الرواقية، وهي آراء نقدية صوفية، تنتقص شأن العقل وتحاول التطلع إلى ما وراءه.

وسوف يرى القارىء في الفصل التالي كيف انقسمت آراء المسلمين في الأحلام إلى هاتيك الأصناف الثلاثة ذاتها. ولكن الذي يلفت النظر أن النزعة التي سيطرت على عقول المسلمين في عهودهم المتأخرة هي النزعة النقدية. ونعني بها تلك النزعة التي تنتقص شأن العقل وتعترف بقصوره عن فهم الحقيقة المطلقة.

ويبدو أن للمتصوفة ضلعاً كبيراً في شيوع هذه النزعة بين المسلمين ـ كما سيأتي بيانه.

هوامش الفصل الأول

(1) أنظر: Freud Bascic wirtings. P 184.
(2) انظر : أبو مدين الشافعي، الوهم . ص 34 .
(3)انظر: روجيه باستيد، علم الاجتماع الديني، ص 218 - 219 .
(4) انظر : المصدر السابق، ص 220 - 221 .
(5) انظر : توفيق الطويل، الأحلام، ص 112 .
(6) انظر : المصدر السابق، ص 114 - 115 .
(7) انظر : Freud Interpretation Dreams, P. 82.
(8) انظر : توفيق الطويل، الأحلام، ص 69 .
(9) انظر : توفيق الطويل، التنبؤ بالغيب، ص 169 .

الفصل الثاني

آراء المسلمين في الأحلام

الاهتمام الشديد بالأحلام:

نستطيع أن نقول بأن الأمة الاسلامية هي من أكثر الأمم القديمة اهتماماً بالأحلام وتقديساً لها. لا يستثنى منهم في ذلك سوى المعتزلة وقليل من علماء الكلام الذين تأثروا بهم على وجه من الوجوه.

ومما يلفت النظر أن فلاسفة المسلمين الذين تابعوا ارسطو في كثير من آرائه خالفوه في موضوع الأحلام فلم يأخذوا برأيه فيها. وفي نظرهم أن النفس تتصل اثناء النوم بالعقل الفعال الذي هو عقل الأفلاك فتستشف الغيب عن طريقه.

والظاهر ان هؤلاء الفلاسفة خشوا من غضب العامة فجاروهم في ما يعتقدون به من قدسية الأحلام.

الأحلام والحديث النبوي:

تروى عن النبي محمد أحاديث عديدة في الأحلام. وكلها تشير إلى أن الرؤيا الصادقة وحي من الله. وأشهر هذه الأحاديث اثنان. أحدهما يقول بأن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[1]. وجاء في الحديث الآخر: أن الصحابة شق عليهم أن يبرهم النبي بانقطاع النبوة بعده، فطمأنهم النبي قائلاً: "بقيت من

بعدي المبشرات" . ولما سئل النبي عن المبشرات هذه ما هي، قال: "هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح او ترى له"[2].

ونحن لا نعلم على وجه اليقين مدى صحة هذه الأحاديث المروية عن النبي. فمن الممكن ان تكون مكذوبة عليه. وقد اكثر نقلة الحديث من الكذب على رسول الله كما هو معروف. ومهما يكن الحال فقد شاعت تلك الأحاديث بين المسلمين، واصبحت عند كثير منهم مقدسة لا يجوز الشك فيها. وذهب بعضهم من جراء ذلك إلى الاعتقاد بأن الذي يكفر بالرؤيا يكفر بالنبوة، إذ ان الرؤيا والنبوة ينبعان في نظرهم من منبع واحد.

القرآن والأحلام:

جاء في القرآن بعض آيات حول الأحلام، خصوصاً ما جرى للنبي إبراهيم حين أوحى الله إليه في المنام ان يذبح ابنه، وما جرى للنبي يوسف حين اشتهر في مصر بحذقه العجيب في تعبير الرؤيا. واتخذ بعض المفسرين هذه الآيات دليلاً قوياً على صدق الرؤيا.

وقد وصف القرآن المؤمنين بأن "لهم البشرى في الحياة الدنيا والآخرة"[3]. ففسر الفخر الرازي هذه البشرى بأنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له. وسرى هذا التفسير بين المسلمين حتى استقر في أذهانهم بأن القرآن يقرر بأن الرؤيا وحي من الله[4].

رأي المعتزلة:

ألمحنا آنفاً إلى أن المعتزلة شذوا عن بقية المسلمين في أمر تقديس الأحلام. ولقد شذوا عنهم في أمور عديدة أخرى. وهم بوجه عام يثقون بالمنطق والعقل الواعي ثقة كبيرة، ويعتقدون بأن الله لا يخرج في أوامره ونواهيه عن جادة العقل السليم. فما يأمر به العقل يأمر به الله حتماً.

وقد دفعهم ذلك إلى الاستهزاء بالأحاديث النبوية التي تنافي العقل في نظرهم. وفسروا القرآن كما يشتهون. وكانوا لا يبالون بالعامة. ويحتقرونهم، وهم لا يترددون عن اعلان أي رأي ترتضيه عقولهم مهما يكن مخالفاً لعقائد العامة ومن إليهم من الفقهاء والواعظين.

ورأيهم في الأحلام أنها أضغاث وأوهام. ودليلهم في ذلك أن الإدراك الصحيح لا يتأتى للإنسان إلا في اليقظة حين يكون العقل في عنفوانه. وهم يقولون بأن الإدراك والنوم ضدان لا يجتمعان[5]. وليس من الممكن في نظرهم أن يدرك العقل حقائق الكون أثناء نومه. وعلى قدر الانتباه يكون الإدراك.

رأي المتصوفة:

وكان رأي المتصوفة على العكس من رأي المعتزلة تماماً. فهم يعدون العقل منبع الأوهام والأباطيل. وهم قد يفضلون الجنون عليه أحياناً. ومن هنا نشأ تقديس المجانين لدى العوام في بعض الأقطار الإسلامية. وافتخر ابن عربي أنه أصيب بالجنون غير مرة[6].

ويرى بعض المتصوفة أن النوم يقظة واليقظة نوم. فالنفس البشرية مشغولة أثناء اليقظة بصور المحسوسات وهموم البدن. وهي عندئذ نائمة لا تفهم سوى ما يأتي به الحس من أوهام وأباطيل. أما في النوم فينجلي عن بصرها الغشاء وتحلق في سماء المعرفة طليقة لا يشغلها شاغل.

ويعتقد الغزالي أن ما يبصره الانسان أثناء نومه أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس. وقد أخطأ الناس حين ظنوا بأن المعرفة تقع إبان اليقظة، إذ هم ينسون أن العقل مشغول عند ذلك بهموم حياته الدنيوية فلا يستطيع أن يفهم من أمور الحق شيئاً[7].

ويعد الغزالي الرؤيا طوراً ضعيفاً من أطوار النبوة[8]. ومعنى هذا أن الناس جميعاً أنبياء على درجة متفاوتة. وكلما صفت النفس وتخلصت من أدرانها الدنيوية انكشف بين يديها عالم الغيب وارتفعت في سلم النبوة والوحي.

خلاصة القول:

وخلاصة القول عند جمهور المسلمين أن الرؤيا الصادقة تنبع من نفس المعين الذي تستقي منه النبوة والولاية[9]. ومعنى هذا أن الوحي الإلهي ينزل على الإنسان بدرجات ثلاث:

(1) فالدرجة الأولى منه، وهي الدرجة القوية جداً التي ينكشف الغيب فيها بكل وضوح، خاصة بالأنبياء. وبها يمتازون عن غيرهم من الناس.

(2) اما الدرجة الثانية منه فهي التي يختص بها الأولياء من ارباب الزهد والكرامة وهؤلاء في درجة قربهم من الله دون مرتبة الأنبياء وفوق مرتبة العاديين من الناس.

(3) والدرجة الضعيفة من الوحي تتاتى للمسلم عن طريق الرؤيا. وهي من جانبها تتفاوت قوة وضعفاً بمقدار ما يتصف به المسلم من إيمان وتقوى. وكلما كان المسلم اكثر صلاحاً وعبادة كانت رؤياه اصدق.

وذهب البعض من المسلمين إلى القول بان النبي نفسه تلقى الوحي في اول امره عن طريق الرؤيا الصادقة، ثم تدرج بعد ذلك في مراتب النبوة. وقد روت السيدة عائشة عن زوجها محمد انه كان في بادىء امره يرى الرؤيا فتاتى مثل فلق الصبح. وقد حبّبت إليه الرؤيا الاعتكاف في غار حراء والتحنث فيه ولبث كذلك حتى فاجاه الوحي اثناء نومه[10]. وكان ذلك إيذاناً بدعوته الكبرى التي هزت العالم وغيرت مجرى التاريخ.

رأي ابن عربي:

ولمحي الدين ابن عربي، المتوصف المعروف، رأى في هذا الشان بالغ الخطورة. فهو يقول ان الوحي لا يهبط على الأنبياء من خارج انفسهم، إذ ان النبي لا يحتاج إلى وسيط يتلقى الوحي به عن الله. فالله موجود في داخل النفس كما هو موجود في كل مكان. وهو اقرب إلى الإنسان من حبل وريده كما يقول القرآن. وهو يوحي إلى عبده المخلص من غير وساطة لاسيما حين تتعطل حواسه اثناء النوم. وياتي ابن عربي بمثل على ذلك من حياة النبي إبراهيم، إذ راى في المنام انه يذبح أبنه، وقد اطاع امر ربه كما جاءه في المنام لولا ان فدى الله ابنه بكبش عظيم[1].

ولست ادري كيف استطاع ابن عربي ان يبوح برايه هذا امام العامة. مع العلم اننا نخشى ان نقول به ونحن في القرن العشرين. وما يجدر ذكره ان ابن عربي كان من المؤمنين بوحدة الوجود. وهذا راي لا تستسيغه عقول العامة. فهم قد اعتادوا ان يتخيلوا ربهم جالساً على عرش فخم في اعلى السموات كما تجلس السلاطين. وهم

يتوسلون إليه بالتوجه نحو السماء ورفع أيديهم إليها. ولهذا فهم يعتقدون بأن الله يوحي إلى نبيه بإرسال أحد الملائكة إليه. وهم يخصصون جبرائيل لهذه المهمة، كما هو الحال لدى السلاطين حين يرسلون إلى ولاتهم السعاة وحملة البريد.

ويبدو أن ابن عربي وغيره من القائلين بوحدة الوجود لا يميلون إلى هذا الرأي. وهم يرون أن الوحي ينبع من باطن النفس. أما ما جاء في الحديث من ذكر جبرائيل فهو من باب "حدث الناس على قدر عقولهم" . وقد أمر الله الأنبياء أن يحدثوا الناس على قدر عقولهم في كل حين. فتأمل!

مقتل ابن عربي:

ومما له صلة بهذا الموضوع أن أهل الشام قتلوا ابن عربي حين قال لهم بأن ربهم تحت قدميه. فقد اعتبروه كافراً من جراء هذا القول. وكيف يمكن أن يكون ربهم في التراب تدوسه الأقدام، مع العلم انه جالس على عرشه تحف به الملائكة من كل جانب.

ويحكى أن أهل الشام وجدوا تحت قدمي ابن عربي بعد قتله كنزاً من الذهب مدفوناً. فظنوا انه كان يعني بالرب الذهب. والذهب معبود الجميع كما لا يخفى. فندموا على قتله وشيدوا على قبره قبة ضخمة تناطح السحاب. إنهم لا يزالون يعتقدون بأن الله لا يمكن أن يكون في التراب، ناسين أو متناسين أن الله موجود في كل مكان، إذ لا فرق في ذلك بين مكان وآخر. فالمفروض في الله أن يكون أسمى من أي اعتبار اجتماعي اعتاد عليه الناس. ومشكلة العامة انهم يستمدون جذور عقائدهم من مألوفاتهم الاجتماعية. والويل كل الويل لمن يخالفهم فيما يتخيلون ويعتقدون.

هوامش الفصل الثاني:

(1) انظر ابن خلدون ، المقدمة ، ص 103
(2) انظر الغزالي،احياء العلوم ، ج 4 ، ص 429 - 430 .
(3) انظر : القرآن ، سورة يونس ، آية 64 .
(4) انظر : توفيق الطويل ، التنبؤ بالغيب ، ص 79 .
(5) انظر: المصدر السابق ، ص 80 - 81
(6) انظر : Mangoliouth, Mohammedanism, p 176.
(7) انظر : الغزالي ، كيمياء السعادة ، ص 14 .
(8) انظر : الغزالي،احياء العلوم ، ج 4 ، ص 428 .
(9) انظر : توفيق الطويل،الأحلام ، ص 90 .
(10) انظر: محمد حسين هيكل، حياة محمد ، ص 95 .
(11) انظر: ابن عربي، نصوص الحكم . ص 136 - 137 .

الفصل الثالث

أثر الأحلام في المجتمع الإسلامي

علم التعبير:

المأثور عن النبي محمد انه صنف الأحلام إلى ثلاثة أقسام حيث قال: "الرؤيا ثلاث، رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا ما يحدث المرء به نفسه فيراه في المنام" . والظاهر ان المسلمين في عهودهم المتأخرة لم يعبأوا بهذا التصنيف. فقد رأيناهم يعتبرون الأحلام كلها وحياً من الله، حيث اهملوا بهذا الاعتبار حديث النفس وحديث الشيطان. وصاروا يجدون في كل حلم إشارة إلى ما يضمر لهم الغد من مكنون الغيب.

وقد نشأ بين المسلمين من جراء ذلك مهنة خاصة تعبير الرؤيا، وهي مهنة تمنح صاحبها مكانة اجتماعية مرموقة ومكسباً وفيراً.

وقد اصبح تعبير الرؤيا عند المسلمين علماً قائماً بذاته ومعترفاً به. وقد خصص ابن خلدون لهذا العلم فصلاً في مقدمته. وهو يختتم الفصل قائلاً عن علم التعبير: "وهو علم مضيء بنور النبوة للمناسبة التي بينهما كما وقع في الصحيح والله اعلم" [1].

ابن سيرين:

واعظم من اشتهر بتعبير الرؤيا من المسلمين هو محمد بن سيرين، الفقيه

المعروف. ويمكن تلقيبه بأرطميدورس العرب. وقد نسبت إلى ابن سيرين كتب عديدة في علم التعبير. والمظنون أنها ليست له، كلها أو بعضها. فقد مات ابن سيرين عام 108 للهجرة. ومعنى ذلك أنه عاش في عصر لم يبدأ الناس فيه بتدوين الكتب على النطاق الواسع الذي رأيناه فيما بعد. وربما كانت الكتب المنسوبة إلى ابن سيرين قد ألفت بعد موته ثم وضع اسمه عليها بغية رواجها بين الناس. وليس هذا بالأمر المستغرب بعد أن أصبح اسم هذا الرجل اسطورة ذات صيت عريض، وأخذ الناس يعزون إليه الخوارق على منوال ما فعلوا بيوسف الصديق عليه السلام.

وأمامي على المكتب أثناء كتابة هذه السطور كتاب منسوب إلى ابن سيررين اسمه "كتاب تفسير المنامات الكبير" . وهو مطبوع طبعة رخيصة، وقد طبع في آخره كتاب المندل. فكلاهما يستقيان من منبع واحد في نظرهم. ولمثل هذه الكتاب رواج كبير بين العامة كما لا يخفى.

ترجمة أرطميدورس:

وبعد موت ابن سيرين بمئة عام تقريباً ترجم حنين ابن اسحاق إلى اللغة العربية كتب أرطميدورس في الأحلام. فراجت بين المسلمين رواجاً لا يستهان به.

وقد مر على المسلمين زمان كانوا يعتقدون فيه أن الفكر اليوناني القديم هو خير ما انتجه العقل البشري. ولعلهم فرحوا حين وجدوا في كتب أرطميدورس ما يلائم المنقول من الحديث الشريف. فالمعقول والمنقول قد اتفقا إذن، وهذا اقصى ما يستطيع المسلم أن يحصل عليه من الأفكار.

ومما يلفت النظر أن هناك تشابهاً كبيراً بين كتب أرطميدورس والكتب المنسوبة إلى ابن سيرين. ويعزو الدكتور توفيق الطويل هذا التشابه إلى تقارب التفكير بين الشعوب المختلفة في امر الأحلام(2) .

ولست أؤيد الدكتور الطويل في هذا الرأي. والذي أراه أن المسلمين قد تأثروا بأفكار أرطميدورس وبمنهجه. فحذوا حذوه في تأليف كتبهم. ولم ينسوا مع ذلك أن يضعوا اسم ابن سيرين عليها.

وربما كان كلا الرأيين صحيحاً!

الأحلام والسلوك اليومي:

وصل الحال ببعض الناس أنهم صاروا لا يرون في منامهم شيئاً حتى يسرعوا في الصباح إلى مفسر الأحلام لكي يطلعهم على ما يخبىء لهم القدر فيه. وقد يتقاعس أحدهم عن سفر مهم، أو يرفض زواجاً سميناً، او يلغي صفقة تجارية، إذا رأى في المنام إشارة الخطر حسبما يقول له المفسر.

وكان بعض المفسرين بارعين في استخراج الإشارة من كل رؤيا يراها احد الحالمين. فينصحونه بما يجب عليه ان يفعله لينجو من شر محيق به أو ليحصل على خير منتظر.

وحين لا يجد الناس مفسراً حاذقاً لأحلامهم يلجأون إلى كتب الأحلام المتوافرة في الأسواق. وهم يفضلون ان يكون اسم ابن سيرين عليها طبعاً.

وهذه الكتب تحتوي عادة على أبواب متنوعة. فباب في رؤية الله تعالى، وباب في رؤية الملائكة والأنبياء، وباب في رؤية الشمس والقمر والنجوم، وباب في رؤية الأمطار والرعد والبرق، وباب في رؤية الأشجار والثمار والحبوب، وباب في رؤية النكاح وفروج النساء، وباب في رؤية الأباعر والحمير والباغل، وباب في رؤية أعضاء الأنسان وارواث البهائم... إلى آخره.

فإذا رأى المرء في منامه أحد هذه الأشياء أو غيرها، فتح الكتاب وبحث عن الباب الخاص بذلك الشيء. وسوف يجد فيها مرامه إن شاء الله.

أهمية المفسر:

والناس يفضلون المفسر على الكتاب. فالكتاب يعطي الأمور مجملة. اما المفسر فهو قادر على تأويل كل حلم بما يقتضيه المقام، وهو يراعي في كل شخص ظروفه وأخلاقه.

يحكى أن رجلاً جاء إلى ابن سيرين يخبره عن حلم رآه حيث كان فيه يؤذن. فقال له ابن سيرين: "تقطع يدك" . وجاء إليه آخر يخبره عن حلم يماثل حلم

الأول تماماً، فقال له ابن سيرين: "تحج" . وقد دهش الحاضرون لهذا التناقض بين التفسيرين مع ان الحلم واحد.

وسألوا ابن سيرين عنه، فاجابهم بما معناه: ان الأول رجل تبدو عليه سيماء الشر، والأذان الذي قام به في النوم يدل على انه سارق، وسوف تقطع يده. وذلك بدليل قوله تعالى: "واذن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون" . اما الرجل الثاني فتبدو عليه سيماء الخير، واذانه يدل على انه سوف يحج الى بيت الله الحرام بدليل قوله تعالى: "واذن في الناس بالحج" .

فكان الأمر كما عبر عنه الإمام ابن سيرين في الحالين[3] . ولله في خلقه شؤون.

حكايات ذات مغزى اجتماعي:

يحكى ان رجلاً كان يحب زوجته حباً جماً، وكان غائباً عنها في سفر. فراى في حلمه كان زوجته نائمة، وكبشان يتناطحان فوق فرجها، فادمى احدهما الآخر. وقد دفعه هذا الحلم الى هجران زوجته بالرغم من حبه لها. ولكنه لم يستطع على ذلك صبرا. فذهب الى ابن سيرين يقص عليه قصته. فقال له ابن سيرين: "لا تهجر زوجتك لأنها امراة حرة طاهرة وإنها لما سمعت بقدومك ارادت ان تنتف المكان، فما استطاعت ان تنتفه بغير ما يعالج به. وخافت سرعة قدومك عليها فعالجت ذلك الشعر بالمقراض. وقد اثر فيه المقراض اثراً ظاهراً. فإن اردت بيان ذلك فامض إليها الساعة، وانظر فإنك تجد ما ذكرته لك صحيحاً" . وذهب الرجل فراى صحة ما قاله له الإمام ابن سيرين بالتمام والكمال[4] .

ويحكى ايضاً ان رجلاً راى في منامه كانه يكسر بيضاً فيأخذ البياض منه ويدع الصفار. فجاء الى الإمام ابن سيرين يخبره بحلمه. فطلب منه ابن سيرين ان يحلف بالله على انه راى ذلك في منامه حقاً. فحلف الرجل. عند هذا امر ابن سيرين الذين كانوا حوله ان ياخذوا الرجل الى السلطان. فهو رجل ينبش القبور ويسرق اكفان الموتى. فقال الرجل: "يا سيدي انا اتوب لله على يديك ولا اعود ابداً"[5] .

وتروى قصة اخرى لها شبه بهاتين القصتين. فقد جاء رجل الى الإمام جعفر

الصادق يقص له رؤيا رآها في نومه، وملخصها انه وجد نفسه يأكل الطعام في قدح وكان في القدح نمل. فسأله الإمام عما إذا كان له زوجة وله غلام يخدم في بيته. فاجاب الرجل: نعم. فنصحه الإمام بان يطرد الغلام من بيته لأنه لا خير فيه. وعمل الرجل بنصيحة الإمام فباع الغلام. ولما علمت زوجته بذلك هربت من البيت. ثم رؤيت اخيراً في مدينة حران مع الغلام حيث اشترته من مالكه الجديد وتزوجت به(6).

والحكايات من هذا النوع عديدة يصعب احصاؤها، إنما أتينا على نماذج منها. وهي قد لا تكون صحيحة في حد ذاتها. ولكنها تدل على مبلغ تأثر الناس بأحلامهم وبما يفسرها لهم المفسرون.

آداب الرؤيا عند رجال الشرع:

ذهب بعض علماء الشرع إلى القول بان من المستحسن للمؤمن أن يستعد لاستقبال الوحي عند نومه. ومن آداب هذا الاستعداد أن يقلم المؤمن اظافره وأن يغتسل من الجنابة ويتوضأ.. وسبب ذلك ان الروح حين تفارق بدنها أثناء النوم لا يؤذن لها بالطواف حول العرش او بالسجود بين يدي الله إذا لم تكن مهيأة له.

وكلما احسن المؤمن الاستعداد للنوم كانت رؤياه اصدق. والنافع له أن ينام على نقاء قلب وصفاء سريرة، وان لا يكون جائعاً او متخوماً. وعليه ان لا يأكل البصل ونحوه من الأطعمة الخبيثة قبل النوم، إذ هي تجلب له الأحلام الباطلة. وخير النوم هو ما كان على الظهر. اما النوم على البطن فيؤدي إلى اضغاث الأحلام. ولا بأس ان ينام المرء على جنبه الأيمن لأن النبي كان يحب التيامن في كل شيء.

وإذا رأى المرء في منامه ما يضره، فعليه أن يقول: "استغفر الله من شر رؤياي هذه ان تضرني في دنياي وآخرتي" . ثم يبصق نحو اليسار ثلاث مرات(7).

رأي غريب:

وساد بين رجال الشرع رأي غريب نسبوه إلى الحديث النبوي. وهو أن الرؤيا لا تقع إلا إذا حدّث المرء بها غيره. ولهذا وجب على من يرى حلماً ضاراً ان يكتمه في نفسه لكي يتجنب شره. فهو لا يكاد يقص الحلم إلى احد حتى يتحقق حسبما قصه.

وتطرف بعضهم في هذه الناحية بحيث جردوا الرؤيا من اية اهمية خاصة بها. وجعلوا الأهمية في التحدث بها وهو ما اسموه بآداب قص الرؤيا. ومعنى هذا ان الرؤيا تقع على نمط ما يتحدث المرء بها صدقاً او كذباً. ولهذا وجب على المرء ان يكون حذراً كل الحذر في قص رؤياه، فلا يكذب فيها قيد شعرة.

فإذا كذب المرء في قص رؤياه فذكر اموراً لم يرها في منامه، وقع له من الحوادث على منوال ما كذب فيها. ولا ينفعه بعد ذلك ان يعترف بكذبه. ومثل هذا ما حدث للسجين الذي اراد ان يسخر من يوسف الصديق، فقص عليه رؤيا لم يرها، وهي انه كان في منامه يحمل فوق راسه خبزاً تاكل الطير منه. ففسر يوسف حلمه المكذوب بانه سوف يصلب وتاكل الطير من راسه. وقد صلب المسكين فعلاً بعد ثلاثة ايام، بالرغم من اعترافه بكذب رؤياه(8). ولعله ذهب إلى جهنم بعد ذلك من جراء كذبه.

حيلة بارعة:

يحدثنا التاريخ عن رجل في ايام المهدي العباسي، انه شذ عن عامة الناس في رايه عن الأحلام. فهو يرى ان الأحلام تتاثر بما يفكر المرء به قبيل نومه، ولا صلة لها بالوحي. وقد استغل هذا الراي في سبيل خداع المهدي والحصول على منصب عال في الدولة.

وخلاصة القصة ان الرجل جاء إلى المهدي فتنبا له بان خلافته ستدوم ثلاثين عاماً. وقد عجب المهدي من هذا التنبؤ، ولعله فرح به في اعماق نفسه. وطلب من الرجل الدليل على صحة ما قال. وكان الرجل قد اعد للأمر عدته فقال للمهدي انه سيرى في منامه كانه يقلب في يديه عدداً من الياقوت، وهو يعدها فيجدها ثلاثين ياقوته. وعدد اليواقيت يشير إلى عدد السنين التي سيتولى بها الخليفة إمارة المؤمنين إن شاء الله.

في الليلة التالية راى المهدي في منامه كل ما انباه به الرجل. فاستدعاه في الصباح واجزل له العطاء وولاه منصب القضاء(9). وقد سئل الرجل بعد ذلك عن الطريقة التي استطاع بها حبك هذه الحيلة البارعة، فقال: انه حين انبا المهدي بخبر اليواقيت

جعله يحدث نفسه بها قبل النوم. ولما نام المهدي رأى في الحلم ما كان يحدث نفسه به طبعاً.

تحليل ابن خلدون:

وجاء ابن خلدون برأي في الأحلام يشبه رأي ذلك الرجل الماكر. ومن المحتمل أنه اطلع على قصة الرجل في بعض كتب التاريخ فاستلهم منها تحليله الرائع في الأحلام.

يقول ابن خلدون: إن الإنسان إذا أعد نفسه قبيل النوم إعداداً نفسياً في سبيل فكرة معينة، فإنه سيرى تلك الفكرة في منامه ويستفيد منها. والظاهر أن ابن خلدون لا يبالي بما يقول به رجال الشرع في آداب الرؤيا، من حيث تقليم الأظافر والوضوء والصلاة. ففي نظره أن كل طريقة تؤدي إلى الاستعداد النفسي هي وافية بالغرض، ولا فرق في ذلك بين الصلاة أو قراءة الطلاسم.

فهو يعتقد أن النفس البشرية إذا تشوقت إلى شيء قبيل نومها، وقع لها في المنام ما كانت متشوقة إليه. ويذكر ابن خلدون في هذا الصدد طريقة قال عنها أنه وجدها في كتب أهل الرياضيات. وقد استعملها بنفسه فوقعت له رؤى عجيبة واطلع بها على أمور كان يتشوق إليها من أحواله الخاصة.

ويطلق ابن خلدون على تلك الطريقة اسم "الحالومية". وخلاصتها أن المرء يقول عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الأعجمية: "تماغس بعد أن يسواد وغداس نوفنا غادس". فإذا نام ظهر له رجل يقوله له: "أنا طبّاعك التام". وهو يجيب على كل ما يسأله عنه النائم من الأمور التي يريد الكشف عنها" (10).

وابن خلدون لا يرى في تلك الكلمات الأعجمية أية مقدرة سحرية أو سر خفي، إذ هي ليست سوى مجموعة من الألفاظ الجوفاء التي لا معنى لها في ذاتها. فلذتها تنشأ من عقيدة النائم بها حيث تولد فيه استعداداً نفسياً فتجعله قادراً على التقاط الوحي أو استشفاف الغيب.

وهذا الراي من ابن خلدون يدل على براعته في التحليل النفسي. ولعله سبق زمانه به، كما سبقه في التحليل الاجتماعي.

فذلكة تاريخية:

يقال ان من اوكد الأسباب التي دفعت المامون إلى ترجمة الكتب اليونانية حلماً رآه في منامه. فقد حلم ذات ليلة كان ارسطو طاليس جالس معه على كرسي. فهابه المامون واحترمه وبدا له ان يساله عن بعض المسائل الفلسفية فجرت معه المحاورة التالية:

المامون: ما الحسن؟

ارسطو: ما استحسنته العقول.

المامون: ثم ماذا؟

ارسطو: ما استحسنته الشريعة.

المامون: ثم ماذا؟

ارسطو: ما استحسنه الجمهور.

المامون: ثم ماذا؟

ارسطو: ثم لا ثم![11].

ويغلب على الظن ان المامون راى ارسطو في منامه بعد ان قرا وسمع عنه كثيراً. وكان المامون معتزلياً كما هو معروف. والمعتزلة بوجه عام يحترمون ارسطو وغيره من فلاسفة اليونان، ويعدونهم مراجع كبرى للعقل البشري. ويخيل لي ان المامون كان مولعاً بارسطو ولعاً شديداً. ولعله كان يقدسه ويعتبره من الأنبياء. ولا عجب في ذلك إذ ان المعتزلة، والمامون منهم، كانوا يعتقدون بان تعاليم الأنبياء يجب ان تكون مطابقة لمفاهيم العقل السليم.

ومهما يكن الحال، فإننا نستطيع ان نقول بان الحلم الذي رآه المامون كان من اهم الأسباب التي دفعته إلى ترجمة كتب اليونان وإلى بذل الأموال الطائلة فيها. ويقال ان المامون هدد ملك الروم بحرب شعواء إذا لم يرسل له كتب العلوم القديمة المخزونة في بلده.

ويروى أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية يأمره بأن يرسل إليه مكتبة صقلية الشهيرة. فجمع الحاكم رجال دولته وأدلى إليهم بطلب المأمون. فأشار عليه المطران الأكبر قائلاً: "أرسلها إليه، فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها". فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها[12].

ويعتقد بعض المتزمتين من المسلمين أن المطران كان مصيباً في رأيه. فالفلسفة في نظرهم تفسد كل مجتمع تدخل إليه. ومن تمنطق فقد تزندق !

وإذا صح هذا الرأي جاز لنا أن نقول بأن المجتمع الإسلامي فسد من جراء حلم رآه المأمون في منامه. وليته لم يفعل!

هوامش الفصل الثالث

(1) انظر : ابن خلدون، المقدمة ، ص 478 .
(2) انظر: توفيق الطويل، الأحلام، ص 192 - 193 .
(3) انظر: ابن سيرين ، تفسير المنامات الكبير، ص 8 .
(4) انظر: المصدر السابق، ص 33 .
(5) انظر : المصدر السابق، ص 56 .
(6) انظر: المصدر السابق، ص 53 .
(7) انظر : توفيق الطويل ،الأحلام ، ص 101 - 104 .
(8) انظر: ابن اسحق الثعلبي، قصص الأنبياء، ص 73 .
(9) ولنا أن نقول أن لحى المسلمين ضاعت بين هذا القاضي المخادع وذلك الخليفة المخدوع.
(10) انظر: ابن خلدون، المقدمة ، ص 105 .
(11) انظر: احمد فريد الرفاعي، عصر المأمون ، ج 1 ص 377 .
(12) انظر : المصدر السابق، ج 1 ص 375 - 376 .

الفصل الرابع

تأثير الأحلام في العقائد الإسلامية

رؤية النبي في النوم:

نشات بين المسلمين المتاخرين عقيدة كان لها اثر هائل في حياتهم الفكرية والاجتماعية. هي انهم إذ رأوا النبي في منامهم فكانهم قد راوه حقاً. واصبحوا يتلقون الأخبار والأحاديث التي يلقيها النبي عليهم اثناء نومهم كانها احاديث صحيحة لا يجوز للمسلم ان يشك فيها.

وليس من النادر ان نجد بين المسلمين من يغير الأحكام الشرعية او ياولها تاويلاً خاصاً تبعاً لما قال له النبي في المنام عنها. وقد يعجب القارئ الحديث حين يجد في كتب الأحاديث اقوالاً منسوبة إلى النبي ومصدرها احد الرواة الحالمين.

وشاع بين الناس حديث مؤداه: "من رآنا فقد رآنا" . ومعناه ان الذي يرى احد الأنبياء او الأولياء في النوم فهو قد رآه فعلاً، وذلك لأن الشيطان لا يستطيع آن يتشبه بالأنبياء والأولياء في الأحلام.

وإذا روى لهم احد الثقاة حديثاً عن النبي جاءه عن طريق النوم، اخذوا به. والنقد لا يوجه على الحديث في هذا الشان إلا من حيث سنده وصدق راويه. فإذا وثقوا بهما كان الحديث صحيحاً لا غبار عليه.

فيمن يـريد أن يـرى النبي في منامه:

ويخصص الإمام ابو الحسين الملطي في كتابه "التنبيه والرد" باباً فيمن أراد أن يرى النبي في منامه، وهو يروي فيه عن محمد بن عكاشة ان معاوية بن حماد الكرماني أخبره عن الزهري، قال: من اغتسل ليلة الجمعة وصلى ركعتين يقرأ فيهما سورة "قل هو الله احد" الف مرة راى النبي في منامه. وقد جرب ابن عكاشة بنفسه هذه الطريقة فنجح فيها بعد صعوبات.

يقول ابن عكاشة: "... فاتت علي ليلة باردة فاغتسلت وصليت ركعتين، ثم اخذت مضجعي فأصابني حلم، فقمت ثانية فاغتسلت وصليت ركعتين وفرغت منهما قريباً من الفجر فاستندت إلى الحائط ووجهي إلى القبلة إذ دخل علي النبي . ووجهه كالقمر ليلة البدر، وعنقه كابريق فضة فيه قضبان الذهب على النعت والصفة، وعليه بردتان من البرود اليمانية قد اتزر بواحدة وارتدى بأخرى، فجاء واستوقف على رجله اليمنى وأقام اليسرى، فاردت ان اقول: حياك الله. فبادرني وقال: حياك الله. وكنت احب أن أرى رباعيته المكسورة فتبسم فنظرت إلى رباعيته. فقلت يا رسول الله: إن الفقهاء والعلماء قد اختلفوا علي، وعندي أصول من السنة اعرضها عليك. فقال: نعم..." .

وذكر محمد بن عكاشة العقائد التي عرضها على النبي في المنام ووافق عليها النبي. وجاء فيها: "الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والصبر على حكم الله، والإيمان بالقدر خيره وشره من الله، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين، والمسح على الخفين، والجهاد مع اهل القبلة... والصبر تحت لواء السلطان على ما كان فيه من جور وعدل، ولا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا..والكف عن أصحاب محمد ، وأفضل عندالله بعد رسول الله : أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم على..." .

وبقي ابن عكاشة يعرض هذه العقائد على النبي ثلاث ليال متواليات، ولكنه كان يشعر بشيء من التردد عند ذكر عثمان قبل علي. وكأن النبي أحس بما نفسه فقال له" ثم عثمان، ثم علي" . وأعاد ذلك ثلاث مرات، وعيناه تهمران بالدموع.

قال ابن عكاشة: "فوجدت حلاوة في قلبي وفمي، فمكثت ثمانية أيام لا آكل

طعاماً، ولا اشرب شراباً حتى ضعفت عن صلاة الفريضة. فلما اكلت ذهبت تلك الحلاوة واللذة. والله شاهد علي، وكفى بالله شهيداً".

ويضيف ابو الحسين الملطي على ذلك قائلاً بان المتوكل، الخليفة العباسي، قال للإمام احمد بن حنبل: "يا احمد إني اريد ان اجعلك بيني وبين الله حجة، فاظهرني على السنة والجماعة، وما كتبته عن اصحابك عما كتبوه عن التابعين مما كتبوه عن اصحاب رسول الله". فروى الإمام ابن حنبل للمتوكل حلم ابن عكاشة ذلك[1].

الأحلام والعقائد:

وإنما ذكرت قصة ابن عكاشة بطولها لكي يطلع القارىء بها على مدى تأثر الناس بالأحلام في عقائدهم. فمن الواضح ان ابن عكاشة كان يحدث نفسه اثناء اليقظة بتلك العقائد التي ذكرها. وهو لا بد ان يرى النبي يحدثه بها تماماً اثناء النوم. إنها عقائد التقفها ابن عكاشة من بيئته التي عاش فيها، كما هي عادة الناس جميعاً. ثم اعلنها بعد ذلك على قومه كانها صادرة عن لسان النبي فعلاً. ويصح القول بان كثيراً من عقائد المسلمين في عهودهم المتاخرة تركزت في نفوسهم على هذا المنوال. فهم يتوارثون العقائد عن آبائهم ثم يرون في احلامهم احد الأنبياء او الأولياء وهو يؤيدهم فيها. فتترسخ من جراء ذلك في أعماق نفوسهم وتمسى غير قابلة للتحويل او التغيير.

اعتـراض الكوثري:

ومما تجدر الإشارة إليه ان محمد زاهد الكوثري، وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً، اعترض على قصة ابن عكاشة تلك. وكل ما فعله في اعتراضه عليها انه نسب إلى ابن عكاشة الكذب في الحديث. ومعنى ذلك ان الكوثري انتقد الحديث من ناحية السند. اما من ناحية المتن فلم يقل عنها شيئاً. إنه بعبارة اخرى لم ينسب رؤية النبي في النوم إلى حديث النفس، إنما قال بان ابن عكاشة محدث كذاب لا يوثق بصحة روايته. ولو كان صادقاً لكانت رؤيته للنبي صحيحة ايضاً[2].

الأحلام والحكم على رجال التاريخ:

ووصل بعض المحدثين في أمر تقديسهم للأحلام إلى درجة أنهم صاروا يبدلون رايهم في الطغاة من رجال التاريخ بمجرد رؤية حلم يبرىء ساحتهم. فالمتوكل مثلاً كان من اظلم الحكام واكثرهم عربدة وإسرافاً. ولكن كثيراً من المحدثين غفروا له سوء افعاله بعدما راوا احلاماً تذكر بأن الله غفر له[3].

ومثل هذا ما حدث لتيمورلنك، الطاغية السفاك. فقد روى ابن حجر الهيتمي أن أحد القراء كان إذا مر بقبر تيمورلنك قرأ "خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه..." وصار يكررها. ولكنه راى في منامه ذات ليلة كان النبي جالس وتيمورلنك بجانبه. فانتهر الرجل تيمورلنك وقال له: "إلى هنا يا عدو الله". وأراد أن يأخذ بيده ويزيحه عن جانب النبي. فقال النبي: "دعه فإنه كان يحب ذريتي". فانتبه الرجل فزعاً وترك ما كان يقراه على قبر تيمورلنك من آية اللعن.

ويقول ابن حجر انه لما مرض تيمورلنك مرضه الأخير الذي مات فيه، اضطرب اضطراباً شديداً واسود وجهه وتغير لونه. ثم اغمي عليه وافاق، وذكر لمن حوله: "إن ملائكة العذاب اتوني، فجاء رسول الله فقال لهم: إذهبوا عنه فإنه كان يحب ذريتي ويحسن إليهم. فذهبوا".

ويعلق ابن حجر على ذلك قائلاً: إذا كان حب ذرية النبي ينفع هذا الظالم الذي لا اظلم منه فكيف بغيره[4].

ويروي ابن حجر عدداً من الأحلام التي رؤي النبي فيها وهو ينصح المسلمين بالإحسان إلى ذريته وبالعفو عن سيئاتهم. ابن حجر يتخذ هذه الأحلام دليلاً شرعياً لا يجوز الاعتراض عليه.

الأحلام وذرية النبي:

واود ان انقل للقارىء هنا بعض هاتيك الأحلام التي رواها ابن حجر في هذا الصدد:

(1) ان احد الفقهاء الكبار الذين كانوا يسكنون في المدينة المنورة امتنع عن الصلاة على ميت من ذرية النبي اسمه "مطير". وكان السبب في امتناعه ان

مطيراً كان في حياته يلعب بالحمام[5]. ثم رأى الفقيه في منامه النبي ومعه ابنته الزهراء. وكانت الزهراء معرضة بوجهها. فسألها الفقيه مستعطفاً فاقبلت عليه واخذت تعاتبه قائلة له: "اما يسع جاهنا مطيراً!؟" وأخذ الفقيه منذ ذلك الحين يبالغ في اكرام ذرية النبي وفي تعظيمهم.

(2) وامتنع فقيه آخر عن الصلاة على ميت من ذرية النبي. فرأى في المنام فاطمة وهي معرضة عنه. ولما سألها قالت له: "يموت ولدي ولا تصلي عليه". فتأدب الفقيه بعد ذلك واعترف بظلمه.

(3) وكان الشيخ العابد محمد الفارسي يبغض أشراف المدينة من بني الحسين لتظاهرهم بالرفض. فرأى النبي في المنام يسأله: "... مالي اراك تبغض أولادي". فأجابه الفارسي: "حاش الله ما اكرههم وإنما كرهت ما رأيت من تعصبهم على أهل السنة". فقال النبي له: "أليس الولد العاق يلحق بالنسب... هذا ولد عاق!".

(4) وجلس المحتسب محمود الجمال في مجلس السلطان برقوق. وكان في المجلس شريف من ذرية النبي جالساً فوقه. فصعب على المحتسب أن يجلس دون الشريف. ثم رأى في المنام النبي يعاتبه: "يا محمود، أتانف أن تجلس تحت ولدي". فندم المحتسب عما فعل وذهب إلى الشريف في بيته يعتذر منه. وأخبره بالخبر، فبكى من كان حوله وسألوه الدعاء وانصرفوا.

(5) وذهب احد الشرفاء إلى الحافظ بن فهد يسأله عشاءً فاعتذر إليه الحافظ ولم يعطه عشاءً. وفي المنام رأى النبي وهو معرض عنه. فقال له الحافظ: "كيف تعرض عني يا رسول الله وانا خادم حديثك؟" فقال له النبي: "كيف لا أعرض عنك ويأتيك ولد من أولادي يطلب العشاء فلم تعشه". فلما اصبح الصباح ذهب الحافظ إلى الشريف واعتذر إليه وأحسن إليه بما تيسر.

(6) وعزم احد اليمانيين على الحج فذهب بعياله في البحر. ولما وصلوا جدة قسى عليهم جباة المكوس وأخذوا يفتشون تحت ثياب النساء. فاشتد غضب اليماني وأخذ يدعو الله على امير مكة الذي كان شريفاً من ذرية النبي. وفي النوم رأى اليماني النبي وهو معرض عنه. ولما سأل النبي اجابه: "اما رأيت في الظلمة من هو

اظلم من ولدي هذا" . فانتبه اليماني مرعوباً وتاب إلى الله ان يتعرض لأحد من ذرية النبي (6) .

الأحلام والأحكام الشرعية:

لا ريب ان هذه الأحلام التي رواها ابن حجر وغيره مخالفة لأحكام الإسلام. فالمأثور عن النبي انه كان في حياته يدعو إلى المساواة بين الناس، إذ لا فرق عنده بين السيد القرشي والعبد الحبشي. والمفروض انه بقي متمسكاً بهذا المبدا بعد موته كما كان في حياته.

ويبدو ان المسلمين في عهودهم المتاخرة لم يفهموا هذا المبدا حق الفهم. فهم يضعون اولاد النبي في مرتبة فوق مراتب الناس جميعاً، ويطلقون عليهم اسم "السادة" ، غير دارين بان الاسلام لا يعترف بفضل النسب، وليس فيه نظام للطبقات الوراثية. كل الناس في نظره سواء كأسنان المشط، واكرمهم عند الله اتقاهم.

لقد اعتاد المسلمون في دنياهم ان يفضلوا اولادهم على غيرهم من الناس، فظنوا أن النبي مثلهم في هذا الأمر. وهم يحدِّثون انفسهم به اثناء اليقظة فيرونه في المنام ويعتقدون أن رسول الله يؤيدهم عليه ويأمرهم به.

قصة عجيبة:

يروي ابن حجر: ان رجلاً بمدينة فاس ثبت عليه القتل فامر به القاضي ليقتل. فارسل السلطان إلى القاضي يامره بوقف التنفيذ. وسبب ذلك أن السلطان رأى النبي في المنام وهو يمنعه عن قتله. وأبى القاضي الاستماع إلى امر السلطان حيث قال: "لا نترك الشرع بالمنام وإن تكرر" . وكان السلطان قد رأى نفس الحلم يتكرر في ثلاث ليال متواليات.

ولكن القاضي عفى عن الرجل اخيراً بمجرد كلمة اسرها الرجل إليه. فبلغ السلطان امره فاستدعاه إليه وساله السلطان ان يصدقه ما شانه. فقال الرجل: " نعم. قتلت من ثبت علي قتله، لكني كنت انا وهو على شرب، فاراد أن يفجر بشريفة فمنعته فلم يمتنع عنها إلا بقتله، فقتلته دفعاً عن الزنى بها" . فقال له

السلطان: "صدقت، ولولا ذلك ما رايت النبي ثلاث مرات وهو يقول لا تقتلوه" [7].

وهذه القصة تدل على مبلغ تاثير الأحلام في امور الناس حتى انهم جوزوا، كما قال القاضي الفاسي، ترك الشرع بالمنام.

الأحلام عند الشيعة:

والطوائف الاسلامية في هذا الأمر سواء. فقد ذكرنا ما قال به الملطي وابن حجر في هذا الصدد، وهما من رجال اهل السنة. ولكن رجال الشيعة لا يختلفون عنهم فيه اختلافاً كبيراً [8].

والواقع ان الطوائف الإسلامية اصبحت في العهود المتاخرة متشابهة من حيث النمط الفكري الذي يسيطر على عقول افرادها. انهم يختلفون في الأشخاص الذين يقدسهم فريق منهم دون فريق، ولكنهم في الاتجاه العقلي على وتيرة واحدة. إنما هم كالغربان يقول بعضهم لبعض "وجهك اسود"، دون ان يدري هو بسواد وجهه مع الأسف.

وقد عثرت بين الشيعة على نماذج من الأحلام غير بعيدة عما جاء به الملطي أو ابن حجر. فالشيعي هو كغيره من اصحاب المذاهب الدينية، يتلقى عقائده من محيطه الاجتماعي. ثم يرى في المنام ما يؤيده عليها. فيستيقظ وهو اقوى إيماناً بها من ذي قبل. وهو لا يبالي ان تكون تلك العقائد مخالفة لما جاء به الإسلام من تعاليم مثلى.

حدثني احدهم ذات يوم وهو مكفهر الوجه. كان الوحي قد نزل عليه حقاً. فقد راى في منامه الإمام علياً وهو يامره بالمثابرة على العمل الذي بدا به. وكان العمل من طراز تلك الطقوس السخيفة التي يتعاطاها العامة عندنا ويقول عنها اصحاب العمائم انها من شعائر الله. وانا واثق ان الإمام لا يرضى عنها، ولو انه بعث حياً لحاربها كما حارب الطقوس التي اتخذها الظالمون ذريعة لتمكين سيطرتهم على الناس في ذلك الزمان. ولكن صاحبنا مؤمن لأن إمامه امره بها في المنام.

قصة معروفة:

وتنتشر بين الشيعة قصة معروفة، مفادها ان لصاً من قطاع الطريق، تعرض ذات مرة لزوار الحسين. فسلب اموالهم وآذاهم. ثم رأى في منامه ذات ليلة كان القيامة قد قامت وان الناس قد حشروا للحساب. وكان الحسين واقفاً في وسط المحشر، وبيده دفتر سجلت فيه اسماء الذين زاروا قبره. ولما جاء دور اللص نظر الحسين إلى الدفتر فوجد فيه اسمه. وقد تعجب اللص من ذلك عجباً شديداً.

وعلم اللص اخيراً بان الملائكة سجلت اسمه في دفتر الزوار، لأن شيئاً من غبارهم وقع عليه اثناء قطعه الطريق عليهم. وقد دخل اللص الجنة من جراء ذلك.

فاستيقظ اللص وهو ينشد شعراً:

إذا رمت النجاة فزر حسيناً لكي تلقى الإله قرير عين

فإن النار ليس تمس جسماً عليه غبار زوار الحسين

وانتشر هذا الشعر بين الناس، واصبح عندهم كانه من الآيات المنزلات.

ولي ان اقول بان الحسين الذي ثار في حياته على من استعبد الناس ونهب اموالهم، لا يتشفع بعد موته للصوص وقطاع الطريق ولو انغمسوا في الغبار المقدس إلى قمة رؤوسهم.

الأحلام وكاتب هذه السطور:

حدث لي بخصوص الأحلام قصة عجيبة، وذلك بعد صدور كتابي "وعاظ السلاطين" عام 1954 . وخلاصة القصة: اني وصفت في الكتاب علياً بانه كان هداماً للظلم ثائراً عليه(9) . وهذا الوصف هو في نظري، ونظر الكثيرين من امثالي، مدح للإمام وإعلاء لشانه. والمشكلة ان الناس عندنا لا يزالون يعيشون بافكارهم في عصر مضى. فلقد تبدلت المفاهيم الآن، بينما هم لا يزالون متمسكين بما عودهم عليه وعاظ السلاطين في قديم الزمان.

ولهذا وجدت الناس ينظرون إلي شزراً ويكادون يزلقونني بابصارهم. فقد ظنوا انني شتمت الإمام بكتابي. ورأى كثير منهم الإمام في احلامهم وهو يشتمني ويأمر المؤمنين بقتلي.

ومن هؤلاء رجل يعيش في قرية الفيصلية، ويدعى أنه كاتب . فقد أصدر كتاباً يقول فيه أنه رأى محمداً وعلياً في المنام، وأنهما أمرا الملائكة بأن يلقوني في نار الجحيم. وأسهب الرجل في وصف الحلم الذي رآه، حيث ملأ به معظم صفحات الكتاب. وكان الحلم قاسياً عليه إذ رأى فيه القيامة قد قامت، وحشر الناس فيها من كل حدب وصوب. ونصب في كبد المحشر لواء عظيم جلس تحته النبي محمد وبجانبه الإمام علي، عليهما الصلاة والسلام.

وكانت الشمس آنذاك ترسل وهجاً عظيماً مخيفاً، والأرض تغلي، والطبيعة غضبى. والريح راكدة، والناس مهطعون، كأنهم سكارى وماهم بسكارى.

وكان بين يدي النبي ملائكة عظام ينظرون إلى شفتيه لتنفيذ اوامره. وصار الناس من جميع الأديان يمرون بين يديه بعد أن ينادي بأسمائهم فرداً فرداً. فمنهم من يقاد بسلسلة كبيرة حيث يساق إلى جهنم ومنهم من يؤتى له بناقة ليركبها فتمرق به كالبرق الخاطف إلى الجنة وعليه ثياب من الحرير والاستبرق.

وجاء دور صاحبنا الفيصلي في الحساب. وكانت ذنوبه كثيرة، وكاد يساق إلى النار لولا ان انقذه ولاء أهل البيت فرجحت كفته به. فأشرق وجه النبي وتهلل، وكبر الملائكة، ونجى صاحبنا...

وعلى حين غرة صاح المنادي: "علي الوردي، علي الوردي، يقدم للحساب". واخذ علي الوردي يتوسل ويتضرع ويدعي بانه تمسك بكتاب الله وعترة النبي. فلم ينفعه ذلك شيئاً، فقد نظر النبي إلى الإمام مبتسماً ثم التفت إلى الوردي وعليه سيماء الغضب. واخذ يحاسبه على اقواله الماضية ويشتد في حسابه. ثم قال اخيرا: "زنوا اعماله، فهو باعماله يهوى وباعماله يفوز، وليس له من ولائنا شيء، وحاسبوه حساباً عسيراً".

فصرخ الوردي صرخة ابكت اهل الحشر. ورق قلب صاحبنا عليه واشفق حين رآه بتلك الحالة المؤلمة. ثم استيقظ مرعوباً باكياً.

ولست ادري لماذا استيقظ صاحبنا مرعوباً باكياً بينما كان الرعب والبكاء من نصيب المسكين كاتب هذه السطور.

الأحلام في المدينة المنورة:

يعيش في المدينة في عصرنا هذا رجل اسمه الشيخ أحمد وهو يصف نفسه أنه " خادم النبي " والظاهر انه من سدنة المسجد النبوي، ومشكلته انه يرى النبي في منامه بين كل حين وآخر. فيأمره النبي ببعض الوصايا. ويأخذ الشيخ على عاتقه نشر تلك الوصايا بين المسلمين شرقاً وغرباً.

والطريقة التي يستخدمها الشيخ احمد في نشر الوصايا النبوية عجيبة تذكرنا بعهد ما قبل اختراع الطباعة. فهو يطلب من كل من تصل إليه الوصايا ان يكتبها ويرسلها إلى غيره في البلاد المختلفة. وهو يروى عن النبي أن من يفعل ذلك يكتب له الله قصراً في الجنة. اما من لا يكتبها ولا يرسلها تحرم عليه شفاعة النبي يوم القيامة، ويسود وجهه في الدنيا والآخرة.

ويقول الشيخ احمد ان الأميَ الذي لا يعرف القراءة والكتابة يستطيع ان يحصل على قصر في الجنة، وذلك بان يستأجر من يكتب الوصايا له. ويعين الشيخ مبلغ الأجرة بثلاثة دراهم فقط لا غير.

وقد عثرت في الأيام الأخيرة على نسخة من احدث الوصايا النبوية التي نشرها الشيخ احمد بين المسلمين. وهي نسخة مطبوعة قام بتوزيعها في بغداد السيد علي الحلاق. ويبدو أن السيد علي هذا اراد ان يحصل على عدة قصور في الجنة فطبع الوصايا على نفقته الخاصة ووزعها على الناس بالآلاف.

وإلى القارىء نص هذه الوصايا كما جاء في النسخة المطبوعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا خاتم الأنبياء والمرسلين وصحبه وسلم.

هذه الوصية من المدينة المنورة

عن الشيخ احمد خادم النبي العالم الشريف. قال: كنت ساهراً ليلة الجمعة اتلو القرآن الكريم بعد تلاوة أسماء الله الحسنى. فلما فرغت من ذلك تهيات للنوم فاخذت سنة من النوم فرايت الطلعة البهية (رسول الله) جالساً وهو الذي اظهرت

له الآيات القرآنية والأحكام الشرعية رحمة للعالمين سيدنا ونبينا رسول الله. فقال يا شيخ احمد. فقلت: لبيك يا رسول الله ويا اكرم خلق الله. فقال انا خجلان من افعال الناس القبيحة ولا أقدر ان اقابل ربي ولا الملائكة. واقف على قدم. لأنه مات من الجمعة إلى الجمعة مائة وستين الف على غير دين الإسلام. فنعوذ بالله من شر ذلك. وصار غنيهم لا يرحم فقيرهم واصبح كل شخص لا يسأل إلا عن نفسه. وقد ارتكبوا المعاصي والكبائر والزنا والخطأ الكثير والبطران وكثرة المعاصي وكيد الريسز. وشربوا الخمور وتركوا الصلاة ومنعوا الزكاة. بهذه الوصية رحمة لأجل أن يطعيوا الآن شدة الغضب. فاخبرهم يا شيخ احمد قبل أن ينزل بهم العذاب من ربهم العزيز الجبار وتغلق ابواب الرحمة. فنعوذ بالله شر هذا العرض. هذا لأنهم عن طريق الحق ضالون وبالله تعالى يكفرون وبالدين الحنيف تاركون ولآيات الله ينكرون وبأديانهم الناطقة يجحدون. وإن الساعة قد قربت. وعن قريب تخرج النساء بغير إذن ازواجهن. تظهر علامة في السماء مثل بيضة الدجاجة هي من علامة القيامة. تغيب الشمس ثلاثة ايام. وبعد ذلك تشرق الشمس من المغرب وتغرب من الشرق وتغلق ابواب التوبة. ويرفع القرآن العظيم من صدور الرجال. ويظهر المسيح الدجال تخافه النساء والرجال ويعود الإسلام كما كان من قبل. اخبرهم يا شيخ احمد بهذه الوصية. عرفهم انها منقولة من لوح القدرة...

وينهي الشيخ احمد تلك الوصايا بقوله انها صحيحة وهو يحلف على صحتها بالله العظيم. وإذا كانت مكذوبة خرج الشيخ من الدنيا على غير دين الإسلام. ثم يعطف الشيخ على ذلك فيقول إن من صدق بها نجى من النار ومن كذب بها كفر.

استدراك:

قبل أن اختتم هذا الفصل اود ان استدرك فاقول بان المسلمين ليسوا كلهم من هذا الطراز الذي ذكرته. فهناك من الفقهاء ورجال الدين من لا يتخذون الأحلام مصدراً من مصادر عقيدتهم وفقههم، إنما يرجعون في ذلك إلى ما جاء في القرآن والحديث الصحيح وما اقتضته مصلحة الأمة. ولكن هؤلاء مع الأسف قليلون.

ولست اغالي حين اقول بان كثيراً من رجال ديننا يندفعون في عقائدهم بما يندفع به العامة، ويحرصون على مجاراتهم في كل سبيل. ولهذا صارت الأحلام ركيزة يرتكزون عليها في ما يعظون به او يعتقدون.

ولعل من المناسب أن أذكر هنا مدى الرواج الذي لقيه كتاب ذلك الفيصلي الرفيع. فقد التقفه العوام وبعض رجال الدين وصاروا يدعون إليه كأنهم وجدوا فيه وحياً منزلاً. والأغرب من هذا أن يأتي ناقد الكتب في دار الإذاعة العراقية فيصف الكتاب بأنه من خير الكتب التي صدرت أثناء الشهر.

لست أعرف اليوم أمة آمنت بالأحلام وانغمست فيها كهذه الأمة. سامحها الله.

هوامش الفصل الرابع

(1) انظر: الو الحسين الملطي، التنبيه والرد، ص 23 - 25 .
(2) انظر: المصدر السابق (حاشية). ص 24 - 25 .
(3) انظر: أحمد أمين، ضحى الاسلام، ج 3 ، ص 199 .
(4) انظر : ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص 244 .
(5) يبدو أن الذين يلعبون بالحمام، أي المطيرجية، كانوا محتقرين في ذلك الزمان كما هو الحال في زماننا.
(6) انظر : المصدر السابق، ص 240 - 243 .
(7) انظر : المصدر السابق، ص 243 - 244 .
(8) انظر: الشيخ المفيد، فصول من كتاب العيون والمحاسن ، ص 92 - 93 .
(9) انتقدني البعض لأني نسبت إلى الإمام نزعة الثورة والهدم دون أن أذكر الظلم وراءها، وهم ينسون ما جاء في ثنايا الكتاب من تأكيد على وصف الامام بأنه كان كسيده محمد ثائراً على الظلم والظالمين.

القسم الثاني

الآراء الحديثة في الأحلام

الفصل الخامس

رد الفعل

النزعة المادية:

كانت النزعة الروحية تسود عقول الناس في العصور القديمة. فكانوا يعتقدون ان الكون بشتى ظواهره مؤلف من مادة وروح، وإن وراء كل مادة روح تسيطر عليها، والروح الكبرى في الكون هي الله.

وهذا التصنيف الثنائي للكون جعل القدماء يفرقون بين اليقظة والنوم. فالإنسان اثناء يقظته يخضع لهموم بدنه المادي، اما في النوم فتنطلق روحه من عقال المادة وتعيش في عالم علوي لا اثر للمادة فيه.

وفي العصر الحديث ثار المفكرون على النزعة الروحية القديمة، وصاروا يجردون الكون بصفة عامة، والانسان بصفة خاصة، من كل اثر روحي. فالكون في نظرهم مادة في مادة. وهو يجري حسب قوانين ميكانيكية لا يمكن التنكب عنها ابداً[1].

ونستطيع ان نعد هذه النزعة المادية الحديثة بمثابة رد فعل للنزعة الروحية القديمة. فكما تطرف القدماء في إيمانهم بالروح، تطرف المفكرون الجدد في إيمانهم بالمادة.

نظرية هيجل والأحلام:

يعتقد هيجل أن تطور الفكر البشري بوجه عام يجري على أساس التناقض. فكل فكرة تنتشر بين الناس لا بد أن تعقبها فكرة مناقضة لها. وبعد أن يجري التضاد والتفاعل بين الفكرة ونقيضها، تنشأ فكرة وسطى. وهي بدورها تؤدي إلى ظهور ما يناقضها. وهكذا دواليك[2].

وقد أطلق هيجل على نظريته هذه اسم "الديالكتيك". وقد يصح أن نعربها فنسميها بالنظرية "الدواليكية". ولفظة "الدواليك" في اللغة العربية تعطي معنى قريباً لما قصده هيجل، كما لا يخفى على المتضلعين في اللغة العربية أو المتحذلقين فيها.

وقد وجدت من دراسة الآراء التي قيلت في الأحلام قديماً وحديثاً أن النظرية "الدواليكية" تصدق عليها إلى درجة لا يستهان بها. فبعدما كان القدماء يحيطون الأحلام بهالة روحية، ويعزون إليها الوحي الإلهي، صار المفكرون الجدد يقولون بعكس ذلك فيها. حيث جردوها من كل صبغة روحية أو قدسية. وسنأتي في القسم الثالث من هذا الكتاب على ذكر الآراء الوسطى التي بدأت تنتشر بين الباحثين في الأيام الأخيرة.

بعث نظرية أرسطو:

أشرنا في القسم الأول إلى نظرية أرسطو، وقلنا أنها كانت اول نظرية قديمة تجرد الأحلام من صبغتها الروحية وتحاول تفسيرها تفسيراً مادياً.

وقد ماتت هذه النظرية في العصور القديمة، حيث لم يأخذ بها سوى الزنادقة وبعض ارباب النظر العقلي. أما عامة المفكرين فقد أخذوا بالنظرية الروحية المعاكسة لها.

وفي العصر الحديث انتعشت نظرية أرسطو من جديد، وآمن بها كثير من الباحثين. ويصح أن نقول أنها صارت النظرية السائدة بين المثقفين قبل ظهور نظرية فرويد[3].

وصارت النظرية تعرف بنظرية "الحافز الحسي". ومعناها أن الحلم ينشأ في

النائم من جراء احساس مادي يطرأ عليه. وهذا الاحساس قد ينبعث من داخل البدن أو من خارجه.

محاضرة برجسون:

وممن ساهم في تأييد هذه النظرية هنري برجسون، الفيلسوف الفرنسي المعروف. فقد القى محاضرة في موضوع الأحلام، عام 1901 في المعهد السيكولوجي العام. ومما جاء فيها قوله: أن الحواس لا تتعطل عن اداء وظيفتها أثناء النوم، وكل اثر يقع عليها يؤدي بالنائم إلى رؤية حلم مستمد منه. فإذا كانت قدماه، مثلاً، غير مستقرتين على نقطة ارتكاز، رأى كأنه طائر في الفضاء. وإذا أضيئت أمام عينيه شمعة، تحول الضوء في حلمه إلى حريق، يتبعه صراخ وعويل، ويأتي رجال المطافىء ورجال الاسعاف. وإذا انطلقت حوله أصوات شجار، حلم كأنه يرى ثورة ومظاهرات، وصداماً مع رجال الشرطة...[4].

استخدام التجربة:

واخذ بعض الباحثين يجرون التجارب العلمية لتدعيم تلك النظرية. ومن أشهر من اتبع هذا السبيل هو الاستاذ موري. فقد اجرى ذات مرة تجربة على نفسه، حيث طلب من مساعده ان يأتي بملقط ومقص فيضرب احدهما بالآخر بالقرب منه اثناء النوم. ولما استيقظ موري ذكر بان صوت الملقط والمقص ادى به إلى رؤية حلم سمع فيه صوت جرس وإنذار ثم تلاهما حادث فزع شبيه بذلك الحادث الذي وقع له في حزيران عام 1848[5].

انتقاد النظرية:

ولم تسلم هذه النظرية من النقد بالرغم من التجارب العلمية التي تدعمها. ومن الذين نقدوها واشتدوا في نقدها هو العلامة النمساوي سيجموند فرويد. ففي رأيه ان الحافز الحسي قد يساعد على نشوء الأحلام، ولكنه مع ذلك لا يعين مضمونها ولا يجدي في تفسير مغزاها.

فلو دققنا جرساً بالقرب من بضعة أشخاص نائمين، فإن ذلك قد يؤدي بهم إلى رؤية أحلام لها صلة بدق الجرس. ولكن كل واحد منهم قد يرى من الأحلام ما يوافق هواه وذكرياته ورغباته الدفينة.

إن دق الجرس قد يجعل أحد النائمين يحلم بجنازة أحد أعدائه، بينما هو يجعل غيره يحلم بلقيا حبيبته أثناء الصلاة في كنيسة. وقد يحلم آخر بانتهاء درس طويل ممل.

ومن الممكن القول بأن الحافز الحسي يحرك الأحلام ولكنه لا يعين السبيل الذي تسير فيه. ويصح تشبيه الحلم بالكرة الواقفة على نتوء. فهي تنحدر إلى الأسفل حالما يلمسها دافع ضعيف. والدافع إذن يحركها نحو الانحدار ولكنه لا يقرر مصيرها فيه.

هوامش الفصل الخامس:

(1) **انظر**: Jeans, Mysterious Universe, P. 19.

(2) **انظر**: Eliot and Merrill, Social Disorganization, P. 6.

(3) **انظر**: Dalbiez, Psychoanalytical Method. Vol. I, P. 30.

(4) **انظر: توفيق الطويل، الأحلام، ص** 71 - 72 .

(5) **انظر**: Dalbiez, op. cit, vol. I, p. 30.

الفصل السادس

عظمة فرويد

قنبلة فرويد:

انتقد فرويد نظرية "الحافز الحسي" في الأحلام وجاء بنظرية اشمل منها وادق. وقد احدثت نظريته دوياً منقطع النظير في الاوساط العلمية.

ولفرويد الآن اتباع كثيرون في مختلف ارجاء العالم. وهم يتعصبون له كما يتعصب كل متدين لنبيه. ويقابلهم من الجانب الآخر خصوم الداء. ولا بد لكل عظيم من وجود اتباع له وخصوم، كما هو معروف في مختلف اطوار التاريخ.

عبقرية فرويد:

ومما يجب أن نعترف به قبل كل شيء هو ان فرويد باحث مبدع، وله في العلم مكانة لا يستهان بها. وهو بالرغم من اخطائه العديدة قد ادى للبحث العلمي خدمة كبرى. ومن المستحيل ان نجد إنساناً من غير اخطاء مهما كان عبقرياً مبدعاً.

استعرض فرويد الآراء التي قيلت في الأحلام قبله، ففندها جميعاً. وهو يقول في هذا الصدد: أنه بالرغم من آلاف السنين التي مرت على الباحثين، فإنهم لم يوفقوا توفيقاً كبيراً في بحث الأحلام أو فهمها فهماً علمياً[1]. ويقول اتباع فرويد عن نظريته انها النظرية الوحيدة التي فسرت الأحلام تفسيراً صحيحاً.

أما خصومه فقد استهانوا به واستهانوا بنظريته. ففي رأيهم أن فرويد لم يأت بشيء جديد، ولقد سبقه إلى نظريته اناس كثيرون[2].

شأن المبدعين العظام:

ويبدو أن هذا هو شأن كل مخترع أو مفكر عظيم. فهو لا يكاد يأتي بنظريته حتى ينبري له الناقدون يخرجون له ألسنتهم، ويستصغرون أمره وينكرون فضله.

وقد حدث مثل هذا للأنبياء والعباقرة في كل زمان ومكان. فإذا ماتوا، وبعدت بهم الأيام، أخذ الناس يرفعون ذكرهم ويتطرفون فيه على العكس مما فعلوه معهم أول الأمر.

فرويد وكولومبس:

يمكن تشبيه فرويد بكولومبس الذي اكتشف القارة الأمريكية[3]. فعندما اكتشف كولومبس تلك القارة العظيمة، استهان به خصومه وجردوا اكتشافه من كل فضل. قالوا: إن القارة الأمريكية كانت موجودة، ولو لم يكتشفها كولومبس لاكتشفها القرصان الذين يتجولون في البحار القريبة.

لقد نسي هؤلاء الكفاح الجبار الذي اضطلع به كولومبس من أجل اكتشافه، وكيف سيطرت عليه الفكرة زمناً طويلاً فحرمته لذة الرقاد، وعانى في سبيلها جهداً كبيراً.

وبينما كان كولومبس يشقى في كفاحه، كان الأغبياء ينعمون في هنية العيش. فلما وصل كولومبس إلى مرامه هبوا في وجهه قائلين له: انك لم تأت بشيء جديد!

يحكى أن احد حساد كولومبس جابهه بالنقد المرير في حضرة الملك. فاخذ كولومبس بيضة وتحدى الحاضرين ان يوقفوها على راسها، فعجزوا. عند هذا اخذ كولومبس البيضة فكسر قليلاً من راسها ثم اوقفها. وهنا ضج الحاضرون بالضحك والاستهزاء..

مشكلة الإبداع:

الواقع أن كل اكتشاف عظيم هو في حد ذاته بسيط كبساطة إيقاف البيضة على رأسها. ولكن المشكلة فيه أن الناس لا يدركون بساطته إلا بعد القيام به. وعند هذا يأخذون باحتقاره واحتقار صاحبه.

يقول علماء الاجتماع ان المبدع لا ياتي بشيء جديد، إنما هو يربط ويؤلف بين اشياء قديمة. ومعنى هذا أن كل فكرة جديدة تقوم في اساسها على افكار سابقة لها. وهي إذن لا تنزل على صاحبها من السماء. إنما هي ترتقي إليه من الأرض التي يعيش عليها.

ويصح أن نقول ان فضل المبدع ينحصر في نطاق الربط والتاليف لا غير. ولكن هذا لا يعني ان فضل المبدع قليل. فالربط يحتاج إلى اطلاع ودراسة مضنية. وكلما أوغل المرء في الدراسة تعددت لديه الأفكار. وقد تاتيه لحظة يستطيع ان يربط فيها بين فكرتين سابقتين. وبهذا يظهر الاختراع العظيم.

والفرق بين المبدع والغبي ان أحدهما يعرف كيف ومتى يخطو خطوته الحاسمة، بينما يبقى الآخر رقيعاً لا يعرف من دنياه غير الحسد.

وهنيئاً للأغبياء! فهم مرتاحون في حياتهم لا يشقون ولا يكدحون، ولكنهم لا يكادون يرون قريناً لهم قد بزهم في فكرة او اكتشاف هام حتى ينثالوا عليه ناقدين مستهزئين. ولعلهم في قرارة أنفسهم يحسدونه، ويريدون أن يشاركوه في ثمرات كدحه وشقائه.

عود على بدء:

وحين نرجع إلى فرويد نراه من اولئك المبدعين العظام الذين انتجوا الأفكار الجديدة، فقام عليهم الرقعاء يتهمونهم بالرقاعة.

لا ننكر أن فرويد كان عيالاً على كثير من المفكرين الذين ظهروا قبله. ومن الممكن القول ان نظريته مؤلفة من فضلات النظريات السابقة. ولكنه انتج من تلك الفضلات المتهافتة آلة تفيد الناس، بينما كان المفكرون قبله يخبطون في الأحلام خبط عشواء.

محور النظرية:

تسمى نظرية فرويد بنظرية "الحافز النفسي" . وهي بهذا الاعتبار تقابل نظرية "الحافز الحسي" التي ألمحنا إليها من قبل. وهو يحصر نظريته بكلمتين حيث يقول بأن الحلم ليس سوى "تحقيق رغبة" .

ومما تجدر الإشارة إليه اننا نستطيع ان نلمح بذور هذه الفكرة في نظرية أرسطو، وفي الحديث النبوي، وفي كثير من الآراء التي قيلت في الأحلام قديماً. ولكنها كانت بذوراً ضائعة، لم يعتن احد بها عناية كافية.

أما فرويد فقد جعل "تحقيق الرغبة" الأساس التي تقوم عليه الأحلام، وحاول ان يعلل به جميع الظواهر الغريبة التي يراها المرء في منامه.

واضاف فرويد إلى ما تقدم امرين:

(1) ان تحقق الرغبة قد لا يظهر في الحلم على شكل سافر مفضوح إنما هو يظهر في كثير من الأحيان مقنعاً او رمزياً.

(2) والحلم لا يحقق جميع الرغبات التي يشعر بها الانسان، بل هو يحقق منها تلك التي كبتها الانسان اثناء يقظته ولم يستطع اشباعها لسبب من الأسباب.

ومن الممكن إذن تلخيص نظرية فرويد في الأحلام بالعبارة التالية هي: "ان الحلم تحقيق مقنع للرغبة المكبوتة أو المضغوطة" [4].

وسيلة للفحص:

وقد وجد فرويد ان نظريته هذه قد تساعده على فحص الأمراض النفسية التي يعانيها بعض الناس.

فالمرض النفسي قد ينتج احياناً من رغبة مكبوتة في اعماق النفس. والمريض لا يحب ان يفصح عن هذه الرغبة، او هو لا يدري بها. وهنا يلجا فرويد إلى تحليل احلام المريض. ففيها قد يجد تلك الرغبة كامنة تحت قناع من الرموز. ولا يكاد المريض يدرك تفاهة السبب الذي نشا منه مرضه حتى يسير في طريق الشفاء.

هوامش الفصل السادس

(1) انظر : Freud Interpretation Deams, P. 183.

(2) انظر : Dalbiez, Psychoanalytical Method. Vol. I, P. 38.

(3) انظر: جوزيف جاسترو، الأحلام والجنس، ص 29 .

(4) انظر : Dalbiez, op. cit. Vol. I, p. 55..

الفصل السابع

الأحلام والطبيعة البشرية

الصراع النفسي:

الانسان يعاني دوماً من صراع عنيف كامن في أعماق نفسه. فهو يشتهي اموراً كثيرة، ولكن الحياة الاجتماعية تضطره ان يكبت شهواته ويداريها. ومعنى هذا ان الانسان واقع بين حجري الرحى. فالآداب الاجتماعية تفرض عليه نوعاً معيناً من السلوك، ولكن غرائزه العارمة تدفعه على مخالفة ذلك السلوك. وهو إذن حائر ملتاث، يعاني صراعاً نفسياً اليماً.

ولكن الطبيعة هيأت للإنسان مخرجاً يخفف به شدة ذلك الصراع. ويظهر هذا التخفيف في صور شتى، اهمها الأحلام. فالأحلام إذن تشبه "صمام الأمان" الذي يوضع في المراجل البخارية لكي يحميها من الانفجار.

طبيعة الإنسان:

وهنا يجب ان لا ننسى ان الانسان في اصل طبيعته حيوان، انه اخ القرد وابن عم الحمار. وهو حين يكتسب الصبغة البشرية، تظل النزعات الحيوانية كامنة فيه. أنه يتظاهر باللطف وسلامة القلب وحب الخير، ولكن طبيعته البهيمية تأبى الرضوخ لهذا النفاق مدة طويلة. إنه يداريها بعقله الواعي. فإذا نام هذا العقل أو تخدر ظهر الحيوان من باطن الانسان.

يذهب الانسان إلى فراشه، وهو يبدو بريئاً كالطفل الساذج. والواقع أنه يحمل في ثنايا نفسه عواطف خبيثة ورغبات مكبوتة لا يحب أن يفصح عنها. ثم ينام فيشرع عندئذ بتحقيقها على وجه من الوجوه.

هبة الله:

يقول فرويد أن الأحلام هبة من الله. فهي عملية تهريب للرغبات المحرمة. وهي تلجأ في سبيل ذلك إلى لف بضائعها الممنوعة بحزم خدّاعة لكي تخفى عن أعين الرقباء والجباة[1].

ويذكرني هذا الرأي بقول أحد الزهاد المسلمين. فقد شوهد هذا الزاهد ذات يوم وهو يشكر ربه كثيراً. فلما سئل في ذلك أجاب: بأنه استطاع أن يقترف جميع الموبقات والذنوب الكبيرة عند النوم دون أن يحاسبه الله عليها. فهو يزني ويسكر وينهب الأموال وينتقم من أعدائه، ثم يستيقظ فيجد صفحته بيضاء لا دنس فيها. وهو يحمد ربه على هذه النعمة التي منحه إياها بلا ثمن.

من الممكن القول بأن النوم راحة بدنية ونفسية في آن واحد. ولولا النوم لهلك الإنسان. فالانسان يريح بدنه المتعب بالنوم، وبه أيضاً يشبع رغباته المكبوتة أو ينفس عنها.

أكثر الناس راحة في هذه الدنيا هو المجنون، إذ هو يعيش في حلم مستديم. إنه يصور الدنيا كما يشتهي. فإذا وجد الناس حوله لا يفهمونه ولايستجيبون له أنحى عليهم باللائمة وعدَّ نفسه العاقل الوحيد من دون الناس.

أما العاقل الناضج فمصيبته أنه يشعر بوجود الناس حوله، ويتأثر بالرقابة الخفية المفروضة عليه منهم. وهو لا يندفع في تيار رغباته وأفكاره الخاصة مخافة أن يضحك عليه الناس أو يعاقبونه. إن الرقابة الاجتماعية تمنعه من القيام بأي عمل لا ترتضيه منه. ولهذا فهو يلجأ إلى الأحلام ليخلق بها الدنيا التي يشتهيها، قليلاً أو كثيراً. ومن هنا جاء قول القائل: كل إنسان مجنون في منامه!

قصة بالمناسبة:

اشرت في احد كتبي اني حين أعجز عن الانتقام من اعدائي عند اليقظة الجا إلى الأحلام لأنتقم منهم فيها انتقاماً لا هوادة فيه. وكنت قد ذكرت هذا باعتباري بشراً كسائر الناس. ولشدّ ما كان عجبي حين وجدت أحد النقاد يستهتزىء بي وبعد ذلك مني صفة غير لائقة.

مشكلة المفكرين عندنا انهم لا يزالون مصرين على ريائهم القديم. ولعلهم يطلبون من الانسان ان يكون فاضلاً في نومه ويقظته معاً. والغريب انهم يرون في احلامهم كل امر خبيث فيكتمون ذلك عن الناس، ويتظاهرون بانهم جبلوا من طينة الملائكة. ولو شاء الله ان يفضحهم ويخلع عنهم رداء الرياء، لظهروا كالقردة أو الحمير، ينزو بعضهم على بعض بلا حياء. والله الساتر على اي حال.

اهمية النظرية الفرويدية:

ولنظرية فرويد اهمية كبرى في هذا الصدد. فهو قد كشف عن الانسان قناعه المصطنع، وجعله عارياً "ربي كما خلقتني".

ويرى البعض ان اهمية فرويد في علم النفس توازي اهمية داروين في علم الأحياء[2]. فلقد انزل داروين الانسان من عليائه وجعله حيواناً كسائر انواع الحيوان. ثم جاء فرويد من بعد ذلك فهبط بالانسان درجة اخرى.

وتجرنا نظرية فرويد إلى القول بان الحيوان افضل من الانسان في بعض نواحيه. فالحيوان لا يعرف الرياء والكذب، إذ هو يندفع نحو تحقيق رغباته مباشرة. اما الإنسان فهو يخادع فيها ويراوغ، ويلف ويدور. فإذا سألته عما يريد شمخ بانفه وقال: إنه يريد مصلحة الأمة والزلفى من الله، والواقع أنه يريد ان ينزو عليك كما ينزو الحيوان على الحيوان. والويل لمن يقع بين يديه وحيداً مستضعفاً!

أحلام اليقظة:

يعتقد فرويد ان الانسان يستطيع ان يشبع رغباته المكبوتة اثناء اليقظة احياناً. وذلك عن طريق ما يسمى بأحلام اليقظة.

فقد بشتد ضغط الرغبة على أحد الناس بحيث لا يستطيع الصبر عليها. انه يريد أن يشبعها حالاً. ولعله لا يحب أن ينتظر وقت النوم، أو هو لا يعتمد على احلام النوم اعتماداً كبيراً، فيلجأ إلى احلام اليقظة لينفس بها عن همومه الكامنة.

ونجده عند ذاك منطوياً على نفسه، إذ هو يتخيل ما يشتهي. فيتكلم بصوت مسموع ويحرك يديه ويهدد ويعربد، كأنه يرى الأمور واضحة بين يديه. وقد تطغى عليه احلام اليقظة احياناً فيندفع بها غاضباً او شاكياً بالرغم من وجود الناس حوله.

أمثلة واقعية:

كنت أمشي ذات يوم في شارع خال من الناس. فلمحت من بعيد رجلاً يصرخ ويهدد. فحسبته يهددني، وكدت أطلق ساقي للريح. واقترب الرجل مني فوجدته مشغولاً عني، ومر بي دون أن يشعر بي. وكان يشتم ويجادل جدلاً عنيفاً. إنه كان منغمراً في أحلامه. فهو يرى ما لا اره ويعيش في دنياه الخاصة.

ولا اكتم القارئ اني ابتليت بما ابتلى به هذا الرجل غير مرة. وطالما جادلت وهددت في غرفتي الخاصة دون أن يكون معي احد يسمع مجادلتي وتهديدي. ومرت بي فترة من حياتي كنت فيها مبتلياً بأحلام اليقظة على نمط عنيف. فكنت امشي في الطرقات المنعزلة وانا اخاصم الهواء واصفعه وأبصق عليه. وكدت اقع من جراء ذلك في مصيبة.

والمظنون أن جميع الناس يعانون من هذا البلاء قليلاً أو كثيراً. ومن الناس من ينكر ذلك عن نفسه، ولكنه مبتل به من حيث لا يشعر. فقد تتحدث إليه وتحسبه مصغياً إليك. وهو ينظر إليك ظاهراً، ولكن خياله سابح في مكان آخر. إنه يحلم، وتدفعه رغباته المكبوتة في عالم من الأحلام لا حد له.

وقد يلقي الأستاذ محاضرة على طلابه فيجد بعضهم لا يفهمون ما يقول. إنهم منغمسون في أحلامهم اللذيذة، حيث يلتقون فيها بالحبيبة الحسناء يقبلونها، وبالعدو يصفعونه ويشتمونه. وحين يسألهم الاستاذ عما فهموا من محاضرته، يجيبونه بأنهم فهموا منها شيئاً كثيراً وهم كاذبون. وربما كانوا أثناء المحاضرة يحلمون بضرب الأستاذ بدلاً من الإصغاء إليه.

الأحلام السادية والماسوخية:

السادية صفة تعتري الانسان فتجعله يتلذذ بإيذاء الغير والاعتداء عليه وإيلامه.

أما الماسوخية فهي على العكس من ذلك حيث يتلذذ الإنسان فيها بأن يكون المتألم أو المعتدى عليه.

وهاتان الصفتان تظهران في أحلام اليقظة على درجات متفاوتة. وقد أجريت على بعض الطلاب في دار المعلمين العالية بحثاً من هذه الناحية، فوجدت أن أحلامهم على نوعين: سادية وماسوخية.

فمنهم من يتخذ في أحلام يقظته دور المعتدي فيتخيل عدوه منتصباً أمامه، ويأخذ بشفاء غليله منه. فهو يمسك بخناقه أو يشتمه شتماً لاذعاً أو يضرب على راسه بهراوة ثقيلة.

ومنهم من يتخذ في احلامه دور المعتدى عليه. فهو يتصور نفسه مخذولاً أو مهاناً أو مضروباً. والناس قد أجمعوا على النكاية به واحتقاره. وهو يجد في ذلك لذة نفسية عميقة، فيبكي ويتأوه.

وقد يتخذ أحدهم الدورين معاً. فهو ماسوخي تارة وسادي تارة أخرى. وهو على أي حال يريد ان يشبع رغباته الكامنة، فإذا انتابه اليأس فيها صار ماسوخياً، وإذا اعتراه الغضب صار سادياً. ولله في خلقه شؤون!

أحلام الشعوب:

ولا يغرب عن بال القارئ أن الشعوب تحلم كما يحلم الأفراد. فكتاب ألف ليلة وليلة مثلاً ليس سوى مجموعة من الأحلام الشعبية. وهي بصفة خاصة احلام الفقراء الذين يجوعون إلى المرأة الجميلة والقصر الفخم والطعام اللذيذ[3].

والمظنون أن عقيدة "المنقذ الإلهي" ليست سوى حلم راود الشعوب القديمة في بعض مراحل تاريخها. فالشعوب حين تتألم من ظلم حكامها، ثم تشعر بالعجز عن إزاحة ذلك الظلم الواقع عليها، تأخذ باعتناق عقيدة الإنقاذ الإلهي. وعندئذ

تتخيل مجيء يوم يرسل الله لها فيه من ينقذها وينتقم لها من أعدائها. فتملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً.

وصدق من قال: "الأساطير تمثل أحلام الشعوب"[4].

هوامش الفصل السابع:

(1) انظر : جوزيف جاسترو، الأحلام والجنس، ص 88 - 93 .
(2) انظر: المصدر الساق، ص 92 .
(3) انظر : سلامة موسى، أسرار النفس، ص 58 .
(4) انظر: جوزيف جاسترو، الأحلام والجنس، ص 115 .

الفصل الثامن

العقل الباطن

قبل فرويد:

كان الناس قبل فرويد يعتقدون بأن الانسان ذو عقل واحد. وهذا العقل هو الذي يسيطر على اعمال الانسان ويوجه سلوكه. فإذا راوا شخصاً ينحرف عن جادة الصواب في نظرهم لجؤوا إلى عقله يناشدونه ان يتعظ ويرعوي. وحين يجدونه لا يستمع إلى نصائحهم العقلية يغضبون عليه ويعتبرونه مستحقاً للعقاب الشديد.

لقد كانوا يظنون ان الانسان عاقل بطبيعته. وكان شعارهم في ذلك: "ان الانسان إذا فهم الخير عمل به". وقد كان نظام التربية القديم يقوم على ملء ذهن الصبي بالمواعظ الحسنة والأقوال الرنانة. والصبي المسكين لا بد ان يصغي إلى مواعظهم ويتظاهر بالانصياع إليها. فالعصا مرفوعة فوق راسه. وهو مضطر ان يقول إزاءها: "نعم، سافعل ما تنصحوني به".

إنه يكبت ميوله العارمة في اعماق نفسه. فلا يكاد يغيب عنه ناصحوه، حتى يقفز صارخاً يريد ان ينال ما هو ممنوع عنه باية وسيلة. والمرء حريص على ما منع، كما قيل في المثل القديم.

والرجل البالغ يشبه الصبي من هذه الناحية إلى حد كبير. فهو عندما يكبر يجد نفسه محاطاً بالواعظين والناصحين على منوال ما كانوا يحيطون به ايام الطفولة.

وهو قد يمسي واعظاً مثلهم إذا وجد من هو أقل عقلاً منه. فيمطره بالنصائح المثالية. إنما هو ينطق بها قولاً ويخالفها فعلاً.

ويصح أن نقول أن الناس كانوا يخدعون بعضهم بعضاً. ولو جاء رجل من المريخ واستمع إلى أقوالنا التي نتصافع بها، لخيل إليه أننا نعيش في إخاء ونعيم مقيم. ولكنه لا تمر عليه بضع ساعات حتى يجد بأننا في أعمالنا غيرنا في أقوالنا، وإننا جميعاً منافقون!

كاشف الغطاء:

وجاء فرويد فحاول أن يكشف الغطاء عن هذا النفاق العام الذي اتصف به بنو آدم. وكان فرويد أول من اكتشف في الإنسان عقلاً ثانياً غير هذا العقل الواعي الذي اغتر به الناس طويلاً. وقد أسماه بـ"العقل الباطن" أو "اللاشعور"[1].

ومما تجدر الاشارة إليه أن فكرة اللاشعور كانت معروفة قبل فرويد، ولكنها كانت في الغالب فكرة غامضة غير واضحة المعالم[2]. ويعزى إلى فرويد الفضل الأكبر في توضيح هذه الفكرة وفي إقامة بناء نظري شامخ عليها.

وبالرغم من تهافت فرويد في بعض تفاصيل هذه الفكرة، فإن الهيكل العام الذي شيّده حولها لا يزال مكيناً، ويعتبر الآن ضرورياً لفهم طبيعة الانسان.

وخلاصة ما جاء به فرويد في هذا الصدد أن العقل الظاهر الواعي ضعيف الأثر في توجيه السلوك البشري. أما الذي يوجه الانسان في معظم أحواله فهو العقل الباطن. وإليه يجب أن يلتفت الباحثون في الشخصية البشرية.

الذات المتعددة:

كان القدماء يرون بأن للإنسان ذاتاً واحدة، وهي التي تدفعه أن يقول "أنا". وقد تبين الآن أن هذا الرأي خطأ. فكثيراً ما نجد الإنسان يخاطب نفسه ويتحدث إليها. وقد يعاتبها أحياناً أو يعاقبها. فإذا كان للإنسان ذات واحدة فكيف استطاع إذن أن يتحدث إليها أو يعاقبها. لا بد أن يكون هناك في أعماق النفس أكثر من ذات واحدة، لكي يتم التخاطب والتلاؤم بين إحداها والأخرى.

وهنا جاء فرويد فقال بأن للإنسان ذوات ثلاث، وهي: (1) الذات الحيوانية (2) الذات البشرية (3) الذات المثالية (3).

الشر والخير في الإنسان:

إن المفهوم الجديد الذي جاء به فرويد يؤدي إلى القول بأن الإنسان ليس خيّراً محضاً أو شريراً محضاً. إنما هو خيِّر وشرير في آن واحد. ولم يخلق الله إنساناً خالصاً من نزعات الخير والشر فيه.

إن الإنسان ملك، علاوة على ذاته البشرية، ذاتين أخريين. إحداهما تحاول النزول به إلى مستوى الحيوان، والأخرى تحاول الصعود به إلى مستوى الملائكة. وهو حائر يندفع في هذه الناحية تارة وفي تلك الناحية تارة أخرى. والصراع النفسي آخذ بخناقه في كل حين.

المغزى المنطقي:

نسفت نظرية فرويد المبدأ المنطقي القديم الذي كان يصنف البشر إلى صنفين متعاكسين لا ثالث لهما، احدهما خيّر لا شر فيه، والآخر شرير لا خير فيه.

ولكن المفكرين عندنا لا يزالون يتحدثون عن رجال التاريخ. فيجعلون بعضهم من اولى الخير دائماً، ويجعلون البعض الآخر على النقيض من ذلك. وهذا خطأ فظيع لا تستسيغه الطبيعة التي جبل عليها الناس في كل زمان ومكان. إننا لا بد أن نرى في كل رجل صالح شيئاً من خوالج الشر تنبض فيه احياناً، ولا بد أن نرى في كل شرير بعض نزعات الخير ظاهرة عليه.

إن نزعة الخير موجودة في كل إنسان. فما دام الإنسان يعيش في مجتمع، فلا بد أن يستمد من قيم ذلك المجتمع رادعاً باطنياً يردعه عن القيام بالعمل المنكر على وجه من الوجوه. وتتفاوت قوة هذا الرادع باختلاف الأشخاص. وليس من الممكن أن نجد شخصاً خالياً من رادع باطني مهما اشتهر بالظلم والدناءة.

ومثل هذا نستطيع أن نقول عن نزعة الشر في الإنسان. فما دام الإنسان في أصل طبيعته حيواناً، فلا بد أن يظهر عليه التمرد والاندفاع البهيمي في بعض الأحيان، من حيث يدري او لا يدري.

الشعور واللاشعور:

قلنا أن للإنسان ثلاث ذوات: حيوانية وبشرية ومثالية. ويعتقد فرويد أن الذات الحيوانية كلها لا شعورية، ويغلب عليها دافع اللذة والألم. فهي لا تعرف الحلال والحرام. إنما تريد أن تتلذذ من غير قيد ولاشرط. وهي تدفع الإنسان نحو غاياته السافلة في كل حين.

أما الذات البشرية فهي شعورية واعية. ولكنها ليست مثالية. إنها تشعر بقيود المجتمع وتحاول مراعاتها. ويغلب عليها النفاق والمراوغة. فهي لا تحب أن تسرق مثلاً أو تقتل لأنها تخشى الاحتقار الاجتماعي أو تخشى الشرطة والعقاب. ولا تكاد تجد الفرصة المناسبة التي تأمن فيها الاحتقار أو العقاب حتى تندفع وراء الذات الحيوانية اندفاعاً شديداً.

إن الذات البشرية تفهم الحساب والعقاب أكثر مما تفهم المثل العليا. ولولا الذات المثالية التي تراقبها لصارت مطية للطبيعة الحيوانية الكامنة في أعماق النفس.

منشأ الذات المثالية:

إن الذات المثالية هي التي يطلق الناس عليها اسم "الضمير" أو "الوجدان"، ومنها ينبعث الرادع الباطني الذي أسلفنا ذكره.

وقد كان القدماء يصفون الضمير بأنه "الصوت الإلهي في الإنسان". وهذا وصف غير صحيح. فالضمير يستمد جذوره من العقائد والتقاليد والقيم الاجتماعية التي ينشأ فيها الإنسان.

إن الضمير نسبي إذن. وهو يتلون بلون المجتمع. وهو قد يدفع الإنسان أحياناً إلى القسوة والظلم، إذا كانت القيم الاجتماعية مؤيدة لهما. ويحدث هذا عادة في الحرب وفي التعصب الديني والقومي والطائفي.

إن الضمير صوت المجتمع لا صوت الله. والفرق بين الصوتين كبير. فالله رب الناس جميعاً، وهو رؤوف بهم من غير استثناء. أما المجتمع فهو يفضل أبناءه على غيرهم، وهو لا يبالي بنهب الأموال وسفك الدماء إذا كان ذلك موجهاً ضد الأعداء(4).

الضمير واللاشعور:

رأينا فيما مضى أن الذات البشرية شعورية، بينما الذات الحيوانية لا شعورية. وهنا يأتي فرويد فيقول بأن الذات المثالية تقف وسطاً بين تينك الذاتين. فهي شعورية من جانب، ولا شعورية من الجانب الآخر(5).

يمكن تشبيه الذات المثالية بالحارس الذي يقف على حافة اللاشعور فهي تمنع الحوافز المنكرة من الظهور إلى الشعور، بينما هي تسمح للحوافز الأخرى بالمرور.

ومشكلة الذات المثالية انها ليست بالحارس الصارم، إنما هي بالأحرى حارس ضعيف يسهل اغراؤه، ومن الممكن ان يرتشي. وقد يشتد عليه ضغط اللاشعور أحياناً فيجعله متسامحاً إلى ابعد الحدود. ويحدث هذا بصفة خاصة في المجتمع الذي تكثر فيه المواعظ العالية جداً.

فمن عيوب المواعظ العالية جداً أنها تحاول الصعود بالانسان فوق مستوى البشر. إنها تريد منه أن ينسى نفسه ويهمل امر ملذاته وآلامه. وعند هذا يقع اللاشعور تحت وطأة كبت شديد. فيضغط هو بدوره على الذات المثالية.

وهنا تظهر لدى الإنسان ما يسميه فرويد بنزعة "التبرير" . وهذه النزعة تسمح للإنسان بان يندفع وراء شهواته ثم تجد له عذراً أو قناعاً براقاً يغطي به اندفاعه القبيح.

إن المواعظ العالية تسد على الإنسان جميع المنافذ التي يستطيع ان ينفس بها عن ذاته الحيوانية. ولذا فهو مضطر أن يتمرد على تلك المواعظ ثم يبتكر له حجة يدافع بها عن نفسه، لا سيما وهو يرى الواعظين انفسهم يخالفون ما وعظوا به في الليل والنهار.

محتويات اللا شعور:

يتضح مما سلف أن اللاشعور عامل فعال في توجيه السلوك البشري، وقد رأينا أنه مؤلف من اجزاء مختلفة، نلخصها فيما يلي:

(1) فالجزء الأول منه يتكون من النزعات الحيوانية الأصلية في الانسان، وهي تولد معه. ويطلق فرويد عليها اسم "الليبيدو" .

(2) والجزء الثاني من اللاشعور يتألف من الرغبات التي لم يتمكن الانسان من اشباعها فكبتها في اعماق نفسه. إنها تبقى هناك كامنة تتربص. وهي ما يعبر عنها بالعقد النفسية(6).

(3) اما الجزء الثالث فهو الجانب اللاشعوري من الضمير. وهذا الجزء له اهمية خاصة في الموضوع الذي نحن بصدده - اي موضوع الأحلام.

الضمير والأحلام:

مرت بنا في ما مضى نظرية فرويد في الأحلام، وخلاصتها ان الأحلام وسيلة لاشباع الرغبات التي لم يستطع الانسان ان يشبعها اثناء اليقظة. وهنا يستدرك فرويد فيقول بأن اشباع الرغبات في الأحلام لا يكون مباشراً او واضحاً إلا في حالات نادرة، وسبب ذلك بقاء جانب من الضمير يقظاً اثناء النوم، إذ هو يمنع الانسان عندئذ من التمادي في اشباع رغباته المحرمة تمادياً شديداً.

لو كان الضمير شعورياً كله لاستراح الانسان منه اثناء نومه. لكنه كما اسلفنا واقف بين الشعور واللاشعور، وهو إذن يراقب الانسان عند نومه ويقظته معاً.

وعجيب أمر ابن آدم، إذ ان الرقابة الاجتماعية الممثلة بالضمير تلاحقه في كل وقت. وهو يلجأ إلى النوم ليجد شيئاً من الراحة النفسية فيه، ولكن الضمير لا يدعه يستريح راحة تامة. فهو واقف له بالمرصاد، ويقول له "جنتك" كلما وجده قد اندفع في شهواته بعيداً.

وفي رأي فرويد أن الرمزية التي تصطبغ بها الأحلام هي نتيجة الخوف من الضمير. ويطلق فرويد على الضمير في مثل هذه الحالة اسم "الرقيب". وتضطر الأحلام إزاء هذا الرقيب العتيد إلى اتباع سبيل المراوغة والمداورة. وهي تخشى دائماً أن يرفع الرقيب يده عليها ويقول لها "ممنوع!". وكثيراً ما تلجأ الأحلام إلى التهريب، فتغطي الشهوات بالأقنعة البراقة، كأنها تستغفل بها الرقيب وتخادعه.

أحلام الطفولة:

المعروف عن احلام الطفولة انها سافرة صريحة، إذ هي لا تتقنع إلا قليلاً. ومرد ذلك إلى ضعف نمو الضمير في الطفل.

يحدثنا فرويد عن ابنته البالغة من العمر تسعة عشر شهراً. فقد أصيبت بالقيء ذات صباح، ومنعت من الطعام طيلة النهار. فلما نامت سمعها اهلها تهتف بأسماء الأطعمة التي كانت تشتهيها[7]. والظاهر انها كانت تتلذذ اثناء ذلك بالتهام تلك الأطعمة بلا حساب.

ويصح القول بأن احلام الطفل تأخذ بالتقنع كلما كبر الطفل واشتد بناء الضمير في أعماق نفسه. فإذا صار رجلاً بالغاً وقع تحت وطأة الضمير الذي لا يرحم، ولهذا كانت احلامه غامضة تخفى في ثناياها معنى دفيناً.

أحلام البالغين:

ان الأستاذ سلامة موسى ينصح القارئ بأن لا يروي حلمه، مهما ظنه بريئاً، لأحد إلا إذا وثق بأخلاقه[8]. فالحلم قد يخفي رغبة دنيئة لا يجوز الكشف عنها، بينما هو في ظاهره بريء كل البراءة. فإنك قد ترى في منامك زوجة صديق لك، وهي محاطة بعصابة من السفلة يريدون انتهاك حرمتها. فتستنجد بك صارخة،وتثور النخوة في رأسك وتشهر مسدسك في وجوههم فينهزمون خائفين. وتتقدم الزوجة الحسناء نحوك شاكرة وفي نظرتها معنى الإعجاب والإكبار.

وظاهر هذا الحلم يدل على انك رجل شهم تحب الدفاع عن شرف صديقك. ولكنك في الواقع تحب انتهاك شرفه، لا الدفاع عنه. فربما كنت قد رأيت زوجة صديقك في يقظتك فاعجبت بها، وتمنيت أن تنزو عليها، وبقيت هذه الرغبة مكبوتة في عقلك الباطن.

وعند النوم ظهرت الرغبة في احلامك بشكل مقنع. فالرقيب يمنعك من مغازلة زوجة صديقك مباشرة او من النزو عليها علناً. فتعمد من جراء ذلك إلى وسيلة اخرى. وعندئذٍ تصبح بطلاً تطلق الرصاص على المعتدين وتطاردهم من غير خوف، مع العلم انك في يقظتك جبان لم تحمل مسدساً ولم تطارد احداً. ولكن الرغبة المكبوتة جعلتك في احلامك فارساً مغواراً لا يشق له غبار!

ولو جارينا فرويد في نظريته إلى نهايتها، لجاز لنا ان نقول بأن المسدس الذي تباهيت به في حلمك يرمز إلى آلتك التناسلية. ومعنى ذلك ان مسدسك الموهوم لا

يدل على شهامتك وفروسيتك بقدر ما يدل على شهوتك المحرمة نحو زوجة صديقك المسكين ـ والله اعلم.

رموز الأحلام:

يقول فرويد: "إن الأحلام تلجأ إلى الرموز لتخفي الأغراض التي يحظرها المجتمع" [9]. وهو يرى أن معظم الرموز التي تظهر في الأحلام ذات مغزى جنسي، كأنه يظن بأن الرغبة الجنسية هي الرغبة الوحيدة التي يملكها الإنسان والتي يحظرها المجتمع عليه.

وهنا يحسن بنا أن نورد بعض أقوال فرويد في الرموز الجنسية التي تشترك فيها معظم الشعوب. فهو يعتقد أن كل الأشياء المستطيلة كالعصى وجذور الأشجار والمظلات والسكاكين والخناجر والحراب والمبارد وأربطة العنق وما أشبه ترمز إلى عضو الذكورة. أما العلب الصغيرة والصناديق والمواقد والقبعات وغيرها فهي ترمز إلى عضو الأنوثة [10].

ويرى أحد تلاميذ فرويد أن الذين يحبون التنقل بين الغابات والأشجار الباسقة لهم ميل جنسي قوي. فهم حين يرون ذلك في أحلامهم مراراً إنما ينفسون به عن رغبتهم المكبوتة.

الأحلام وتحليل النفس:

كان المتنبئون بالأمس يقولون: "أخبرنا بأحلامك نخبرك بمستقبلك". واليوم يقول أطباء النفس: "أخبرنا بأحلامك نشخص مشكلاتك" [11].

لقد كان الناس في الماضي يدرسون الأحلام لكي يعرفوا بها ما يضمر لهم الغيب من منافع ومضار. أما الآن فقد صاروا يدرسون الأحلام لكي يعرفوا العقد والرغبات المكبوتة التي تختفي في أعماق نفوسهم.

أولئك يبحثون عن المستقبل في أحلامهم وهؤلاء يبحثون فيها عن الماضي. ويستطيع الإنسان أن يكتشف علله النفسية إذا درس أحلامه وحل رموزها. فقد يعثر بواسطتها عن سبب ما يعانيه من وساوس أو التياثات عقلية.

يقول فرويد: أن الأحلام هي اللغة الطبيعية للنفس. ونحن لا نفهمها لأننا

اعتدنا على لغة التفكير المنطقي في حياتنا الواعية[12]. إن لغة الأحلام في الواقع نموذج أصيل لعملية التفكير البدائي، وتحليلها يحتاج إلى براعة واختصاص.

القط والفأر:

يقول المثل السائر: "إذا نام القط لعب الفار". وهذا مثل ينطبق علينا. فنحن نملك في أنفسنا القط والفار معاً. ونقصد بالقط هذا العقل الواعي الذي يسيطر علينا أثناء اليقظة. فإذا نام ظهر الفار يسرح ويمرح.

وقد وضع الدكتور كابريو هذا المعنى في عبارة رائعة حيث قال: "إننا جميعاً ذوو خلق مزدوج، ففي باطننا الدكتور جيكل والسيد هايد"[13]. وهو يقصد بذلك أن كل واحد منا انسان ووحش في آن واحد. ولا يكاد الجانب الإنساني يتخدر أو ينام حتى يظهر الجانب الوحشي يريد أن يشبع حاجاته البدائية التي منعه المجتمع عنها.

هوامش الفصل الثامن:

(1) يميل الأستاذ سلامة موسى إلى تسمية هذا العقل بـ "العقل الكامن" والظاهر أن هذا الاسم لم يلق رواجاً في البلاد العربية. فقد بقي الناس يستعملون اسم "العقل الباطن". ومما يلفت النظر أن سلامة موسى هو الذي أذاع هذا الاسم في أول الأمر. إلا أنه تخلى عنه في الأيام الأخيرة. حيث اعتقد بأن مصطلح "العقل الكامن"، أصح منه. ولنا أن نقول في هذه المناسبة بأن الخطأ الشائع خير من الصحيح المهجور.

(2) انظر: محمد عثمان نجاتي، الذات والغرائز ، ص 1 .

(3) إن الذين ترجموا نظرية فرويد إلى اللغة العربية أطلقوا على هذه الذوات الثلاث، اسماء "إلهي والأنا والأنا الأعلي" وهذه ترجمة حرفية لمصطلحات فرويد، وهي كما يرى القارىء غير وافية بالمرام، وإني أرجح تعريبها على المنوال المذكور أعلاه.

(4) انظر: Landis, Social Control. P. 56.

(5) انظر : Berg, Clinical Psychology. p. 437.

(6) انظر: محمد خليفة بركات، تحليل الشخصية، ص 141 .

(7) انظر: Dalbiez. Psychoanalytical Method. Vol.I, p. 50.

(8) انظر : سلامة موسى، عقلي وعقلك، ص 63 .

(9) انظر: جوزيف جاسترو، الأحلام والجنس، ص 115 .

(10) انظر: المصدر السابق، ص 119 - 120 .

(11) انظر: فرانك كابريو، تفسير السلوك. ص 279 .

(12) انظر: جوزيف جاسترو، الأحلام والجنس، ص 93 .

(13) انظر: فرانك كابريو، تفسير السلوك، ص 280 .

الفصل التاسع

فرويد والرغبات البشرية

الخطأ والصواب:

كان القدماء يعتقدون بأن العقل البشري قادر على فهم الحقيقة كاملة إذا أحسن التفكير وإتبع المنطق السليم. ومعنى هذا أن العقل الواعي قادر على تجنب الخطأ وعلى الوصول إلى الصواب راساً.

ولي أن أقول أن هذا رأي أصبح اليوم عتيقاً لا يعتنى به أحد. فالعقل لا يستطيع، مهما حاول، أن يستوعب الحقيقة كلها. فمن طبيعته أنه يركز النظر على جانب واحد من الحقيقة، فيهمل الجوانب الأخرى. وهو إذن لا بد أن يخطىء ويصيب في آن واحد. وقد صدق من قال: " حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء " .

يقول وليم جيمس: "العقل الانساني متحيز وجزئي بطبيعته"[1]. أن العقل بعبارة أخرى لا يستطيع أن يفهم شيئاً إلا اذا تحيز في نظره إليه ثم أهمل غيره. ومن هنا نشأت المجادلات العقيمة التي إبتلي بها المفكرون القدماء. فكل فريق منهم يتعصب لرأيه حيث يرى الحقيقة كلها كامنة فيه، بينما هو في الواقع قد ركز نظره على جزء واحد منها. ولو أنه دار برأسه نحو الأجزاء الأخرى لتبين له أنه مخطىء ومصيب، وأن خصومه مثله. والعصمة لله وحده.

وبناء على ذلك صار من واجب الباحث الحديث أن يتحرى أوجه الخطأ والصواب في كل نظرية يدرسها. فمهما كانت النظرية عظيمة في ذاتها، فهي لا بد أن تحوي على عيب كامن فيها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كل نظرية تساهم في إنماء الفكر البشري بالرغم مما فيها من نقائص. أنها تساعد الفكر على النمو كما تساعد درجات السلم على الصعود. فكل درجة هي أعلى مما كان قبلها، وهي في عين الوقت أسفل مما يأتي بعدها. ولولاها لما استطاع الإنسان أن ينتقل من الواطىء إلى العالي من الأفكار.

من عيوب فرويد:

وحين ندرس نظرية فرويد في هذا الضوء نجد انها خدمت الفكر البشري خدمة لا يستهان بها. فهي قد وجهت الأنظار نحو ما يختفي في أعماق النفس من الرغبات القوية التي تدفع الانسان في مختلف السبل من حيث لا يدري.

ولكن الذي يعاب على فرويد في هذا الصدد انه ركز اهتمامه على الرغبة الجنسية واعتبرها اهم الدوافع البشرية قاطبة. ولم يكتف بذلك بل رايناه يعزو معظم الالتياثات والأمراض النفسية إلى سبب جنسي.

ومعنى هذا أن فرويد أخطأ وأصاب في آن واحد. فهو قد تغلغل في أعماق النفس البشرية، ولكنه لم يجد فيها سوى الدافع الجنسي.

ويبدو أن هذا التحيز في نظرية فرويد ناشىء من طبيعة الظروف التي أحاطت به عند تكوين أفكاره، ومن نوع المرضى الذين كان فرويد يعالجهم أثناء ذلك.

فالمعروف عن فرويد انه نشأ في مدينة فيينا. وكانت هذه المدينة قبل الحرب العالمية الأولى عاصمة لامبراطورية باذخة، وكانت الطبقة الحاكمة فيها منهمكة في تقاليدها القديمة ومتعصبة لها. والملاحظ في نساء هذه الطبقة انهن قد شبعن من ناحية الخام والطعام وجعن من الناحية الجنسية، حتى ابتلين من جراء ذلك بمختلف الأمراض النفسية. وقد أتيح لفرويد ان يعالج عدداً كبيراً من هؤلاء الجائعات جنسياً، فخيل إليه أن الناس جميعاً من هذا الطراز. ولو انه عاش في محيط آخر لربما جاءت نظريته من نمط مغاير.

الطفل في نظر فرويد:

ويظهر التعسف عند فرويد حين يدرس سلوك الطفل. فهو يفسر حركات الطفل الساذجة بأنها ذات مقصد شهواني. فإذا لعب الطفل بآلته التناسلية قال فرويد انه يبتغي التلذذ الجنسي بها، وإذا مص الطفل ثدي امه أو إبهامه علل فرويد ذلك بانه من إمارات الشهوة الجنسية لدى الطفل الصغير.

واشهر ما جاء به فرويد في هذا الشان هو "عقدة أوديب". ففي رايه ان الطفل يكره اباه ويحبه من جراء هذه العقدة. إن ضميره الخلقي يدعوه إلى حب ابيه، أما شهوته الجنسية فتدفعه إلى كراهة ابيه لأنه ينافسه على التلذذ بامه. انه بعبارة اخرى يغار من ابيه.

ويحدث مثل هذا لدى الطفلة، إذ هي تحب أمها وتكرهها في آن واحد. فامها ترضعها وتحنو عليها من جانب، وهي تنافسها على ابيها من الجانب الآخر. والطفلة إذن مصابة بـ"عقدة الكترا" حسب اصطلاح فرويد. وهذه العقد توازي عقدة اوديب عند الطفل الذكر(2).

وحين يكبر الانسان يظل يعاني من تلك العقدة التي نشات لديه في طفولته. وهذا هو سبب تلك الأحلام البشعة التي يجد الرجل نفسه فيها وهو في وضع مريب مع أمه، أو تجد المراة نفسها وهي في وضع مريب مع ابيها.

فرويد يستدرك:

الظاهر ان فرويد اخذ يتراجع اخيراً عن رايه في التاكيد على الشهوة الجنسية، لا سيما في تفسيره للأحلام. فهو يعترف بان الأحلام قد تحتوي على عناصر اخرى غير الشهوة - كالجوع والظما.

ويشعر فرويد بشيء من المرارة إزاء خصومه وناقديه. وهو يقول عنهم انهم اساؤوا فهم نظريته واتهموه بغير حق فيها. انه يقول في هذا الصدد: "لم اقل قط أن كل حلم يعبّر عن رغبة جنسية. وكثيراً ما قررت عكس هذا الراي. ولكن ما الفائدة...."(3).

ومهما يكن الحال فإننا لا نستطيع ان نبرئ فرويد من تهمة تاكيده على

العامل الجنسي في تفسير الأحلام. ولعل هذا التأكيد منه هو الذي دفع أتباعه إلى التطرف فيه. وكثيراً ما يكون الأتباع اكثر تعصباً لنظرية أستاذهم من الأستاذ نفسه. وقد حدث هذا مراراً في التاريخ كما هو معلوم.

ثورة أدلر:

ظهر إزاء فرويد ثائر جبار هو الفرد ادلر. وكان ادلر من تلاميذ فرويد ثم انشق عليه وجاء بنظرية هامة لها اليوم اتباع كثيرون.

يرى ادلر ان نظرية فرويد غامضة ومعقدة، وإن الشهوة الجنسية ليست على تلك الأهمية التي يعزوها إليها استاذه الكبير.

يقول ادلر ان الطفل البشري لا يعرف الشهوة الجنسية ولا يشعر باي ميل إليها. إنما هو يعرف شيئاً آخر. وهذا الشيء هو ما يشعر به الطفل حين يجد نفسه صغيراً بين اناس كبار. وقد اطلق ادلر على ذلك اسم "الشعور بالنقص" .

إن الطفل يشعر انه ضعيف وعاجز عن القيام بأمور عديدة، وهو يرى افراد عائلته مسيطرين عليه، يامرونه وينهونه دوماً، وهم قادرون على مكافأته وعلى عقابه. فإذا قام بعمل يرضيهم ابتسموا له وربتوا على ظهره واعطوه شيئاً لذيذاً. أما إذا اغضبهم بعمله، فإنهم يتجهمون له ويعاقبونه أو يحرمونه من اللذات التي ينشدها.

وإذا كبر الطفل وخرج إلى معترك الحياة وجد الناس يعاملونه على منوال ما كان افراد عائلته يعاملونه به. والناس لهم قيم ومعايير يقيسون بها الإنسان ويقدرونه عليها. فإذا استجاب الإنسان لها ووفاها حقها احترمه الناس وبشّوا له. وإذا انحرف عنها كرهوه أو انتقدوه وشتموه. ومعنى هذا ان الإنسان البالغ هو طفل كبير. فهو يشعر بانه ناقص إزاء مجتمعه وهو يحاول بكل جهده ان يسد هذا النقص في نفسه وأن ينال عند الناس مكانة عالية.

إن الانسان، بعبارة اخرى، يحمل في ثنايا نفسه تنازعاً خطيراً، إذ هو يشعر بالنقص من جهة، وهو من الجهة الأخرى يشعر بحبه للشهرة والمنزلة الاجتماعية.

إنه في كل وقت يحب ان يكون محترماً يشار إليه بالبنان. فإذا عجز عن ذلك لجأ إلى الأحلام أو الأوهام ليصعد بها إلى المكانة التي يبتغيها.

وإذا طغت الأوهام على ذهن الانسان دفعته نحو الجنون أو العصاب. وفي رأي أدلر أن المصابين بالأمراض النفسية هم في الغالب من ضحايا "عقدة النقص". ولهذا نجد كثيراً من المجانين والمخبولين يتخيلون انفسهم امراء أو عباقرة أو من أصحاب الجمال الفائق الذين ترتمي الحسناوات على أقدامهم.

وليس من الجائز إذن أن نسهتزىء بالمجنون أو نحتقره ونضطهده. إن المجنون محتاج إلى الرفق والعناية. فظروفه النفسية والاجتماعية قد منعته من إشباع رغبته في الارتفاع. والواجب يقضي أن نرعاه بلطف ونرشده بحكمة. وكلنا مثله قليلاً أو كثيراً، ولكن الظروف ساعدتنا فجعلتنا اقدر منه على فهم القيم الاجتماعية وعلى التجاوب معها.

الأحلام عند أدلر:

ويفسر ادلر الأحلام في ضوء ما جاء به من نظرية الشعور بالنقص. فالأحلام في رايه ليست سوى تحقيق لما كان الإنسان يشتهيه اثناء يقظته من التعالي والسيطرة. فقد يحلم احدنا كانه طائر في الهواء فوق رؤوس الناس. ومعنى هذا يحب ان يكون ذا منزلة اجتماعية عالية. او انه يريد ان يلفت نظر الناس إليه وإلى مقدرته الخارقة التي لا يستطيع احد ان يجاريه فيها.

ويزعم ادلر ان الأفعال الجنسية التي يقترفها الانسان في نومه ترمز إلى حبه للسيطرة على الغير. وهذا لا ينطبق على الرجل وحده. إنما ينطبق على المراة ايضاً. فهي تحب ان تكون تحت الرجل في نومها. وبذلك تستطيع ان تجعله يستجيب لرغبتها ويطيع امرها. إنها بعبارة اخرى تخضع له في سبيل ان يخضع لها(4).

نقد نظرية أدلر:

ولم تسلم نظرية ادلر من النقد. إنها نظرية عظيمة حقاً، ولكنها مثل نظرية فرويد متطرفة، تنظر إلى وجه واحد من الحقيقة، فتهمل به الأوجه الأخرى.

يغالي ادلر في التأكيد على عامل الشعور بالنقص كما يغالي فرويد في التأكيد على العامل الجنسي. وهناك من الباحثين من يؤكد على عامل آخر ويغالي فيه ايضاً. وكل منهم واثق من رايه لا يحب أن يحيد عنه قيد شعره.

الا يجوز أن نقول ان جميع هذه الآراء صحيحة، وقد يصح غيرها ايضاً. الا يجوز أن يشعر الانسان بالنقص، ويشعر بالشهوة الجنسية، وهو كذلك يشعر برغبات اخرى.

من الممكن القول بأن رغبات الإنسان متنوعة. ولكن إحداها قد تطغى على غيرها حين تقع تحت كبت شديد، او حين يشعر الإنسان تجاهها بالحرمان. ومن هنا ينشأ اختلاف الناس في اذواقهم وميولهم.

طبيعة الانسان:

إن الإنسان قبل كل شيء حيوان يريد ان يعيش. فإذا سد حاجته من الطعام واللباس والمسكن، اتجه نحو اشباع حاجته الجنسية. وهو لا يكاد يشبعها حتى يأخذ بالتطلع نحو المكانة الاجتماعية والمقام الرفيع. وكلما وصل إلى مرحلة تطلع إلى وراءها. ولا يسد فم ابن آدم إلا التراب . كما قال النبي محمد "عليه الصلاة والسلام" .

إن لكل انسان عقدة نفسية تأخذ بخناقه وتوجه سلوكه. فمن الناس من استحوذت عليه العقدة المعاشية، وهو منهمك فيها لا يعرف عن سواها إلا قليلاً. ومنهم من استحوذت عليه العقدة الجنسية، فلا يكاد يرى من الدنيا إلا ما كان مصطبغاً بها. ومنهم من يسعى وراء المعالي، ويدوس بقدمه كل من يقف في سبيله إليها.

إن لكل شخصية بشرية مفتاحاً خاصاً بها. وما على الذي يريد أن ينجح في معاملة الناس إلا ان يدرك طبيعتهم المعقدة هذه، ويعالج كل واحد منهم بمفتاحه السري.

خطأ المفكرين عندنا:

إن الذين يتولون زمام الفكر عندنا لا يزالون يعيشون في ظلمات المنطق القديم،

إذ هم يحسبون الناس من طبيعة واحدة وعقل متشابه. فإذا سيطرت على احدهم فكرة أو عقدة حسب الناس كلهم مثله. وتراه مبحوح الصوت يهيب بالناس ان يشبعوا رغباتهم كما يريد هو ان يشبعها، فلا يجد من يسمع له او يجيب.

ويتضح هذا الخطأ جلياً في ادبائنا. فقد ينظم احدهم القصيدة أو يكتب المقالة، وهو معجب بها ويعتقد ان الناس سيعجبون بها ايضاً.

ثم يفتح عينه اخيراً ليرى الناس مشغولين عنه وعن مقالته بهمومهم وعقدهم الخاصة. عند هذا يصفق صاحبنا يداً بيد ويتأفف من ضياع العبقرية بين اولئك الأغبياء، كأن الله لم يخلق في الناس عبقرياً غيره.

إذا تلوت قصيدة غرامية على عاشق وجدته يهتز لها طرباً. ولكنك حين تتلوها على صعلوك جائع تراه يحرق عليك الأرم، ولعله يريد منك ان تتغزل بالرغيف بدلاً من التغزل بالحسناء. اما إذا تلوت القصيدة على دهقان من دهاقنة السياسة فقد تجده مشغولاً عنك وعنها بمشكلة الانتخاب او بالترشيح لمجلس الأعيان.

الأحلام والرغبات المتنوعة:

اشرنا من قبل إلى ان الأحلام تفصح عن طبيعة الانسان وتكشف عن رغبته الخفية. فالناس قد يتظاهرون في يقظتهم بأنهم كالأنبياء في حبهم للحق والحقيقة، وأن ليس لهم من هدف في الحياة سوى خدمة الناس أو التقرب من الله. ولكنك لو درست أحلامهم لتبين لك نفاقهم بجلاء.

انهم في الواقع لا يحبون سوى انفسهم. فإذا اهين احدهم او اوذي دون أن يستطيع رد الصفعة بعشرة امثالها، اخذ يمدح نفسه وينسب إليها صفة الحلم والعفو عند المقدرة أو صفة التقوى والخوف من الله. ولكنه في حقيقة أمره كذاب. فلا يكاد ينام حتى يذهب إلى ذلك الذي اعتدى عليه فيهوى على راسه بالهراوة الغليظة، حتى يروي غليله منه.

اما إذا كان صاحبنا من الجبابرة الذين يقدرون على الانتقام من خصومهم اثناء اليقظة، فإن احلامه ستكون من طراز آخر. ولعله سيستخدم اثناء النوم آلته التناسلية بدلاً من الهراوة الغليظة.

وقل مثل هذا عن اولئك الذين بخل عليهم القدر بأسباب الترف. إنهم سيقولون بأنهم زاهدون في هذه الدنيا الفانية، وهم يرفضونها حين تأتي إليهم صاغرة. ولكنهم عند النوم يحلمون بالقصور الباذخة تحف بها الحدائق الغناء وتعلو من جنباتها قهقهة الجواري الحسان. ويؤتى لهم عند ذاك بالطبيخ الدسم وافخاذ الدجاج، تتلوها صحون البقلاوة. وهم ياكلونها وياكلون أصابعهم معها ـ هنيئاً مريئاً.

هوامش الفصل التاسع:

(1) **انظر: وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص** 40 .

(2) **انظر:** Dalbiez, Psychoanalytical Method. Vol.l, p 166.

(3) **انظر** : Ibid, Vol.I, p 57.

(4) **انظر:** Hadfield, Dreams and Nightmares. p. 37.

الفصل العاشر

فرويد والأحلام المؤلمة

عيب فرويدي آخر:

ذكرنا في الفصل الماضي أحد عيوب فرويد، وهو تأكيده على العامل الجنسي في تفسير السلوك البشري بصفة عامة، وفي تفسير الأحلام بصفة خاصة. ونود هنا أن نذكر عيباً آخر من عيوب فرويد، وهو خاص بالأحلام المؤلمة أو ما يسمى بالكابوس أحياناً.

إن فرويد فسر الأحلام بأنها محاولة لتحقيق الرغبات المكبوتة في الإنسان. وهنا هب الناقدون في وجهه يسألونه: "بماذا تفسر الأحلام التي توقظ الإنسان من نومه مرعوباً؟ أهي كذلك محاولة لتحقيق الرغبات المكبوتة؟" .

فالإنسان قد يحلم بالفضيحة المخزية تحيط به، أو يرى كأنه يهوي من ارتفاع شاهق، أو كأن غولاً موشكاً على افتراسه. فإذا كان الحلم عبارة عن "تحقيق رغبة" كما يقول فرويد، فكيف يتأتى للإنسان أن يحقق رغبته على هذا النمط المؤلم؟ أيحبُ أن يفترسه الغول مثلاً، أم يشتهي أن يسقط من المأذنة فيتحطم رأسه؟

ولو أن الأحلام المؤلمة قليلة بالنسبةإلى الأحلام السارة لهان الأمر؟ ولكن الأمر على

العكس من ذلك. يقال أن أحلام الغضب والحزن والخوف هي ضعف أحلام الفرح والسعادة. ويبدو أن الأحلام المؤلمة تزداد بازدياد عمر الانسان[1].

فماذا يقول فرويد إزاء هذا الاعتراض الوجيه؟

تعليل فرويد:

لم يعدم فرويد هنا سلاحاً يدافع به عن نظريته. فهو يقول ان الانسان في نومه، كما هو في يقظته، يرزح تحت وطأة عاملين متعاكسين: عامل الشهوة العارمة من جهة، وعامل الرقيب الأخلاقي من الجهة الأخرى.

إن الإنسان يشتهي ان يحقق رغباته المكبوتة، ولكنه يجد إزاء ذلك شعورا بالذنب وتكبيتاً من الضمير. وهو عندما ينام لا يستطيع ان يندفع في اشباع شهواته إلى اقصى الحدود، إذ ان الضمير يهدده ويرعبه لكي يريه عاقبة اندفاعه وراء الشهوات المحرمة.

فالكابوس في رأي فرويد هو صورة من صور العقاب يفرضه الضمير على الانسان اثناء نومه. انه إذن يحقق رغبة الذات المثالية وما دامت الشخصية تحتوي على ذات حيوانية وذات مثالية، فإن أحلامها لا بد ان تكون على نوعين، لذيذة ومؤلمة[2].

رأي الدكتور الكسندر:

الدكتور الكسندر هو احد اتباع فرويد، وهو مدير معهد التحليل النفسي في شيكاغو. وفي نظره ان الأحلام تنتج عن قوتين متصارعتين: أحدهما تحاول تحقيق الرغبة، والأخرى تتجه عكس ذلك حيث تريد قمع الرغبة.

يقول الكسندر: "إن الحلم المؤلم هو محاولة لتخفيف التوتر الناتج من تبكيت الضمير. والضمير لا يرتاح إلا بالتألم"[3].

حلمت إحدى الفتيات ذات ليلة كأن فيلاً ضخماً يهجم عليها بخرطومه. فاستيقظت مرعوبة. والخرطوم في لغة الأحلام يرمز إلى عضو الذكورة. ولعل الفتاة كانت في يقظتها تشتهي ان تنال هذا العضو ولكنها كانت في عين الوقت تخشى منه. فهو محرم عليها وقد يؤدي بها إلى العار وسوء السمعة. إنها تميل إليه

وتخاف منه في آن واحد. ولهذا كان حلمها مؤلفاً من الخرطوم اللذيذ ومن الفيل المرعب معاً.

والحياة البشرية تجري كلها على هذا النمط، فلا بد ان يختلط فيها الألم واللذة. ومن الصعب ان نجد فيها الماً خالصاً او لذة خالصة. ولا بد دون الشهد من إبر النحل ـ كما قال الشاعر العربي.

الرغبة الماسوخية:

ويضيف فرويد إلى تعليله السابق امراً آخر. فهو يقول ان بعض الناس يرغبون في الألم كما يرغب بعضهم الآخر في اللذة. فنحن نجد في الحياة اشخاصاً يشتهون أن يقع عليهم اعتداء إو إهانة. وهم يشعرون اثناء ذلك بمنتهى الرضا والغبطة. وهؤلاء قد يلجاون احياناً إلى احلام اليقظة لينفسوا بها عن رغبتهم الشاذة هذه. فتراهم يتخيلون انفسهم في وضع مشبع بالحرمان والأذى وهم يتأوهون ويبكون. وكلما اجمع الناس على إيذائهم شعروا من جانبهم بالسعادة.

ويعتقد فرويد ان هذه الرغبة "الماسوخية" هي من اسباب الأحلام المؤلمة[4]. فالذي يشعر بها في يقظته قد لا يحب الافصاح عنها امام الناس وهو لذلك يحققها في منامه كما يحققها في احلام يقظته احياناً.

الرأي الأخيـر:

المظنون ان التعليل الفرويدي للأحلام المؤلمة غير واف بالمرام. ولعله لا يخلو من تعسف او تكلف. وهو يعّد من نقاط الضعف الأصيلة في نظرية فرويد.

لقد حصر فرويد نظريته في نطاق ضيق جدا. فهو يريد من الاحلام كلها ان تكون وسيلة لتحقيق رغبة مكبوتة. فاذا وجد في بعض الاحلام مروقا عن ذلك ، لجا الي التبرير والتأويل لكي يرجعها اليه. وهنا يظهر عليه التكلف.

ويبدو أن موضوع الأحلام ليس مجرد تحقيق رغبة كما يخيل إلى فرويد، إنما هو بالأحرى مشكلة نفسية نشأت عن تلك الرغبة[5].

إننا لا ننكر صحة الراي الذي جاء به فرويد في تعليل كثير من الأحلام. ولكن

الأحلام مع هذا تحتاج إلى تعليل آخر في الوقت ذاته. ويتضح ذلك إذا درسنا النفس البشرية بوجه عام وأدركنا ما تحتوي عليه من عقد ومشكلات.

النوم واليقظة:

وهنا يجب ان نذكر ان النوم واليقظة وجهان لحقيقة واحدة، هي الطبيعة البشرية. والملاحظ ان ليس هناك حد فاصل بين النوم واليقظة لدى الانسان. فالإنسان لا يخلو من نوم أثناء يقظته، ولا يخلو من يقظة أثناء نومه. وما الأحلام التي يراها الانسان في نومه إلا صورة مضخمة لما يجري في اليقظة من خواطر وأوهام عجيبة. ويستطيع أحدنا أن يفهم كنه الأحلام حين ينطرح على فراشه يريد النوم. إنه يشعر حينذاك بأن الخواطر التي كانت تجول في افكاره اثناء اليقظة اخذت تتجسم تدريجياً. وهو كلما تعمق في النوم ازدادت تلك الخواطر في ذهنه وضوحا، حتى تمسي أخيراً كأنها حقائق راهنة، وهو يكاد يلمسها لمس اليد. وعندئذ نقول عنه انه بدأ يحلم.

يقول سينل: "وليس الحلم إلا تفكيراً، كل ما هناك من فرق بينه وبين تفكير اليقظة أن حاستي السمع والبصر، وهما حاستا قانون التفكير ونظامه، قد تخلتا عن واجبهما، فاضطربت أداة التفكير واخذت تتخبط خبط عشواء، كما تضطرب ساعة الحائط وتختل إذا انتزع منها البندول. فإذا زال ما يحيط بالأفكار من حقائق بدت كأنها هي الحقائق نفسها، وخيل إلى الإنسان أن ذكرياته عن الأشخاص والمناظر أشياء مجسمة ترى وتلمس وإن تكن مختلطة مهوشة..." (6).

وقد حاول أحد الباحثين تحليل الاختلاط والتهويش اللذين يعتوران الأحلام فعزاهما إلى الاختلاط في حلقات التتابع المنطقي. فانت مثلاً قد ترى في منامك كأنك تمسك في يدك كماشة، ثم تجد الكماشة قد استحالت إلى قرد حالاً. وسبب ذلك أن الكماشة قد ذكرتك بمقرض التذاكر، ثم برحلة في قطار، ثم بحديقة الحيوانات، ثم ببيت القردة، ثم بالقرد نفسه. ولكن هذا التتابع قد جرى في ذهنك بسرعة مدهشة، فبدى القرد والكماشة متلاحقين، أحدهما وراء الآخر، دون سائر الحلقات. وعندما تستيقظ تشعر بأن الحلم كان سخيفاً أو غير معقول. ولكنه في حقيقة أمره قد جرى حسب خطوات من التفكير المنطقي المعقول (7).

اختلاف النوم واليقظة:

ونحن مع اعترافنا بوجود وجه التشابه بين النوم واليقظة، لا يجوز ان نغض الطرف عن وجود وجه للاختلاف بينهما في الوقت ذاته. وهذا الاختلاف يظهر بجلاء في كثرة الرموز التي تلجأ إليها الأحلام في تصوير افكارها. والظاهر ان النائم لا يسهل عليه تخيل الأفكار المجردة إلا إذا جعلها في اشكال محسوسة. فانت حين حلمت برؤية الكماشة في يدك إنما اردت ان تعبر بها عن بغضك لأحد اعدائك. أما القرد الذي رايته بعد ذلك فربما كان رمزاً يشير إلى عدوك الذي كنت تطلق عليه اسم "القرد" في حديثك عنه.

والمظنون ان الأحلام ترجع بالانسان إلى اطواره البدائية الأولى. وهذا هو ما يذهب إليه الأستاذ يونغ واتباع مدرسته[8]. ويونغ من الذين ثاروا على فرويد وحاولوا اصلاح نظريته كما هو معلوم.

يقول سلامة موسى: "ونحن ننحدر في النوم إلى درجة التطور الحيواني، حتى اننا في الأحلام نجد التفكير يجري بصور متتابعة خالية من الكلمات إلا قليلاً جداً، لأن اللغة طور جديد راق في البشر، والحلم هو ردّة إلى العواطف التي لا تحتاج في تعبيرها وعربدتها إلى لغة. ولما كان الحلم خالياً في الأغلب من الحديث والكلمات فإنه يسير بالرموز. ومن هنا الصعوبة في تفسيره. كما اننا نستطيع ان نستنير به في الوقوف على نشاة التفكير عندنا"[9].

تعليل الأحلام المؤلمة:

حين ندرس الأحلام المؤلمة في هذا الضوء لا نجد فيها أي سر او غموض. ولسنا إذن في حاجة إلى التعليل المتكلف الذي لجأ إليه فرويد فيها.

إن الأحلام المؤلمة تشابه من بعض الوجوه تلك الخواطر المؤلمة التي تستحوذ على الانسان في يقظته، وهو لا يستطيع منها فكاكاً. إنه يتأفف ويتململ فيها، كأنه يحمل عبأ ثقيلاً. وكلما حاول إزاحة العبء عن ظهره إزداد العبء عليه ثقلاً.

والواقع ان الشخص المهموم يعاني في نفسه صراعاً عنيفاً. إنه يعاني ثقل الهم من جهة، وهو يفكر في طرد الهم من الجهة الأخرى. فإذا نام وخفت لديه صوت العقل

الواعي. انتهز الهمّ الفرصة واخذ يجول ويصول بأسلحته الرمزية التي قد توقظ النائم صارخاً مرعوباً.

في ضوء التنويم المغناطيسي:

من الثابت علمياً ان التنويم يشبه النوم الطبيعي من حيث غياب الحس لدى النائم، إنما هو يختلف عنه بكونه يقع تحت تأثير الإيحاء الذي يسلطه المنوم عليه[10].

فإذا نوّم المنوّم وسيطاً له واوحى إليه بانه يرى خطراً محدقاً به شعر الوسيط حالاً بالخطر، واخذ يستغيث منه.

ومن التجارب العلمية التي اجريت في هذا الصدد: ان أحد الباحثين نوّم رجلاً ثم رمى إليه بقطعة من قماش واوحى إليه بأنها كلب. فصدق الرجل بما أوحي إليه وتصور قطعة القماش :انه كلب حقيقي وظل يعتبرها كذلك بعد استيقاظه[11].

وهذه التجربة تساعدنا على فهم طبيعة الأحلام المؤلمة. فالإنسان يتلقى اثناء يقظته كثيراً من الإيحاءات الاجتماعية التي تشبه إيحاء التنويم[12]. فالناس يقولون له انه سيرسب في امتحانه، أو سيفلس في تجارته، أو سيموت تحت عجلات سيارة طائشة، أو سيطرد من وظيفته. وتتغلغل هذه الأقوال في عقله الباطن، إذ هو يحاول كبتها أو طردها من ذهنه دون جدوى. وكثيراً ما يوحي الانسان لنفسه اموراً ابشع مما يوحيها إليه الناس. فهو يتخيل اباه أو ابنه ميتاً، أو يتخيل بيته منهدماً عليه وعلى عائلته. وهو يداري هذه الخيالات المخيفة بتفكيره الواعي. فإذا نام ظهرت في أحلامه كانها حقائق، فيستيقظ وقد جف ريقه من شدة الهلع.

حادثة شخصية:

حدثت هذه الحادثة في ايام صباي وكنت بطلها الهمام. وخلاصتها أن صبياً اصغر مني عمراً أوقعه القدر في يدي، واردت أن أضحك عليه. فأخذت أحدثه عن أهوال الجن والعفاريت والغيلان. فرايت الرعب بادياً على وجهه. وقد دفعني الخبث إلى التمادي في حديثي المرعب. فقلت له: إن العفاريت ستظهر له في نومه وتأخذ بخناقه وتنهشه بانيابها الفظيعة.

وذهب الصبي إلى حال سبيله، فنسيت القصة وظننت ان الصبي سينساها ايضاً. ولشد ما كانت دهشتي حين وجدت اهل الصبي يأتون في صباح اليوم التالي، وعيونهم تقدح شرراً. وتبين ان الصبي حدثهم عن أهوال العفاريت على منوال ما حدثته بها، ثم رآها في المنام وهي تهاجمه من كل جانب، فلم يقدر على النوم تلك الليلة من شدة الهول، وظل يصرخ مرة بعد مرة حتى الصباح. ولا تسل عما فعله اهل الصبي بي في الصباح. فقد انتقموا له مني، واروني عفاريت النهار عوضاً عن عفاريت الليل.

حكمة عامية:

جاء في احد الأمثال المصرية الدارجة: إن الذي يخاف من العفريت يطلع عليه. ولا يخفى ما في هذا المثل من حكمة نفسية كبرى. ونحن نستطيع أن نجد مصداقها في اولئك الرعاديد الذين يرون في الأزقة المظلمة أو الحمامات القديمة عفريتاً من الجن يخرج عليهم ليطلقون سيقانهم للريح صارخين.

ويجب ان لا ننسى هنا ان الخوف طبيعة لازمة في كل انسان. فليس في الدنيا بشر لا يخاف. انما يختلف الناس بعضهم عن بعض في درجة الخوف الذي يعتريهم عند الخطر. ومهما كان الانسان شجاعاً،فهو لا بد ان يشعر بشيء من الخوف احياناً. ولكنه لا يحب ان يظهر الخوف عليه. فإذا نام انطلق الخوف المكبوت في احلامه واخذ يزعجه ويقض عليه مضجعه.

قانون كويه:

ومما يساعدنا على فهم ذلك ما جاء به الاستاذ كويه، الباحث الفرنسي المعروف. فقد اكتشف هذا الباحث في اغوار النفس البشرية قانوناً له صلة بموضوعنا الذي نحن فيه.

يقول كويه: إذا سيطرت فكرة على انسان بحيث صارت متغلغلة في اغوار عقله الباطن، فإن كل الجهود الواعية الذي يبذلها الانسان في مكافحة تلك الفكرة تؤدي إلى عكس النتيجة التي كان يبتغيها منها[13]. ولشرح هذا القانون نأتي بمثل راكب الدراجة وهو مثل يعرفه كل مبتدىء في تعلم الركوب عليها، إذ هو لايكاد يرى زجاجة مكسورة امامه في الطريق حتى يجد نفسه مدفوعاً هو ودراجته نحوها.

وهو كلما أراد التجنب عنها اشتد اتجاهه نحوها. ثم يرى عجلة الدراجة قد سارت فوق الزجاجة رغم انفه. وهو قد يعجب كل العجب كيف استطاعت يده أن توجه الدراجة نحو تلك الزجاجة اللعينة، مع العلم انه عاجز عن توجيه الدراجة حين يريد،قيد شعرة.

وتعليل ذلك أن المبتدىء في ركوب الدراجة يرى الزجاجة المكسورة في الطريق، فيخشى أن يتمزق إطار دراجته بها. وهذه الخشية منه تتغلغل في عقله الباطن وتسيطر عليه. وهي إذن تدفعه دفعاً نحو الزجاجة. اما إرادته الواعية في تجنب الزجاجة فهي تضره في هذا المجال، لأنها تزيد من حدة الفكرة المسيطرة على عقله الباطن. وكلما ازداد حرصاً على تجنب الزجاجة اشتد اندفاعه نحوها.

ومثل هذا ما يحدث للماشي على حافة جدار عال. انه يسقط في أرجح الظن. وسبب ذلك أنه ينظر إلى الأرض تحته فيخاف من السقوط ولكنه يشجع نفسه ويتظاهر بالجراة والمقدرة البهلوانية، فيزداد خوف السقوط فيه قوة، وهو قد يدفعه إلى السقوط فعلاً.

مشكلة الإرادة البشرية:

الواقع أن الإنسان غير قادر على قمع فكرة متغلغلة في عقله الباطن، إذ هي تزداد قوة كلما أراد الانسان قمعها ومكافحتها. ونجد امثلة على هذا في كثير من شؤوننا اليومية. فنحن نريد أن نتذكر إسماً من الأسماء، ولكننا نجد اننا نسيناه ويشتد نسياننا له بمقدار ما نحرص على تذكره. فإذا ينسنا منه وتركناه غير مكترثين له، لمع في ذهننا فجاة ـ كمثل تلك الحبيبة اللئيمة التي تجود بالوصل من حيث لا ينفع الوصل.

وقد يرى أحدنا منظراً مضحكاً في مأتم، وهو يود ان يكتم ضحكه لئلا يغضب عليه الناس. ولكن الضحك يشتد به وهو يكاد ينفجر به. فإذا خرج من المأتم وزال عنه الخوف من الضحك، زال الضحك معه.

والانسان قد يحاول النوم أحياناً فيمتنع النوم عليه. ويأخذ بالتقلب على فراشه كانه يطلب المستحيل. مع العلم انه قد ينام في المقهى او في السيارة وفي اي وقت لا يريد أن ينام فيه.

النفس الخبيثة:

عجيب أمر هذه النفس البشرية. فلقد وجدناها تنقلب إلى خصم لنيم حالما نطلب العون منها. وبهذا يصدق عليها المثل الدارج: "اردناه عوناً فصار فرعوناً".

فنحن لا نكاد نخاف من شيء ونحرص على تجنبه، حتى نرى الخوف قد استحال إلى اندفاع عارم نحو ذلك الشيء الذي أردنا التخلص منه.

وقد يجوز لنا إذاً ان نقول بان المخاوف تنقلب إلى رغبات حين يقع عليها كبت من الإرادة الواعية. فإذا ضعفت الإرادة الواعية في النوم ظهرت المخاوف كانها رغبات كامنة تنشد التحقيق. ويخيل لي ان فرويد لم يفطن إلى هذه الحقيقة. ولو أنه عرفها لاستطاع ان يعلل الأحلام المؤلمة تعليلاً وافياً، ضمن الإطار المحدد له، دون أن يلجأ إلى التكلف والتأويل المصطنع.

الأحلام المخجلة:

قد يرى الانسان في بعض الأحيان احلاماً مخجلة كمثل ما يرى احلاماً مفزعة. فقد يحلم ذات ليلة كانه يتغوط في الشارع أمام الرائح والغادي أو هو يجلس مكشوف العورة في حفلة مزدحمة بالناس. فيستيقظ وهو شاعر بالخزي.

من الممكن تفسير هذا النوع من الأحلام بان صاحبه كان قد اصيب في بعض ايامه الماضية بفضيحة اخجلته. فهو يتذكرها في يقظته مرة بعد مرة ويحاول أن ينساها عبثاً. وكلما حرص على نسيانها انبعثت فيه بدرجة اقوى.

وهذه الفضيحة قد تظهر في النوم بصورة رمزية. فالرقيب الخلقي قد يمنع الحالم من استعادة فضائحه كما وقعت تماماً. ولهذا فهو يستعيدها على نمط بدائي، ويصير عندئذ كالطفل الذي لا يجد حرجاً من التغوط في الشارع أو إظهار العورة امام الناس.

هوامش الفصل العاشـر:

(1) انظر : Eyessenck, Sense and Nonsence Psychology, p. 144.
(2) انظر: Hadfield, Dreams and NIghtmares, p. 32.
(3) انظر: Elexander, Fundamentals of psychoanalysis, P. 150.
(4) انظر: Hadfield, op. cit. P. 32 –33.
(5) انظر: Ibid, p. 30.
(6) انظر: سينل، الحاسة السادسة، ص 71 - 72 .
(7) انظر: المصدر السابق، ص 72 .
(8) انظر: Hadfield, op. cit. p. 88.
(9) انظر: سلامة موسى، عقلي وعقلك ، ص 59 .
(10) انظر: Woodworth, Study of Mental life.
(11) انظر: Humphrey, Story of Man's Mind, p. 269.
(12) انظر: علي الوردي، شخصية الفرد العراقي. ص 24 .
(13) انظر: Baudsuin, Suggestion and Autosuggestion, p. 116.

الفصل الحادي عشـر

التنويم الاجتماعي

تجربة نفسية:

شهدت في عام 1948 تجربة علمية في التنويم المغناطيسي لها دلالة نفسية كبيرة. وقد اجريت هذه التجربة في جامعة تكساس الأمريكية، وحضرها آلاف الطلاب وكثير من المتفرجين غيرهم. وكان القائم بها منوِّم معروف اسمه بولكا حسب ما اتذكر.

وخلاصة التجربة أن المنوم اختار من بين الطلاب شاباً له قابلية كبيرة للتنويم. فجاء به إلى المسرح ونوّمه أمام الحاضرين، ثم أوحى إليه انه بعد استيقاظه من التنويم سيلقى خطبة رنانة في موضوع الكشافة. ولكنه سوف لا يبدا بالخطبة إلا عندما يلمسه المنوِّم بأطراف أصابعه على راسه.

وعندما استيقظ الشاب شعرنا بانه نسى ما أوحى إليه المنوم اثناء التنويم. ولم يكد المنوم يلمس راسه حتى تغيرت ملامح وجهه وبدا كانه يعد نفسه لالقاء كلمة. فتوجه نحو الجمهور واخذ يتنحنح ثم شرع يلقي عبارات منمقة في مدح الحركة الكشفية وفي الدعوة إليها. وكلما حاول المنوم ردعه عن إلقاء خطبته اصر هو على التمادي فيها.

وضج الحاضرون بالضحك. وصاروا يصرخون به ان يسكت. فلم يكترث

لصراخهم، وظل يلقي خطبته كأنه مدفوع إليها بدافع لا شعوري قوي. لقد كان في عالم آخر غير العالم الذي كنا فيه. ولم يستقر إلا بعد أن أنهى الواجب الذي فرض عليه أثناء التنويم.

إن هذه الظاهرة التي شهدتها تعرف في علم النفس باسم "إيحاء ما بعد التنويم" . والمعروف عن فرويد انه كان على علم بها، وهي التي دفعته إلى اكتشاف العقل الباطن في الانسان، قيل انه رأى ذات يوم رجلاً يدخل تحت تأثير التنويم المغناطيسي ثم يوحى إليه انه بعد استيقاظه سوف يسرع إلى فتح الشباك حالما يسمع سعالاً من الشخص الذي نوّمه. واستيقظ النائم وهو غافل عما أوحى إليه اثناء التنويم. ولكنه لم يكد يسمع السعال حتى اسرع إلى الشباك يفتحه، دون ان يدرك لما فعله سبباً" (2).

والواقع ان إيحاء ما بعد التنويم لا يقتصر اثره على الساعة التي تلى الاستيقاظ من التنويم مباشرة. إنما يشمل أثره مدة طويلة قد تبلغ الشهور العديدة والأعوام.

لنفرض اننا نوّمنا شخصاً واوحينا إليه بانه سوف يرقص في الشارع بعد مرور سنة كاملة عليه، وذلك عندما يسمع ساعة المدينة تدق اثني عشر دقة. وما ان تنقضي السنة ويحل الوقت المعين إذ تدق الساعة فيه دقاتها المنتظرة حتى يشعر صاحبنا برغبة شديدة نحو الرقص في أي مكان يكون فيه.

إنه قد يكبت رغبته تلك او يداريها خجلاً من الناس، ولكنه يحس على أي حال بالميل إلى الرقص، ولا يستريح حتى يحقق ذلك الميل على وجه من الوجوه. ولعله ينتهز اية فرصة تسنح له فيطلق لرقبته وكتفيه، او لبطنه وردفيه، العنان ويأخذ بهزها كما يشتهي. وهو لا يتردد بعدئذ ان يختلق الحجج والأعذار لتبرير رقصه السخيف ذاك.

مغزى هذه الظاهرة:

من العجيب حقاً ان نجد انساناً عاقلاً واعياً وهو يندفع في عمل ما إندفاعاً لا شعورياً دون ان يعرف السبب الذي دفعه إليه. وهنا يأتي فرويد فيقول ان ليس في هذا الأمر عجب. ففي رأي فرويد ان كثيراً من اعمالنا تجري على هذا المنوال، ولكننا

نحاول أن نستر عليها أو نختلق لها المبررات المعقولة، فتبدو في نظر الناس كأنها من أعمال العقلاء، بينما هي إلى أعمال المجانين أقرب.

فنحن قد نرى شخصاً لأول مرة فنشعر بكراهية شديدة له، ونود أن نهجم عليه فنمسك بتلابيبه ونشبعه لكماً وصفعاً. مع العلم اننا لم نعرفه من قبل، وليس لنا عداء سابق معه. فلماذا كرهناه إذن؟.

يعتقد فرويد اننا كرهناه لأنه ذكّرنا بشخص آخر نكرهه. وهذا التذكير لا شعوري ينبعث من العقل الباطن وليس له علاقة بتفكيرنا المنطقي أو حبنا للحق والحقيقة - كما ندعي أحياناً.

ونستطيع تشبيه الكراهات القديمة المدفونة في العقل الباطن بإيحاء ما بعد التنويم. فإذا آذاك شخص ولم تستطع الانتقام منه، بقيت رغبة الانتقام كامنة في أغوار نفسك. ولا تكاد ترى شخصاً له شبه بذلك الذي آذاك من قبل حتى تظهر عليك الرغبة في الانتقام منه من حيث لا تدري.

والناس يتفاوتون في مدى ما يستجيبون به لدوافعهم اللاشعورية. فمنهم من يندفع وراءها من غير خجل، ومنهم من يداريها فلا يحقق منها شيئاً إلا بعد ان يجد من الناس رضى او استحساناً.

وكذلك يتفاوت الناس في اسلوب العمل. فمنهم من يلجأ إلى اليد يصفع بها او الساق يدفر بها. واولئك هم السفلة من الناس. اما المثقفون فيلجأون إلى البراهين العقلية والنقلية يهاجمون بها من يكرهون ولعلهم في ذلك اشد خطراً واكثر بغياً ودناءة.

إن صولة اليد قد يعاقب عليها القانون او يعترض عليها الناس. ولكن صولة البراهين العقلية والنقلية لا ينفع فيها القانون او الاعتراض الاجتماعي. ولهذا نجد المثقف اللئيم يعتدي على الناس دون ان يقف في سبيله احد. وهو لا يستحي بعد ذلك ان يقول انه يجري في اعماله حسبما يريد الله ورسوله او حسبما تقتضيه مصلحة الأمة والوطن...

العقل والسلوك:

يقول فرويد: إن العقل البشري يشبه جبل الجليد العائم في المياه القطبية، حيث يختفي منه تحت سطح الماء تسعة أعشاره، ولا يظهر منه للعيان سوى عشر واحد. ومعنى هذا أن الأجزاء المختفية من العقل هي التي تقرر سلوك الانسان. أما الجزء الظاهر من العقل فليس سوى برقع يحاول الانسان أن يغطي به سلوكه الشاذ.

والباحثون اليوم لا يرون فرقاً أساسياً بين المجنون والعاقل من الناس. ونحن معاشر العقلاء الذين نتمشدق بالأقاويل الرنانة لا نختلف عن المرضى المحجوزين في دار المجانين إلا بالدرجة فقط[3].

كلنا نخضع للحوافز العارمة التي تنبعث من عقولنا الباطنة. ولكننا نبررها ونغطي عليها. أما المجنون فهو لا يملك هذه المقدرة في التبرير والتغطية، إذ هو يندفع بحوافزه اللاشعورية من غير لف أو دوران[4]. فيضحك الناس عليه ويرمونه بالحجارة. ولو علم الناس بما يكمن في عقول العقلاء لضحكوا عليهم أيضاً.

وقد صدق الشاعر العربي حين قال:

وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون.

العقل والمجتمع:

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحد الذي يفصل بين العقل والجنون هو حد اعتباري يتغير بتغير القيم الاجتماعية. فرب وجيه محترم بيننا يعتبر مجنوناً في نطر غيرنا. ولو انتقل أحد هؤلاء المتمشيخين من أرباب الشوارب المفتولة إلى مجتمع متمدن لساقه الناس إلى دار المجانين وتخلصوا منه.

مزية "العاقل" أنه يفهم القيم الاجتماعية ويعرف كيف يراوغها أو يتجنب الاشتباك بها. انه بعبارة أوضح: مجنون لا يحب إظهار جنونه [5]. فهو يسيطر على دوافعه العارمة ولا يفصح عنها إلا بطريقة يراها مقبولة. ولكنه لا يكاد يرى الفرصة مؤاتية حتى يندفع في اشباع شهواته كما يندفع المجنون.

كنت أمر بسوق البزازين ذات يوم فشهدت فيه عراكاً عنيفاً. وكان بعض البزازين يحملون في ايديهم مقاييسهم الحديدية ويهوون بها على رؤوس زملائهم. لقد كانت في الواقع معركة جنونية ليس لرادع العقل فيها نصيب. ونحن إذن ندرس هذه المعركة وامثالها التي تكثر في أسواقنا يجب ان نبحث في طبيعة القيم الاجتماعية التي تسيطر على عقول الناس اثناء المعركة. إنها تحتقر الرجل الحليم الذي لا يرد الإهانة بمثلها او اشد منها. ولهذا فالمعركة تبدا بكلمة بسيطة او بحركة غير ذات بال. ثم تشتد تدريجياً، حتى تصل إلى ما لا يحمد عقباه في معظم الأحيان.

وعندما تنتهي المعركة يأخذ الناس بالتحدث عنها وعن الأبطال الذين بزوا اقرانهم فيها. انهم يصفون فلاناً بانه "مخنث"، وفلاناً بانه "سبع"، فيحتقرون الأول ويحترمون الثاني. وهم بذلك يشجعون الانسان ان يكون سبعاً ضارياً في كل معركة يخوضها. وهو يجد نفسه مندفعاً في هذا السبيل اندفاعاً لا شعورياً يصعب التنكب عنه.

من أوجه الصراع النفسي:

إن الانسان يشعر بالراحة حين يوفق بين رغباته المكبوتة وقيمه الاجتماعية. فإذا كره احداً كرهاً شخصياً، ثم وجد القيم تشجعه على إيذائه، اندفع في الإيذاء مطمئناً كانه يقوم بعمل من اعمال الخير.

وهذا هو سبب ما نرى في الناس من ظلم شنيع، إذ هم يقومون به دون ان يردعهم ضمير أو تمنعهم عنه خشية الله.

إن الضمير لا يستيقظ في الانسان إلا عندما تتناقض الرغبات الشخصية والقيم الاجتماعية وعندئذ يلتاث الانسان وينتابه الندم المرير. وهذا هو وجه من أوجه الصراع النفسي.

وهناك وجه آخر من أوجه الصراع النفسي لدى الانسان، هو الذي ينشا من جراء التصادم بين القيم الاجتماعية ذاتها.

والملاحظ ان القيم الاجتماعية قد لا تكون من نمط واحد في المجتمع الواحد.

فالإنسان قد يجد مثلاً في بيته من القيم ما يختلف عما يجد منها في السوق أو المقهى أو المدرسة أو النادي. وحينئذ يقع تحت تأثير أنواع مختلفة من الإيحاء، وقد يزدحم عقله الباطن بالرغبات المتفاوتة فلا يدري أي جانب يأخذ.

خذ مثلاً هذا الرجل الذي يخرج من بيته وهو شامخ بأنفه يتمطى، فتحسبه من اصحاب العقول الراجحة الذين لا يقومون بعمل إلا بعد تفكير متزن ومنطق سليم. ولكنك لا تدري انه رازح تحت وطأة الإيحاء اللاشعوري الذي سلطته عليه في البيت أمه أو زوجته او احد افراد عائلته. وهو إذن منطلق نحو الهدف الذي أوحى به إليه في البيت، فلا يعرف من الدنيا سواه.

إنه يعاني حينذاك صراعاً نفسياً. فالمجتمع الخارجي يريد منه شيئاً، والمجتمع البيتي يدفعه نحو شيء آخر. وكثيراً ما يقع في مفارقات مضحكة من جراء هذا الصراع. ولعله ينظر في الأمور بمنظار يختلف عن منظار غيره من الناس. وهو يحاول ان يوفق بين هذين المنظارين. فينجح تارة ويخفق تارة أخرى.

يـريد أن يصيـر وزيـراً:

لنفرض ان رجلاً تزوج من إمراة اعلى منه مقاماً. وهي تثابر على تبكيته واستصغاره. فهي تقول له: "ما هذه الحقارة فيك؟ الا ترى فلاناً او فلاناً قد صار وزيراً، وانت باق في وظيفتك الحقيرة لا تعرف سوى المباهاة الفارغة!".

إنها تعيد عليه هذا القول صباح مساء. وهو يرد عليها قائلاً: "سوف تعرفين من انا، اصبري قليلاً!". وهو يخرج من بيته ورأسه مملوءٌ بهذا الإيحاء الخبيث. فتراه لا يعرف من دنياه سوى التكالب على المنصب الوزاري. وإذا به يتزلف إلى هذا العملاق أو ذاك، وهو مستعد ان يقلب الدنيا على رؤوس الناس لتحقيق ما يصبو إليه قلبه، أو ما تصبو إليه زوجته الكريمة.

لقد انحصر تفكير هذا الرجل في إطار ضيق. وليس له من اعماله واقواله سوى هدف واحد، هو أن يجعل زوجته راضية به. ومشكلة زوجته انها لا ترضى به إلا إذا صار وزيراً، إذ هي تريد ان تفتخر بزوجها العظيم أمام زميلاتها، وتشتهي أن يكون آمراً ناهياً، يعزل وينصب، كما يشاء وتشاء هي من ورائه.

أمثلة أخرى:

وأرجو من القارىء أن لا يضحك من هذا الرجل. فلو حلل القارىء نفسه لوجد انه لا يختلف عنه كثيراً. إنه قد لا يحب أن يكون وزيراً، ولكنه لا يخلو من طموح على أي حال. وربما أراد أن يكون شرطياً بدلاً من ذلك. والشرطي له مقام رفيع لدى بعض الناس.

فقد ينشأ الانسان في قرية صغيرة. وهناك ينظر الناس الى الشرطي كما ننظر نحن الى الوزير. فهو يأمر وينهي، ويعاقب ويعفو، دون أن يكون عليه رقيب. والناشىء في مثل هذه القرية قد يجد من أبيه أو أمه أو بعض أفراد عشيرته من يوحي إليه بالسعي وراء المعالي. ومن طلب العلا سهر الليالي!

إن كل طموح بشري لا بد أن يختفي وراء إيحاء لا شعوري. وهذا الإيحاء اجتماعي بطبيعته. فالإنسان يحب أن يرتفع في نظر فرد أو جماعة من الناس. ولا خير في علو ليس له من ينظر إليه ويعجب به.

سحر الكلمة العابرة:

ورب كلمة عابرة يلقى بها احد الناس، فتصبح ذات إيحاء قوي في عقل الانسان. وتراه مأخوذاً بها، حيث تصير حياته سلسلة من المحاولات لتحقيق ما جاء في تلك الكلمة العابرة.

كان رجل يمشي قرب احد القصابين فسمعه يذم بعض الذين يشترون منه اللحم. فهم يشترون لحماً قليلاً لبيوتهم، وهذا في نظر القصاب بخل لا يرضاه الله ولا ترضاه المروءة. وقد أثرت كلمة القصاب هذه في عقل الرجل، فصار يدأب على شراء اللحم الكثير في كل مرة. وهو يضيق على نفسه بذلك. فعائلته لا تحتاج الى هذا اللحم الكثير. ولكنه يريد أن يظهر أمام الناس بمظهر الكريم، ولا يبالي أن يبذر رزقه القليل في سبيل ذك يوماً بعد يوم.

ومن القصص التي لا أنساها قصة أرملة عجوز كانت تسكن في محلتنا القديمة. فقد شتمتها إحدى جاراتها ذات يوم واتهمتها بالفقر المدقع، وقالت أن بيتها لا يعرف الطبخ ولم يوضع فيه قدر على نار.

وكانت هذه الشتيمة بمثابة نقطة تحوّل في حياة الأرملة. فصار معظم حديثها يدور حول شؤون الطبخ. إذ كانت تريد ان تبرهن انها تطبخ في بيتها كسائر الناس وان ما قالته تلك الجارة المعتدية كذب في كذب. وكنت اراها في كل صباح تذهب إلى السوق وبيدها سلة، ثم ترجع لتحدث جيرانها عن غلاء اسعار اللحوم والخضر... وكثيراً ما تقطع حديثها فتسرع إلى بيتها حيث تتظاهر بانها تريد ان ترتب وضع القدر والطبيخ.

وبقيت الأرملة على هذا المنوال مدة طويلة، حتى صارت لا تعرف من دنياها سوى تفنيد ذلك القول الذي فاهت به جارتها وان تتظاهر بعكسه.

من أسرار الطبيعة البشرية:

وقصة هذه العجوز تكشف لنا عن سر هام من اسرار الطبيعة البشرية فانت لا تكاد تعيب الانسان بشيء او تتهمه بصفة مستهجنة حتى تجده قد انتفض غضباً واخذ يحاول تبرئة نفسه من تلك التهمة في كل سبيل. وربما انقلبت حياته من جراء ذلك راسا على عقب.

ورب رجل قال له احد اقرانه في محضر من الناس بانه جبان، فإذا به ينسى كل امر في الحياة سوى ما يبرهن به على نقض ذلك القول، وتراه ينتهز كل مناسبة لكي يظهر بها مقدار شجاعته وقوة صراعه ومراسه.

ونحن مع ذلك لا نستطيع أن ننكر تفاوت الناس من هذه الناحية. فمنهم من يتأثر بالكلمة العابرة اقل مما يتأثر بها غيره، ولكنه على اي حال لا يستهين بها أو ينساها على وجه من الوجوه. ومن الممكن القول انه كلما كان الانسان اكثر نضوجاً وحكمة كان تأثره بالإيحاء الاجتماعي اقل. ولم يخلق الله انساناً كامل النضوج والحكمة ابداً.

الذات والغير:

تميل الأبحاث الاجتماعية الحديثة إلى القول بأن الذات البشرية ليست معلقة في الفراغ، إنما هي متصلة اتصالاً وثيقاً بما يتصوره الغير عنها. فانت تشعر بأن الغير ينظر إليك. ولهذا تصبغ ذاتك بصبغة القيم التي يقيسك الناس بها. فإذا رمقك الناس بنظرات الاعجاب، او خيل إليك انهم ينظرون إليك بها، شمخت بانفك

وظننت أنك أصبحت رجلاً كبيراً محترم الجانب. أما إذا ازدراك الناس واقتحمتك العيون شعرت بالضعة ورمت ان تقوم بعمل يؤدي بالناس إلى احترامك والاعجاب بك.

إن الذات والغير، كما يقول الأستاذ كولي، وجهان لحقيقة واحدة، وهما يولدان معاً. فلا وجود للذات إذن من غير أن توجد بجانبها صورة للغير ناظرة إليها[6]. وقد أخطأ من يدعي بانه لا يهتم بالغير أبداً. فالاهتمام بالغير شرط لازم لظهور الذات في الانسان. ولكن هذا الاهتمام قد يختفي في اللاشعور فيظن صاحبه، خطأ أنه غير موجود.

قد يتبجح أحد الناس بانه يحب الحقيقة خالصة لوجه الله، وأنه يؤثرها على ذاته. وهذا منه كذب ورياء في معظم الأحيان. إنه يحب ذاته قبل كل شيء. ولكن هذه الذات التي يحبها قائمة على نظرة الغير إليها. إن البدوي قد يقتلك من اجل فلس واحد، وذلك حين تأخذ الفلس منه عنوة. فهو يعد ذلك غبناً ويشعر أن الناس سوف يعتبرونه من جراء ذلك ضعيفاً أو مخدوعاً. وتأتي عليه ساعة أخرى فيبذل في سبيلك كل ماله أو يقتل نفسه من اجلك. والسر في ذلك انه وجد في الأمر فخاراً وتخيل أن العشيرة ستتحدث عنه حديث المدح والإعجاب.

وقل مثل هذا عن أي انسان. فانت قد تستمع إلى أقاويله ودعاواه فتحسبه منطقياً في سلوكه. ولكنه في الحقيقة واقع تحت تأثير الإيحاء المسلط عليه في البيت أو الديوان أو المقهى أو السوق. إنه نائم وتحسبه يقظان. وهو لا يختلف كثيراً عن ذلك المسكين الذي أوحينا إليه أثناء التنويم أن يرقص في وقت معين، وعندما حان الوقت أخذ يهز كتفيه أو ردفيه من غير حياء.

عبث المواعظ المثالية:

انهمك الواعظون منذ قديم الزمان بصب النصائح الغالية على رؤوس المستمعين الكرام. المستمعون يصغون إلى الموعظة بكل خشوع. وهم قد يقولون للواعظ عند الانتهاء منها: "أحسنت. بارك الله فيك". ولكنهم لا يكادون يخرجون من مكان الوعظ حتى يرجعوا إلى ديدنهم القديم. وكثيراً ما يرجع الواعظ معهم إليه.

وسبب ذلك أن الانسان يتبع في سلوكه العملي ما توحي به القيم الاجتماعية.

إنه بعبارة أخرى يفعل ما يريد الناس منه أن يفعل. فإذا القى الواعظون عليه تعاليم الأنبياء والأولياء حفظها. ولعله يلقيها على غيره عند الحاجة. ولكنه بالرغم من ذلك لا يتردد أن يسحقها بإقدامه حين يجد في الخضوع لها مهانة.

وقديماً قال العرب: "النار ولا العار" . ولا يزال كثيرون منهم يقولون ذلك حتى يوم الناس هذا.

أعرف شخصاً كان من اكثر الناس انتقاداً للمهور الغالية. فهو يراها ضارة بالمجتمع هادمة لنظام العائلة. وطالما تحدث عن زواج فاطمة ابنة النبي وكيف أن مهرها كان قليلاً جداً. والظاهر انه سمع ذلك من خطباء المنابر فأخذ يردده في أقواله كالببغاء.

ثم جاء وقت خطبت ابنته فيه. وإذا به يطلب المهر الغالي لها، ويدقق في أمر الجهاز إلى درجة عجيبة. ولا لوم عليه فيما فعل. فهو قد كان حينذاك واقعاً تحت تأثير الإيحاء القوي المسلط عليه من زوجته المحترمة في البيت.

إن زوجته تريد أن تباهي زميلاتها بجهاز ابنتها. وابنتها بدورها لا تحب أن تكون دون قريناتها في ذلك. وصاحبنا لا يستطيع أن يتخلص من الإطار الفكري الذي قيده المحيط الخاص به.

خلاصة القول:

نستخلص من هذا أن الانسان هو في حياته الاجتماعية كالواقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي. ومنومه الأكبر هو المجتمع بما فيه من قيم وتقاليد وأنواع شتى من الإيحاء.

وقد صدق رسول الله حين قال:

"الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا!" .

هوامش الفصل الحادي عشر:

(1) هذا الفصل والذي يليه مقتبسان من كتاب مخطوط للمؤلف عنوانه: "الشخصية البشرية" .

(2) انظر: Life Magazine, Vol 22, No. 6 p. 69.

(3) انظر: سلامة موسى عقلي وعقلك، ص 134 .

(4) انظر: Lewis, Psychiatric Movement, p. 167.

(5)انظر: Young, Personality, p. 765.

(6) انظر: Dawson & Getty, Sociolgy, P. 85.

الفصل الثاني عشر

الأحلام الكيشوتية

حب الذات:

اشرنا في الفصل الماضي إلى ان الإنسان يحب ذاته ويريد أن يعلي من شأنها في نظر الناس. ولم يخلق الله انساناً لا يحب ان يرتفع في نظر غيره إلا نادراً.

ويختلف الناس في طبيعة هذا الارتفاع الاجتماعي الذي يشتهونه لأنفسهم. فمنهم من يحب ان يشتهر بالبطولة الحربية، ومنهم من يحب شهرة العلم أو شهرة المنصب أو شهرة المال أو غير ذلك. ومرد هذا الاختلاف إلى القيم والمعايير التي تغرزها البيئة الاجتماعية في ذهن الفرد وبهذا تنشأ في الفرد عقدة نفسية تجعله يسعى وراء تحقيق تلك القيم في كل سبيل.

وإذا اردت ان تكتشف مفتاح شخصية الفرد فابحث عن العقدة التي تسيطر على نفسه. وعندئذ تنجح في معاملته او في اقناعه وتوجيهه قليلاً او كثيراً.

الحيوان الاجتماعي:

وكان القدماء يطلقون على الانسان اسم "الحيوان الاجتماعي"، إذ كانوا يظنون

أن العقل هو الذي يوجه الانسان في مختلف أعماله. وقد تبين خطأ هذا الرأي أخيراً.

الأصح أن نطلق على الانسان اسم "الحيوان الاجتماعي" بدلاً من اسم "الحيوان العاقل". فالانسان لا ينظر إلى الأمور بمنظار العقل المجرد، إنما هو ينظر إليها بمنظار القيم الاجتماعية وما ينشأ في أغوار عقله الباطن من عقد نفسية تجاه تلك القيم.

اجريت ذات يوم امتحاناً على طلبة احد الصفوف التي احاضر فيها، فوجهت إليهم السؤال التالي "إذا سمعت برهاناً قوياً مخالفاً لرايك فهل تقتنع به أم لا؟ ولماذا؟") فكان جواب الكثير منهم انهم يقتنعون بالبرهان القوي حالما يلقى إليهم. وكانت نتيجة الإمتحان انهم رسبوا فيه مع الأسف الشديد.

مشكلة هؤلاء كمشكلة غيرهم من الناس، إذ هم يظنون بانهم يقتنعون بأي برهان ما دام قوياً، وينسون أن قوة البرهان مسألة نسبية. فالبرهان الذي يلائم قيمهم الاجتماعية وعقدهم النفسية يصبح في نظرهم قوياً معقولاً لا ريب فيه ولا شبهة. اما إذا كان على النقيض من ذلك فهو سخيف غير معقول ولو نزل به جبريل عليه السلام.

دون كيشوت:

قصة دون كيشوت مشهورة. فقد دبجتها براعة الكاتب الاسباني المعروف سرفانتس، وتناقلها الناس حتى سارت في شرق الأرض وغربها وترجمت إلى مختلف اللغات.

إنها قصة تعطينا صورة رائعة للطبيعة البشرية. وهي لا تخلو من غلو طبعاً، ولكنها بالرغم من ذلك تكاد تصور خلجات نفوسنا وما يعتورها احياناً من اوهام واحلام. ولعل هذا هو السر في انتشارها بين شتى الأقوام.

كان دون كيشوت، حسب رواية سرفانتس، يعيش في اسبانيا قبل ثلاثمئة وخمسين عاماً. وكان المجتمع الاسباني في ذلك الحين مولعاً بقصص الفرسان المغاوير الذين يلبسون الحديد ويبارزون الخصوم ويدافعون عن المراة والضعيف.

وقد أصبح هؤلاء الفرسان مطمح الأنظار وقدوة لكل من يشتهي أن يكون مشهوراً ذا منزلة اجتماعية عالية.

وشاء حظ دون كيشوت أن يكون من أولئك المعجبين بالفروسية فهو يقرأ عن الفرسان كثيراً ويتمثلهم في خياله ويود أن يكون منهم. فقد سئم من حياته الخاملة المغمورة وأحب أن يخرج بسيفه ودرعه إلى البراري لكي يقوم بالأعمال العظيمة التي يقوم بها الفرسان من أولي السيوف والدروع.

كان دون كيشوت هزيلاً ضعيف الحول. وكان حصانه هزيلاً مثله. ثم وجد في احدى زوايا البيت درعاً قديماً ممزقاً غير لائق. ولكن ذلك كله لم يمنعه من القيام بالمجازفة.

عمد إلى الدرع فاصلحه، ثم ركب حصانه وخرج إلى الناس يتحداهم ويريد مبارزتهم. وهنا تبدأ القصة الكبرى، حيث صار بها صاحبنا المسكين أعظم فارس على وجه الأرض.

انقلبت حياته إلى حلم رائع ضخم. فصار يتخيل اي شيء يريد أن يراه، ويفسر كل ظاهرة بما يشتهي. فإذا نفخ احد الرعاة في بوقه ليستدعي بها اغنامه. ظن صاحبنا انه بوق جندي يرحب به في أحدى القلاع. وإذا رأى قطيعاً من الغنم ظنه جيشاً عرمرماً يقطع الطريق عليه. وهو لا يتردد عندئذ أن ينازل ذلك الجيش الموهوم وينهال عليه طعناً وتقتيلاً.

وحدث مرة أنه رأى طواحين هوائية، فظنها عمالقة تتحداه للمبارزة بأذرعها العديدة. فهجم عليها وأخذ يقاتلها قتلاً عنيفاً حتى سقط عن حصانه مضرجاً بالدماء.

وظل دون كيشوت يقوم بمغامراته على هذا المنوال. فينتصر تارة وينهزم اخرى. وهذا أمر لا مناص منه. فالفارس الهمام معرض للهزيمة كما هو معرض للانتصار. يوم له ويوم عليه!

وهو على كل حال فرح بما آتاه الله من الجلد وقوة البأس والشهامة. وظن بأن

الناس اخذوا يلهجون بذكره ويتغنون بمفاخره. بينما الناس كانوا في الواقع يضحكون عليه.

دون كيشوت بغدادي:

لم تنفرد اسبانيا وحدها بدون كيشوت. فقد ظهر من أمثاله كثيرون في مختلف الأمصار.

في اواخر العهد العثماني ظهر في بغداد رجل يشبه دون كيشوت شبهاً كبيراً. وقصة هذا الرجل معروفة لا يزال اهل بغداد يتناقلون اخبارها. لقد كان الرجل قزماً نحيلاً. ولكنه يريد ان يكون من اولئك اللصوص الأقوياء الذين كان المجتمع العراقي يحترمهم. ومن الممكن أن ينطبق عليه قول القائل: "اضربوني مية واحسبوني من الحرامية".

ومعروف عنه أنه كان يحمل مسدسين كبيرين في حزامه، وكان حديثه لا يخلو من قصص القتل والاعتداء والسطو على البيوت. ويعتبر ذلك من المفاخر. فإذا حدثت حادثة قتل أو سرقة كبيرة، ذهب إلى مركز الشرطة يسأل الناس: هل ورد اسمه بين السراق او القتلة؟

حدّثني أحد الثقات عنه انه كان يشتهي ان يحكم عليه بالسجن في القلعة، لكي يخرج من السجن بعد ذلك فيسميه الناس "قلعلياً" والظاهر ان لقب "القلعلي" في بغداد يومذاك يوازي لقب "الفارس" أيام دون كيشوت. وكان صاحبنا يذهب إلى المحكمة مرة بعد مرة فيعترف أمام الحاكم بانه هو القاتل او السارق في القضية المعروضة ولكن الحاكم يأبى أن يحكم عليه بالسجن يوماً واحداً. فيخرج صاحبنا مدحوراً.

الناس يقولون: "السجن للرجال". وهو يتمنى ان يكون رجلاً بين الرجال. ولكن الحاكم يصر على براءته في كل مرة، كانه يتعمد ذلك لكي لا يفوز صاحبنا باللقب المنشود.

ومن سوء حظه انه كان في حقيقة امره جباناً خوّافاً. فإذا سمع في محلته

صراخاً ينبىء بوجود لص فيها، اختفى في بيته دون أن يحرك ساكناً. حتى إذا هرب اللص او قبض عليه، خرج صاحبنا من بيته وهو يحمل المسدّسين بكلتا يديه ويصرخ "اين هو؟ دلوني عليه!" .

وظل صاحبنا مثل دون كيشوت حالماً طيلة حياته، إذ كان يتخيل بأنه صار في نظر الناس من الأبطال الذين يشار إليهم بالبنان وكان الناس يسخرون به من حيث لا يدري.

دون كيشوت كاظمي:

يعيش في الكاظمية الآن رجل من طراز دون كيشوت البغدادي، إلا انه اتخذ سبيلاً آخر للحصول على المكانة الاجتماعية.

إنه دميم شديد السمرة، وقد اعتاد ان يمشي في الأسواق حافياً وبيده هراوة. وهو يكثر من الترداد على مركز الشرطة، ويعتبـر نفسه وجيهاً ذا نفوذ عريض لدى الحكومة. ولا تكاد تحدث في البلدة حادثة حتى يسـرع مع الناس إلى الشـرطة لينظر في امرها وكيف يعالجها.

إنه يظن نفسه ركيزة البلد، ولولاه لكثر الخصام والقتل بين الناس. فوجاهته وسداد رأيه ينقذان الناس من البلاء احياناً كثيرة. والعقدة الكبرى فيه هي اعتقاده بأنه من قواد المهدي "صاحب الزمان" . ولهذا فهو يهدد الخونة والفساق والظالمين بالعقاب الشديد يوم يظهر صاحب الزمان. وعندئذ سوف يضع القيود في أيديهم ويسوقهم إلى المشانق او السجون.

إنه يمشي في السوق أو يجلس في المقهى، ويتخيل أن الناس يرمقونه بنظرات الإعجاب ويشيرون إليه بالبنان. وهو لا يتردد أن يرفع هراوته يهدد بها من يضحك عليه او يشك في عظمته الحاضرة او المقبلة.

ماهية الأحلام الكيشوتية:

إن الحالة التي رأيناها في صاحبنا الكاظمي وفي زميله البغدادي يصح أن نعدها نوعاً من الأحلام، وهي التي اطلقت عليها اسم "الأحلام الكيشوتية" . نسبة إلى المرحوم دون كيشوت.

وهذه الأحلام تختلف عن أحلام اليقظة من حيث أنها تسيطر على حياة الانسان كلها فتجعله يخلق لنفسه العالم الذي يشتهي أن يعيش فيه. وبهذا تصبح حياته عبارة عن حلم متصل لا انقطاع فيه.

قد يصح أن هذه الأحلام نوعاً من الجنون. ولكن صاحبها يختلف عن بقية المجانين من ناحية معينة، هي أنه يستطيع أن يكسب الرزق وان يعيل اهله ويربي أطفاله كما يفعل العقلاء. وكثيراً ما يسير في أعماله المعاشية والعائلية سيرة غيره من الناس، حيث لا يظهر عليه من الشذوذ فيها إلا قليلاً. وهذا الشذوذ على أي حال محتمل لا ينشأ عنه ضرر اجتماعي كبير.

كلنا دون كيشوت:

حين نسمع قصة دون كيشوت وأمثاله نضحك عليها بملء أشداقنا، ونظن أننا منزهون مما جاء فيها. ولو درسنا أنفسنا دراسة موضوعية لتبين لنا أننا في ذلك مخطئون.

إن قصة دون كيشوت ليست سوى صورة مضخمة لكل إنسان. فكل واحد منا يملك عن نفسه صورة خيالية اكبر مما هي عليه في حقيقة امرها، ولكنه يكتمها في أعماق قلبه ولا يحب أن يعلم الناس عنها شيئاً كثيراً. وتختلف تلك الصورة الخيالية باختلاف العقدة التي تعتور قلب الانسان. فالشاب المراهق يتخيل انه اصبح بجماله وأناقته معبود النساء. والأستاذ الجامعي يعتقد انه بلغ في العلم مكانة لا يدانيه فيها احد، والفقيه يرى نفسه قد فاق الأولين والآخرين بزهده واجتهاده، والوزير يظن انه اعظم ساسة العالم حنكة واخلاصاً. والنائب يعد نفسه ممثل الشعب وعماد الرأي العام، والكاتب يعتقد أن القراء يذوبون إليه شوقاً وهياماً....

وكل واحد من هؤلاء يحفظ الأقوال التي قيلت في مدحه، بينما هو ينسى الأقوال التي قيلت في ذمه. فإذا جامله الناس ووصفوه بالعظمة، قال عنهم انهم اناس افاضل يعترفون بالحق ولا يخشون فيه لومة لائم. اما إذا جابهوه بالنقد المرير قال عنهم انهم حساد ادنياء لعنة الله عليهم.

للإنسان غربال نفساني يغربل به الظواهر المحيطة به. وهو لا يأخذ منها إلا تلك

النواحي التي تعجبه وتلذ له. وهو بذلك يعيش في حلم لذيذ ولا يحب ان يوقظه أحد منه.

أصحاب عقدة النقص:

وهناك من الناس من يكون غربالهم معكوساً، حيث لا يفهمون من الظواهر إلا ما يسوءهم. وهؤلاء مرضى، قد آذاهم المجتمع واحتقرهم مدة طويلة فاعتادوا أن لا يلقوا منه سوى الاحتقار والأذى. إنهم في الحقيقة معجبون بانفسهم ويريدون لها العلم والمكانة. ولكنهم يعتقدون بانهم خلقوا في غير زمانهم وأن الناس لا يقدرونهم حق قدرهم. وقد يدفعهم هذا الاعتقاد إلى الانفصام عن الحياة الواقعية وإلى التحليق في الأحلام الكيشوتية تحليقاً عالياً.

ذو العقل يشقى:

ولا ينكر مع هذا وجود أفراد مرستهم تجارب الحياة، وأوتوا من الحنكة والذكاء قسطاً كبيراً. فاستيقظوا مما هم فيه من حلم لذيذ ولكنهم قليلون.

وهؤلاء يفهمون الدنيا عارية، فيضحكون عليها. ولهم بعض العزاء في هذا الضحك. إنما هم اشقياء فيما سوى ذلك.

ونرى أحدهم يحسن النكتة على نفسه وعلى الناس. وهو يتأمل في الحياة فيراها سلسلة من الرقاعات والمفارقات. ويتمنى أن يكون كغيره من الناس حالماً مخدوعاً. فالحلم اجدى للإنسان من الحقيقة المرة احياناً.

قد يفضل الانسان أن يكون من طراز دون كيشوت يبارز الطواحين الهوائية، على أن يكون من طراز ذلك العاقل المحنك الذي يعرف سر نفسه وسر الطواحين!

الرقاعة البشرية:

اعتاد الإنسان ان يلاحظ الرقاعات التي تبدو من غيره وينتقدها أو يسخر منها. وهو لا يدري انه مصاب بها ايضاً. انه محب لنفسه وهو يميل إلى تبرير رقاعاتها بشتى الأعذار والحجج. وكذلك يبرر رقاعات احبائه واصدقائه المقربين. اما خصومه ومنافسوه فهم في نظره من اكثر الناس رقاعة وسخفاً.

قد يلقى أحدنا خطبة في إحدى الحفلات، فيلوح يديه في الهواء ويهز رقبته وينغم صوته رفعاً وخفضاً. والناس متوجهون بأبصارهم نحوه، فيظن أنهم يكادون يذوبون إعجاباً به وبالوحي الذي ينزل عليه.

وعندما تنتهي الحفلة يحف به الأصدقاء ليجاملوه ويهنئوه على خطبته الرقيعة. وهو يذهب بعد ذلك إلى بيته فرحاً بما آتاه الله من المقام الرفيع. إنما هو لا يدري ماذا كان خصومه ومنافسوه يقولون عنه في غيابه. ولو درى به لحرمه لذيذ الرقاد.

إنه ينظر إلى نفسه كما ينظر المحب إلى حبيبته. أما خصومه فهم ينظرون إليه بمنظار آخر. إنهم يكرهونه ولهم رغبة كامنة في الانتقاص منه وتقليل شأنه. ولهذا صاروا يفسرون كل حركة من حركاته أثناء الخطابة تفسيراً غير لائق.

إنهم يصفونه بالرقاعة. ولو كان مكانهم لفعل فعلهم حين يكون أحدهم خطيباً. إنه حالم وهم مثله حالمون. وكثيراً ما تضيع الحقيقة بين الناس من جراء ذلك.

وظيفة المجاملات الاجتماعية:

اعتاد الناس في حياتهم الاجتماعية أن يجامل بعضهم بعضاً. ولا بأس بعد ذلك أن يتحدثوا عن أحدهم في غيابه بغير ما يظهرون له في حضوره. وهذا ما يعرف عندهم بالغيبة.

ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة أن الغيبة موجودة حيث يوجد الإنسان. إنما هي تقل وتكثر تبعاً لتعقد الحضارة. فكلما تعقدت الحضارة قلت الغيبة فيها، حيث ينشغل الناس فيها بأمورهم عن أمور غيرهم. ولكن الغيبة على أي حال موجودة، لا يخلو منها مكان.

كل إنسان يقترف الغيبة قليلاً أو كثيراً. والعجيب في الإنسان أنه إذ يغتاب غيره يظن أن الناس لا يغتابونه، كأنه كامل في جميع صفاته، فلا يجد الناس فيه عيباً ينفذون منه إليه. ولهذا يشتدّ غضبه حين يخبره أحد النمامين بما جرى في غيابه من حديث سيء عنه. ولو انصف لغضب على النمّام.

إنه يرى الناس يجاملونه فيجره ذلك إلى الاعتقاد بأنهم يتحدثون عنه في غيابه

على منوال ما يجاملونه به في حضوره، مع العلم انه نفسه قد يجامل غيره ثم يغتابه دون ان يجد في ذلك غضاضة.

ومهما يكن الحال، فالمجاملات الاجتماعية تفيد الإنسان إذ هي تعطيه عن نفسه صورة جميلة فتجعله قادراً على تحمل مرارة الحياة.

من مصلحة الانسان ان يأخذ عن نفسه صورة جميلة لكي يندفع في عمله الاجتماعي راغباً. ومن مصلحته كذلك ان يكتم هذه الصورة عن غيره، لكي لا يثير عليه غيرة ذلك الغير. فالغير مثله يملك لنفسه صورة جميلة وهو لا يحب أن ينافسه عليها احد.

يجب عليه ان يجامل الناس إذا اراد من الناس ان يجاملوه. ولا خير في حياة يصارح الناس فيها بعضهم بعضاً ويلقى احدهم الحقيقة المرة في وجه الآخر.

الخمر والأحلام الكيشوتية:

يلجأ الإنسان إلى الخمر احياناً لكي يزداد انطلاقه وراء الأحلام الكيشوتية. فمن مزايا الخمر انه يضعف في الانسان اهتمامه بغيره، وبهذا يستطيع ان يحلق في الخيال فيخلق به العالم الذي يشتهيه.

ويتضح هذا في الحانات الواطئة التي يرتادها سفلة الناس وغوغاؤهم لا سيما في هذا البلد الأمين. ففي تلك الحانات قد يجد الباحث نماذج عارية من الطبيعة البشرية.

لا يكاد احدهم يجلس في الحانة ويشرب قليلاً من الخمر حتى يشمخ بأنفه كأنه أمسى اميراً. وهو قد يبدأ بالغناء، والويل لمن لا يستطيب غناءه.

وقد يقوم صاحبنا بعد قليل يريد ان يسقط "الدول السبع" ويحلف على ذلك بالنبي المصطفى. والمفروض في جلسائه ان يراعوا عواطفه ويجاروه في أمره. وهم قد يسقطون "الدول السبع" بدورهم إذا آن الأوان.

وقد يخرج صاحبنا الشاب فيصرخ بأصحاب الحوانيت قائلاً: "عزلوا يا ناس".

وهو يريد منهم ان يطيعوا أمره فيغلقوا حوانيتهم لكي يذهب بعد ذلك إلى اقرانه فيحدثهم عن بطولته الشعواء.

وقد نجد في هاتيك الحانات افراداً ساكتين. ولكن سكوتهم هذا مريب، إذ يخفي تحته احلاماً كيشوتية كبرى. ولعلهم من اصحاب المزاج الانطوائي، حيث يفضلون ان يتمتعوا باحلامهم وحدهم دون ان يشاركهم فيها احد من اولئك "الحمقى المفضوحين".

أحلام الشباب:

وتشتد الأحلام الكيشوتية لدى الشبان ـ لا سيما المراهقين منهم، ومعظم احلامهم تدور حول الغرام والشهوة الجنسية، وتمتلأ ادمغتهم بالأخيلة "الرومانتيكية"، حيث يشتهون ان يكونوا من اولي الجمال الفائق الذي تتحطم قلوب الفتيات به.

لايكاد احدهم يلمح فتاة او سرباً من الفتيات قريباً منه حتى ياخذ بالتمشدق المصطنع وباطلاق النكات الفطيرة، وبالقيام بالحركات السخيفة التي يحسبها من دلائل الرجولة والعظمة. إنه ينسى نفسه وينسى وجود من حوله من الرجال، ويمسي كأنه نائم لا يحس من دنياه إلا بحلمه اللذيذ.

حين تنظر إليه يخيل إليك انه صار إنساناً آخر. لقد كان قبل لحظة شخصاً اعتيادياً يحدثك ببساطة وبغير تصنع. ثم ينقلب فجأة حين يلمح المرأة، فتبدو عليه شخصية جديدة تشبه شخصية الطيب الذكر دون كيشوت.

ويتضح هذا وضوحاً كبيراً في المواسم الدينية التي يتجمع فيها النساء قرب المقابر او في العتبات المقدسة. وهناك يأخذ الشبان بالدوران حول النساء وهم في اتم زينتهم. ويتغنج احدهم في مشيته وهو يظن بأن النساء كلهن ينظرن إليه ويعجبن بجماله الفتان.

ولهؤلاء الشبان جدول دقيق يعرفون به مواسم النساء والأماكن التي يتجمعن فيها. وهم يحرصون على حضور تلك المواسم، وربما تركوا اعمالهم الضرورية في سبيلها. وهنيئاً لهم فالحياة من غير احلام لا تطاق.

في الأعراس والمواكب:

وتظهر الأحلام الكيشوتية كذلك في حفلات العرس وفي المواكب الدينية المتوافرة عندنا. والناس ينتظرون مثل هذه المناسبات بفارغ الصبر لكي ينفسوا بها عن رغباتهم المكبوتة. وهم يشعرون بغبطة عظيمة حين يجدون النساء ينظرون إليهم ويطلقن الصرخات المعهودة.

ففي الليلة التي تسبق ليلة الزفاف في الأعراس، وهي التي تسمى بليلة الحنّة، يجتمع الأصدقاء في بيت العريس ليغنوا ويرقصوا. وهناك تجلس النساء في شرفات الطابق الثاني لينظرن إلى الحفلة من وراء حجاب.

عند ذلك يتقمص الفتيان شخصية كيشوتية تلائم الجو الرائع الذي يسيطر على الدار. كل واحد منهم يتخيل بانه اصبح مطمح انظار النساء، فياخذ بالغناء أو الرقص او إطلاق النكات لكي يبرهن على انه جدير بتقدير الجنس اللطيف.

وقد لاحظت في المواكب المعروفة عند الشيعة في شهر محرم انها لا تخلو من هذه الظاهرة. فكثير من الذين يتصدرون الموكب او يشتركون فيها يشعرون بنوع من الأحلام الكيشوتية، لا سيما حين يرون النساء ناظرات إليهم من الشرفات او على رصيف الشارع، وهن يطلقن صرخات الويل والثبور.

ونجد بعضهم عند ذاك يلطم من اجل الحسين كما يدعي، بينما هو في الحقيقة يلطم من اجل الفؤاد. وهو يحسب كل صرخة تنطلق من النساء بمثابة هتاف له وتكريم لرجولته الجبارة.

احلام المتعلمين:

ان المتعلمين اضعف في احلامهم الكيشوتية من العوام الأميين. ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون ان يجردوا انفسهم منها. ويظهر هذا لدى الطلاب الذين يدخلون الكليات المختلطة لأول مرة في حياتهم.

فقد ياتي احدهم من بلدة ليس فيها سفور او اختلاط بين الجنسين. ثم يجد نفسه فجاة جالساً على مقعد الدراسة وبجانبه فتاة سافرة دعجاء. فياخذ عند ذلك بإظهار براعته العلمية لكي ينال اعجاب الفتاة. وكثيراً ما يناقش اعتباطاً او يلقي

الأسئلة جزافاً لكي يقول "ها أنا ذا!" والمظنون أن الطلاب يتخلصون من هذه الأحلام تدريجياً عاماً بعد عام. إنهم يعتادون شيئاً فشيئاً على مخالطة الفتيات، فيقل اهتمامه بهن. وقد يهبطون في السنة الأخيرة إلى عالم الواقع الذي لا رياء فيه.

وقد أتيح لي أن أقارن بين طلاب الجامعات الغربية وطلاب كلياتنا فوجدت بينهم فرقاً ملحوظاً. فالطالب الغربي قد اعتاد على مخالطة الفتيات منذ طفولته. وهو لهذا ينظر إلى زميلاته الطالبات كما ينظر إلى زملائه الطلاب، فلا تنتابه إذن أحلام المراهقة على منوال ما تنتاب طلابنا.

الجميل والدميم:

كلما كان الفتى أقل جمالاً وأناقة في الواقع كان أكثر أحلاماً. والأحلام تعويض وسلوى كما لا يخفى. ومعنىذ لك أن الدميم يحتاج إليها أكثر مما يحتاج إليها الجميل الأنيق.

وهذا يصدق على المرأة كثيراً. فالجمال رأسمال المرأة، به ترقى وبه تهبط في معظم الأحيان. ولهذا تلجأ المرأة الدميمة إلى الأحلام الكيشوتية، لتتخيل أنها من أكثر النساء جمالاً وفتنة. وهي تنظر إلى المرآة وتتأمل فمها وأنفها وعينها فتحسبها مقاييس عليا للجمال الصارخ.

والدميمة تنظر إلى جمال غيرها من النساء فتمط شفتيها احتقاراً. وهل يمكن أن يكون لغيرها مثل هذا الجمال الذي تملكه والحمد لله!؟ وإذا وجدت الناس لا يقدرون جمالها انحت عليهم باللائمة ووصمتهم بفساد الذوق.

وقد يصاب الرجل بمثل هذا الغرور الكيشوتي إذا كان دميماً وذا ميل شديد إلى النساء. فإذا وجد نفسه عاجزاً عن اللحاق بأقرانه في عالم الغرام، صار يخلق لنفسه عالماً خاصاً به إذ يصبح فيه معبود النساء ـ والعياذ بالله.

أعرف رجلاً قميئاً شديد السمرة ذا أنف كبير. وقد شاء سوء حظه أن يذهب في بدأ شبابه إلى مرقص من المراقص الشرقية، فهاله ما وجد في المرقص من أرداف ثقيلة وبطون ثقيلة. وساءه أن يرى الراقصات يجلسن مع غيره دون أن يتمكن

هو من الجلوس إليهن أو من لفت نظرهن إليه على أقل تقدير. ومنذ ذلك الحين بدأ يحلم ويتخيل بأنه غدا معشوق الراقصات.

وتدرج الرجل في احلامه حتى وصل بها إلى هوليود، فتخيل ان الممثلات الشهيرات وقعن في غرامه من بعيد. فلقد وصل صيت جماله إليهن فلم يستطعن عليه صبراً. واخذت الهدايا الثمينة تنهال عليه منهن. وغضب الرجل حين علم بأن الحكومة العراقية تحجز عنه هذه الهدايا. واخذ يصرخ ويحتج مهدداً الحكومة بالويل والثبور.

إنه الآن في مستشفى المجانين مع الأسف الشديد!

المراقص الشرقية:

وبمناسبة ذكر المراقص الشرقية أود أن ألفت نظر القارىء إلى أنها في بلادنا من اكثر الأماكن ازدحاماً بالأحلام الكيشوتية.

والغالب في رواد هذه المراقص ان يكونوا من السكارى والرقعاء واغنياء الحرب وشيوخ العشائر. فهم يشعرون بالجوع الجنسي، فيلجأون إليها لكي ينفسوا بها عن جوعهم الخبيث هذا.

يذهب احدهم إلى المرقص بعد ان يصقل خديه ويفتل شاربيه ويلبس اجمل ما عنده من الملابس والجوارب والأحذية. فإذا جلس ظن انه سيكون شمعة الحفل، وأن الراقصات سيقعن في غرامه عاجلاً أو آجلاً.

والراقصة الشرقية ذات خبرة عميقة بالطبيعة البشرية. فعندما تعتلي خشبة المسرح تأخذ بتوزيع بسماتها وغمزاتها هنا وهناك بغير حساب. فيعتقد كل واحد من الجالسين بأن الغمزات والبسمات موجهة إليه وحده. فهو وحده الجميل الأنيق من دون الناس.

إنه ينظر إلى من حوله فيجدهم دونه في الجمال والأناقة. وهو لا يستطيع أن يتخيل راقصة تقع في غرام احدهم. إنهم في نظره مخاليق من طراز ممسوخ أطلق عليهم لقب بني آدم خطأ. فهم بالقرود اشبه. وهو لا يدري انه قرد مثلهم.

المراقص وأحلام الفقراء:

يشعر الفقير بالعجز عن مجاراة الأغنياء وشيوخ العشائر في اجتذاب قلب الراقصة. فهم يستطيعون ان يشتروا بدن الراقصة الناعم بأموالهم الوفيرة، بينما هو غير قادر على ذلك. فيضطر إلى التحليق في عالم الأحلام. ولعله يتمتع في هذا العالم الخيالي اكثر مما يتمتع به الأغنياء في عالم الشحم واللحم.

وقد يلجأ الفقير إلى الخمر لكي يساعده على التحليق في الأحلام الكيشوتية. فهو يذهب إلى الحانة قبل ذهابه إلى المرقص. وهذا سبب الازدحام الذي نجده في الحانات في الساعة التي تسبق ميعاد المراقص.

وكثيراً ما يلجأ الرجل إلى استكمال سكره في المرقص، فيشرب فيه قليلاً من الخمر لكي يواصل التحليق في خياله الجميل.

وإذا خانه القدر اثناء التحليق فقذفه بإهانة تهبط به إلى الأرض تألم كثيراً وربما هاج كما يهيج الثور. فينقلب المرقص من جراء ذلك إلى ساحة حرب، تشهر الكراسي فيها مكان السيوف.

وسائل إلفات النظر:

يمتعض الفقير الذي يرتاد المراقص الشرقية حين يجد نفسه مهملاً لا يشعر بوجوده احد. ويزداد امتعاضه حين يرى الراقصات يمرّن به دون ان يلتفتن إليه.

وحين تلعب الخمرة برأسه احياناً يشتهي ان يقوم بعمل يلفت نظر إحدى الراقصات إليه. إنه واثق بجماله أو جاذبيته الجنسية ولو لم تكن الراقصة مشغولة بأولئك الأدنياء من اغنياء الحرب وشيوخ العشائر لوقعت في شبكة غرامه حتماً. إنه في حاجة إذن إلى وسيلة قوية تجعل الراقصة شاعرة بوجوده، ثم يترك الطبيعة تجري في سبيلها المحتوم.

هناك طرق مختلفة يلجأ إليها الفقراء من رواد المراقص في سبيل لفت نظر الراقصات. وهذه الطرق كثيرة لا مجال هنا لحصرها. ولعل من المجدي ان نذكر في هذه المناسبة بعضها على سبيل المثال:

(1) طريقة المشاركة في الرقص. وهي طريقة شاذة تدل على الرعونة والحمق.

وخلاصتها ان الرجل يحاول تقليد الراقصة في رقصها. فهو يقف على قدميه فيهز رقبته وردفيه. فيضحك المتفرجون عليه، وقد تضحك الراقصة معهم. فيظن هو بانها تضحك له استحساناً وإعجاباً. ولعله سيقف لها بعد انتهاء الرقص عند الباب منتظراً ان تدعوه إلى بيتها.

(2) طريقة اهل الوقار. وهؤلاء يستنكفون ان يكونوا مثل صاحبهم في التهريج المقيت. فهم يجلسون في مقاعدهم بهدوء وسكينة. ويحاولون ان يكون مكانهم قريباً من المسرح لكي تتسلط اضواؤه على وجوههم الجميلة. ففي هذا كفاية لهم.

وقد يتصورون ان الراقصات يؤثرن الرجل الرصين على الرجل الأحمق الذي جعل من نفسه اضحوكة للناس. وقد لا يتردد احدهم مع هذا ان يقف في طريق الراقصة عند انتهاء الرقص متوقعاً دعوتها له إلى البيت العتيد.

(3) طريقة التشبه بالأغنياء المترفين. وصاحب هذه الطريقة يقتصد من قوت يومه بضعة دنانير ثم يذهب إلى المرقص فيستدعي إحدى الراقصات لتجلس معه على مائدة واحدة. وهو يعتقد ان الراقصة إذا جلست معه مرة فسوف تجلس معه مرات. إنها ستعشقه في المرة الأولى وستضطر إلى معاودة الجلوس معه بدافع الغرام الذي لا يرحم. إنه إذن يريد ان يقدم لها الطعم في اول الأمر ليصيدها به وسينعم بعدئذ بلحمها اللذيذ مراراً وتكراراً.

(4) طريقة الثعلب. وقصة الثعلب معروفة. فهو عندما عجز عن نيل العنب اتهمه بغير حق انه حامض. وكثير من رواد المراقص الشرقية يستعملون طريقة الثعلب هذه. إنهم يرون موائد الأغنياء عامرة والراقصات جالسات حولها، فيتألمون جداً. ثم يسلون انفسهم على منوال ما سلى الثعلب نفسه. وإذا بهم يقولون انهم اسمى من ان يهبطوا بكرامتهم إلى ذلك الدرك الأسفل الذي يهبط إليه الأغنياء من اغنياء الحرب. وارجح الظن انهم يشتهون من اعماق قلوبهم ان يكونوا كأولئك اغبياء واغنياء.

(5) طريقة الأدباء. وقد اخذت هذه الطريقة تنتشر في مراقص بغداد أخيراً ويكثر اتباعها. ولعل كاتب هذه السطور من هؤلاء الأتباع الكرام.

إن الأديب يذهب إلى المرقص وجيبه خال إلا من رحمة الله. إنما هو شامخ بانفه

ينظر إلى الناس حوله كما ينظر الفيلسوف إلى الهمج الرعاع. ولا يكاد يستقر به المكان حتى يعلن للناس قائلاً" :أنا هنا" فتتهافت عليه الراقصات كما تتهافت الحشرات على النار. ولا عجب في ذلك فالأديب شمعة تحترق كما يقول عن نفسه. والويل لمن لا يصدقه من راقصات وغير راقصات.

لست أدعي أن هذه حالة كل من يرتادون المراقص عندنا. ولكني واثق بأنها تصدق على الكثيرين منهم. وهم إذ يفحصون أنفسهم قد لا يجدون فيها شيئاً مما ذكرت. ولهم الحق في ذلك. ولعل نزعة التبرير قد غامت على عقولهم فجعلتهم ينكرون حقيقة أمرهم.

وهنيئاً لهم على ما يفعلون. فما أتعس العاقل المحنك الذي لا يستمرىء لذة الأحلام في حياته. إنه لا يشعر بطعم الحياة كما يشعر به أولئك الرقعاء الحالمون.

تلخيص واستنتاج

استعرضنا فيما سبق من الفصول نظريات وآراء متنوعة حول طبيعة الأحلام. ولي أن أقول هنا بأن هذه النظريات والآراء قد تكون في بعض نواحيها متحيزة أو مغلوطة. إنما هي من وجهة عامة ذات مغزى اجتماعي نافع، إذ هي تشير إلى مبلغ ما تورط به القدماء من خطأ وتهافت في تقديسهم لبعض الأحلام أو في تصديقهم بها.

إن الباحثين اليوم قد يختلفون في تعليل طبيعة الأحلام، ولكنهم مع ذلك يكادون يتفقون على ان الأحلام لا تصلح دليلاً على صحة عقيدة من العقائد الموروثة. فلقد اتضح لدى الباحثين ان الأحلام بوجه عام ليست سوى وسيلة يستطيع الانسان بها ان ينفس عن همومه ويستعين بها على مجابهة الحياة القاسية. إنها كما قال احدهم: هبة من الله للإنسان، ولولاها لتحطمت الذات البشرية على صخرة الواقع المرير.

الانسان يشتهي من دنياه أموراً كثيرة. إنه في معظم الأحيان مظلوم أو محروم،

وهو يجد نفسه غير قادر على نيل ما حرم منه أو على الانتقام من ظالمه، فيلجأ عندئذ إلى الأحلام يتخيل بها العالم الذي يشتهيه على صورة من الصور.

ومن الممكن القول بأن الانسان يغلو في التحليق باحلامه كلما اشتدت عليه قسوة الظروف المحيطة به. فلو قارناً بين شخصين احدهما مترف مرتاح والآخر بائس كادح، لوجدنا الأول منهما اقل التجاءاً إلى خيالات الأحلام واكثر التصاقاً بالواقع وفهماً له، إنما هو لا يكاد يذوق شيئاً من مرارة الحياة حتى يمسي كزميله البائس غارقاً في بحر الأحلام.

راينا فيما مضى كيف ان الأحلام تنقسم إلى انواع شتى، واستطيع ان اقول هنا بأن هذه الأنواع المختلفة لا تستحوذ على الفرد كلها بدرجة واحدة، إنما هي تأتيه تدريجاً، نوعاً بعد نوع، بمقدار ما تشتد عليه وطاة الظروف المحيطة.

ومن المناسب ان الخص انواع الأحلام ومدى اثرها في الانسان على المنوال التالي:

(1) احلام النوم: وهذه الأحلام عامة يشترك فيها الناس جميعاً على نمط متشابه، وبها يستطيع الانسان ان يشبع بعض شهواته التي امتنعت عليه اثناء اليقظة، فيفترش حبيبته او يكسر راس عدوه او يطير في الهواء رغم انفس الحسود... ولكنه لا يستطيع ان يتمادى في ذلك إلى ابعد الحدود. فقد تقلب الأحلام عليه ظهر المجن، فيجد نفسه مغلوباً بدل ان يكون غالباً، او ساقطاً بدل ان يكون طائراً. وقد يكسر العدو راسه في الوقت الذي اراد هو ان يكسر راس عدوه. وهذا هو ما أطلقنا عليه اسم الكابوس او الأحلام المفزعة.

(2) احلام اليقظة: وهذه قد تكون أقدر على اشباع الشهوات المحرمة من أحلام النوم، إذ يستطيع الانسان ان يوجهها كما يريده احياناً. فليس عليه إلا ان ينكمش على نفسه ويعتزل الناس. وتراه عندئذ سادراً في احلامه يصول بها ويجول. فيحتضن من يحب ويصفع من يكره وينثر الأموال بين يديه بلا حساب.

(3) الأحلام الكيشوتية. وهذه الأحلام لا تحتاج إلى اعتزال الناس كما تحتاج إليه احلام اليقظة. إنما هي قد تترعرع في حضور الناس. فيصبح صاحبها بها جميلاً تعشقه النساء او مشهوراً يشار إليه بالبنان، وهو يفسر كل إيماءة تبدو من الناس كانها موجهة إليه حيث يتخيلها مفعمة بالاعجاب والاكبار نحو شخصه الكريم.

(4) احلام الجنون: وهذه هي الملجأ الأخير الذي يلجأ إليه الانسان حين تعجز الأحلام الأخرى عن سد حاجته. وهي تدل على أن صاحبها قد يئس من الناس وادرك انهم سوف لا يقدرونه كما يريد هو ان يقدروه. وعندئذ يشطب عليهم وعلى آرائهم جميعاً، ويتخذ لنفسه الجو الذي يلائمه. فهو لا يبالي بما يقول الناس عنه ما دام هو راضياً عن نفسه. وإذا وجد منهم انكاراً أو استهزاءاً أو اذى اقنع نفسه بأنهم مجانين وهو بينهم العاقل الوحيد.

وهنيئاً له. فلقد صار اسعد خلق الله طراً!

* * *

يجب أن لا ننسى أن الشعوب قد تلجأ إلى الأحلام للتنفيس عن همومها على منوال ما يلجأ إليها الأفراد تقريباً. فقد تظهر في الشعوب مثلاً احلام اليقظة على شكل قصص خيالية من طراز الف ليلة وليلة، حيث ينال البطل فيها ما يشتهي من نساء جميلات وقصور فخمة واطعمة دسمة ويتناقل الفقراء هذه القصص متلذذين بها. فيضعون انفسهم موضع البطل من القصة ويتخيلون النعيم محيطاً بهم من كل جانب.

وتظهر في الشعوب كذلك احلام كيشوتية على منوال ما نرى في بعض الطوائف الدينية. فالطائفة من هذه الطوائف قد تكون ذات عقائد وطقوس مستهجنة ولكنها على الرغم من ذلك تعتقد بأنها وحدها الفرقة الناجية من بين الخلق اجمعين. والطائفة قد تذهب في احلامها الكيشوتية إلى ابعد من ذلك حيث تتخيل بأن العقلاء في جميع انحاء الأرض يعترفون لها بالأحقية وينظرون إليها باعجاب. وهي بهذا لا تختلف عن المرحوم دون كيشوت اختلافاً كبيراً.

وهناك نوع آخر من الأحلام الشعبية هو ما نسميه بعقيدة المنقذ الآلهي. وقد حدثنا التاريخ عن بعض الأمم القديمة انها، حيث وقعت تحت وطأة الظلم والاستغلال الطبقي ويئست من انقاذ نفسها عن طريق الواقع، إلتجأت إلى طريق الحلم حيث صارت تتخيل به أن الله سيرسل إليها منقذاً ينتقم لها من اعدائها الطغاة ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً!

وحين ندرس الأساطير التي لا تزال شائعة لدى بعض الشعوب حول عقيدة

المنقذ الآلهي نجدها مترعة بالأماني والخيالات الاجتماعية الجميلة وهي تشير إلى الألم الذي يشعر به الناس تجاه ظروفهم القاسية. إنها تصور السعادة التي سوف تحل بالناس على يد المنقذ وكيف سيرتاحون بها من عنائهم وينعمون بالشبع والري إلى ابعد الحدود.

ومهما يكن الحال فإننا نستطيع ان نقول عن الأحلام الشعبية بوجه عام مثلما قلنا عن الأحلام الفردية هو انها تقل وتذوي كلما تحسنت ظروف الناس وارتفع مستواهم المعاشي. فلو قارنا بين اساطير الشعوب المتحررة الحديثة وتلك التي انتشرت بين الشعوب المستعبدة القديمة لوجدنا بينها بوناً شاسعاً. ولا يجوز ان ننسى هنا اثر الثقافة العامة في تقليل شان الأساطير والأحلام الشعبية بين الناس. وها نحن أولاء نشهد الشعوب الحديثة بدات تستيقظ وتتخذ في حياتها سبيل الوعي الصحيح. وهي لذلك اخذت تترك احلامها القديمة شيئاً فشيئاً وتفكر في امورها تفكيراً واقعياً يقل الخيال فيه.

KMH

القسم الثالث

العلم وخوارق الأحلام

الفصل الثالث عشر

تنبؤات الأحلام

اينما ذهبت في الناس وجدتهم يتحدثون عن تنبؤات الأحلام، ولا تكاد تجلس في مجلس وياتي فيه ذكر الأحلام حتى تجد احد الجالسين ينبري بالحديث عن حلم عجيب فيه شيء من التنبؤ بحوادث مقبلة. اعرف صديقاً له مقدرة فائقة في هذا الشان وقد حدثني عن نفسه ذات مرة فقال انه حائر بامر احلامه لا يدري كيف يعللها، وكثيراً ما يقع له انه يرى حلماً في الليل ثم يتحقق الحلم في اليوم التالي على وجه من الوجوه. ويجري له هذا مرة بعد مرة بحيث اصبح لديه امراً عادياً.

وقص علي صديق آخر عن حلم غريب رآه ثم تحقق الحلم بعد اربعين دقيقة. وخلاصة القصة انه استيقظ ذات يوم مبكراً، فاخذ يقرا كتاباً ثم استحوذت عليه غفوة أثناء القراءة فرأى كان البيت امتلأ ماءاً ثم سقط فيه ولد له عمره ثماني سنوات. واسرع إلى الولد ينقذه من الغرق، وعند اخراجه من الماء وجده ميتاً لا حراك به. فاستيقظ الأب من غفوته فزعاً وقفز باحثاً عن الولد فوجده جالساً مع امه في باحة البيت يتناول طعام الإفطار دون ان يظهر عليه اي شيء مريب.

وبعد ان اتم الولد تناول الطعام اصطحبه ابوه في طريقه إلى المدرسة. وما كادا يتجاوزان عتبة البيت حتى دار الولد على نفسه وسقط على الأرض. فنقله ابوه إلى

المستشفى وتبين بعد الفحص أنه مصاب بمرض السحايا. وبعد أيام قليلة مات الولد بهذا المرض..

قصة أخرى:

وأرسل لي طالب من طلابي القدماء عام 1953 رسالة ذكر فيها القصة التالية:

قال الطالب: انه رأى في منامه ذات ليلة كأن الدار انهدمت عليه. فاستيقظ مرعوباً، ونظر حوله فلم يجد هناك ما يلفت النظر. ونام مرة ثانية فرأى الحلم نفسه. فاستيقظ ونام مرة ثالثة وإذا به ينهض قلقاً فيوقظ زوجته قائلاً لها بأن الدار ستنهدم وأنه يسمع أصواتاً غير اعتيادية من السقف والجدران. وأسرع إلى الشبابيك يفتحها ويتطلع من خلالها نحو الخارج فلم ير شيئاً غير مألوف، وتحسس الجدران فلم يجد فيها ما يشير إلى تصدع أو تضعضع. وبعد أن اطمأنت نفسه نام ثم استيقظ في الصباح كعادته. وما هي إلا لحظات حتى سمع صراخاً وصوت انهدام شديد من دار مجاورة ليس بينها وبينه سوى مسافة قصيرة. وقد مات لسوء الحظ تحت أنقاض الدار المنهدمة شخصان.

حادث شخصي:

إن هذه القصص التي ذكرناها آنفاً هي قليل من كثير مما يتحدث الناس به عن غرائب الأحلام. ولو حاولنا احصاء جميع القصص في هذا الشأن لعجزنا.

وقد كنت في بدء أمري أستهين بهذه القصص وأعدها من قبيل الأساطير أو الأوهام. وبقيت على ذلك زمناً طويلاً حتى وقع لي في ليلة من الليالي حلم أذهلني وجعلني أنظر في أمر تنبؤات الأحلام نظرة جدية.

لا أحب أن أتحدث عن هذا الحلم بجميع تفاصيله، إذ هو يمس بعض أصحابي وخصومي مساساً شخصياً. يكفي أن أقول هنا أني رأيت في الحلم كأن رجالاً من شكل معين منغمسين حتى أوساطهم في مادة قوية لم أتبين كنهها جيداً، وهم يحاولوا التملص منها بكل جهدهم ويبدو عليهم الحنق والحقد ببشاعة واضحة. واستيقظت في الصباح فنسيت الحلم وذهبت إلى عملي خالي البال. وكم كانت دهشتي عظيمة حين وقع لي في عصر ذلك اليوم نزاع مخجل مع شخص له شبه

كبير بالرجال الذين رأيتهم في الحلم. ولم يكن النزاع مما كنت أتوقعه، إنما هو قد حدث على سبيل المصادفة في أرجح الظن.

روايات موثوقة:

إننا نستطيع أن نستهين بالقصص التي يرويها أناس عاديون في أمر تنبؤات الأحلام. ولكن من الصعب أن نستهين بها حين يرويها رواة ثقاة أو باحثون لهم وزنهم في الأوساط العلمية.

من هذه القصص ما نقلها الأستاذ راين. وهي قصة كان راين قد تأكد من صحتها بنفسه وتأكد من وثاقة راويها. وخلاصة القصة ان شاباً رأى نفسه في المنام ذات ليلة كأنه في غرفة بيضاء مضاءة بمصباح سقفي، وقد تمدد فوق منضدة فيها جثمان ميت ارتفعت ركبتاه. وكان الجثمان مغطى لا يبين منه سوى وجهه الذي كان مهشماً بحيث لا يمكن التعرف إليه. فاستيقظ الشاب مرعوباً. وفي اليوم التالي استدعي الشاب إلى المستشفى، وسيق إلى غرفة العمليات الجراحية فيه. وقد دهش دهشة عظيمة حين وجد الغرفة تماثل تلك التي حلم بها في الليلة الماضية. وكان جثمان عمه مطروحاً على منضدة في وسط الغرفة، وقد بدت ركبتاه ناتئتين تحت الغطاء. واتضح ان سيارة دهست عمه اثناء خروجه من بيته صباحاً، فمات متأثراً من جراحه[1].

ويروي الأستاذ راين قصة أخرى عن رجل يعرفه أنه في يوم من أيام شبابه أراد السفر، ولكنه رأى في منامه كأنه يركب القطار وتقع في القطار حادثة اصطدام، فتسقط مدفأة العربة عليه فتؤذيه اذى بالغاً. فاستيقظ خائفاً ورفض ان يسافر من جراء ذلك. وعلم في اليوم التالي ان حلمه قد تحقق، فقد اصطدم القطار فعلاً، وسقطت مدفأة احدى العربات على رجل فقتلته[2].

* * *

ومن الذين عنوا بأمر الأحلام باحث آخر اسمه تيرل، وقد جمع في أحد كتبه عن تنبؤات الأحلام عدداً من القصص غير قليل، ننقل منها على سبيل المثال اثنتين.

الأولى: ان شخصاً بريطانياً اسمه اوكونر أراد السفر إلى امريكا في عام 1912 على الباخرة المشهورة "تيتانيك"، ولكنه رأى في المنام كأن الباخرة موشكة على الغرق

وحولها ركابها وبحارتها يسبحون في الماء. وفي الليلة التالية عاد الحلم إلى اوكونر مرة أخرى، فلم يعره أي اهتمام حيث اصر على السفر. وقبل اسبوع من ابحار الباخرة وصلت إلى أوكونر برقية من أمريكا تامره بتاجيل السفر. فالغى اوكونر بطاقته، وبقي في انكلترا ينتظر برقية أخرى. ولشد ما كانت دهشته حين سمع بان الباخرة غرقت بعد إبحارها حيث اصطدمت بجبل ضخم من الجليد، ولم ينج من ركابها إلا قليل(3).

وجاء في القصة الثانية: أن سيدة رات عمها في منامها ذات ليلة كانه ميت ومطروح في الطريق الذي اعتاد الذهاب فيه إلى الصيد. وكان الحلم واضحاً بحيث شاهدت فيه نوع الملابس التي كان عمها يرتديها وهو مطروح وكيف نقل جثمانه بعدئذ بعربة فيها شيء من القش ويجرها حصانان إلى داره، وكيف تناول الجثمان عند باب الدار رجلان فصعدا به السلم، وكيف كانت يد الميت مدلاة أثناء حمله حيث ارتطمت بجدار السلم. رات السيدة في نومها كل ذلك ثم استيقظت مرعوبة. والغريب انها رات الحلم نفسه بجميع تفاصيله بعد سنتين، ثم راته مرة ثالثة بعد ست سنوات. وشاء القدر اخيراً ان يموت عمها في عين المكان الذي شهدته في الحلم تماماً ثم حمل جثمانه على النمط الذي راته فيه خطوة بعد خطوة(4).

ما هو السر؟

بماذا نعلل هذه القصة العجيبة وامثالها؟ هل يجوز لنا ان نتسرع في تكذيبها ونستريح كما يفعل بعض الأغرار من المتعلمين، أم نحاول وضعها على بساط البحث الموضوعي قدر الامكان؟

الواقع أن هناك كثيراً من الباحثين قد شغلوا بامر تنبؤات الأحلام، وهم قد انقسموا في تعليلها إلى فريقين. وارى من المناسب هنا ان استعرض آراء هذين الفريقين استعراضاً حيادياً، واترك للقارىء أن يحكم في جانب هذا الفريق او ذاك.

اما الفريق الأول، وهو الذي يشمل جمهرة الباحثين في الأحلام من علماء النفس، فيحاول تعليل تنبؤات الأحلام بما يسميه بعامل الاتفاق والمصادفة. وممن ذهب هذا المذهب في التعليل الدكتور ملاك جرجيس، الأخصائي المصري في علم

النفس. وفيما يلي انقل نص ما قال في هذا الصدد كما جاء في مقالة نشرها منذ سنوات في مجلة مصرية. قال الدكتور جرجيس:

"إن نسبة الأحلام التي لا تتحقق عند الناس اكثر بكثير من نسبة الأحلام التي تتحقق. وليس هناك اي اساس علمي يمكن للفرد العادي ان يعتمد عليه لتفسير احلامه... والحد الذي يتحقق يكون عادة نتيجة المصادفة او لتوقع صاحبه حدوث ماحدث، ولو باسلوب غير واع. وليس في ذلك شيء من التنبؤ كما يظن الكثيرون من الناس خطأ، فالشخص الذي يوقظ مخاوفه وقلقه النفسي على موضوع ما متخوفاً في يقظته من حدوثه قد يحلم احلاماً مفعمة بهذه الأحاسيس ذاتها، وقد تشاء المصادفة ان يتحقق جزء مما حلم به، أو حتى يتحقق الحلم كله، لا بسبب الحلم ولكن لأن ما توقعه هو خاتمة منطقية للظروف المحيطة به. وليس ادل على صحة هذا الراي من ان اغلب الأحلام لا تتحقق سواء اكانت احلاماً تدل على شر او تدل على خير".

مثال توضيحي:

لتوضيح هذا التعليل الذي جاء به الدكتور جرجيس نذكر مثلاً واقعياً رواه الاستاذ سلامة موسى في كتابه "العقل الباطن، ومؤداه ان رجلاً كان مسافراً في البحر على باخرة. وحدث ذات يوم ان مرت بالباخرة عاصفة هوجاء. وكانت الباخرة قديمة لا تتحمل عبء العاصفة بسهولة فصارت تترنح بشدة وتنوء بركابها. فانتاب الركاب الخوف، كان اشدهم خوفاً صاحبنا فاخذ يتوهم بان الباخرة سوف تغرق حتماً. ونام اثناء ذلك فراى في منامه كان الباخرة قد غرقت. فاستيقظ فزعاً وعزم على ان يترك الباخرة في أول ميناء يصل إليه. وقد نفذ فعلاً ما عزم عليه. ثم شاءت المصادفة ان تغرق الباخرة بعد مغادرتها ذلك الميناء. وشاعت قصة الرجل بين الناس حيث اعتبروها دليلاً على صحة ما تنبا الحلم به. والحقيقة هي خلاف ذلك، إذ ان الخوف هو الذي يجعل الرجل يحلم بغرق الباخرة، ثم غرقت الباخرة بعدئذ على سبيل الاتفاق والصدفة العمياء.

الواقع ان كثيراً من ركاب البواخر يحلمون بغرق باخرتهم عند هبوب العواصف الشديدة. ولكنهم ينسون احلامهم بعد وصولهم إلى نهاية السفرة بسلام، فلا يذكرونها لأحد ولا يعيرونها اية اهمية. إنما هم لا يكادون يرون حلماً واحداً من

أحلامهم قد تحقق حتى تنتابهم الدهشة ويعدون ذلك دليلاً قاطعاً على صحة تنبؤات الأحلام كلها.

طبيعة الغلو:

من الممكن أن نقول مثل هذا عن الأحلام بوجه عام. فالناس يرون في منامهم أحلاماً كثيرة لا يحصى لها عدد، وهم قد اعتادوا على إهمالها ونسيانها وغالباً ما رأى أحدهم في نومه حادثاً يقع له، كفقد عزيز أو خسارة مال أو ما أشبه، ثم ينسى ذلك بعد أن يثبت لديه أن الحلم ذهب أدراج الرياح دون أن يتحقق. ثم يحدث له في مرة من المرات، من باب الاتفاق النادر، أن يتحقق حلم واحد من أحلامه الكثيرة، وقد يكون الحلم بسيطاً ولكنه يعمد إلى تزويقه والمغالاة فيه. ويتلاقف الناس خبره يتناقلونه وقد يضيفون إليه من عندياتهم ما يشتهون كما هو دأبهم في رواية كل خبر غريب. وبهذا تصبح الحبة قبة في أيديهم، ويصير الحلم البسيط آية من الآيات.

يذكرنا هذا بما ينتشر بين الناس أحياناً من قصص مبالغ فيها في قضايا النذور التي تقدم إلى المعابد والمراقد المقدسة. فقد يتفق لأحد الناس أن ينجو من خطر أو يشفى من مرض بعد نذر نذره. ويظن الناس أن النذر كان سبب النجاة أو الشفاء. وهم ينسون النذور الكثيرة التي لم تنفع أصحابها شيئاً. يحكى أن رجلاً دخل إلى معبد فعرض عليه السدنة عشرات اللوحات التي علقها فيه من أنجاهم الله من الغرق استجابة لدعائهم ونذورهم. ثم سئل الرجل: ألا يعترف بعد هذه الأدلة كلها بنفع النذور وفائدة الدعاء؟ فأجاب: ولكن أين لوحات أولئك الذين غرقوا في البحر على الرغم مما نذروا ودعوا[5].؟!

إن هذا الجواب الذي جاء به الرجل في شأن النذور لا يصح أن يؤتى به أيضاً في شأن الأحلام، إذا أتيح لبعض الأحلام أن تتحقق فتكون دليلاً على صحة التنبؤ فيها، فماذا نصنع بالبعض الآخر من الأحلام التي لم تتحقق وهي كثيرة جداً؟

تعليل الفريق الثاني:

إن التعليل الذي شرحته آنفاً، وهو الذي يعزو تحقق الأحلام إلى عامل المصادفة، هو التعليل المقبول لدى الكثيرين من علماء النفس كما قلنا. ولكن هناك جماعة

من الباحثين لا يقبلون به، وهؤلاء هم الذين اطلقنا عليهم اسم الفريق الثاني. وفي رايهم أن عامل المصادفة قد يصح في تعليل كثير من تنبؤات الأحلام، إنما هو لا يصح في تعليلها كلها. ففي هذه التنبؤات جوانب غامضة لا يسهل تعليلها على منوال ما فعلنا في قضية النذور. وهذه الجوانب متعددة نقتصر فيما يلي على ذكر اثنتين منها:

أولاً: إن الانسان قد يرى في بعض احلامه حادثة متشعبة كثيرة التفاصيل ثم يتحقق بعدئذ صدق الرؤية كانها كانت مسجلة على شريط سينمائي. إن الحلم لم يكن خبراً مجرداً بل ظهرت فيه تفاصيل عديدة. ومن الصعب ان نتصور اجتماع هذه التفاصيل في الحلم وفي الواقع لو كان الأمر ناشئاً عن المصادفة المحضة. إن قوانين الاحتمال في علم الاحصاء تستبعد ذلك.

ثانياً: إن بعض تنبؤات الأحلام التي تتحقق فيما بعد لا تظهر للنائم مرة واحدة. بل تتكرر احياناً كانها إنذار من مصدر خفي يحاول تنبيه الانسان إلى خطر مقبل. وليس من النادر ان يتكرر الانذار خلال فترة طويلة من الزمن. ومثل هذا الحلم يصعب تعليله بعامل المصادفة. فنحن نعرف عن المصادفة أنها لا تتكرر على نمط واحد إلا في حالات نادرة جداً.

معنى هذا كله ان بعض تنبؤات الأحلام تدل على وجود حاسة خارقة في الانسان تستطيع أن تخترق حجاب الزمن وتستشف ما يكمن وراءه من حوادث مقبلة.

مشكلة الزمان:

مهما يكن الحال فإننا إذا اخذنا بهذا الرأي الذي جاء به الفريق الثاني انتصبت امامنا مشكلة فلسفية عويصة هي كيف يمكن للنفس البشرية ان تخترق حجاب الزمان أثناء الحلم، أو بالأحرى: ما هو الزمان؟

إننا اعتدنا ان نفهم الزمان باعتباره مجموعة من اللحظات الآنية تتوالى علينا لحظة بعد لحظة. ومعنى هذا أن بيننا وبين الحوادث المقبلة حاجزاً من اللحظات التي نعدها بحساب الدقائق والثواني أحياناً وبحساب الأعوام والأيام أحياناً اخرى. فهل في مقدور النفس البشرية ان تقفز فوق هذا الحاجز فترى ما يكمن وراءه كما يقفز الانسان فوق حاجز المكان فيرى الأشياء المختفية خلفه؟

يجيب بعض الباحثين على هذا السؤال بالإيجاب، وهم يستندون في جوابهم على نظرية انيشتاين في مفهوم الزمان[6]. ففي رأي هؤلاء أن الزمان ليس مؤلفاً من تتابع لحظات آنية كما نتوهم نحن في مفاهيمنا المألوفة، إنما هو بالأحرى خط ممتد في الفضاء كامتداد خطوط الطول والعرض والارتفاع. وهو إذن بعد رابع يضاف إلى هذه الأبعاد الثلاثة المعروفة لدينا.

في ضوء هذا المفهوم نستطيع أن نقول بأن الدقائق التي نقيس بها طول الزمان ليست سوى مقاييس اعتبارية اصطلحنا عليها دون ان يكون لها اساس موضوعي. فالزمان واقف لا يتحرك ولكننا نحن الذين نتحرك بالنسبة إليه فنظن خطأ بانه هو المتحرك ومن الممكن إذن تشبيه الانسان تجاه الزمان براكب القطار الذي ينظر من خلال النافذة إلى اعمدة البرق فيراها تجري بينما هي في حقيقة أمرها واقفة في مكانها لا تريم.

يقول الاستاذ جينز: إن الإنسان يعيش في حياته العادية كما تعيش دودة عمياء على بقعة صغيرة من الأرض. فالدودة لا تعرف من دنياها المحدودة سوى بعدين هما الطول والعرض، أما البعد الثالث الممتد فوقها نحو السماء فلا تعرف منه شيئاً[7].

إن الانسان، بعبارة اخرى، اعتاد أن يحدد دنياه بأبعاد ثلاثة هي الطول والعرض والارتفاع. ولكن هناك بعداً رابعاً ممتداً في الفضاء لا يعرف الانسان منه إلا النقطة التي يمر بها في سيره خلال الزمان وهو يظنها لحظة عابرة بينما هي جزء من خط طويل لا يدرك مبداه ولا منتهاه.

الأحلام والزمن:

ليس قصدي من شرح هذه النظرية التي أتيت بها حول طبيعة الزمان أن يقتنع القارىء بصحتها. فهي نظرية قد تصح أو لا تصح.

وقد أردت من الاتيان بها أن يطلع القارىء على الركيزة الفلسفية التي يستند عليها بعض الباحثين في تعليل تنبؤات الأحلام.

فهم يعتقدون انه ما دام الزمان بعداً رابعاً ممتداً في الفضاء، فمن المعقول إذن أن

نتصور وجود مقدرة خفية في الانسان تمكنه من التحليق في احلامه فوق هذا البعد بحيث يتطلع بها إلى ما يحتوي عليه الزمن من احداث آتية قليلاً او كثيراً.

إن من الممكن تشبيه ذلك براكب الطائرة. فهو بارتفاعه فوق نهر من الأنهار مثلاً يستطيع ان ينظر فيه إلى بعض النقاط البعيدة التي يعجز راكب الزورق عن النظر إليها. ومعنى هذا ان راكب الطائرة قد يكتشف اشياء في النهر هي مما يعدها راكب الزورق من احداث المستقبل التي سوف يراها بعد الوصول إليها.

نظرية المستر دن:

ظهر في بريطانيا منذ سنوات باحث اسمه المستر دن حيث اصدر كتاباً بعنوان. "تجربة مع الزمن" كان له دوي في الأوساط العامة هناك. وقد ذهب هذا الباحث في امر تنبؤات الأحلام إلى ما يشبه الرأي الذي اسلفنا ذكره[8].

يعتقد المستر دن ان الزمن المقبل بجميع احداثه موجود امامنا كوجود الماضي وراءنا. ونحن قادرون بأحلامنا ان ننظر إلى المستقبل كما ننظر إلى الماضي، غير اننا اعتدنا في دراسة احلامنا ان نتطلع إلى جهة الوراء من خط الزمن دون أن نحاول التطلع إلى جهة الإمام. ونحن في هذا كمثل من يرتقي سلماً وقد ولى وجهه نحو الجهة السفلى، فهو لايرى من الدرجات سوى تلك التي مضت تحت قدميه. أما الدرجات التالية في الجهة العليا فهو لا يراها ولا يهتم بها إذ هي مختفية وراء ظهره، وفي وسعه ان يراها إذا ادار وجهه نحوها.

إن الأحلام، في رأي المستر دن، هي عبارة عن خليط بين رؤى الماضي ورؤى المستقبل. ولهذا فهي تاتي في العادة مشوشة حيث يصعب على الانسان أن يميز فيها بين الرؤى التي تنبعث من الحوادث الماضية وتلك التي تنبعث عن الحوادث المقبلة.

ويقول المستر دن انه ابتكر طريقة خاصة لتسجيل أحلامه عند استيقاظه من النوم مباشرة، وذلك لكي يزيل عنها اثر المبالغة أو التزويق والتبرير الذي يصاحب تذكر الأحلام عادة. واستطاع بهذه الطريقة أن يعين الجزء الذي يخص المستقبل من احلامه. وهو يعتقد ان اي انسان قادر ان يفعل فعله في هذا الشأن، وقد

يتمكن بذلك من أن يرى أحداث المستقبل في أحلامه وأن يمارسها ويعيش فيها على وجه من الوجوه[9]. **اعتراض ونقد:**

تلك هي خلاصة النظرية التي جاء بها المستر دن في كتابه "تجربة مع الزمن". ومما يجدر ذكره أن هذه النظرية لم تسلم عند ظهورها في بريطانيا من النقد والاعتراض. وقد نهض أزاءها باحثون كثيرون يشجبونها ويصفونها بالتخريف.

والواقع أننا لو سلمنا بصحتها لأدى ذلك بنا إلى ما يشبه الايمان بالقضاء والقدر، على منوال ما كان القدماء يفعلون. فإذا كان الانسان قادراً أن يستشف بأحلامه احداث المستقبل فمعنى هذا أن أحداث المستقبل موجودة هناك في لوح القدر وانها آتية لا ريب فيها، وليس للإنسان إزاءها إلا ان يستسلم لها دون ان يبدي حراكاً.

إن هذا على اي حال رأي قد يقبل به أولئك الذين يؤمنون بالجبر وان الانسان مسيّر في اعماله لا مخيّر. اما الذين يؤمنون بحرية الإرادة البشرية وان الانسان قادر أن يصنع مصيرة بنفسه فهم يجدون صعوبة كبيرة في تقبل هذا الراي.

قد يصح القول بأن الانسان كثيراً ما يكون مسيّراً تحت وطاة الظروف الاجتماعية والنفسية المحدقة به، ولكنه مع ذلك قد يجد بين تلك الظروف مجالاً يستطيع أن يكون فيه حراً مختاراً. وهذا امر نلاحظه في انفسنا كل يوم. وإذا كان الأمر كذلك فكيف يجوز لنا الاعتقاد بأن احداث الزمن محتومة علينا واننا قادرون على اكتشافها بوساطة الأحلام؟!

النتيجة:

استعرضت في هذا الفصل مختلف الآراء والنظريات التي جاء بها الباحثون في امر تنبؤات الأحلام. وقد حاولت ان اقف منها موقف الناقل المحايد، فلم اتحيز لجانب منها دون آخر. وقد بذلت اقصى جهدي في أن أشرح وجهة نظر كل جانب كما يقول به اصحابه من غير تحريف او تشويه.

وقد يسألني القارىء عن رايي الشخصي إزاء تلك الجوانب المتناقضة. وهنا اود ان أعترف بعجزي عن ابداء اي راي حاسم في هذا الموضوع. وجُلّ ما استطيع قوله هو

أننا لا نزال في أول الطريق منه. ولعل العلم سيكشف لنا عاجلاً أو آجلاً ما يرفع حجاب الغموض عن هذا الموضوع العويص.

وأود أن لا تفوتني الفرصة أخيراً لأبين خطأ بعض الأغرار من متعلمينا الذين اعتادوا أن ينظروا في هذا الموضوع نظرة استهانة واستهزاء، إذ لا يكاد أحدهم يستمع إلى حديث التنبؤ في الأحلام حتى يلوي عنقه عنه استكباراً ويعده من قبيل الخرافة.

ينبغي أن يعلم هؤلاء أن هذا الموضوع أكثر جدية من أن نستهين به أو نشطب عليه بجرة قلم. إنه يحتوي على ألغاز محيرة. والواجب العلمي يقضي علينا أن نبحث في هذه الألغاز ونحاول تعليلها بما يتيسر لنا من أساليب موضوعية. ولعلنا بذلك نساعد العلم على اكتشاف بعض أسرار النفس البشرية كما ساعده أسلافنا على اكتشاف الذرة والكهرباء.

هوامش الفصل الثالث عشر:

(1) انظر: Rhine Reach of Mind, P. 59.

(2) انظر: Ibid, p. 71.

(3) انظر: Tyrrell, Personality of Man, P. 81 .

(4) انظر: Ibid, p. 76 – 77 .

(5) انظر: أحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، ج 1 ص 64 .

(6) انظر: علي الوردي، مهزلة العقل البشري ، ص 177 - 182 .

(7) انظر : Jeans, Mysterious Universe. P. 148.

(8) انظر: Dunne, An Experiment with Time.

(9) انظر : Jaod Guide to Modern Thought, p. 172 - 173.

الفصل الرابع عشــر

تنبؤات الأحلام (تابع)

تحدثنا في الفصل الماضي عما يعزي للأحلام من مقدرة على التنبؤ بحوادث مقبلة، ورأينا كيف اختلف الباحثون في أمرها. وأود أن أتحدث في هذا الفصل عن مقدرة أخرى تعزى للأحلام وعن رأي الباحثين فيها.

والمقدرة التي نحن بصددها الآن ليست تنبؤية بالمعنى الدقيق، إذ هي لا تتنبأ عن حوادث مقبلة لم تقع بعد. إنما هي بالأحرى تتنبأ عن حادث يقع أثناء الحلم في مكان ما بعيد أو قريب. لنفرض مثلاً أن شخصاًعزيزاً عليك غاب عنك في سفر وبقيت تفكر في أمره وتتخوف عليه. ثم تنام ذات ليلة فترى في منامك كأن كارثة وقعت عليه. ويتبين بعد ذلك أن الكارثة قد وقعت فعلاً في نفس الوقت الذي حلمت بها فيه.

لقد اجتمعت لدى الباحثين قصص أحلام عديدة من هذا الطراز. فما هو تعليلها؟

أمثلة واقعية:

يروي الاستاذ سينل قصة حلم من هذا الطراز، خلاصتها أن سيدة من سكان لندن كان لها ولد غائب عنها. وقد سافر الولد مع رفيق له في رحلة إلى وادي الأمزون في أمريكا الجنوبية. وفي صباحِ احد الأيام خرجت السيدة من دارها وهي في

أشد حالات الذعر والهلع وقالت أنها رات حلماً مروعاً خيل إليها فيه كأن ولدها أو رفيقه افترسه وحش من وحوش الغابة. وبعد مدة غير قصيرة وصل الولد وحده إلى لندن واخذ يحدث عن رحلته. فتبين من حديثه ان نمراً هجم عليه وعلى رفيقه في نفس الساعة التي رأت أمه الحلم المروع فيها، وقد قتل الرفيق من جراء ذلك بينما أصيب هو بجراح غير مميتة[1].

ويروي الأستاذ راين قصة حلم مماثلة. خلاصتها ان استاذاً من زملاء راين في الجامعة كان له ولد يسكن في جاوة. وقد رأى الولد في منامه ذات ليلة كأن الناس يمشون في جنازة أمه، فدعاه ذلك إلى ان يكتب إلى ابيه يستفهم منه عن حالة أمه... والغريب أن أمه كانت قد ماتت في تلك الليلة ذاتها[2].

وروت جريدة الأهرام قصة غريبة حدثت في مدينة من مدن المكسيك، وقد بعث بها إلى الجريدة مراسلها الخاص هنالك. وخلاصة القصة ان شاباً اسمه جيسوس أصيب بنوبة عصبية شديدة من جراء فزع مفاجىء انتابه، وسقط على الأرض جثة هامدة. فظن اهله بانه قد مات، فدفنوه في قبر خاص بالعائلة. وفي الليلة التالية استيقظت أم الشاب وقد خالجها شعور غريب ينبؤها بان ابنها لا يزال حياً. فايقظت الجيران واخذت بعض العمال معها إلى القبر تريد فتحه. وقد ترددت السلطة المحلية في الموافقة على فتح القبر ثم وافقت اخيراً. وعندما رفع الغطاء وجدت الأم ابنها جالساً وهو يبكي فانهالت عليه تضمه بين ذراعيها[3].

في غير الأحلام:

مما يجدر ذكره أن مثل هذا الاحساس الغريب لم يقتصر حدوثه في نطاق الأحلام فقط. فهو قد يقع لبعض الناس احياناً في ساعات اليقظة على شكل خاطر مفاجىء لا يعرف سببه.

ولتوضيح ذلك ناتي على مثل له حدث للواء محمد نجيب. واللواء يحدثنا عنه في كتابه "مصير مصر" حيث قال انه كان في عام 1914 طالباً في كلية غوردن العسكرية في السودان. وفي مساء يوم من ذلك العام كان محمد نجيب جالساً في القسم الداخلي من الكلية يستعد للامتحان، فخيل إليه على حين غرة كأن اباه قد جاءه يريد الإدلاء إليه بخبر عظيم الأهمية. فاستحوذ على محمد نجيب حزن شديد

وصارت الدموع تنهمر من عينيه حتى أحس به زملاؤه وأخذوا يحملقون فيه مندهشين. وفي الساعة التاسعة مساءاً قفز محمد نجيب فجأة فمزّق أردان ردائه مما دعا أحد المدرسين أن يأتي إليه ينتهره ويتهمه بالجنون. ولم يستطع محمد نجيب أن ينام تلك الليلة. وفي الصباح انتابته نوبة أخرى فرمى بطربوشه إلى الأرض وأخذ يدوسه بقدميه. وبعد لحظات جاءه أحد المدرسين ينبؤه بموت أبيه. واتضح أن أباه مات في الليلة الماضية وفي وقت مقارب للساعة التي مزق محمد نجيب فيها أردان ردائه.

يقول محمد نجيب تعليقاً على هذه القصة: "وإني لآمل أن لا أبدوا مؤمناً بالخرافات إذا قلت أن سلوكي الغريب يومئذ كان نوعاً من الاحساس المفرط".

ماذا...؟

بماذا نفسر هذا الخاطر المفاجىء؟ أهو نتيجة احساس مفرط كما قال محمد نجيب؟ أم هو خاطر عادي وقد تحقق بعدئذ على أساس من المصادفة والاتفاق النادر؟

من الذين حاولوا الإجابة على هذا السؤال هو العالم الطبيعي المعروف أوليفر لودج. وقد قام لودج بدراسة احصائية في هذا الصدد استقصى فيها حالة عدد كبير من الناس. فوجد أن هناك (1300) شخص شعروا مرة في حياتهم باحساس غريب ينبؤهم بوقوع كارثة على أحد أقربائهم أو أصدقائهم الأعزاء. وتبين أن هذا الاحساس لم يتحقق عند أولئك الأشخاص سوى ثلاثين مرة، أي أن معدل الصدق فيه يقارب نسبة 1 إلى 43 .

يقول الأستاذ لودج بأن هذه النسبة على الرغم من ضآلتها الظاهرة لها دلالة احصائية كبيرة، إذ هي أكبر مما تأتي به المصادفة المجردة. وقام لودج بعمليات حسابية واحصائية معقدة لتأييد رأيه هذا. واستنتج من ذلك أنه لا بد أن يكون بين ذهن من تقع عليه الكارثة وذهن من يتنبأ بها نوع من الاتصال المجهول الذي لم يستطع العلم اكتشاف سره حتى الآن(4).

وأتيح لباحث آخر، هو الأستاذ سدجويك، أن يصل في بحثه هذا الموضوع إلى نتيجة تشابه نتيجة الأستاذ لودج. فقد درس سدجويك سبعة عشر ألف حالة

وقارنها إلى احصائية الوفيات العامة فوجد ان احساس الانسان بوفاة أحد الأعزاء عليه يصدق أكثر من صدق المصادفة المجردة بأربعمئة وأربعين مرة[5].

أبحاث راين:

الأستاذ راين باحث أمريكي اشتهر بأبحاثه في هذا الموضوع وفي موضوعات أخرى ذات صلة به. ويعزى إلى راين الفضل الأول في تأسيس قسم خاص بهذه الموضوعات في جامعة ديوك اطلق عليه "قسم الباراسيكولوجي".

ويحدثنا راين عن الحافز الأول الذي حفزه إلى تأسيس هذا القسم الجامعي. فيقول انه يوم كان تلميذاً يدرس في الجامعة سمع من احد اساتذته قصة حلم عجيبة كان الأستاذ شاهد عيان فيها. وخلاصة القصة ان سيدة من جيران الأستاذ رات في المنام ذات ليلة كأن أخاها يموت منتحراً، فاستيقظت مرعوبة وايقظت زوجها النائم بجانبها حيث اصرت عليه أن يحضر عربة لكي يذهبا بها معاً إلى بيت اخيها الذي كان بعيداً عن بيتها بمسافة تسعة اميال. ونهض الزوج تحت الحاح زوجته فذهب إلى عائلة جاره الأستاذ يطرق عليها الباب ويطلب منها عربتها. وبعد الحصول على العربة ذهب هو وزوجته إلى بيت اخيها. فوجداه بالفعل منتحراً. والغريب ان الأخ المنتحر كان مطروحاً في عين المكان وعين الوضع اللذين راته اخته فيهما اثناء الحلم[6]....

يقول راين أن هذه القصة التي سمعها في عهد شبابه قد اذهلته وجعلته في حيرة من أمره. فهو لم يتمكن من تصديقها ولا من تكذيبها. إنه لم يكن قادراًعلى تصديقها من جهة لأنها كانت في نظره غير معقولة، وهو لم يكن قادراً على تكذيبها من الجهة الأخرى إذ ان راويها الذي كان شاهد عيان فيها يعتبر عالماً رصيناً ذا شهرة عالية.

ومرت الأيام على راين فاخذ يسمع بقصص اخرى من نوع تلك القصة. ولكنه وجد الناس الذين يتناقلون مثل هذه القصص غير مكترثين لها وكانهم يعدونها من القصص المالوفة التي لا داعي للعجب منها. وكان الكثيرون منهم يحاولون تعليلها بعامل المصادفة.

ومن هنا صار راين يسال نفسه: ما هي المصادفة؟ هل هي عشواء كما يظن

عامة الناس ام هي تجري على قوانين؟ وإذا كانت المصادفة تجري على قوانين فهل من الممكن دراسة الأحلام والأحاسيس العجيبة في ضوء تلك القوانين؟

كانت هذه الأسئلة بمثابة الشرارة التي قدحت في ذهن راين عزماً على ان يقوم بأبحاث وتجارب مختبرية يستخدم فيها الأساليب الاحصائية. وكانت من نتائج هذه الأبحاث ان توصل راين إلى رأي هو ان الانسان يملك في اعماق نفسه مقدرة على اختراق حجاب الزمان والمكان، وهذه المقدرة تختلف في قوتها باختلاف الأشخاص، وهي قد تكون لدى الشخص الواحد قوية في بعض الأحيان وضعيفة في الأحيان الأخرى.

وقد اطلق راين على هذه المقدرة الخارقة اسم "الإدراك من غير حاسة"[7].

علماء أمريكا:

يؤسفنا ان نقول بأن ابحاث راين هذه قد قوبلت في امريكا بالسخرية والنقد اللاذع. واخذ الكثيرون من العلماء واساتذة الجامعات هناك ينسبون تلك الأبحاث إلى الخرافة. ومما يحكى في هذا الصدد ان احد الباحثين الأمريكيين استهوته ابحاث راين، وشرع يجري عليها التجارب سراً حيث توصل بها إلى نتائج تؤيد رأي راين. ولكنه اخفى ذلك عن الناس مخافة ان يتهموه بالتخريف..

وعند اجتماع مؤتمر الاحصاء الرياضي في امريكا عام 1937 نوقشت ابحاث راين فيه. واذاع المؤتمر بعد انفضاضه البيان التالي:

"إن ابحاث راين لها ناحيتان: تجريبية واحصائية. والرياضيون لا يستطيعون ان يقولوا شيئاً عن الجانب التجريبي منها. اما عن الناحية الاحصائية فقد اظهرت الأبحاث الرياضية الحديثة أن التحليل الاحصائي فيها صحيح. وإذا كان من الممكن ان تهاجم ابحاث راين فإنها ينبغي ان تهاجم من ناحية اخرى غير الناحية الرياضية"[8].

رأي سينل

الاستاذ جوزيف سينل باحث متخصص في علم الأحياء والتطور الحيواني، وقد امضى شطراً كبيراً من حياته في دراسة ظاهرة الاحساس الخارق لدى الانسان

والحيوانات. وتوصل بهذه الدراسة إلى الاعتقاد بأن الانسان يملك في مخه جهازاً خاصاً قادراً على التقاط الأمواج الكهرطيسية الصادرة من مخ آخر كما تلتقط العين امواج الضوء او كما يلتقط المذياع الأمواج اللاسلكية الصادرة من محطات الإذاعة.

يطلق سينل على هذا الجهاز البشري اسم "الحاسة السادسة". وسوف نتحدث عن هذه الحاسة بشيء من الاسهاب في فصل قادم. يكفي ان نقول هنا بأن الحاسة السادسة هي في رأي سينل ضعيفة جداً حيث تعمل في الانسان بخفوت شديد، والانسان لا يلقي باله إليها في حياته الاعتيادية إذ هو مشغول بأمور معاشه يفكر فيها ويدبر الخطط لها، وبهذا تضيع عليه نبضات الحاسة السادسة كما يضيع صوت صرصور إذا انطلق أثناء حفلة موسيقية صاخبة(9).

ويتطرق سينل إلى حالة الحلم التي يشعر الانسان بها احياناً بكارثة تقع على شخص عزيز عليه في مكان بعيد، فيقول في تعليلها ان مخ الحالم قد يكون "متناغماً" مع مخ الشخص الذي تقع عليه الكارثة، وبهذا يستطيع ان يلتقط الأمواج الصادرة من ذلك المخ البعيد على منوال ما يفعل المذياع حين يكون متناغماً في طول الموجة مع محطة معينة من محطات الإذاعة. فالأم التي يغيب عنها ولدها في سفر، مثلاً، تظل مشغولة البال نحوه وذهنها معلق به ليلاً ونهاراً. ومعنى هذا في رأي سينل ان جهاز الحاسة السادسة في مخ الأم يبقى "منصوباً" باتجاه ولدها، وهو قد يكون عندئذ ذا قابلية خاصة لالتقاط ما ينبغث من مخ الولد من امواج.

قرائن مؤيدة:

يجوز القول بأن هذا الرأي الذي جاء به سينل في شأن ما يسميه بالحاسة السادسة ليس سوى "فرضية" قد تصح او لا تصح. ولكننا مع ذلك نستطيع ان نقول بأن الأبحاث الفيزيائية والفسلجية الحديثة تميل إلى تأييدها قليلاً او كثيراً.

لقد دلت تلك الأبحاث مثلاً على ان المخ البشري يصدر امواجاً كهرطيسية من نوع معين. وقد صنع مؤخراً جهاز خاص لتسجيل هذه الأمواج واتضح للعلماء بالتجربة أن امواج المخ تختلف في ساعات النوم عنها في ساعات اليقظة، وفي وقت التفكير عنها في وقت الذهول، وفي فترة المرض عنها في فترة الصحة. ويذهب الدكتور دايفس إلى القول بان كل فرد يطلق من راسه امواجاً خاصة به لايشترك

فيها غيره ـ أي ان امواج المخ مثل بصمة الأصابع لا يتشابه بها اثنان من البشر(10).

وإذا كان الأمر كذلك فليس من الصعب علينا إذن أن نتصور حدوث تناغم موجي بين مخ وآخر على الرغم من بعد المسافة بينهما، وبهذا يستطيع احد المخين ان يحس بما يجري في المخ الآخر البعيد عنه من انفعالات ذهنية قوية.

لا ننكر ان امواج المخ ضعيفة جداً. فهي تبدو عند تسجيلها في الجهاز الخاص ذات تأثير محدود جداً لا يتعدى نطاقه المسافة القصيرة. ولكن هذا لا يعني انها محدودة الأثر بهذا المقدار فعلاً. فقد ثبت علمياً ان اية موجة كهرطيسية تستوعب في تأثيرها الكون كله، ولا فرق في ذلك بين ان تكون الموجة ضعيفة او قوية.

اعتـراضات تيـرل:

مما يجدر ذكره في هذه المناسبة ان هناك كثيراً من الباحثين يعترفون بوجود حاسة سادسة او ما يشابهها في الانسان ، إنما هم لا يوافقون على تعليلها بالأمواج الكهرطيسية. ومن هؤلاء باحث معروف اسمه الاستاذ تيرل. ففي رأي هذا الباحث ان الفرضية "الموجية" لا تصلح لتعليل الحاسة الخارقة. وهو يقدم ضدها اربعة اعتراضات (11). نجملها في ما يلي:

1 ـ يقول تيرل انه لو كانت الحاسة الخارقة ناشئة عن تناغم موجي بين مخين لوجب ان يكون في احد المخين جهاز إذاعي قوي قادر على ارسال الأمواج عبر المسافات الشاسعة، وان يكون في المخ الآخر جهاز لالتقاط تلك الأمواج. هذا مع العلم ان العلماء لم يكتشفوا في المخ البشري اي جهاز من هذا القبيل او ذاك بتاتاً.

2 ـ ويقول تيرل ان لدى العلماء الآن آلات حساسة جداً تستطيع ان تسجل أدق الأمواج الكهرطيسية، ولم يعرف عن هذه الآلات انها سجلت او اكتشفت أمواجاً تحمل الأفكار بين مخين متباعدين.

3 ـ ويقول تيرل ان من طبيعة الأمواج الكهرطيسية بوجه عام انها تتناقص في وقتها طردياً بنسبة مربع المسافة ـ كما هو معروف في الأبحاث اللاسلكية. وإذا كانت الحاسة الخارقة نتيجة انتقال أمواج كهرطيسية فلا بد لها من ان تخضع لهذه القاعدة العامة، بينما نجد في الواقع انها لا تتأثر ببعد المسافة.

4 ـ ويقول تيرل في اعتراضه الأخير انه لو كانت الأمواج الكهرطيسية هي التي تنقل الأفكار بين مخ وآخر لوجب ان يكون معها نوع من الشفرة او اللغة لكي يتمكن المخان من ان يتفاهما بوساطتهما.

رد الاعتـراضات:

لست اشك في ان اعتراضات تيرل هذه قوية، إنما هي ليست بتلك الدرجة من القوة بحيث يصعب علينا تفنيدها او الرد عليها. ويبدو لي من اعتراضات تيرل انه رجل ذو إطار فكري محدود، فهو ينظر في فرضية الأمواج من زاوية معينة لا يتعداها.

ومما تجدر الاشارة إليه ان تيرل قضى شطراً كبيراً من عمره في دراسة اللاسلكي، إذ كان مهندساً في شركة ماركوني وقد ساهم في نصب المحطات اللاسلكية في المكسيك وغيرها. والظاهر ان مهنته تلك جعلته ينظر في الأمور من خلال ما اعتاد عليه من تجارب ذات نطاق محدود.

ولعل تيرل قد تاثر فوق ذلك ببعض الأفكار الميتافيزيقية حيث صار بها ميالاً إلى رفض اي تعليل فيزيائي للحاسة الخارقة في الانسان.

وحين ندرس الاعتراضات التي اوردها تيرل ضد الفرضية الموجية نجد فيها نقاط ضعف لا تلائم المنهج الموضوعي الذي يدرس الأمور من زوايا مختلفة. وإلى القارىء بعض نقاط الضعف هذه:

الآلات العلمية

يقول تيرل في احد اعتراضاته انه لو كانت هناك امواج كهرطيسية تنقل الأفكار والانفعالات الذهنية بين مخ وآخر لاكتشفتها الآلات العلمية الدقيقة. وهنا اسأل تيرل:هل ان الآلات العلمية الموجودة لدينا الآن قد تمكنت من اكتشاف جميع الأمواج الكهرطيسية التي يزخر بها الكون؟ وإذا كانت هذه الآلات قد اكتشفت حتى الآن بضعة انواع من الأمواج فهل يصح القول بانها سوف لا تكتشف انواع اخرى منها في وقت قريب اوبعيد؟

المعروف عن الأنواع المكتشفة من الأمواج ان العلماء عثروا على بعضها مصادفة

دون ان يكون لهم نية على اكتشافها من قبل. فالأشعة السينية مثلاً اكتشفها رونتجن عام 1896 حين كان يقوم ببعض التجارب العلمية التي لا صلة لها بموضوع الأمواج، ثم تبين له اخيراً انه عثر على اشعة نفاذة ذات امواج قصيرة. ومثل هذا ما حدث لعلماء آخرين عند اكتشافهم الأشعة الكونية او الأشعة الجيمية او غيرها. فهل من المنطق العلمي إذن ان نقول بان العلماء قد اتموا اكتشاف جميع الأمواج الكهرطيسية في الكون؟

اضف إلى ذلك ان الآلات التي يستخدمها العلماء الآن في اكتشاف الأمواج او في تسجيلها قد تعتبر دقيقة بالنسبة لآلات القرن الماضي. ولكنها ستعتبر غير دقيقة طبعاً بالنسبة لآلات القرون القادمة. ومن يدرينا ما سوف يأتي به المخترعون من الات عجيبة في مستقبل الأيام.

إني اعتقد بان العلم سيخترع لنا، في يوم قريب او بعيد، جهازاً قادراً على تسجيل الأمواج التي تعجز اجهزتنا الحالية عن تسجيلها، وربما استطاع هذا الجهاز ان يعرف "طول الموجه" في مخ اي انسان. وبهذا قد يتمكن من قراءة الأفكار التي تدور فيه.

من يدري؟

لغز المادة الحية

اما قول تيرل بان العلماء لم يكتشفوا في المخ البشري جهازاً لارسال الأمواج لالتقاطها، فهو قول مردود من اساسه. ويخيل لي ان تيرل لا يريد ان يتقبل التعليل الموجي للحاسة الخارقة إلا إذا راى في مخ الانسان جهازاً كالأجهزة اللاسلكية التي اعتاد عليها تيرل في حياته المهنية، وهو ينسى الفرق الكبير بين طبيعة المادة الجامدة وطبيعة الحجيرات الحية.

نحن نعلم ان بعض الكائنات الحية الواطنة تلتقط امواج الضوء وتتأثر بها دون ان يكون لها عين او اي جهاز آخر يشبه العين في وظيفته. الا يجوز إذن ان يكون في حجيرات المخ البشري مقدرة خاصة على التقاط بعض الأمواج الكهرطيسية الصادرة إليها من مكان بعيد؟

ونحن نعلم كذلك بأن المخ البشري يصدر أمواجاً كهرطيسية من نوع معين . كما أشرنا إليه من قبل. فكيف يتاح لحجيرات المخ أن تصدر الأمواج دون أن يكون فيها جهاز إذاعي خاص بها؟

الواقع أن حجيرات المخ هي كحجيرات الأجسام الحية كلها لا تزال تحتوي على أسرار غير معروفة. إن العلماء لم يتوصلوا بعد إلى اكتناه جميع أسرار المادة الجامدة، وهم بالأحرى لم يتوصلوا إلى اكتناه جميع اسرار المادة الحية. ولكننا واثقون من ان العلم سيكشف لنا في المستقبل عن كثير من تلك الأسرار التي تجعلنا نفهم كيف تستطيع الحجيرات الحية ان تكون مرسلة للأمواج ولاقطة لها في وقت واحد.

المسافة وقوة الأمواج

يقول تيرل في اعتراضه الثالث ان الأمواج الكهرطيسية تضعف كلما ابتعدت المسافة بها بينما نجد الحاسة لا تتأثر بالمسافة.

وقد جاء الاستاذ راين بمثل هذا الاعتراض ايضاً. فقد وجد في بعض تجاربه أن الحاسة الخارقة في بعض الأحيان تزداد قوة كلما ازدادت بعداً. وهذا يدل في نظر راين على ان الحاسة الخارقة قائمة على مبدا آخر غير مبدا الأمواج.

وقد رد على راين بعض علماء الفيزياء حيث قالوا بان العلم ربما اكتشف للأمواج في المستقبل قوانين جديدة يمكن تعليل الحاسة الخارقة بها، ولكن راين لم يأخذ بهذا الرد. فهو يرى بأن هناك ثغرة لم تسد بين طبيعة الحاسة الخارقة وقوانين الفيزياء، وحين يكتشف العلم قوانين فيزيائية جديدة قد يكتشف كذلك أسراراً جديدة في الحاسة الخارقة مما يجعلها اشد غموضاً واكثر ابتعاداً عن طبيعة تلك القوانين(12).

يبدو لي على كل حال ان راي علماء الفيزياء اقرب إلى المنهج العلمي من راي راين أو راي تيرل. ان راين ياتي بالحكم القاطع في هذا الشان، وليس من الجائز في المنهج العلمي ان يحكم الباحث على شيء قبل ان يستكمل أوجه البحث فيه. وكثيراً ما اصدر القدماء احكاماً قاطعة على بعض الأمور ثم تبين اخيراً أنهم كانوا فيها مخطئين.

لغة الأمخاخ

بقي علينا أن نفحص الاعتراض الرابع الذي جاء به تيرل حيث قال بأن تناقل الأفكار بين مخين يحتاج إلى شفرة أو لغة يتفاهم المخان بها. وهذا الاعتراض في رايي تافه جداً، وفيه يتضح مبلغ تاثير المهنة على تفكير الاستاذ تيرل.

اعتاد تيرل في اعماله اللاسلكية ان يخابر غيره بوساطة شفرة مصطلح عليها، وقد دفعه ذلك إلى الظن بأن المخ يحتاج إلى مثل هذه الشفرة عند اتصاله الموجي بمخ آخر. نسي تيرل ان المخ يدرك الصور من غير حاجة إل ترجمان او وساطة. فالمخ مثلاً يدرك اللون الأحمر عند رؤيته حالاً. واللون الأحمر ليس سوى سلسلة من الأمواج ذات طول معين ترتطم بشبكة العين فينتقل تاثيرها إلى المخ. ولكن هذا اللون له اسماء او رموز يصطلح عليها الناس عند التخاطب والمخابرة.

معنى هذا ان الأمخاخ تحتاج إلى اللغة او الرموز عندما تتخاطب من خلال الحواجز التي اصطنعها البشر فيما بينهم. إنما هي في تخاطبها الذاتي لا تحتاج إلى ذلك. فلا تكاد ترتسم الصورة في مخ ما وتنبعث عنها الأمواج الخاصة بها حتى يدركها المخ المتناغم معه على وجه من الوجوه.

الخلاصة

استخلص مما سلف ان في الانسان حاسة خارقة يظهر اثرها في الأحلام احياناً وفي غير الأحلام احياناً اخرى. وهي ليست من قبيل القوة الميتافيزيقية التي لا يمكن تعليلها تعليلاً فيزيائياً مقبولاً. ارجح الظن انها تشبه المذياع او التلفاز في عملها ولا بد ان يكشف العلم عما غمض من اسرارها في يوم قريب او بعيد.

هوامش الفصل الرابع عشر

(1) انظر : سينل ، الحاسية السادسة، ص 75 .
(2) انظر : Rhine, Reach of Mind, p. 46.
(3) انظر: جريدة الأهرام المصرية بعددها الصادر في 1956/9/22 .
(4) انظر : المقتطف ، رسائل الأرواح ، ص 109 - 110 .
(5) انظر: وليم جيمس ، إرادة الاعتقاد ، ص 23 .
(6) انظر : Rhine, New Frontiers of Mind, p 14.
(7) انظر : Rhine, Extra - Sensory Perception.
(8) انظر : Rhine, New Frontiers of Mind, P. 211.
(9) انظر: سينل، الحاسة السادسة ، ص 34 .
(10) انظر : فؤاد صروف، آفاق العلم الحديث، ص 232 .
(11) انظر: Tyrrell, Personality of Man, P. 68 – 69.
(12) انظر: Rhine, Reach of Mind, p. 50.

الفصل الخامس عشر

أحلام التنويم المغناطيسي

من تاريخ التنويم

اصبح التنويم في هذا العصر موضوعاً علمياً محترماً له خبراؤه والمختصون فيه. وقد اعترف به العلماء في اقطار العالم المختلفة شرقاً وغرباً. ومن المؤسف ان نجد الكثيرين من متعلمينا لا يعرفون من حقيقته العلمية إلا قليلاً، ولعل بعضهم لا يزالون يستهينون به ويستهزئون.

ومما يجدر ذكره ان التنويم فن قديم كان الناس يستخدمونه في بعض شؤونهم منذ عهود بعيدة دون ان يدركوا كنهه او يطلقوا عليه اسماً. والواقع انه كان مختلطاً بالسحر والشعوذة والكهانة، وصار من جراء ذلك محاطاً بهالة من الخرافة.

واول من اكتشف التنويم علمياً وتمكن من تنقيته من شوائبه الخرافية هو الجراح الانكليزي المعروف، جيمس بريد، وذلك في عام 1841 م. وهو الذي اطلق عليه اسمه الحديث الذي يعرف به اليوم في الاوساط العلميه.

مسمر

ونحن اذ نعترف بفضل جيمس بريد في هذا الصدد، يجب ان لا ننسى فضل رجل آخر ظهر قبله ومهد الطريق له. وهذا الرجل فرنسي اسمه انطوني مسمر ، وهو يعد اول رجل لفت الانظار الى التنويم في العصر الحديث.

وكان مسمر يعتقد بأن التنويم نوع من المغناطيسية الحيوانية . وقد استخدمه في شفاء المرضى لا سيما المصابين منهم بالأمراض النفسية. فانثال النساء عليه من كل جانب واكتسب بينهن صيتاً ذائعاً. ومن سوء حظ مسمر انه عاش في عهد الثورة الفرنسية، وهو عهد كان الناس فيه يكرهون كل ما يشم منه رائحة الخرافة. ولهذا قامت قيامة العلماء والأطباء ضده واتهموه بالشعوذة وانهالوا عليه بالتحقير والتقريع.

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن إحدى الصحف كتبت ذات يوم تستهزىء بالرجل فاعلنت على لسانه وصفة تهكمية بعنوان "الأكسير المغناطيسي" جاء فيها قوله : "خذ من زيت الخوف والرعب اربع اواقي، ومن روح الوهم رطلين، وضع المادتين في زجاجة الخيال، اتركهما فيها اياماً. واشرب من ذلك اربعين نقطة في الصباح، فتشفى من كل الأسقام"[1].

واخيراً، في عام 1815 ، مات مسمر وهو كسير القلب مخذول. مات دون أن يحصل من الناس على اي اعتراف له بالفضل. وهذا هو شأن الناس في كثير من الأحيان ـ سامحهم الله!

تجربة شهدتها

لا اكتم القارىء اني في بداية أمري كنت كغيري من المتعلمين اسمع بالتنويم فاستهين به وأعتبره من الألاعيب السحرية المألوفة. ثم حدث لي في عام 1938 أن شهدت بنفسي، لأول مرة في حياتي، تجربة عملية في التنويم. وبهذه التجربة تبدلت نظرتي نحو التنويم واصبحت اهتم به اهتماماً جدياً.

وخلاصة القصة ان منوماً مغناطيسياً محترفاً جاء إلى العراق في ذلك العام من احدى البلاد العربية، وكان معه وسيط شاب ادعى انه ابنه. وقام هو وابنه المزعوم ببعض الأعمال التنويمية على بعض مسارح بغداد وغيرها. واتيح لي أن اذهب إليه في الفندق الذي نزل فيه فطلبت منه ان يجري امامي تجربة تنويمية خاصة بعد أن اتفقت معه على الأجرة.

لا احب ان اذكر هنا تفاصيل التجربة. يكفي ان اقول اني حاولت ان اكون فيها مدققاً غاية التدقيق لئلا يحدث فيها اي مجال للغش والتدليس. وعندما نام

الوسيط وجدت أنه كان قادراً على التقاط اية فكرة تخطر في ذهن منومه على الرغم من وجود مسافة لا باس بها بينهما. ومما فعلته آنذاك اني كتبت اسمي واسم ابي ولقبي ومهنتي على ورقة صغيرة. ولم يكد يقرأ المنوم الورقة ويسأل الوسيط عن محتوياتها حتى شهدت الوسيط يجيب عنها بدقة أذهلتني، هذا مع العلم ان الوسيط كان اثناء ذلك معصوب العينين من جهة، وكان لا يعرف اي شيء عني من الجهة الأخرى.

كيف كانت المعلومات تنتقل من راس المنوم الى راس الوسيط يا ترى؟ قد يقول قائل في جواب ذلك : ان المنوم والوسيط ربما كانا قد اتفقا سابقاً على تدبير حيلة يتفاهمان بها بحيث يعرف احدهما ما يريد الآخر على وجه من الوجوه. الواقع اني لا اميل الى قبول هذا التعليل. فقد كنت اثناء التجربة شديد الاحتياط والحذر تجاه ما يبدر من الوسيط والمنوم. ومما يجدر ذكره اني لم اكن إذ ذاك معتوهاً او بليداً بحيث كانا يستطيعان ان يستغفلاني او يعبثا بعقلي.

تجارب أخرى

كانت التجربة الآنفة الذكر اولى تجاربي او مشاهداتي في التنويم المغناطيسي. وهي على الرغم من بساطتها كانت ذات اهمية كبيرة بالنسبة لي، إذ اني كنت واعياً لما يجري فيها ومحتاطاً له كما قلت.

وقد شهدت بعدئذ تجارب اخرى في التنويم. وكانت كلها تقريباً مما يعرض على الناس في المسارح العامة. واعترف ان هذه التجارب او المشاهدات لا تصلح ان تكون دليلاً كافياً على صحة ما يظهر فيها من خوارق نفسية. إنما هي على اي حال قد تكون قرائن اثبات لصحة ما شهدته في التجربة الأولى.

مما يعرفه كل مشاهد للحفلات التنويمية ان الوسيط قادر في كثير من الأحيان على معرفة ما يختفي في جيب احد الحاضرين من مسبحة او نقود او مفاتيح. فقد يقوم شخص في احدى الحفلات يسأل الوسيط عما في جيبه. فيجيبه الوسيط عن سؤاله مع العلم انه جالس على المسرح معصوب العينين وهو بالإضافة الى ذلك لا يعرف من هو السائل ولا يعرف ما في جيبه.

إني استطيع ان استنتج من كل هذا انه لا بد ان يكون بين ذهن الوسيط وذهن السائل نوع من الاتصال الموجي يشبه الاتصال بين المذياع ومحطة الإذاعة. فهل هذا الاستنتاج صحيح؟

لكي نستطيع الجواب على هذا السؤال يجدر بنا ان نعرف شيئاً عن طبيعة التنويم من الناحية الفسلجية.

ما هو التنويم

يعد التنويم من الناحية الفسلجية امراً بسيطاً جداً. فهو نوع من الذهول أو الاغماء يعتري الانسان لسبب من الأسباب فيشل الوعي فيه قليلاً أو كثيراً. إن التنويم إذن لا غرابة فيه بحد ذاته. اما ما ينتج عنه من غرائب احياناً فناشىء عن كونه يخدّر الفعاليات الإرادية في الانسان. وبهذا التخدير ينشط اللاشعور او يتحرر من قيوده الواعية فيتمكن عندئذ من التقاط الأحاسيس التي كان عاجزاً عن التقاطها بوضوح اثناء الوعي واليقظة.

والتنويم لا يختلف عن النوم الطبيعي إلا بشيء واحد، هو انه نوم اصطناعي يطرا على الانسان من جراء إيحاء يسلط عليه. ويقع النائم من جراء ذلك تحت تأثير الشخص الذي سلط عليه الإيحاء، وهو الذي اسميناه بالمنوّم. ويجوز احياناً أن ينوّم الانسان نفسه، كما يحدث لبعض المتصوفة وفقراء الهنود. ويطلق العلماء على هذه الحالة اسم "التنويم الذاتي".

يقول جان لرميت، من اساتذة كلية الطب بباريس، إن الفرق بين النوم الطبيعي والنوم المغناطيسي هو فرق بالدرجة لا بالنوع ففي كليهما يخفّ الوعي وتضعف الفعاليات الإرادية التي تتميز بها حالة اليقظة[2].

وهناك طرق شتى لأحداث التنويم في الانسان. اهم تلك الطرق وابسطها هي التي استخدمها جيمس بريد. فقد اكتشف هذا الباحث ان الانسان، إذا حدق في نقطة لامعة وركّز الذهن فيها مدة، تخدرت اعصابه ودخل في نوع من الغيبوبة أو الذهول. وهذه هي الطريقة التي كان يستخدمها كهان بني اسرائيل قديماً حيث كانوا ينومون انفسهم بوساطة التحديق في الحجارة المقدسة الموجودة في دروعهم[3].

ويستخدم بعض المنومين المحترفين عيونهم في سبيل ذلك. وهم يملكون عادة عيوناً وسيعة نفاذة، فيركزون نظراتهم في عيني الشخص الذي يريدون تنويمه ويسلطون عليه الإيجاء بالنوم. فينام المسكين طوع إرادتهم، ويمسي عندئذ خاضعاً لهم متأثراً بإيحائهم إلى حد كبير.

احلام النوم والتنويم

عندما ينام الانسان نوماً طبيعياً ينطلق اللاشعور من عقاله وتنشأ عن ذلك الأحلام المتنوعة، كما اسلفنا ذكره في القسم الثاني من هذا الكتاب. ويحدث مثل هذا في التنويم، بيد ان احلام التنويم تختلف عن احلام النوم بكونها خاضعة لتوجيه المنوم وإرادته. ومعنى هذا ان المنوّم قادر ان يجعل النائم يرى كل شيء يوحي به إليه.

ويصح القول بان الشخص الذي يقع تحت تاثير التنويم هو نائم ويقظان في آن واحد. فهو نائم لأنه لا يشعر بما يحدث حوله ولا يرى منه شيئاً، وهو يقظان من حيث اتصاله بالمنوم إذ هو يرى كل ما يريد المنوم منه ان يراه. وقد تظهر في هذه الحالة مفارقات وعجائب مضحكة. فهو لا يراك مثلاً وانت منتصب امامه ولكنه يرى الأشياء المختفية في جيبك او الأفكار المضمرة في راسك إذا امره المنوم بذلك.

التنويم وتصديق الأوهام

دلت التجارب العلمية التي اجريت على التنويم ان الإيحاء التنويمي قادر ان يجعل من الأوهام حقائق واقعية لدى بعض الناس. يقال ان رجلاً وقع ذات مرة تحت تاثير نمط خفيف من التنويم ثم قذف المنوم منديلاً واوحى إليه انه كلب يقفز إليه. فالتقف الرجل المنديل باعتباره كلباً وبقي يعامله كالكلب بعد استيقاظه. وفي تجربة ثانية اوحى إلى رجل بان قرنين نبتا في راسه، فصدق الرجل بهذا الإيحاء واعتقد بانه قد اصبح ذا قرنين(4).

ويقول الاستاذ ودورث ان المنوّم قد يقرب من انف النائم زجاجة تنبعث منها رائحة كريهة ثم يوحي إليه بانها رائحة الورد والريحان. فيشمها النائم وهو مرتاح كانه يستنشق الورد والريحان فعلاً. ومن الممكن ان يوحي المنوم إليه بان احد

أعضائه مصاب بالشلل فيشعر بأن العضو قد شل حقاً وهو إذن لا يقدر على تحريكه[5].

من الطرائف التي تروى عن بعض البارعين في التنويم أن أحدهم قد يتحدث إلى رجل ساذج ثم يسلط عليه إيحاءاً تنويمياً خفيفاً حيث يوهمه بأنه قد نسي اسمه. وينسى المسكين اسمه فعلاً، ويمسي كالفارة التي تبلع الزئبق، يدور بعينيه في سبيل أن يتذكر اسمه فلا يقدر.

التنويم والألم

لا يقتصر أثر الإيحاء التنويمي على التصديق به فقط، إنما هو قد يتعداه إلى ما هو أبعد من ذلك. فإذا وضعت كرة من الحديد البارد على يد شخص قابل للتنويم ثم أوحيت إليه بأن الكرة ساخنة جداً، ظهرت آثار الاحتراق على يده فعلاً وأخذ هو يتأفف من حرارتها ويتألم. وعلى العكس من ذلك لو أنك وضعت على يده جمرة من النار، وأوحيت إليها بأنها ياقوتة، لتناولها دون أن يحس بحرارتها وربما حاول اختطافها أو أخفائها في جيبه ظناً منه أنها من الأحجار الكريمة حقاً.

يروى عن المرحوم الدكتور مصطفى مشرفة، عميد كلية العلوم بالقاهرة سابقاً، أنه أجرى تجربة على رجل واقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي، فدفع دبوساً طويلاً في فخذه. ومس الدبوس عظم الفخذ فلم يتحرك الرجل أو يتأوه. والأعجب من ذلك أن قطرة واحدة من الدم لم تخرج من مكان الدبوس.

وقد شهدت بنفسي في بغداد وسامراء وتكريت أفراداً من المتصوفة يجرحون أنفسهم بالخناجر والحراب والسفافيد من غير أن يعقب ذلك فيهم أذى. أنهم يقعون أثناء ذلك تحت تأثير نمط معين من التنويم، وهو ما أسميناه بالتنويم الذاتي.

التنويم والجراحة

أخذ بعض المنومين المحترفين في السنوات الأخيرة يطالبون الأطباء في أن يستخدموا التخدير التنويمي بدلاً من البنج في العمليات الجراحية. ولكن الأطباء أبوا أن يستجيبوا لهذه الدعوة في أول الأمر. مما يجدر ذكره أن كثيراً من هؤلاء الأطباء

لا يزالون ينظرون إلى التنويم كما كان ينظر إليهم اسلافهم قبل قرن من الزمان، إذ هم يعدونه من قبيل الشعوذة.

حدث في لندن منذ عهد قريب ان ظهر ورم خبيث في صدر فتاة اسمها جانيس ايستون، بحيث كانت في حاجة ملحة إلى عملية جراحية عاجلة. وكانت هذه الفتاة لا تحتمل البنج ولا تطيق التخدير به. فحار الجراحون في أمرها. وقد اضطروا أخيراً إلى أن يلتجأوا في تخديرها إلى التنويم لأن الورم الخبيث كاد يودي بحياتها، واستعانوا في ذلك بأحد المنومين المشهورين في بريطانيا. وجاء المنوم إلى الفتاة بينما كانت مطروحة على سرير العمليات ، فاخذ يوحي اليها بانها جالسة في مكان جميل على ساحل البحر ، وانها تشعر ببرد خفيف في صدرها، ولكنها غير شاعرة بأي الم ، واخذت الفتاة تسرح في احلامها التنويمية كما اراد المنوم لها ان تسرح، بينما مبضع الجراح ينفذ بمشرطه في اعماق الورم. وبعد انتهاءالعملية استيقظت الفتاة وعلى فمها ابتسامة وديعة. وصارت تحدث الحاضرين عما راته اثناء العملية، فقالت: "لقد كان حلماً رائعاً حقاً..كنت اتنزه في مدينة بيضاء في جنوب فرنسا على ساحل البحر الأبيض وكنت ارى من الشرفة اشجار النخيل التي تطل على مياه البحر الزرقاء" .

مهما يكن الحال فالظاهر ان الأطباء بوجه عام قد تنازلوا عن رايهم السابق في التنويم. وقد اخذت الأخبار ترد علينا في الأيام الأخيرة وهي تشير إلى انتشار استخدام التنويم في المعالجات الطبية والعمليات الجراحية في مختلف انحاء العالم. ومن يدري لعل البنج سيصبح في يوم من الأيام في خبر كان.

التنويم والسحر

يجب أن لا ننسى أن التنويم ليس كله من نمط واحد، إنما هو يقع للناس على انماط متفاوتة. فمنه النمط الشديد وهو الذي تحدثنا عن بعض ظواهره آنفاً، ومنه النمط الخفيف الذي يقع للانسان عادة دون أن يشعر به(6).

هناك أفراد من الناس لهم قابلية لأن يتاثروا بالإيحاء التنويمي في حياتهم العادية. فقد تقول لأحدهم وهو يمشي في زقاق مظلم مثلاً أن في زاوية الزقاق جنياً يتربص به. وينظر صاحبنا إلى الزاوية فيرى شبح الجني منتصباً وعيناه تقدحان

شرراً، وعند ذاك يطلق ساقيه للريح ثم يأخذ بالتحدث إلى الناس عما رأى من أهوال الجن. والناس قد يصدقون حديثه، وهم لا يترددون بعدئذ أن يشهدوا شبح الجني في الزاوية ذاتها حين يمرون بها.

إن حكايات الطنطل والسعلاة والبعبع والغول وما أشبه كلها من هذا الطراز، إذ هي تشيع بين العوام من جراء الإيحاء التنويمي الذي يلقيه بعضهم على بعض في أساطيرهم وأحاديثهم الليلية.

ويعتقد الأستاذ سينل أن جلسات مناجاة الأرواح التي أولع بحضورها كثير من الناس في هذه الأيام ليست في حقيقة أمرها سوى أوهام أو أحلام تنويمية. فإذا جلس عدد من الأشخاص بسكون ووقار، في حجرة هادئة قليلة الضوء، يتلمسون علامة تدل على وجود روح أحد الأموات بينهم، فإنهم يشاهدون في كثير من الأحيان ظواهر يخيل إليهم أنها تؤكد صحة تلك الأوهام(7).

ويرجح في ظني أن كثيراً من عجائب السحر التي يتناقلها الناس منذ قديم الزمان هي من هذا القبيل أيضاً. فالناس الذين يشهدون أعمال السحرة هم في معظم الأحيان من السذج المغفلين الذين يتأثرون بالإيحاء التنويمي تأثراً كبيراً. ويقوم الساحر ببعض الحيل التي تخفى أسرارها عليهم ثم يوحي إليهم بأنها أعمال خارقة للعادة. وهم يصدقون بما يقول وقد يرونه عياناً من جراء التنويم الذي يسلطه الساحر عليهم.

سحرة فرعون

يقول الثعلبي عن السحرة في عهد موسى وفرعون أنهم جاءوا بالعصي والحبال يحملها ستون بعيراً فالقوا بها في الوادي والناس ينظرون إليها عن بعد، فإذا بها حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. فخاف منها موسى خوفاً شديداً، ولكن الله أمره أن يتشجع وأن يلقي بعصاه عليها. وعند هذا انقلبت عصا موسى إلى ثعبان أسود مُدلهَمّ يدب على أربع قوائم قصار غلاظ شداد، وله ذنب لا يضرب به على شيء إلا حطمه، وله عينان تلتهبان ناراً، ومنخراه ينفخان سموماً، وعلى قفاه شعر كأمثال الرماح، ويخرج من فمه فحيح وكشيس وصريف وصرير. ومال الثعبان إلى حيات السحرة فبلعها واحدة بعد الأخرى حتى لم يبق

منها في الوادي قليل او كثير وانهزم الناس هاربين منقلبين فتزاحموا وتضاغطوا ووطيء بعضهم بعضاً حتى مات منهم حينذاك خمسة وعشرون الفاً. وانهزم فرعون مع الناس متخوفاً مرعوباً وقد استطلقت عليه بطنه في يومه ذاك اربعمئة مرة. ثم ان موسى عاد راجعاً الى قومه والعصا على حالها حية تتبعه وتبصبص حوله وتلوذ به كما يلوذ الكلب الألوف بصاحبه، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها وقد ملئوا رعباً....(8).

التنويم والجريمة.

إن الذي يتأثر بالإيحاء التنويمي قد يكون في بعض الأحيان خاضعاً لإرادة منومه وقد يطيعه فيها طاعة عمياء. وقد اثيرت في الآونة الأخيرة مشكلة قانونية حول هذا الأمر بين فقهاء القانون. فالمنوم قد يدفع من يقع تحت تاثيره الى ارتكاب جريمة، فما هي المسؤولية القانونية المترتبة على ذلك؟

لو انك استطعت تنويم احد من الناس واعطيته سيفاً رمزياً من الورق المقوى ثم اوحيت إليه بانه سيف يماني ،ان الواجب يقضي عليه ان يهاجم به الناس ويعمل فيهم تقطيعاً وتقتيلاً. إن من الممكن ان يطيع الرجل ما امرته به، وان يهاجم الناس بسيفه الورقي كما هاجم دون كيشوت طواحين الهواء. والمشكلة الى هنا بسيطة قد لا تخلو من فكاهة. إنما هي قد تكون مشكلة جدية حين تعطي الرجل سيفاً من الحديد بتاراً وتامره بقتل الناس فعلاً، فمن هو المسؤول عما يفعل عند ذلك؟

لست اقول هذا على سبيل التخيل او الافتراض. فقد حدثت في الواقع حوادث غير قليلة اقترف بها بعض الأفراد اعمالاً مختلفة للقانون بتأثير إيحاء تنويمي سلط عليهم. من هذه الحوادث حادثة وقعت في الدانمراك عام 1951 وكان لها دوي كبير. وخلاصتها ان احد المنومين استطاع ان يدفع وسيطاً له الى السرقة والقتل، وقد غنم من جراء ذلك مالاً وفيراً. وكان الوسيط شاباً ساذجاً ذا براءة وإيمان عميق. وقد سيطر المنوم عليه من هذه الناحية، فأوحى إليه بأن ابواب الجنة مفتوحة بين يديه، وانه يجب أن يسرق المصارف خدمة لوطنه وأن هناك ملاكاً خاصاً يحرسه اثناء السرقة وهو مسؤول عنه. وكان الشاب يسرق ثم يسلم المال المسروق الى منومه. وكان المنوم يقول له: ما دمت ستذهب الى الجنة فما فائدة هذه

الأشياء الدنيوية الفانية. وذهب الشاب ذات يوم إلى أمين الصندوق في أحد المصارف فهدده بمسدس وأمره بأن يسلم جميع المال الموجود في صندوقه. وعندما أبى أمين الصندوق أن يفعل ذلك، أطلق الشاب عليه مسدسه وأرداه قتيلاً... ثم خرج إلى الشارع يمشي بهدوء كأنه لم يقترف ذنباً كبيراً. فقد كان مطمئناً إلى أن الملاك يحرسه وأنه لم يقم إلا بما هو واجب عليه في سبيل الله والوطن.

كانت هذه الحادثة بينة المعالم، والمسؤولية القانونية فيها واضحة. وقد نظرت فيها إحدى المحاكم الدانماركية بعد تحقيق طويل ساهم فيه بعض علماء النفس فثبت لديها أن الشاب بريء وأن المجرم الحقيقي هو المنوم. فأصدرت حكمها عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة. ولكن السؤال الذي يخطر في البال: هل أن جميع الجرائم التنويمية واضحة على هذا النمط، وهل أن جميع المحاكم في العالم تعترف بوجود شيء اسمه التنويم وتصدر أحكامها في ضوئه؟

إن هذا السؤال يفتح لنا باب الخيال على مصراعيه. فكم من الناس أدينوا بجرائم في الماضي، ولا يزالون يدانون بها حتى يومنا هذا، بينما هم قد قاموا بها تحت وطأة التنويم، وبقي المنوم الموحى لهم بارتكاب الجريمة طليقاً ينعم بأطايب الحياة.

يكاد يجمع فقهاء القانون الآن على أن الذي يقع تحت وطأة التنويم غير مسؤول عما يقوم به من جرائم. فالتنويم يعد عاملاً من عوامل الإكراه، وهو إذن يشبه إعطاء مسكر أو مخدر لشخص ما في سبيل انتهاك حرمته أو دفعه إلى جريمة.

إني أود أن أضع هذا الرأي أمام فقهاء القانون عندنا ليقولوا كلمتهم فيه.

مشكلة أخرى:

وهناك مشكلة أخرى في التنويم ذات أهمية نفسية أكثر مما هي ذات أهمية قانونية: هل أن الانسان يندفع في تنفيذ جميع الأوامر التي تلقى إليه أثناء التنويم مهما كانت، أم أن هناك حداً يقف الانسان عنده في ذلك؟

أجاب الأستاذ لويس على هذا السؤال بقوله أنه قادر أن يجعل من الذين يقعون تحت تأثر التنويم آلات بيده يحركها كما يشاء[9]. ولكن هذا الرأي لم يلق قبولاً

تاماً لدى جميع الباحثين. ففي رأي أكثر الباحثين أن النائم لا يقوم بالأعمال التي يوحي بها إليه إلا في نطاق معين، فالعمل المخالف لضمير النائم أو الذي يخالف رغبته الواعية لا يمكن أن يقوم به النائم مهما دفعه المنوم إليه. معنى ذلك انك لا تستطيع ان تدفع النائم إلى عمل ما إلا إذا كان العمل ملائماً للقيم التي كان النائم يؤمن بها قبل تنويمه.

خذ مثلاً ذلك الشاب الدانماركي الذي اقترف السرقة والقتل اثناء تنويمه. فقد كان، كما قيل، شاباً جاهلاً ذا اخلاص وسذاجة. ومن شأن هذا الشاب وامثاله انهم لا يترددون في حياتهم الاعتيادية ان يرتكبوا افظع الأعمال إذا قيل لهم انها من باب الجهاد في سبيل الله أو الكفاح من اجل الوطن. والتنويم إذن لا يؤثر فيهم إلا من حيث تضخيم هذا الميل فيهم وبعث الحرارة فيه.

من القضايا المشهورة في هذا الخصوص قضية حدثت في مصر منذ سنوات، وخلاصتها ان طبيباً انتهك عفاف فتاة كانت تعمل خادمة عنده، وذلك بعد ان نومها تنويماً مغناطيسياً. وقد نظرت احدى المحاكم المصرية في هذه القضية وحكمت على الطبيب فيها بالعقوبة الشديدة. وحين ندرس هذه القضية من الناحية النفسية نستطيع ان نفترض ان الطبيب ما كان قادراً على إغراء الفتاة لو لم يلجأ عند تنويمها إلى الضرب على الوتر الحساس من قلبها كأن يقول لها مثلاً انها اصبحت زوجته وان الزواج امر مشروع يرضى عنه الله والرسول. وليس من المستبعد ان تستطيب الفتاة هذا الإيحاء وان تفعل ما تؤمر به فيه.

حدث مرة أن امرأة سئلت اثناء تنويمها عن عمرها الحقيقي فراوغت في الإجابة. فلما اوحى إليها بضرورة الإبانة عن عمرها بالضبط للحصول على جواز سفر لم تعط جواباً مباشراً. وتعليل ذلك ان هذه المرأة لا تحب الافصاح عن عمرها اثناء يقظتها، والإيحاء التنويمي إذن قد لا يؤثر عليها حتى لو كان فيه جواز سفر إلى المريخ.

اجريت تجربة تنويمية على إمرأة اخرى كان لها كلب صغير وهي تحبه حباً جماً. وقد اوحى إليها اثناء التنويم ان كلبها مصاب بالطاعون وان رعاية الصحة العامة تقتضي اعدامه. ثم اعطيت قلماً باعتبار انه سكين، وحقيبة صغيرة باعتبار انه الكلب الذي يجب قتله. وصدقت المرأة هذا الإيحاء كله، غير انها ثارت ثورة

عارمة عندما طلب منها المنوم ان تقتل الكلب المزعوم بالسكين المزعومة. لقد صرخت بالمنوم قائلة: "إذهب ايها الرجل الفظيع. لن اقتله.. لن اقتله... لن اقتله..." وبدات تتشنج والدموع تنهمر من عينيها. واضطر المنوم عند ذلك ان يبذل جهداً في سبيل ان يعيد لها رصانتها(10).

التنويم والاقناع

إن التنويم كما قلنا على درجات متفاوتة، منه الشديد ومنه الخفيف. وتركز الأبحاث النفسية والقانونية اهتمامها على الشديد منه. ولكننا يجب ان لا ننسى ان التنويم الخفيف قد يكون ذا اثر بالغ في الحياة النفسية والاجتماعية. يتضح ذلك جلياً حين يحاول احدنا اقناع غيره على شيء.

إن قوة الاقناع في الانسان تعتمد على عوامل شتى بلا ريب، ولكن هناك عاملاً يجهله كثير من الناس مع انه مهم في الاقناع، وهو القدرة على الإيحاء والتنويم. وصاحب هذه القدرة قد يستخدمها في معاملاته مع الناس، ولها دخل كبير في نجاحه، بينما هو غير شاعر بها او مدرك لأهميتها في حياته. وهذه القدرة هي جزء مما ينسبه الناس إلى الحظ . والحظ منها برىء.

قد يأتيك شخص ممن يملكون هذه القدرة التنويمية فيسلط عليك نظراته النفاذة وإيحاءه القوي. إنه فيما يزعم يحاول اقناعك بالحجة المنطقية، ولكنه في الواقع ينومك تنويماً خفيفاً من حيث لا تدري. إنه يوحي إليك بما يشاء من افكار واخيلة، وهو يصبها عليك مرة بعد مرة حتى يخضعك لإرادته اخيراً فلا تستطيع منه خلاصاً.

ويأتيك شخص آخر ممن لا يملكون القدرة على التنويم، أو هي ضعيفة فيه، فتجد نفسك إزاءه طليقاً تستطيع ان تقول له "لا" وانت مرتاح. ولعلك قادر ان تقلب عليه اثر التنويم فتكون انت المنوم له.

ويغلب على مثل هذا الشخص الذي تضعف فيه مقدرة التنويم أنه يعتمد في الاقناع على الحجة المنطقية اكثر مما يعتمد على قوة الإيحاء، ظناً منه أن الانسان حيوان عاقل. وكثيراً ما يؤدي به هذا الظن إلى الفشل في الحياة.

المعروف عن بعض الذين يتعاطون المغامرات الجنسية وينجحون فيها انهم لا يملكون الجمال الذي يؤهلهم لها. ويبدو انهم يملكون بدلاً من الجمال شيئاً آخر هو قوة الإيحاء. فالرجل منهم قد يؤثر على المرأة ويغريها بمعسول حديثه ونفاذ بصره. والمرأة ترتخي بين يديه دون أن تدرك انه ينومها تنويماً مغناطيسياً.

لعلي لا اغالي إذا قلت ان الحياة الاجتماعية كلها عبارة عن شبكة من التنويم المتبادل، حيث ينوم الناس بعضهم بعضاً ويوحي بعضهم الى بعض دون أن يشعروا. وكثيراً ما يندفع الانسان في عمل اوحي به إليه وهو مغرور بعقله يظن انه يقوم بالعمل عن اقتناع وروية.

ومهما يكن الحال فالظاهر ان الناس يتفاوتون في درجة تأثرهم بالإيحاء التنويمي. فمنهم من يتأثر به إلى الدرجة التي قد يرتكب فيها افظع الجرائم، ومنهم من يتأثر به ضمن نطاق محدود جداً. وقد يصح القول بأن الفرد كلما كان ذا إرادة قوية وتفكير ناضج صعب على المنوم إخضاعه لإرادته. ولعل من الناس من لا يمكن تنويمه على الإطلاق.

التنويم الاجتماعي

جدير بنا ان نذكر، قبل ان ننتهي من هذا الفصل، ان التنويم لا يقتصر حدوثه على شخصين احدهما ينوم الآخر، إنما هو قد يكون على نطاق اجتماعي واسع وهو الذي اسميناه في فصل سابق بالتنويم الاجتماعي.

تشتد وطأة هذا التنويم عادة في المظاهرات التي تحتشد فيها جماهير غفيرة من الناس ويحدث فيها الهرج والهتاف. وهنا نجد الأفراد الذين يشتركون في التجمهر لا يشعرون بما يفعلون، حيث تسيطر عليهم فكرة معينة فتجعلهم يفقدون وعيهم إلا من ناحية واحدة، هي تلك الناحية التي ينصب فيها الهتاف. ونراهم لهذا يندفعون في افعال مستهجنة جداً، كالتعذيب والذبح والتمثيل، دون ان يدركوا مغبة ما يفعلون. ومن الممكن تشبيههم حينئذ بذلك الشاب الدانماركي الذي صار يسرق ويقتل وهو مؤمن بأن أبواب الجنة مفتوحة بين يديه.

ان الذي يسمع عن الفضائع والمجازر التي تقوم بها الجماهير اثناء التنويم الاجتماعي قد لا يصدق بها لشدة ما فيها من هول تقشعر منه الأبدان. والقائمون

بالمجازر أنفسهم قد لا يصدقون بصحة ما ينسب إليهم بعد انكشاف غمة التنويم عنهم. فهم يظلون يدورون برؤوسهم متسائلين: اصحيح انهم انفسهم قاموا بتلك المجازر الفظيعة؟!

والتنويم الاجتماعي له اثر بالغ في شل التفكير. فالذي يقع تحت وطأته لا يستطيع أن يفكر إلا في حدود ما يملي عليه الإيحاء التنويمي العام. وانت لا تستطيع أن تجادله او تباحثه مهما يكن دليلك إليه صارخاً. إن إطاره العقلي مغلق بشكل لا ينفذ إليه اي برهان مهما كان. إنه ينظر في الأمور من خلال ذلك الإطار. وهو قد يهيج كالثور حين تحاول ان تاتي له بما هو خارج عن نطاق ذلك الإطار.

كنت اتحدث ذات يوم مع شاب في الكاظمية عن بشاعة تلك العادة التي يطلقون عليها اسم "التطبير"، حيث يجرح بعض الناس رؤوسهم بالحراب ويتعرضون فيه للموت. وكان الشاب يصغي الى ما اقول حتى حسبته قد اقتنع بصحة رايي. ثم اتيح لي بعد ذلك ان ارى الشاب نفسه في يوم عاشوراء وهو يشهد موكباً من مواكب التطبير. ولم يكد يلمحني الشاب من بعيد حتى خلت الشرر يتطاير من عينيه. إنه كان إذ ذاك واقعاً تحت تاثير التنويم الاجتماعي وقد خلب لبه منظر الدم وزعيق الباكين فاصبح لا يفهم من دنياه سوى تأييد التطبير والاندفاع في سبيله. ولا حاجة لي بالقول اني اطلقت ساقي للريح مخافة ان يدركني الشاب فيمسك بتلابيبي ويفعل بي ذبحاً وتمثيلاً. وكم من الناس من ذهبوا ضحايا بريئة في هذا السبيل!

يصح القول أن التنويم الاجتماعي موجود اينما وجد الانسان. ولا بد لكل انسان من أن يقع تحت وطأته قليلاً أو كثيراً. ولكننا نستطيع أن نقول عن التنويم الاجتماعي مثلما قلنا عن التنويم الفردي هو انه كلما ازدادت ثقافة الناس وتفتحت عقولهم ضعف فيهم أثر التنويم وقلّت مخاطره.

هوامش الفصل الخامس عشر:

(1) انظر: المقتطف، رسائل الأرواح، ص 29 .
(2) انظر: بول جاغو، التنويم المغناطيسي ، ص 5 .
(3) انظر: سينل، الحاسة السادسة ، ص 58 .
(4) انظر: Humphry, Story of Man's Mind, p. 269.
(5) انظر: Woodworth, Study of Mental Life.
(6) انظر: سينل، الحاسة السادسة ، ص 88 - 93 .
(7) انظر: المصدر السابق، ص 77 .
(8) انظر: الثعلبي، قصص الأنبياء، ص 106 .
(9) انظر: وليم سرجيوس، التنويم المغناطيسي، ج 1 ص 149 .
(10) انظر: المصدر السابق، ج 1 ، ص 152 .

الفصل السادس عشر

عبقرية الأحلام

تحدثنا فيما مضى عن الأحلام من حيث صلتها بالتنبؤ وبالتنويم، ونود الآن ان نتحدث عن الأحلام من ناحية اخرى هي علاقة الأحلام بالانتاج الفني والعلمي. فقد اشتهر عن بعض المبدعين من الفنانين والمخترعين انهم توصلوا إلى إبداعهم الرائع اثناء النوم او ما يشبه النوم من اوقات الذهول والاستجمام.

أمثلة واقعية:

تروي لنا الكتب العلمية في هذا الشان قصصاً كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال قصة اكتشاف "الأنسولين" وهو الدواء الذي يعالج به الآن مرض بول السكر. وقد كان هذا المرض من الأمراض الخبيثة التي استعصى علاجها على الأطباء، إلى ان تمكن باحث كندي اسمه فردريك غرانت من اكتشاف الأنسولين، وقد حصل غرانت من جراء ذلك على جائزة نوبل في عام 1923 .

ويحدثنا غرانت عن كيفية اهتدائه إلى اكتشاف الأنسولين، فقال انه كان ذات ليلة يعد محاضرة عن مرض بول السكر، وبعد ان تعب في اعداد المحاضرة غلبه النعاس فنام. وفي الساعة الثانية من بعد منتصف الليل استيقظ فجاة فاضاء المصباح وكتب ثلاث عبارات في مذكرته، ثم عاد إلى النوم. وقد اصبحت تلك العبارات فيما بعد مفتاحاً لاكتشاف الدواء الذي انقذ الملايين!

***

ويحكى مثل هذا عن الرجل الذي اخترع ماكنة الخياطة. فقد أكمل هذا الرجل إختراع الماكنة ولم يبق منها سوى تصميم شكل الإبرة المناسبة لها. وظل حائراً مدة طويلة لا يدري ما يصنع . ثم حدث له مرة ان ادركه النوم بعد أن بلغ اليأس منه مبلغه. فرأى نفسه في المنام وكأنه محاط بجماعة من الزنوج البدائيين وهم يريدون قتله. وحانت منه التفاتة إلى الحراب التي وجهها الزنوج نحوه فوجد في كل حربة منها ثقباً قريباً من رأسها. فاستيقظ من نومه مرعوباً ولكنه ادرك حالاً انه قد عثر على ضالته المنشودة، فانكب على الابرة يصنعها على منوال ما رأى في حراب الزنوج.

***

ويقال عن ديكارت انه كشف كشوفه العظيمة وهو نائم في فراشه صباحاً. وكذلك يقال عن هنري بوانكاريه، العالم الرياضي المشهور، انه توصل إلى حل مسألة رياضية هامة وهو في حالة نوم[1].

ويحدثنا هنري فابر عن بعض احلامه فيقول: "ان وميضاً لامعاً يتألق في مخه فيثب من سريره،ويشعل مصباحه ويسجل الحل مخافة ان يضيع من ذاكرته، ان هذا الوميض كضوء البرق يختفي فجأة كما يظهر فجأة..." [2].

مع أهل الفن:

ولم يقتصر الأمر على العلماء والمخترعين وحدهم، بل تعداه إلى اهل الفن. من ذلك ما يحكى عن الموسيقار السر ارثر سيمون سولفيان، حيث كان قد وضع اغنيته المشهورة "الوتر الضائع" في الحلم. وعندما استيقظ تذكر منها المقطوعات الأولى فسجلها. اما بقية الأغنية فقد ضاعت إلى الأبد.

ويحدثنا صاحب الأغاني عن شاعر جاهلي اسمه عبيد بن الأبرص انه كان يرعى مع اخته غنماً له. فتعرض له رجل من بني مالك ومنعه من ورود الماء ثم اهانه واتهمه باخته. فاتى عبيد إلى شجيرات هناك فاستظل مع اخته بها وهو حانق، ثم نام. فرأى في المنام كان شخصاً ياتيه بكبة شعر ويلقيها في فمه. فاستيقظ عبيد وهو يرتجز هجاءً شديداً، هذا مع العلم انه لم يكن يقول الشعر من قبل[3].

الإعداد النفسي:

المعروف عن بعض المفكرين انهم لا يكتفون بما تاتي به الأحلام من فائدة على سبيل المصادفة، بل يعمدون إلى شيء من التدبير قبل النوم يهيئون به أذهانهم نفسياً لاقتناص الفائدة المتوقعة من الأحلام. من هذا ما يروى عن الفيلسوف العربي ابن سينا. يقال انه كان إذا استعصت عليه مسألة فلسفية توضأ وصلى ثم نام، فيرى جواب تلك المسألة في منامه.

ونحن لا نستطيع ان ننكر اثر الوضوء والصلاة في هذا الشأن، إذ ان ذلك يؤدي إلى تهيئة الذهن وتركيزه على المشكلة التي يراد حلها اثناء النوم. ومن الممكن الوصول إلى النتيجة ذاتها بأية طريقة نفسية اخرى غير الوضوء والصلاة.

يقال عن رجل اسمه وليم جبس، وكان من رجال الإدارة المعروفين، انه كان يتوصل إلى حل المشكلات المستعصية عليه بعد ان يركز عليها تفكيره وهو منطرح على فراشه يريد النوم. وقد اعتاد ان يضع قلماً وورقاً بجانب فراشه. وكثيراً ما كان يستيقظ من نومه وفي راسه فكرة مجدية، فيسرع إلى تسجيلها قبل اختفائها من ذاكرته[4].

وكانت الأستاذة فورستر تلجأ إلى مثل هذه الطريقة عندما كانت طالبة في الجامعة. فقد كانت تضع إلى جانب سريرها ورقة لتكتب فيها جواب ما عجزت عن حله من المسائل في يقظتها[5].

رأي ابن خلدون:

مما تجدر الإشارة إليه ان ابن خلدون فطن إلى هذه الحقيقة قبل ستة قرون تقريباً. فقد كان يعتقد بان الأحلام تستطيع ان تحل بعض مشاكل اليقظة على شريطة ان يعد الحالم نفسه لها إعداداً نفسياً قبل ان ينام.

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته طريقة طريفة لهذا الغرض، وهو يقول عنها انه وجدها في كتب بعض المنجمين وجربها بنفسه فانتجت له رؤى عجيبة. وملخص الطريقة، كما جاء بها ابن خلدون ان الانسان يقول بعد فراغ السر وصحة التوجه "تماغس بعد ان يسواد وغداس تنوفنا غادس" . ثم ينام. وعندئذ يرى ما كان يتشوق إليه اثناء يقظته.

وابن خلدون لا يرى في هذه الكلمات الأعجمية أية مقدرة سحرية أو سر خفي، إذ هي ليست سوى مجموعة من الألفاظ الجوفاء مما يعتاد المنجمون على تسطيرها في طلاسمهم والتي لا معنى لها في ذاتها، ولكنها تنتج فيمن يعتقد بها استعداداً نفسياً فتجعله قادراً على توجيه قواه الذهنية نحو الحل المطلوب.

ويخلص ابن خلدون رأيه بعبارة رائعة، تشبه في بعض الوجوه ما يقول به علماء النفس المحدثون، حيث يقول: "فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء"[6]. إنها إذن قضية استعداد وتوجه نفسي، وليس من المهم عندئذ أن يكون الاستعداد عن طريق الوضوء والصلاة أو عن طريق كلمات أعجمية جوفاء من أمثال "تماغس نوفنا غادس...".

رأي برجسون:

مهما يكن الحال فقد ظهر بين الباحثين من يشكك في مقدرة الأحلام على الإبداع أو على حل المشكلات المستعصية. من هؤلاء برجسون، الفيلسوف الفرنسي المشهور. ففي رأيه أن الابداع لا يقع للنيام على التحقيق، إنما هو يأتي في حالة بين النوم واليقظة.

يعتقد برجسون أن العقل عند الابداع يجب أن يكون قادراً على بذل جهد يمكنه من التنظيم والتركيب، وهذه المقدرة لا تتأتى للإنسان أثناء نومه، إذ أن اللاشعور يكون عند ذاك ملتاثاً أو مرتبكاً[7].

يجوز لنا أن نناقض برجسون حول رأيه هذا. فنحن لا ننكر أن الابداع يحتاج إلى جهد واع يبذله الذهن في التنظيم والتركيب، ولكن: هل يكفي هذا الجهد وحده للإبداع؟ خذ مثلاً اختراع ماكنة الخياطة الذي أشرنا إليه، فقد أتم المخترع تصميم تلك الماكنة بعد جهد طويل وتفكير مركز، ولم يبق منها سوى صنع الإبرة الملائمة لها. وأخذ يواصل التفكير في هذا السبيل دون جدوى. لقد كان مصير الاختراع كله متوقفاً على شكل الابرة، إذ يجب أن يكون الثقب فيها قريباً من الرأس. ولكنه لم يهتد إلى ذلك مهما أجهد ذهنه في التفكير. وأخيراً، وبلمحة خاطفة، جاءته الفكرة أثناء النوم. فاستيقظ وهو يهتف كما هتف أرخميدس من قبل: وجدتها... وجدتها!

نستطيع ان نقول مثل هذا عن كل مخترع او مبدع. فهو يبحث في المشكلة المستعصية ويقلب أوجه النظر فيها، ولكنه يبقى مع ذلك عاجزاً عن الحل. وربما كان الحل كامناً في فكرة بسيطة جداً كبساطة موضع الثقب من ابرة ماكنة الخياطة. وهذه الفكرة قد لا تخطر بالبال ما دام الانسان يفكر من اجلها تفكيراً واعياً. ويصح ان نقول انه كلما اجهد نفسه في التفكير ابتعدت عنه. إنما هو لا يكاد ينساها حتى تأتيه فجأة كلمح البرق.

اقتناص الأفكار:

مما يجب ذكره في هذا الصدد ان الفكرة الابداعية الخاطفة لا ينحصر ظهورها في وقت النوم وحده. إنها قد تأتي في اي وقت آخر يذهل الانسان فيه عن نفسه ويخمد نشاط عقله الواعي. وكثيراً ما وصل العباقرة إلى افكارهم الكبرى اثناء مشيهم في الشارع او دخولهم في المرحاض أو انطراحهم على اريكة الراحة.

معنى هذا ان العبقري المبدع لا يجوز ان يكتفِ بنشاط عقله الواعي وحده، بل عليه بالإضافة إلى ذلك ان يتربص بومضات عقله الباطن ويقف مستعداً لاقتناص ما تأتي به من افكار خاطفة. وإذا تردد عن اقتناص تلك الأفكار في حينها فقد تضيع منه فرصة العمر.

وهذا الذي نلاحظه في المبدعين قد يلاحظه كل واحد منا في نفسه. فنحن نحاول احياناً ان نتذكر شيئاً ما وقد يكون هذا الشيء مما نذكره في كل حين، ولكننا لا نكاد نركز ذهننا عليه حتى يختفي من ذاكرتنا. إن هذا هو ما يعبر عنه العامة حين يقولون عنه انه "على طرف لسانهم" . والغريب اننا لا نكاد نهمل الشيء الذي نريد تذكره ونغفل عنه حتى يأتينا فجأة، وهو قد يأتي بعد فوات الأوان.

ويحدث لنا مثل هذا حين نحاول ان نلقي نكتة بالمناسبة. وكلما اجهدنا نفسنا في سبيل ان نتذكر النكتة الملائمة ازداد عجزنا عن العثور عليها. وما هو إلا ان تنتهي المناسبة حتى نجد ذهننا قد امتلأ بالنكات الرائعة، مع الأسف الشديد.

قريحة الشعراء:

من هذا القبيل ما ترويه المأثورات الأدبية عن الشعراء قديماً وحديثاً. فالواحد منهم

يحاول نظم الشعر احياناً فيستعصي عليه النظم، ثم تاتي عليه بعد ذلك لحظات ينطلق الشعر على لسانه انطلاقاً فؤاراً كانه يملى عليه من قوة خارجة عن إرادته.

كان عرب الجاهلية يقولون عن تلك اللحظات التي تفيض بها القريحة الشعرية انها من عمل الجن. ولا لوم عليهم في ذلك، فهم لا يعرفون السر الذي يجعل قريحتهم تفيض تارة وتنضب تارة اخرى دون ان تكون لإرادتهم الواعية يد فيها، ولا بد لهم من ان يعزوه إلى الجن لأنهم اعتادوا ان يفعلوا مثل ذلك في تعليل كل ظاهرة عجيبة.

يقول الثعالبي: " وكانت الشعراء تزعم ان الشياطين تلقى على افواهها الشعر وتلقنها إياه وتعينها عليه. وتدعي ان لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه، فمن كان شيطانه امرد كان شعره اجود. وبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بهذا الشان ان ذكروا لها اسماء، فقالوا ان اسم شيطان الأعشى مسحل، واسم شيطان الفرزدق عمرو، واسم شيطان بشار شنقناق... "[8].

يروى عن الفرزدق مثلاً انه قال: "قد تمر علي ساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون علي من عمل بيت من الشعر" . وحدث للفرزدق مرة ان اهانه رجل من الأنصار وتحداه ان يقول شعراً كشعر حسان بن ثابت الأنصاري. فانصرف الفرزدق مغضباً ثم اخذ يحاول النظم فلم يقدر، وظل يصارع قريحته دون جدوى. والظاهر ان صاحبه الجني كان غائباً عنه يومذاك. فاضطر الفرزدق ان ياخذ بزمام ناقته ويخرج إلى جبل خارج المدينة يبحث فيه عن صاحبه. وصاح هناك باعلى صوته: "اخاكم اخاك ابا لبنى!" . وشاء الجني ان يشفق على الفرزدق، فلم يكد الفرزدق يعقل ناقته ويتوسد ذراعها حتى جاش الشعر في صدره كما يجيش المرجل. ولم يقم حتى نظم ابياتاً جاوز عددها المئة بيت من جيد الشعر.

وحدث مثل هذا لجرير. قيل ان احد الولاة ارسل إليه يطلب منه قصيدة. فمكث جرير ليلته يجتهد ان يقول شيئاً من الشعر فلم يوفق. وعند هذا هتف به صاحبه الجني من زاوية البيت: "ازعمت انك تقول الشعر...ما هو إلا ان غبت عنك ليلة حتى لم تحسن ان تقول شيئاً... "[9].

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد ان الفرزدق جاء إلى الحسن البصري ذات

يوم وهو يقول له: "إني قد هجوت أبليس" . فقال له حسن البصري متعجباً: "كيف تهجوه وعن لسانه تنطق؟!" [10].

شعراء الافرنج:

أحس كثير من شعراء الافرنج في العصر الحديث بمثل ما احس به شعراء العرب في قديم الزمان. ولكنهم لم ينسبوه إلى الجن، إنما قالوا عنه بأنه حالة غامضة تعتريهم فتجعلهم ينظمون الشعر عن غير وعي أو إرادة[11].

من هؤلاء الشاعر الانكليزي المشهور شيلي. والمعروف عن هذا الشاعر انه كان ذا سلوك شاذ حتى اتهمه قومه بالجنون. وقد شوهد ذات مرة في غابة جالساً عند شجرة والأوراق مبعثرة حوله وفيها سطور متراكمة بعضها فوق بعض بشكل مخيف. وعندما سئل شيلي عن ذلك قال: "إن دماغي حين يستحر بالأفكار سرعان ما يغلي فيقذف بالأخيلة والكلمات قذفاً أسرع مما استطيع التقاطه" .

ومن الآراء التي ابداها شيلي في هذا اصدد قوله: "إن الشعر ليس من قبيل التفكير الذي يسيطر عليه القصد او الإرادة. فالإنسان لا يستطيع ان يقول: اريد أن انظم شعراً. وليس في مقدور أعظم شاعر ان يقول مثل هذا القول" .

ويقول كيتس، وهو شاعر معروف ايضاً، انه عندما يقرا قصائده التي كتبها من قبل في لحظات الالهام، يعجب منها حيث تبدو له وكانه لم ينظمها، إنما نظمها له شخص آخر غيره.

ومثل هذا ما قالته جورج اليوت حيث اعترفت بأن خير ما كتبت لم يصدر عنها، وكانه صدر عن شخصية اخرى. ولم تكن هي سوى آلة تسجل ما تملي عليها الشخصية الثانية[12].

وكذلك قال وليم بليك حيث صرح بانه كان يكتب من الشعر ما يملى عليه [13].

الواقع أن هناك شعراء كثيرين، غير هؤلاء الذين ذكرناهم، اعترفوا بسيطرة حالة غامضة عليهم عند نظم الشعر. إنهم لا يعزونها إلى الجن كما كان يفعل

اسلافهم من شعراء العرب القدامى. واحسب انهم لو كانوا يعيشون في ايام الجاهلية لما ترددوا عن وصف تلك الحالة الغامضة بانها من عمل الجن او الشياطين.

وسائل حث القريحة:

لكل شاعر تقريباً وسيلة خاصة به يستحُث بها قريحته عندما تستعصي عليه. فكان بعض شعراء الجاهلية مثلاً يخرجون الى القفار الموحشة اعتقاداً منهم انهم يلاقون الجن هناك. والجن في زعمهم تعيش في الأماكن المقفرة الخالية من البشر. وكثيراً ما يظهر لهم الجن هناك بتاثير الوهم والإيحاء الذاتي.

يحدثنا الشاعر كثير عزة عن نفسه فيقول: "بينما انا يوماً نصف النهار اسير على بعير لي بالغميم او بقاع حمدان ،إذ راكب قد دنا مني حتى صار الى جنبي فتأملته فإذا هو من صفر وهو يجر نفسه جراً. وقال لي: قل الشعر. والقاه علي. قلت: من انت؟ قال: انا قرينك من الجن..." (14).

لا يصعب علينا تصور ظهور الجني لهذا الشاعر. فقد كان الشاعر يمني نفسه بلقاء الجني ويترقبه ويوحي الى نفسه به. انه كان ينوم نفسه تنويماً ذاتياً، فيذهب به الخيال الى رؤية ما كان يترقبه. وعند هذا يفيض الشعر عليه فيضاناً لا شعورياً وهو يظن بان الشعر قد القاه عليه قرينه من الجن.

وهناك من الشعراء من يستحث قريحته بطريقة اخرى، كان يعرض نفسه الى البرد او الحر، او يتناول المخدرات او المنعشات، او يقوم بعمل يشبه اعمال الحمقى والمجانين. فمن طريف ما يروى عن ابي تمام مثلاً انه كان إذا اعيته الحيلة يعمد الى صهريج ماء اعده في بيته فيغطس فيه، وعند هذا يؤاتيه الشعر. ويروى عن جرير انه كان عند استعصاء الشعر عليه يخلع ثيابه كلها ثم ياخذ بالتمرغ على الرمل كما يفعل الحمار، وقد يحبو اثناء ذلك ويهمهم حتى يخال الناظر إليه انه مجنون. ويقال عن شعراء آخرين من امثال الأخطل وابي نواس والخيام انهم كانوا يستحثون قريحتهم الشعرية بشرب الخمر.

والمعروف عن كثير من المبدعين في عصرنا انهم لايستطيعون ان ينتجوا شيئاً إلا إذا اكثروا من التدخين او افرطوا في تناول القهوة او تناولوا جرعة قوية من الخمر

او الحشيش او غيرهما من العقاقير المخدرة. وهم لا يكادون يمتنعون عنها حتى يشعروا بجفاف مزعج في قريحتهم.

ليس من السهل علينا تعداد مختلف الوسائل التي يلجا إليها الشعراء والفنانون في هذا الصدد. وعلى اي حال، فمن الممكن القول ان هذه الوسائل على اختلاف انواعها لا يقصد بها سوى تخدير العقل الواعي وذلك لكي يتمكن اللاشعور من إظهار نشاطه على وجه من الوجوه.

الصرع والابداع:

مما يلفت النظر ان بعض العباقرة المشهورين في التاريخ كانوا مصابين بالصرع على وجه من الوجوه، حيث لا تتفتح قريحتهم إلا إذا انتابهم الصرع بين فترة واخرى. وقد يعجب القارىء من هذا القول إذ ان الصرع في نظر اكثر الناس مرض وبيل يحطم شخصية من يبتلى به.

الواقع ان الصرع يحطم شخصية صاحبه في بعض الأحوال لا سيما إذا كان المصاب به من الأغبياء او المعتوهين. اما اصحاب الذكاء اللامع والقريحة الفياضة فقد ينتفعون من الصرع إذ هو يخدر عقلهم الواعي احياناً ويتيح للاشعور فرصة العمل الخلاق.

مما يجدر ذكره ان الصرع ليس كله على شاكلة واحدة، وليس كله من ذلك النمط الشديد المعروف لدى الناس. فهناك مثلاً نمط خفيف منه لا يضر شخصية صاحبه شيئاً، إذ هو ليس سوى فترة ذهول او إغماء يغيب فيها الوعي قليلاً وقد يصاحبها شيء من العرق. وهذه الفترة قد تكون ذات نفع حيث يخرج صاحبها منها وهو مفعم بالأفكار الجديدة.

يبدو ان هذا هو الذي جعل بعض الشعوب القديمة تطلق على الصرع اسم "المرض المقدس" والمعروف عن الأقوام البدائية انها تعد الصرع مظهراً من مظاهر الاتصال بالأرواح والآلهة(15).

ابن الفارض:

لا يسعنا المجال هنا ان نذكر اسماء الذين ابتلوا بالصرع من عباقرة الأمم. يكفي

ان نذكر واحداً منهم هو الشاعر المصري الملهم ابن الفارض المتوفى عام 632 هـ . وحين ندرس سيرة هذا الشاعر كما هي في كتب الأدب العربي لا نجد فيها ذكراً للصرع. ولكنه في الحقيقة كان مصاباً بالصرع، بيد ان صرعه كان من النمط الخفيف الذي لا يعدو ان يكون فترة من فترات التواجد الصوفي والغيبوبة.

يقول المؤرخون عنه انه نظم اكثر شعره تحت تاثير الغيبوبة الصوفية. وقد حدثنا ولده عنه مرة فقال: "رايت الشيخ نهض ورقص طويلاً وتواجد وجداً عظيماً وتحدر منه عرق كثير حتى سال تحت قدميه وخر إلى الأرض واضطرب اضطراباً عظيماً ولم يكن عنده غيري ثم سكن وسجد لله تعالى فسألته عن سبب ذلك فقال: يا ولدي فتح الله علي بمعنى في بيت لم يفتح علي بمثله.." .

وكان ابن الفارض يصف غيبوبته بانها سكرة بخمر محبة الله.

ذهول العباقرة:

اشتهر كثير من العباقرة بانهم اولو ذهول شديد يغفلون به عن انفسهم ومن حولهم من الناس. فترى احدهم ينظر إليك وتحسبه يصغي إلى ما تقول بينما هو لا يفهم منك حرفاً واحداً. وكثيراً ما ينسى العبقري من جراء ذلك اسم اقرب الأصدقاء إليه، او يتحرك حركة شاذة غير متوقعة منه في الشارع او في المجلس.

إننا نحن العاديين قد تعترينا احياناً لحظات ذهول ننسى فيها انفسنا ونحملق في لا شيء. ولكن هذا الذهول فينا من طراز خفيف سرعان ما يزول عند اقل بادرة تقع حولنا. اما ذهول العباقرة فهو من طراز آخر. وقد تمتلىء الدنيا حولهم صراخاً وصخباً بينما هم سادرون في عالمهم الغريب يجترون احلامهم ولا يحسون بما حولهم من الدنيا شيئاً.

يحكى عن ارخميدس مثلاً انه كان ذات يوم في ساحة داره منكباً على الأرض يرسم عليها خطوطه وحساباته، فجاءه على حين غفلة جلواز يستدعيه إلى الملك عاجلاً. فلم يسمع ارخميدس نداء الجلواز، وظل منهمكاً بخطوطه. فظن الجلواز ان ارخميدس يستهين بامر الملك، وكيف يتاتى لجلواز ان يفهم ذهول العباقرة، فهجم عليه وقتله(16).

ويقال عن نيوتن انه كان مصاباً بمثل هذا الذهول الشديد، حدث له مرة انه اراد ان يضع بيضة في ماء مغلي ليسلقها. ولكنه بدلاً من ان يلقي البيضة في الماء، القى فيه الساعة التي كانت في يده. والغريب انه ابقى البيضة في يده وظل ينظر إليها كانه كان يريد بها تحديد الوقت الذي يتم سلق "الساعة" فيه.

وحدث مرة اخرى ان دعى جماعة من أصدقائه إلى تناول الغداء معه. فلما حضروا تركهم وذهب إلى مكتبه حيث جلس مدة طويلة يتامل. وعندما سئم الأصدقاء من الانتظار نهضوا ومروا عليه قائلين له: "شكراً جزيلاً". فاجابهم بكل هدوء: "لا شكر على واجب".

ويحكى عن عبقري آخر من الرياضيين انه كان يمشي في الشارع وذهنه مشغول بمسألة عويصة. فرأى عربة سوداء واقفة في الطريق، فاخرج من جيبه قطعة من الطباشير واخذ يكتب على ظهر العربة معادلاته الرياضية، ظناً منه انه يكتب على لوحة سوداء موجودة في بيته الكريم. ولم يفطن إلى نفسه إلا بعد ان تحركت العربة، فمادت الأرض به وخيل إليه انه اصيب بالدوار...

اللاشعور والإبداع:

نستخلص مما سلف ان الابداع ليس كله مما يدركه الانسان نتيجة وعيه القاصد او تفكيره المنظم. لا شك ان التفكير المنظم ضروري للإبداع ولكنه لا يكفي وحده في ذلك. فمهما حاول المفكر ان يصل إلى فكرة جديدة شعر بالعجز ما لم يسعفه اللاشعور بلمحاته الخاطفة التي تنير له السبيل.

يقول الاستاذ سير بيرت في الطريقة التي يتوصل بها العباقرة والفنانون إلى القيام بانجازاتهم الرائعة ما يلي:

" إن الدراسات التي قام بها علماء التحليل النفسي على الأحلام واحلام اليقظة قد القت جانباً كبيراً من الضوء على عمل العقل عند الفنان، فالعمل الانشائي الذي يقوم به الفنان يكون في الغالب - مثل حلم اليقظة - نتيجة عملية لا شعورية. وما يبدو للعيان مجرد لمحة من الالهام او ميلاً انشائياً فريداً، إذا انت فحصته بدا لك في طبيعته المعقدة منبعثاً من ميول عدة، تعمل في الأعماق تحت سطح الشعور. هذه الميول تستمر في عملها اللاشعوري ما بقيت مكبوتة، وتبقى آثارها بسيطة وغير

مفهومة ما بقيت مصادرها خفية. ولكن متى تحقق الناس أن العقل ـ حتى في مشكلاته العادية ـ يقوم بسلاسل من النشاط اللاشعوري، تكشفت لهم ألغاز الانتاج الفني كل التكشف"[17].

وكذلك قال الاستاذ كنمير عند بحثه في العبقرية. فالابداع العبقري في رأيه هو "الطريق الغريب الذي تنصب منه الأفكار الجديدة والمكتشفات العجيبة على العبقري، من حين إلى حين، نابعة من معين مجهول لا يعرفه هو نفسه ولا يستطيع العقل الشعوري أن يدركه" [18].

وذهب إلى مثل هذا الرأي الدكتور برود حيث قال: إن الفعاليات الذهنية التي تعمل على حل مشكلة ما ليست هي مما يمكن للعقل المفكر السيطرة عليه أو الشعور به[19].

لماذا؟

إن هذه العلاقة الوثيقة بين اللاشعور والابداع تجعلنا نتساءل، ونلح في التساؤل، عن السبب فيها. إنها مسألة دقيقة ومهمة. وفي رأيي أننا لا نستطيع أن نفهم حلاً لها قبل أن نعرف شيئاً عن طبيعة الذاكرة في الانسان. فما يحدث للمبدع قد يحدث لأي واحد منا حين نحاول أن نتذكر شيئاً، كما اشرنا إلى ذلك من قبل. فنحن كلما اجهدنا انفسنا في أن نتذكر شيئاً نريده صعب علينا أمره، ولكننا لا نكاد نهمله ونغفل عنه حتى يأتينا فجأة كاللمح الخاطف.

ومشكلة الذاكرة بوجه عام ليست بالمشكلة الهينة. فقد حاول العلماء الكشف عن اسرارها ردحاً طويلاً من الزمن دون جدوى. وبقي قسم من العلماء حتى يومنا هذا يعدون الذاكرة لغزاً غير مفهوم. وفي الآونة الأخيرة جاءتنا الصحف بخبر ظهور اكتشاف مهم في شأن الذاكرة على يد عالم روسي اسمه الدكتور بلومنفلد. فقد قام هذا العالم ببعض التجارب المختبرية على الخلايا الحية، لا سيما تلك التي توجد في أنسجة المخ ونخاع العظام،فوجد أنها تحتوي على خواص كهربائية مغناطيسية تشبه إلى حد بعيد تلك الخواص التي تتصف بها أجهزة اللاسلكي الدقيقة. وقد أعلن العلماء أن هذا الاكتشاف قد يؤدي إلى الكشف عن اسرار الذاكرة في الانسان، ولعل الذاكرة ليست سوى عملية معقدة للتسجيل المغناطيسي يجري

في داخل المخ البشري على منوال ما يجري التسجيل المغناطيسي في العقول الالكترونية المعروفة.

اعتقد ان هذا الاكتشاف العلمي ذو دلالة كبيرة في موضوع الإبداع. فنحن نعرف ان اي إبداع لفكرة جديدة ليس سوى ربط أو تأليف بين فكرتين معروفتين سابقاً[20]. ومعنى هذا أن المبدع لا يستطيع ان يخلق الشيء من عدم، بل هو يؤلفه من اشياء موجودة قبلاً، وليس له من فضل في ذلك سوى فضل الربط والتركيب.

وإذا علمنا بالإضافة إلى ذلك ان المخ يحتوي على ملايين الأفكار والذكريات التي اختزنها من اختباراته السابقة جاز لنا القول إذن بأن الفكرة الجديدة هي نتاج عملية لاشعورية تجري في داخل المخ حيث تترابط بها فكرتان قديمتان كما تترابط المعلومات المختلفة المخزونة في العقل الالكتروني..

سؤال آخر:

قد يراود الذهن في هذا الصدد سؤال آخر هو: لماذا يصعب على المخ ان يقتنص الفكرة الجديدة في حالة الوعي والتفكير القاصد، بينما هو يقتنصها بسهولة عندما يغفو العقل الواعي او يغفل عن نفسه؟

يبدو ان العقل الواعي ذو طبيعة تحليلية لا تركيبية. فهو يستطيع ان يبحث ويفكر ويستقصي إنما هو لا يستطيع ان يبتكر إلا قليلاً. ولعل السر في ذلك ان العقل الواعي ميال إلى التركيز والدقة في النظر. فهو عندما يدرس امراً ما يحاول التركيز على نقطة واحدة منه. ولهذا فليس من السهل عليه ان يستوعب نقاطاً عدة من خلال نظرة واحدة. فتراه عند البحث يجمع الأفكار ويستقصي دقائقها، ولكنه لا يقدر على الربط بين فكرتين متباعدتين منها.

وهذا سبب ما نرى بين الحفّاظ من عجز عن الفهم والابداع. فهم يكثرون من حفظ المعلومات ومن تكرارها والتمشدق بها، ولكنهم يظلون كالببغاء غير قادرين على استخلاص اية جدوى مما يحفظون. وعلى العكس من ذلك الأذكياء الملهمون، إذ هم يدابون على تفهم الأفكار المتنوعة ثم ينسونها. ومعنى هذا انهم يتركونها

مخزونة في اغوار عقلهم الباطن، فتتفاعل هناك وتتشابك. ولهذا نجدهم ابرع في الجواب واقدر على حل المشكلات من اولئك الحفاظ "الدّراخين" .

كيف يفيض الشعر:

المفروض في الشاعر انه يحفظ كثيراً من الشعر المروى قبل ان يكون شاعراً. وليس من الممكن ان يكون الانسان شاعراً من غير ولع سابق له بالشعر وحفظ له. معنى هذا ان محفوظاته الشعرية تنغمس في اعماق عقله الباطن وتختزن هناك، حيث تتلاقح وتتفاعل.

راينا كيف ان الشاعر يصعب عليه ان ينظم الشعر الجيد حينما يريد. فالإرادة هنا تصبح بمثابة العقبة تسد الباب على اللاشعور وتعرقل عليه الفيض. والشاعر محتاج إذن إلى لحظات يغفو فيها عقله الواعي وتغفل الإرادة. وعندئذ يكون اللاشعور حراً مرتاحاً فيتم التلاقح والتفاعل فيه من غير قيد او عقبة.

يحكى عن المرحوم معروف الرصافي ان احد الرقعاء جاءه ذات يوم يطلب منه قصيدة عاجلة لتلقى في إحدى المناسبات الطارئة. وظن هذا الرجل بان الشاعر قادر ان يقول الشعر متى شاء، وقد تعجب حين وجد الرصافي يعتذر عن إجابة طلبه ويصر على الاعتذار. وعندما عاود الرجل الحاحه غضب الرصافي منه وقال له كلمة لا يجمل بنا ذكرها هنا، إنما هي تدل على ان الشعر فيض تلقائي لا يخضع للإرادة.

أهمية الوقت:

سمعت ذات مرة شويعراً يلقي قصيدة طويلة في حفل ونالت استحسان بعض الحاضرين. وعندما انتهى الشويعر من إلقائه اخذ يفخر بنفسه قائلاً بانه نظم القصيدة كلها في دقائق معدودة. وكان يقصد من ذلك انه على الرغم من ضيق الوقت انتج قصيدة رائعة ولو اتيح له وقتاً اطول لكانت قصيدته أروع وأعظم. نسي هذا الشويعر ان طول الوقت قليل الأهمية في امر جودة الشعر. ورب شاعر مجيد يحاول نظم الشعر اياماً عديدة فلا يقدر، وهو قد ينظم القصيدة الخالدة بعد ذلك في بضع دقائق.

مشكلة الإبداع بوجه عام أنه لا يخضع لحساب الزمن ولا يفهم جدول الضرب. إنه ليس من قبيل العمل الرتيب الذي يزداد انتاجه بمقدار ما يطول الزمن به.

أرجو ان لا يفهم القارىء من هذا أن الوقت لا أهمية له في هذا الشأن بتاتاً. الواقع أن الوقت مهم احياناً إذ هو يتيح للمبدع مجالاً يقتنص فيه فيض القريحة. وكلما طال به الوقت كانت فرص الاقتناص بين يديه أكثر. ويصدق هذا عند المبدع الذي يستلهم قريحته في فترات متقطعة. فهو في كل مرة يضيف شيئاً جديداً إلى ما ابدع سابقاً. ويظل يضيف إلى ابداعه وينقح فيه فترة بعد فترة حتى يتجمع له في نهاية المطاف كثير من أوجه الكمال.

يصح أن نقول مثل هذا عن كل مخترع عظيم في المجالات العلمية. خذ على سبيل المثال اختراع التلفون فقد أكب السيد غراهام بيل على هذا الاختراع طيلة سنوات عديدة، يكدح ويثابر على الكدح فيه. وكانت تقف في طريقه مشكلة مستعصية بين كل فترة وأخرى، وهو قد كان محتاجاً إلى استلهام اللاشعور مرة بعد مرة، حتى استطاع اخيراً ان يكمل اختراعه الذي اجتمعت فيه نتائج الجهد الواعي وومضات اللاشعور جنباً إلى جنب[21].

تصنُّع العبقرية:

يحلو لبعض الناس ان يتصنّعوا العبقرية ويتكلّفوها تكلفاً. يقع هذا بصفة خاصة لدى الصبيان المدللين من ابناء الترف، فهم قد نالوا من دنياهم ما يشتهون من مال وجاه فخيل إليهم انهم قادرون على نيل العبقرية كذلك كأن العبقرية حاجة تكسب بالمال كما تكسب به الغانية الجميلة والقصر الباذخ.

وقد يسمع هؤلاء عن ذهول العباقرة فيحاولون التشبه بهم فيه. فتراهم يطيلون شعرهم ويتصنعون النظرات العميقة ثم يسندون رؤوسهم على اكفهم، ويطلقون الحسرات تلو الحسرات. وإذا جلسوا إلى الناس اخذوا يخرجون الكلام من انوفهم ويملؤونه بالمصطلحات الرنانة. وليس من النادر ان يلتف حولهم اناس متزلفون يمدحونهم ويصفقون لهم فيظنون انهم اصبحوا عباقرة حقاً ـ والعياذ بالله!

وهناك اناس آخرون يشتهون العبقرية دون إن يكونوا من أولى الجاه والمال. ولعلهم يشتهونها ليسدوا بها النقص الذي يشعرون به من جراء الحرمان والمذلة.

إنهم يقراون في كتب التربية القديمة ان العبقرية تنال بالسعي وحده وأن كل من سار على الدرب وصل، فيحسبون أن باب العبقرية مفتوح بين أيديهم وأنهم واصلون إليها حتماً إذا عملوا من اجلها واستخدموا فيها التفكير الصحيح.

مشكلة هؤلاء انهم لا يصلون إلى غاياتهم المنشودة، ولكنهم يتخيلون انهم وصلوا إليها. وحين يجدون ان الناس لا يقدِّرون "عبقريتهم" حق قدرها، ينطوون على انفسهم حانقين وينسبون الى الناس الغباء او الحسد، ثم يملأون الدنيا صراخاً واسفاً على موت العبقريات في هذا البلد الأمين!

يتضح هذا بشكل يلفت النظر عند بعض طلاب الأدب عندنا. فأحدهم يريد ان يصير اديباً عبقرياً بمجرد ان يدرس الأدب وتاريخ الأدب ويملأ عقله الواعي بالمحفوظات الأدبية الكثيرة. وهو قد يكدح في سبيل ذلك كدحاً لا يستهان به، وحين ينتهي من ذلك يظن انه لم يبق بينه وبين العبقرية سوى أن يخرج انتاجه الى الناس فينهال الناس عليه بالاعجاب والتصفيق. وقد يفعل الناس له ذلك على سبيل المجاملة فيتخيل انه فاق بادبه الأولين والآخرين، ويأخذ عندئذ بالتغنج والتنطع.

عيب هذا المسكين وامثاله انهم يقلدون اكثر مما يبدعون. فهم قد يعجبون باديب مشهور ثم يحاولون تقليد اسلوبه وبعض عباراته. وما دام ذلك الأديب قد صار عبقرياً فلماذا لا يصيرون هم كذلك، اليسوا بشراً مثله؟ وعند ذاك يبدأون بنثر جواهرهم المقلدة على رؤوس الناس. والويل للناس إذا امتنعوا عن التقاط تلك الجواهر.

من خصائص العبقرية:

إن هؤلاء الذين يتصنعون العبقرية أو يحاولون تقليد أصحابها يجهلون شيئاً هاماًهو ان العبقرية لا تنال بالتصنع والتقليد. الواقع ان الابداع والتقليد امران متعاكسان حيث لا ينجح الانسان في احدهما إلا حين يفشل في الآخر. ومن خصائص العبقري المبدع انه يمقت التقليد مقتاً شديداً. فهو لا يحب ان يأتي بشيء إلا بعد أن ينفخ فيه من روحه ويطبعه بطابعه الخاص.

لا ننكر أن العبقري يستمد جذور إبداعه من عبقريات سابقة له، ولكنه يلاقح بينها ويعيد النظر فيها حتى ينتج منها شيئاً جديداً يختلف عما انتجه السابقون. انه

بعبارة اخرى يدرس كثيراً ويحفظ كثيراً، إنما هو يحفظ لينسى. والنسيان له وظيفة نفسية كبيرة في هذا الشان إذ هو ينقل المعلومات المحفوظة من العقل الواعي إلى العقل الباطن ويجعلها جزءاً من كيان العبقري اللاشعوري. وتبقى تلك المعلومات مخزونة في اعماق النفس كانها تتخمر. وعلى حين غرة، حين يكون العبقري سادراً في ذهوله او غاطاً في نومه، تنبعث الفكرة الجديدة من مخه كما تنبعث الشرارة. وهي لا تخرج عند ذلك للعبقري لكي يتباهى بها ويتحذلق، إنما هي تخرج له لكي يقدح بها النار الملتهبة في اعماقه. وهولا يبالي إذ ذاك ان يحترق بتلك النار او يستضيء بها.

تشبيه وتوضيح:

من الممكن تشبيه العبقري من هذه الناحية بالمنكت البارع. وقد لا يخلو المنكت البارع من عبقرية على وجه من الوجوه.

والمعروف عن المنكت البارع انه لا يتصنع التنكيت ولا يعتمد الإتيان بالنكتة حشراً في كل مجلس بغية التظاهر بالظرافة كما يفعل الرقعاء الذين ابتلى بهم الناس في كل زمان ومكان. وكثيراً ما نراه يعجز عن الاتيان بالنكتة الملائمة إذا طلب منه ذلك. بينما هو حين يسترسل على بديهته قد ياتي بالنكات الرائعة بتتابع عجيب كانها تفيض على لسانه فيضاً دون ان يدرك هو ماتاها في نفسه. وهو لا يبالي عندئذ ان تكون النكتة له او عليه، ولا فرق بين ان تلذعه او تلذع غيره.

ومما يجدر ذكره ان هذا المنكت قد يجمع نكاته من نوادر الناس المالوفة او يقتنصها من مظاهر الحياة التافهة، إنما هو ياتي بها بعد ذلك على نمط جديد، وليس من الصعب ان نلاحظ طابعه الشخصي واضحاً فيها، كانها من صنعه هو لا من صنع الآخرين الذين اقتبسها منهم. إنها تخرج منه بعد ان تغلغلت في كيانه اللاشعوري وتلونت بلونه.

وياتي الرقعاء اخيراً يحاولون تقليد صاحبنا هذا بحركاته وكلماته، ظناً منهم ان الأمر ميسور لهم. فما دام صاحبنا قد اضحك الناس بنكاته فليس عليهم إذن إلا ان يتمثلوا به فيها حرفاً حرفاً. ونراهم يبحثون عن مستمعين لكي يقينوا على رؤوسهم النكات التي حفظوها عن ظهر قلب. ولا يملك المستمعون إزاء ذلك إلا ان يضحكوا معهم ضحكاً يشبه البكاء!

ويشتد البلاء حين يكون احد هؤلاء الرقعاء من اصحاب النفوذ أو المال - كالصاحب بن عباد مثلاً. فهو ياتي بالنكات التقليدية في كل مجلس، وياخذ بالتغنج والتحذلق. فيضحك الجالسون له تزلفاً، ولو كان الأمر بيدهم لأمطروه بوابل من الأحذية. يحكى ان مديراً في إحدى الدوائر كان من هذا الطراز الرقيع، وكان الموظفون في دائرته يقهقهون لكل نكتة سخيفة يدلي بها، وربما اغمي على البعض منهم "إعجاباً بها" . وحدث ذات مرة ان رأى المدير احد الموظفين لا يضحك مع الضاحكين، فسأله عن السبب. فاجابه الموظف بكل برود: "لا داعي للضحك يا سيدي المدير فإني من دائرة أخرى" .

إن هذا المدير الرقيع لا يختلف عن اولئك الأدباء الذين يريدون ان يكونوا عباقرة عن طريق الحفظ والتقليد. إنهم لا يعرفون من الأدب سوى العبارات التي يقرؤونها في كتب الأدباء الكبار، فهم يعجبون بها ويحاولون التشبه بهم فيها من غير ان تكون لديهم تلك الشرارة النادرة التي تمكنهم من الابداع الخلاق.

هوامش الفصل السادس عشر:

(1) انظر : Sullivan, Outline of Modern Belief, Vol III, P. 811.
(2) انظر: توفيق الطويل، الأحلام، ص 150 .
(3) انظر: ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج 19 ص 76 .
(4) انظر: وليم سرجيوس، القوى الخفية،ص 79 .
(5) انظر: Forester, Studies in Dreams, Ch, 6.
(6) انظر: ابن خلدون، المقدمة ، ص 105 .
(7) انظر: توفيق الطويل، الأحلام، ص 150 .
(8) انظر: عبد الرزاق حميدة، شياطين الشعراء، ص 89 .
(9) انظر: جرجي زيدان، تاريخ الآداب العربية، ج 1 ، ص 292 - 293 .
(10) انظر: ابو الفرج الأصفهاني،الأغاني، ج 19 ، ص 33 .
(11) انظر: Harding, An Anatomy of Inspiration.
(12) انظر: Tyrrell, Personality of Man, p. 30 – 36.
(13) انظر: Kenmare, Stolen Fire, p. 16.
(14) انظر: جرجي زيدان، تاريخ الآداب العربية، ج 1 ، ص 293 .
(15) انظر: Murphy، Abnormal Psychology، p IX.
(16) انظر: Wilson, Great Men of Seience, p. 49.
(17) انظر : سيرل برت، كيف يعمل العقل ، ج 2 ، ص 218 .
(18) انظر: Kenmare, Stolen Fire, p 1.
(19) انظر: Broad, Mind And its Place in Nature.
(20) انظر: الفصل السادس من هذا الكتاب.
(21) انظر: كاترين شبن، اختراع الهاتف.

الملاحق

هذه فصول متفرقة كتبتها مؤخراً وهي كما يلاحظ القارىء لا تتصل بموضوع الأحلام اتصالاً مباشراً ولكني أرجو مع ذلك أن لا تكون خالية من فائدة للقارىء اللبيب.

الملحق الأول

مهزلة العقل البشري

اصدرت في عام 1956 كتاباً بعنوان "مهزلة العقل البشري"، وكان قصدي منه تفنيد "العقل" التجريدي الذي يلتزمه الميتافيزيقيون والطوبائيون من امثال افلاطون والفارابي وابن طفيل وابن رشد ومن لف لفهم. وقد اوردت في ثنايا الكتاب نماذج من مفكرين يعيشون في عصرنا وهم لا يزالون يفكرون على نمط ما كان يفكر به اولئك القدماء.

الواقع اننا ابتلينا بهذا النمط من التفكير قديماً ولا يزال الكثيرون منا مبتلين به حتى يوم الناس هذا. ولا يقتصر الأمر على الرجعيين منهم بل هو قد يشمل بعض الشبان من ابناء الجيل الجديد الذي يزعمون انهم تقدميون أو مجددون. وإذا جاز لنا ان نصف الرجعيين بأنهم مصابون بمرض الشيخوخة جاز كذلك ان نصف بعض التقدميين بأنهم مصابون بمرض الطفولة.

مشكلة هؤلاء واولئك جميعاً انهم يسيرون في تفكيرهم على اساس من المنطق الشكلي القديم. وتراهم حين يتجادلون في قضايا العصر الراهن لا يترددون عن استخدام القياس الذي كان القدماء يستخدمونه في جدلهم، إذ هم يأتون بالمقدمة المنطقية، يتلقفونها من هنا وهناك لكي يستنتجوا منها النتيجة التي يشتهونها. وقد يفعل البعض منهم هذا من حيث لايشعر، ظناً منه انه يجري في تفكيره طبقاً لمعايير التفكير السليم الذي لا يتطرق الشك إليه.

لا ننكر أن المنطق الشكلي صحيح. ولكن الذي يجب أن لا ننساه أن هذا المنطق له مجال معين وهو صحيح في حدود ذلك المجال، أما إذا أخرج منه فإنه يفقد أهميته وقد يؤدي استعماله إلى نتائج مغلوطة. وقد أصاب كيدروف حين وصف المنطق الشكلي بأنه كجدول الضرب حيث يجب على الطالب المبتدىء أن يتعلمه وأن يسير عليه في تمارينه الحسابية، إنما هو لا يجوز أن يكتفي بجدول الضرب أو يعتمد عليه اعتماداً كلياً حين يمارس الرياضيات العالية. إنه يحتاج عند ذاك إلى جداول أخرى أوسع نطاقاً وأكثر تعقيداً.

يقول كيدروف أن المنطق الشكلي لا يصح إلا في حدود الحقائق الثابتة نسبياً، كأن يقال: "مات فلان في يوم كذا"[1]. فنحن نستطيع أن نستنتج من هذه الحقيقة نتيجة منطقية صحيحة هي أن فلاناً لا بد أن كان حياً في يوم سابق لليوم الذي تحقق موته فيه. ولكن المشكلة أن ليس كل حقائق الكون هي من هذا الطراز البسيط. إن الكون في تطور صاخب وتبدل مستمر، والحقائق لا بد أن تتطور معه. فالمقدمة المنطقية التي تصح في يوم ما قد لا تكون صحيحة في يوم آخر. ومن هنا جاء المنطق الحديث بالمبدأ القائل أن المعرفة عملية تطور لا تقف عند حد.

الشكل والمحتوى:

من الفروق التي يختلف بها المنطق القديم عن المنطق الحديث أن الأول منهما يهتم بالشكل بينما الثاني يهتم بالمحتوى. فقد يتجادل اثنان من أصحاب المنطق القديم حول فكرة معينة، ولكن كل واحد منهما يستنتج منها نتيجة منطقية مخالفة لما يستنتجه الآخر. ولهذا يطول جدلهما ويتشعب دون جدوى.

سبب ذلك أنهما يهتمان بشكل الفكرة ولا يهتمان بمحتواها. ومما يجدر ذكره أن الفكرة تحتفظ بشكلها ثابتاً على الرغم من تبدل الظروف المحيطة بها، أما محتواها فمن طبيعته أن يتغير مرة بعد مرة تبعاً لتغير الظروف.

خذ مثلاً فكرة تحريم الربا التي جاء بها الاسلام وشدد عليها. فنحن نعلم أن الاسلام إنما حرم المراباة لأنها كانت تحتوي على ضرر اجتماعي بليغ حيث كان الأغنياء يستغلون الفقراء بها وينتهكون كرامتهم. وجاء الفقهاء بعد ذلك فلم يهتموا بمحتوى الربا بل كان جل همهم منصباً على شكله. إنهم صاروا يحرمون المصارف

بشتى أنواعها لأنها تتعاطى الربا على زعمهم. أما المرابي الذي يغطي عمله باسم بيع أو رهان فلا بأس عليه. ولهذا وجدنا البلاد الإسلامية تعج بالمتدينين الذين يتعاطون الربا فعلياً وينكرونه نظرياً. ترى احدهم يطيل لحيته ويكثر من الصلاة والتسبيح بينما هو في حقيقة امره مراب فظيع. وهو حين يقوم بمعاملة الربا يتخذ لها صيغة شرعية كأن يقول للمفترض: بعتك هذا الشيء بالثمن المعلوم. ثم يقدم له بعض الحلوى باعتبارها الشيء الذي تجري المعاملة عليه. ويأخذ المقترض الحلوى وهو يعرف انه إنما يأخذ السم الزعاف ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

إن المنطق الحديث لا يعترف بمثل هذه السفاسف والتأويلات الفارغة. فالمحتوى هو الأساس الذي نقيم احكامنا عليه، ولا يهمنا بعد ذلك شكله مهما كان. إننا نؤسس المصارف ونوسع فروعها في كل مكان ما دامت تنفع الناس. ونحن في الواقع نقمع الربا والمرابين بتأسيس تلك المصارف حيث نضيق عليهم بها المجال الذي يعملون فيه. ولا يجوز لنا أن نتقاعس في الوقت ذاته أن نكافح أي مصرف يريد أن يستغل الناس على منوال ما يفعل المرابون.

اختلاف التشابه:

إن هذا المثال الذي جئنا به في شأن الربا قد ينطبق على كثير من المماحكات الشكلية التي يتمشدق بها اصحاب المنطق القديم، سواء في ذلك شيوخهم والأطفال. فهم يأتون بالفكرة كما هي في شكلها الثابت فيجعلونها مقدمة لأقيستهم المنطقية ثم يستخرجون منها النتائج التي يشتهونها، بغض النظر عن محتواها الذي يتبدل تبعاً لتبدل الظروف.

قد يكون هناك فرق ظاهري بين "الشيوخ" و"الأطفال" في هذا. فالشيوخ يستندون في تفكيرهم على مقدمات قديمة بينما الأطفال يستندون على مقدمات حديثة. ولكنهم جميعاً يتعصبون لمقدماتهم ويؤمنون انها تصلح لكل زمان ومكان.

والملاحظ في اصحاب مرض الطفولة انهم تركوا مصطلح "الدليل العقلي" الذي كان القدماء يتبجحون به في جدلهم، والتزموا بدلاً عنه مصطلح "الدليل العلمي" فإذا ارادوا مدح رأي من الآراء قالوا عنه انه "علمي"، بينما كان القدماء يقولون عنه انه "معقول" او "منطقي" ولست ارى أي فرق جذري بين مفهوم "العلم"

ومفهوم "العقل" في هذا الصدد، إذ هم يتخذونه كالسيف القاطع يصولون به متى شاؤوا، ولا يترددون ان يستعملوه مرة اخرى على الضد مما استعملوه من قبل.

العلم والعقل:

هناك طائفة من المتعلمين، لا ندري ماذا نسميهم، لا يرون فرقاً بين الدليل العلمي والدليل العقلي. فهم يخلطون بينهما ويعدونهما شيئاً واحداً. وقد حدث بيني وبين أحدهم ذات مرة جدل عنيف في هذا الشان، فلم يستطع ان يقنعني ولم أستطع ان اقنعه. إنه يقول بان العلم والعقل لا يمكن ان يختلفا؟ فما دام العقل سليماً يعتمد على مقدمات منطقية صحيحة، فهو لا بد ان ياتي بعين النتيجة التي ياتي بها العلم على اي حال.

المشكلة ان صاحبي مولع بما كان القدماء يسمونه بالتفكير السليم، ولا ادري ماذا كانو يقصدون به. فكل إنسان تقريباً يعتقد جازماً بان تفكيره هو التفكير السليم. ومن هنا وجدنا القدماء يتنازعون ويتجادلون وكل فريق منهم يتهم الآخرين بالمغالطة والمكابرة. فمن منهم كان صاحب التفكير السليم يا ترى؟

هنا تظهر ميزة العلم. فالعلم لا يعترف بوجود مقدمات منطقية صحيحة مهما كانت بديهية أو متفق عليها من قبل العقلاء جميعاً. وما اكثر المقدمات التي اتفق على صحتها العقلاء ثم ظهر اخيراً انها ليست سوى مالوفات فكرية اعتاد عليها الناس وهي غير قائمة على اساس من الواقع. إن العلم لا يقول بصحة راي إلا بعد ان يطرحه على بساط البحث الموضوعي والتجربة الحسية. وهو مع ذلك لايجزم بصحة ذلك الراي إلى الأبد. إنه راي صحيح في حدود البحث الذي قام به العلم. ومن يدري لعل العلم سيكتشف في الأمر المبحوث جوانب لم يكن قد اكتشفها من قبل. وهو عندئذ مضطر ان يبدل رايه فيه.

حدث ذات يوم أن اجتمع نفر من المفكرين في القرون الوسطى واخذوا يتجادلون حول اسنان الحصان: كم هي؟ وظلوا يتجادلون ويتقاذفون بالوسائد والنعال، مع العلم أن الحصان كان موجوداً في اسطبل قريب منهم وكانوا قادرين أن يذهبوا إليه ليعدوا اسنانه. إنهم يظنون ان في الامكان التوصل إلى العدد المطلوب عن طريق التفكير السليم، فلا حاجة لهم إذن بان يجهدوا انفسهم فيذهبوا إلى الحصان يلوثون

ايديهم باقذاره. وكانت النتيجة انهم لم ينتهوا بجدلهم إلى راي حاسم، إذ ان كل واحد منهم كان ياتي بقول استناداً على مقدمة منطقية يرتئيها وهو يحسب نفسه "سيد العارفين".

وظيفة الاستنتاج المنطقي:

لا ننكر ان للاستنتاج المنطقي وظيفة في البحوث العلمية. والعلم لا يستطيع ان يستغني عنه. إنما هو لا يستطيع ان يقيم استنتاجاً على مقدمة اعتاد عليها الناس كما يفعل المفكرون القدماء.

إن العلم له ركنان متلازمان لا يمكن ان ينفصل احدهما عن الآخر هما: التطبيق والنظرية. أو هما بعبارة اخرى: التجربة الموضوعية والاستنتاج المنطقي[2]. فالعلم يختبر الشيء اولاً ثم يستنتج الفكرة منه ثانياً. وهو في نموه المتصاعد لا يتوانى عن الاختبار والاستنتاج مرة بعد مرة.

وقد شرح الأستاذ ماوتسي تونغ هذا الموضوع شرحاً رائعاً حيث شبه تطور المعرفة العلمية بالمراحل اللولبية المتصاعدة. فكل مرحلة منها لها جانبان هما جانب الادراك التجريبي اولاً وجانب الاستنتاج المنطقي ثانياً. وحين تستوعب المعرفة هذين الجانبين في إحدى مراحلها تسمو نحو المرحلة التالية لها. فانت مثلاً إذ تريد السير في طريق العلم تبدا اول الأمر بالاتصال بالمحيط الخارجي تتلقى منه المدركات الحسية. ثم تاخذ بعدئذ بتنسيق تلك المدركات لتستنتج منها مفهوماً فكرياً معيناً حسبما يتراءى لك في حينه ولكن لا يجوز لك ان تقف عند هذا الحد بل يجب عليك ان ترتفع بمعرفتك نحو مرحلة اخرى. حيث تحاول بها تطبيق المفهوم الذي استنتجته سابقاً على مدركات حسية جديدة. فالمدركات الحسية تتغير بتغير الزمان والمكان. ولا بد لك إذن من ان تتطور بمفاهيمك تبعاً لتغيرها مرة بعد مرة.

إن الوقوف عند مفهوم فكري معين، مهما تراءى لك صحيحاً في حينه، يؤدي بك إلى الجمود "العقائدي". وهذا هو شان العقل التجريدي لا شأن العلم النامي[3].

تـراكم الأوهام:

كان العقل التجريدي ركيزة القدماء فيما يزعمون من سعي وراء الحقيقة. إنهم

يعتقدون ان في امكانهم الوصول إلى الحقيقة كاملة عن طريق التفكير السليم كما قلنا. ولهذا وجدناهم يجلسون على مقاعدهم المريحة يسندون رؤوسهم بأكفهم ويأخذون بالتأمل، بحجة أن هذا هو الطريق الوحيد للتفكير السليم. إنهم يغفلون عما في الدنيا من تطور صاخب ويأنفون أن ينزلوا عن برجهم العاجي إلى الدنيا يدرسونها دراسة عملية. كل همهم أن يفكروا ويفكروا ويفكروا. وبهذا يكون نمو تفكيرهم ذاتياً. وكلما ازداد تفكيرهم على هذا النمط ازداد بعدهم عن الواقع وصاروا يحلقون في سماء الخيال والوهم العريض.

يقول الأستاذ بوليتزير: " ... إن الأفكار تملك قوة تسلسل خاصة بها. وهي متى وجدت توجد في ذاتها. وبعبارة أخرى: يستطيع نشاط المخ ان يجري بقوى ذاتية نسبية، وذلك بأن ينفصل عن التطبيق الذي يملك وحده القدرة على الحكم على قيمة التركيبات الفكرية التي تتكون بعيداً عنه. وهنا يكون التطبيق هو الوسيلة الوحيدة لتحديد الخطأ لأنه يفرض على الفكر أبعاد الحقيقة، أي انه يجذب الفكر إلى الأرض " (4).

قيمة العقل:

لا نريد بهذا ان نبخس العقل قيمته. الواقع ان العقل موهبة كبرى امتاز بها الانسان عن الحيوان واستطاع ان يرتفع بها في سلم الحضارة ارتفاعاً مدهشاً. ولكن الذي يجب أن لا ننساه في هذا الصدد هو أن العقل حين يغالي في تفكيره الذاتي ويتجرد من قيود الخبرة الموضوعية يصبح كالنار العارمة تنمو من غير رادعٍ، وهو بذلك يضر ولا ينفع.

نحن نعرف عن النار أنها ذات نفع كبير حين يحدد نطاقها وتوضع في المحل الملائم لاستثمار الطاقة منها. كذلك العقل، فهو ذو طاقة كبيرة على الابداع والكشف إذا أحسن استخدامه ووضع في المحل اللائق به. أما إذا ترك طليقاً يفكر كما يشتهي من غير قيد أو شرط فإننا لا نأمن الضرر منه.

يقول الأستاذ ماوتسي تونغ في وصف أصحاب مثل هذا العقل الطليق: "لقد وجد في تاريخ الفلسفة من يدعون بالعقليين الذين لم يعترفوا إلا بحقيقة العقل وانكروا حقيقة الخبرة، والذين اعتبروا ان العقل وحده هو المعول عليه، اما خبرة الادراك

الحسي فلا يمكن الركون إليها. إن أخطاء هذه المدرسة تكمن في محاولة قلب الحقائق راساً على عقب" [5].

اعتـراض العقليين:

يقول العقليون اننا لا نستطيع أن نقيد العقل بالخبرة الحسية لأن الخبرة تتغير بتغير الواقع الذي نعيش فيه، وهذا يفقدنا المرتكزات الثابتة التي نقيم عليها معاييرنا الفكرية. إن العقليين يريدون باعتراضهم هذا أن يظهروا صحة ما ياتي به العقل التجريدي من حقائق مطلقة لا تتغير ابداً.

وهذا الاعتراض وجيه في ظاهره، إنما هو في حقيقة أمره لا يخلو من خطأ فظيع. فنحن نوافق العقليين على وجود الحقيقة المطلقة في الكون ولكننا نختلف معهم في كيفية التوصل إليها. فهل نتوصل إليها عن طريق العقل المجرد أم طريق العقل المدعوم بالوقائع الحسية والتطبيق العملي.0

لقد راينا فعلاً هاتيك "الحقائق المطلقة" التي توصل إليها العقليون بتفكيرهم المجرد فوجدناها اقرب إلى الأوهام المطلقة منها إلى الحقائق المطلقة. وللقارىء أن يقرأ كتب هؤلاء ليدرك صحة ما نقول. فقد جاؤوا في كتبهم بمصطلحات غامضة لا معنى لها، ويقراها الرجل العادي فيشعر بالعجز عن فهمها ويظن انها تحتوي على سر الكون، بينما هي في الواقع ليست سوى الفاظ جوفاء تشبه ما يكتبه المنجمون في طلاسمهم.

يقول الأستاذ وتجنشتين في هذا الصدد: "معظم ما كتب من قضايا وما سئل من اسئلة عن الموضوعات الفلسفية، ليس باطلاً فحسب، بل خالياً من المعنى، فلسنا نستطيع لذلك ان نجيب عن هذه الأسئلة اطلاقاً وكل ما نستطيعه حيالها هو ان نقرر خلوها من المعنى؛ إن معظم اسئلة الفلاسفة وقضاياهم ناتجة عن عدم فهمنا لمنطلق لغتهم... فلا عجب إذن أن تكون اعمق مشكلاتهم ليست بمشكلات" [6].

المباهاة الفلسفية:

نحن نريد من المعرفة ان تساعدنا على فهم طبيعة الواقع لكي نتكيف له ونستفيد منه. اما العقليون فيريدون منها أن يرتفعوا عن الواقع لكي يتباهوا على العامة بما ياتون به من مزخرفات فكرية ومصطلحات رنانة.

يحكى ان الاسكندر المقدوني عندما خرج إلى الفتح سمع بأن استاذه ارسطو طاليس نشر عدة كتب في الفلسفة، فثار الاسكندر من جراء ذلك ثورة شديدة وكتب إلى استاذه يقول له: "...لقد ارتكبت خطأ بنشرك الأجزاء الباطنة من العلم. وإلا فكيف يبقى اختلافنا عن الناس إذا جعلت المعرفة العليا التي اكتسبناها منك مشاعة في العالم اجمع". فرد عليه ارسطو طاليس قائلاً: "لقد نشرناها ولم ننشرها....ولن يصل إلى فهمها إلا من درس علينا مثلك".

يؤسفنا ان نقول ان بقية من هذه المباهاة الفلسفية لا تزال شائعة بين الكثيرين من اخواننا المثقفين والأدباء. فهم لا يحبون ان ينزلوا في مفاهيمهم ومصطلحاتهم إلى المستوى الذي يشترك معهم به عامة الناس. وتراهم يحرصون في خطبهم وكتاباتهم ان ياتوا بالأفكار العالية جداً والفارغة جداً. واعتاد الناس ان يقيسوا عمقها الفلسفي بمقدار ما يجهلون منها. فإذا فهموها انحطت في قيمتها لديهم.

الخطأ والصواب:

من عيوب العقليين انهم يعتبرون الخطأ والصواب صنفين متمايزين لا يجوز امتزاجهما في امر واحد ابداً. فالفكرة إما ان تكون صحيحة كلها او خاطئة كلها، وليس من المعقول في نظرهم ان تكون صحيحة وخاطئة في الوقت ذاته. وهذا هو الذي جعلهم يستنكفون عن الاعتراف بخطأ فكرة آمنوا بها من قبل. ومن هنا رايناهم يصرون على الخطأ ويأتون بالأدلة العقلية ليبرهنوا بها على انهم كانوا ولا يزالون على صواب.

الاعتراف بالخطأ يدل في نظرهم على سقم التفكير، وهم لا يحبون ان يوصموا بالتفكير السقيم على اي حال. فإذا دفعتهم الظروف احياناً إلى التحول عن فكرة قديمة إلى فكرة اخرى مضادة لها فإنهم يحاولون التدليل على انهم لم يتحولوا ولم يتبدلوا في تفكيرهم وانهم كانوا يعتنقون الفكرة الجديدة منذ زمان بعيد.

إن هذه النظرة إلى الصواب والخطأ قد جاءتهم من ثقتهم بصحة قانون "الهوية" الذي يقوم عليه المنطق الشكلي القديم. فالشيء حسب هذا القانون هو هو ولا يمكن ان يكون هو ونقيضه في آن واحد. وقد ظهر الآن بطلان هذا القانون في نطاق الواقع المتطور.

اتجاه المنطق الحديث:

لقد أوضح المنطق الحديث ان اية فكرة لا يمكن ان تكون صحيحة بشكل مطلق. فهي ما دامت انعكاساً عن واقع معين فلا بد ان تكون محدودة في صحتها بحدود ذلك الواقع. ومن الجدير بالذكر ان الواقع الذي هو خارج نطاق العقل البشري له وجوه عديدة. ومن طبيعة العقل انه لا يستطيع ان يكتنه جميع وجوه الواقع بنظرة واحدة. إنه في حاجة إلى ان يتحرك في نظره من زاوية إلى اخرى، وهو في كل مرة يكتشف من الواقع وجهاً جديداً.

من الممكن تشبيه الحقيقة الواقعية بالهرم ذي الأوجه المتعددة، والانسان إذ يقف تجاه الهرم لا يستطيع ان يرى منه سوى وجه واحد. اما إذا تحرك الانسان حول الهرم ففي امكانه ان يرى الأوجه المختفية منه.

عيب العقليين انهم لا يؤمنون بالحركة. فإذا صحت لديهم فكرة في زمان ومكان معينين عمدوا إلى تعميم تلك الفكرة على كل زمان ومكان. ومن هنا كان العقليون عقائديين، تسير الدنيا بهم وهم واقفون.

مثلهم في ذلك كمثل من يقف تجاه وجه معين من الهرم فيراه مثلاً ذا لون اخضر، وهو يعمم هذا القانون على جميع الهرم خارجاً وداخلاً. وتاتي انت الذي درت حول الهرم، أو فحصت شيئاً من داخله، تجادل الرجل فيما رايت، فلا تجد منه سوى التعصب والغرور. إنك بواد وهو بواد آخر!

بين العقليين واللاأدريين:

ظهر تجاه العقليين قوم من الفلاسفة يطلق عليهم اسم "اللاادريين" . وهؤلاء يعتقدن بأن العقل البشري عاجز تمام العجز عن إدراك شيء من الحقيقة المطلقة. وهم في هذا الراي يقفون والعقليين على طرفي نقيض.

إن العقليين كما راينا يثقون بمقدرة العقل على رؤية الحقيقة المطلقة بنظرة واحدة. بينما اللاادريون يرون العكس من ذلك، فالحقيقة المطلقة في رايهم خارجة عن نطاق ما يستطيع العقل فهمه، وكل ما يقدر العقل عليه في هذا الصدد هو فهم الظواهر السطحية التي هي بعيدة كل البعد عن كنه حقيقة الوجود.

لنعد إلى مثال الهرم الذي شبّهنا الحقيقة المطلقة به. يقول اللاادريون أن الانسان غير قادر على التغلغل في داخل الهرم وعلى اكتناه ما يكمن في أعماقه. إن مقدرة الانسان في رأيهم محصورة في الدوران حول الهرم وفي النظر إليه من زوايا مختلفة. وهذا كله لا يكفي لفهم حقيقة الهرم في زعمهم.

واستنتج اللاادريون من ذلك ان جميع الأفكار التي جاء بها البشر هي نسبية لا تدرك من الحقيقة المطلقة شيئاً، وما على المفكر الحر إذن إلا ان يقف إزاء هذه الأفكار المختلفة موقف المتفرج، يضحك عليها ويستهين بها جميعاً.

الرأي الأوسط:

يقف بين العقليين واللاادريين قوم آخرون يمكن وصفهم بأنهم أصحاب الرأي الأوسط. وهو الرأي الذي يميل إليه أكثر العلماء والفلاسفة في عصرنا.

إن هؤلاء لا ينكرون نسبية الأفكار البشرية جميعاً، لكنهم يعتقدون بأن هذه الأفكار لا بد أن تؤدي، على الرغم من نسبيتها، إلى فهم الحقيقة المطلقة في نهاية المطاف. فكل فكرة نسبية هي في الواقع خطوة إلى الأمام نحو إدراك الحقيقة المطلقة.

وهذا هو مصداق ما أشرنا إليه سابقاً من ان المعرفة البشرية هي عملية تطور ونمو. فكل اكتشاف تكتشفه المعرفة خلال نموها المتواصل إنما هو وجه واحد من أوجه الحقيقة. وبتراكم الأوجه المتنوعة ينبثق لدينا بالتدريج مجموع متكامل منها. معنى هذا انه كلما كثرت لدينا الحقائق النسبية على توالي الأيام ازداد بها اقترابنا من الحقيقة المطلقة قليلاً أو كثيراً.

يقول الأستاذ اسماعيل المهدوي: "فالحقيقة المطلقة لا توجد كاملة تماماً، بل هي تتقدم تقدماً تاريخياً يتخللها عدد لا نهاية له من الأخطاء الجزئية. ثم أن الحقيقة النسبية ليست كما يتصور اللاادريون نسبية تماماً، بمعنى أن النظرية العلمية التي تكون صحيحة في هذا الجيل يمكن ان تصبح في الجيل القادم محض خطأ. كل ما في الأمر أن الناس الذين "يعكسون" الواقع الخارجي، يعيشون في ظروف نسبية، من حيث مدى التقدم العلمي والفني في عصرهم، ومن حيث التكوينات الفكرية التي تؤثر فيهم، وهكذا. وهذه الظروف النسبية المحدودة هي التي تجعل معارفهم العلمية نسبية ومحدودة، اي هي التي تدخل فيها بعض

الأخطاء الجزئية أو تجعلها في حاجة إلى توسيع أو تضييق. ولكن إذا نظرنا إلى البشرية في أجيالها النهائية، استطعنا أن نكتشف الامكانيات غير المحدودة وغير النسبية التي يمتلكها الفكر البشري. وفي هذا تكمن الحقيقة المطلقة..." (7).

مثال من علم الفلك:

خير مثال يمكن أن تأتي به لتوضيح هذا الراي ما ظهر في علم الفلك من نظريات متعاقبة وصلت بنا إلى المفهوم الجديد للكون.

كان الإنسان في اول امره يعتقد بأن الأرض التي يعيش عليها مسطحة وان السماء مبنية فوقها كالسقف تتدلى منها النجوم كالقناديل. وهذه نظرية ساذجة تلائم عقلية الانسان البدائي كل الملائمة.

وجاء بطليموس بعد ذلك بنظريته المعروفة عن كروية الأرض وكيف انها ثابتة في مركز الكون تدور حولها الأجرام السماوية. وكانت هذه النظرية كما لا يخفى ساذجة ايضاً إنما هي على اي حال اصح من النظرية السابقة لها واقرب منها إلى حقيقة الوجود.

وظهر كوبرنيكس في القرن السادس عشر ففند نظرية بطليموس وقال بأن الشمس هي مركز الكون، وما الأرض إلا تابع من توابعها. ثم جاء كبلر بعد قليل يقول بأن نظرية كوبرنيكس، على الرغم من صحة بعض جوانبها، مخطئة في جوانب أخرى. فهي تصور الأرض والكواكب السماوية تدور في افلاك دائرة بينما هي في الواقع تدور في أفلاك اهليلجية. وعلل كبلر الأفلاك الاهليلجية بانها نوع من النغم السماوي. فالشمس جسم لروح سماوي، والكواكب تعزف بدورانها حول الشمس موسيقى الكون فتطرب لها روح الشمس (8).

لقد كان كبلر مصيباً باكتشافه الشكل الاهليلجي في الأفلاك. ولكنه كان مع ذلك مخطئاً حين علل هذا الشكل بانه نوع من النغم السماوي. فليس هناك دليل على أن الشكل الاهليلجي لكثر إطراباً من الشكل الدائري عند ملائكة السماء!

عند هذا جاء نيوتن بنظريته المشهورة عن قوانين الجاذبية. وكانت هذه النظرية في حينها خطوة كبرى نحو فهم الكون، إذ هي فسرت حركات الأجرام السماوية

وشكل افلاكها تفسيراً رياضياً مقبولاً وفرح الفلكيون بهذا الكشف العظيم واستطاعوا ان يوسّعوا به معلوماتهم عن السماء إلى الدرجة التي ظنوا بها انه لم يبق في السماء سر غير خاضع للقوانين الرياضية التي جاء بها نيوتن. ومما زاد في تفاؤلهم أن بعضهم توصل عن طريق الحسابات النيوتينية إلى اكتشاف كواكب سيارة غير معروفة ثم تحققت صحة حساباتهم عن طريق المناظير والمراصد.

بقي الفلكيون على تفاؤلهم هذا زمناً غير قليل، حتى جاءهم يوم اكتشفوا فيه ظواهر فلكية لا تخضع لقوانين نيوتن. فعطارد مثلاً الذي يدور قريباً من الشمس يخالف تلك القوانين مخالفة لا يستهان بها[9]. فبماذا يمكن تعليل ذلك؟ افترض الفلكيون في بادىء الأمر وجود كوكب صغير يدور بين الشمس وعطارد مما يجعل عطارد منحرفاً في مسيره عن الفلك المعين له. وقد اطلق الفلكيون على هذا الكوكب اسم "فولكانو". ولكن الأبحاث الفلكية الدقيقة لم تستطع ان تكتشف مثل هذا الكوكب المزعوم. ولم يجد الفلكيون إزاء ذلك إلا ان يعلنوا تشكيكهم بنظرية نيوتن.

هنا ظهر اينشتاين بنظرية النسبية. وعرفنا في ضوء هذه النظرية أن قوانين نيوتن صحيحة ضمن حدود معينة، لكنها لا تكاد تتعدى تلك الحدود حتى يظهر خطؤها. فالمسألة إذن ليست مسألة صواب محض او خطأ محض، إنما هي بالأحرى مسألة نسبية يتوقف خطؤها وصوابها على الحد الذي تقف عنده. فهي صحيحة هنا ومخطئة هناك، ولا بد للباحث من ان يدرك مدى الإطار الذي يبحث فيه قبل أن يعرف مبلغ الخطأ والصواب منه.

استبدل اينشتاين بقوانين نيوتن قوانين أخرى اوسع منها نطاقاً واكثر تعقيداً. معنى هذا ان نظرية اينشتاين لم تنسخ نيوتن إنما هي قد حددت لها الإطار التي تصح فيه. ومن يدري لعل نظرية اينشتاين نفسها ذات إطار خاص بها. وربما اكتشف العلم في مستقبل الأيام ظواهر لا تخضع لقوانين اينشتاين. وتصبح عندئذ في حاجة إلى نظرية جديدة اوسع منها إطاراً.

خلاصة ما نستنتجه في هذا الشان أن اية نظرية علمية تتوصل إليها المعرفة البشرية لا يمكن أن تكون ابدية خالدة. فهي عرضة للتبديل والتطوير. وذلك لا يعني انها مخطئة كل الخطأ. إنها صحيحة ما دامت تستمد اصولها من الواقع

الموضوعي. لكن صحتها محدودة بحدود ذلك الواقع. وكلما توسع إدراكنا للواقع توسع به الإطار الذي تصح به النظرية.

النظريات الاجتماعية:

يجوز أن نقول مثل هذا القول عن النظريات الاجتماعية. فقد ياتي باحث اجتماعي عبقري يضع لنا نظرية رائعة عن طبيعة المجتمع البشري وعن تطوره بحيث ننسخ النظريات السابقة لها. ونحن حين ندرس هذه النظرية ونعجب بها لا يجوز لنا أن نتعصب لها ونقف حجر عثرة تجاه اي نظرية تاتي بعدها.

إن الباحث قد استمد جذور نظريته من المرحلة الاجتماعية التي عاش فيها. ونظريته إذن لا تصح إلا في حدود تلك المرحلة. معنى ذلك انها تعطينا حقيقة نسبية لا مطلقة ونحن بهذا لا ننكر وجود الحقيقة المطلقة في المجتمع، كما لم ننكر وجودها في الكون الأكبر. إنها موجودة هنا وهناك ولكننا لا نستطيع التوصل إليها دفعة واحدة كما يقول العقليون، بل يجب علينا ان نسير نحوها من خلال الحقائق النسبية المتعاقبة.

المعرفة البشرية بوجه عام سائرة في طريقها خطوة بعد اخرى. فهي لا تستطيع ان تقف ولا تستطيع ان تقفز. إنها تنمو كما ينمو الكائن الحي مرحلة بعد مرحلة. وكل نمو جديد إنما هو تمهيد لنمو ياتي بعده. فإلى متى وحتى متى؟ وهل هناك حد نهائي يقف تطور المعرفة عنده حيث يقول الانسان انه وصل به إلى الصواب الذي ما بعده صواب؟ لست ادري!

النظريات والعقائد:

هناك فرق كبير بين النظريات والعقائد في درجة خضوعها للتطور. فمن طبيعة العقائد بوجه عام انها ميالة إلى الجمود والثبات. وارجو من القارىء ان لا يفهم من هذا اننا ننتقص من شان العقائد كلها او نستهين بها. الواقع ان العقائد ذات اثر كبير في حياة الانسان منذ خلق الانسان، إذ هي تمنحه اليقين والطمانينة وقد تساعده على مجابهة ازمات الحياة من جهة، وهي تدفعه إلى الحماس والنضال من الجهة الأخرى. والأمة التي لا عقيدة لها قد تصبح ضعيفة كل الضعف إزاء اعدائها.

ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى أن العقيدة شيء والمعرفة المتطورة شيء آخر. كل منهما له مجال يختلف عن مجال الآخر.

ميزة المعرفة المتطورة انها باحثة مشككة تتطلع كل يوم إلى رأي جديد لم تألفه من قبل. أما العقيدة فشأنها الوثوق والإيمان الراسخ. وللإنسان أن يؤمن بأية عقيدة يشاء إذ هو حر في ذلك، إنما هو لا يمكن ان يسمي نفسه باحثاً علمياً. إنه مخيّر بين ان يترك سبيل البحث العلمي نهائياً أو ان يأخذ منه الجانب الذي لا تتدخل عقيدته فيه. أما إذا أراد أن يجمع بينهما في مجال واحد، فإن ذلك دليل على انه لا يفهم ولا يريد أن يفهم.

من الأخطاء الشائعة عندنا هو اننا نطلق على رجال الدين اسم "العلماء". وهذا خطأ انفردنا به من بين جميع الأمم. يصح ان نسميهم "عقلاء" ولكننا لا يجوز أن نسميهم "علماء"، انهم اصحاب عقائد ثابتة لا يحبون ان يتحولوا عنها، وهم يعدونها من الضرورات العقلية التي لا يتجادل في صحتها اثنان. ونحن لا ننتقدهم من هذه الناحية، ولعلهم يقومون فيها بما هو واجب عليهم تجاه دينهم، إنما ننتقدهم من حيث أنهم يسيئون إلى دينهم أحياناً وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً.

لقد اعتاد رجل الدين ان يتلقى مألوفات طائفته وتقاليدها كأنها حقائق مطلقة لا يتطرق إليها الشك. وقد تكون تلك التقاليد بعيدة كل البعد عن روح الدين. إنما هو لا يبالي بذلك. دأبه أن يجمع الأدلة العقلية والنقلية لتأييدها، وهو واثق أن طائفته هي "الفرقة الناجية" من بين الخلق أجمعين.

إن هذا أمر شهدنا مصداقه في مجتمعنا بوضوح، ولنا عليه أمثلة عديدة أتينا على بعضها في كتاب "مهزلة العقل البشري". فنحن نعرف مثلاً هاتيك التقاليد والطقوس السخيفة التي يقوم بها الكثيرون في العراق باسم الإمام الثائر الحسين بن علي. والواقع ان هذه التقاليد والطقوس لم تنشأ لدينا إلا بتشجيع ورعاية من فئات استغلالية نعرف مقاصدها الدنيئة كل المعرفة. وعلى الرغم من ذلك نجد بعض "العقلاء" من رجال الدين وغيرهم يأتون بالأدلة العقلية المتنوعة يملؤون بها الكتب لتأييد تلك السخافات. وحين نجلس إلى هؤلاء "العقلاء" نستمع إلى

احاديثهم نجدهم يتمشدقون بالمنطق والعقل السليم، ويصنفون انفسهم أنهم يسيرون في عقائدهم وآرائهم كلها حسبما يمليه عليهم المنهج العلمي.

ليس من قصدي هنا انتقاد طائفة معينة دون غيرها. انا موقن أن جميع الطوائف الدينية عندنا من هذا الطراز. كل طائفة تنظر إلى القشة في عين غيرها بينما هي تنسى الخشبة التي في عينها. وكذلك قد يفعل بعض اصحاب الأفكار الحديثة الذين يزعمون أنهم متحررون أو مجددون.

رحم الله امرءاً شغله عيبه عن النظر في عيوب الآخرين!

هوامش الملحق الأول:

(1) انظر كيدروف، المنطق الشكلي... ص 14 .
(2) جورج بوليتزير، المادية والمثالية في الفلسفة ، ص 113 .
(3) ماوتسي تونغ، حول التطبيق، ص 24 .
(4) انظر: جورج بوليتز، المادية والمثالية في الفلسفة، ص 103 .
(5) انظر: ماوتسي تونغ، حول التطبيق، ص 24 .
(6) انظر: زكي نجيب محمود، خرافة الميتافيزيقا، ص 2 - 4 .
(7) انظر: بوليتزير، المادية والمثالية في الفلسفة، ص 229 .
(8) انظر: برتراند رسل، الثورة الكوبرنيكية، ص 19 .
(9) انظر: Sulivan, Outline of Modern Belief Vol. III, p. 874.

الملحق الثاني

بين الممكن والمستحيل

بين يدي الآن كتاب لأحد متكلمي القرن الثامن الهجري هو الحسن بن المطهر الحلي الذي اشتهر باسم "العلامة الحلي"، وقد كتب المؤلف كتابه هذا للرد على الأشاعرة حيث نشب بينه وبينهم جدل كلامي عنيف. ونحن لا يهمنا من هذا الجدل شيء، إذ هو قي حقيقته لا يختلف عما يسطره علماء الكلام في كتبهم عادة. إنما نريد هنا ان نستعرض ما اورده الحلي في مقدمة جدله من راي حول شروط الإدراك في الانسان، وهو راي يتصل بموضوعنا الراهن اتصالاً وثيقاً.

يقول المؤلف ان الإدراك مشروط بامور ثمانية لا يحصل بدونها هي:

(1) سلامة الحاسة

(2) المقابلة او حكمها كما في الأعراض والصور في المرايا، فلا نبصر شيئاً لا يكون مقابلاً لنا ولا في حكم المقابل.

(3) عدم القرب المفرط فإن الجسم لو التصق بالعين لا تمكن رؤيته.

(4) عدم البعد المفرط فإن البعد إذا فرط لم تمكن الرؤية

(5) عدم الحجاب فإن مع وجود الحجاب بين الرائي والمرئي لا تمكن الرؤية.

(6) عدم الشفافية فإن الجسم الشفاف الذي لا لون له كالهواء لا تمكن رؤيته.

(7) تعمد الرائي للإدراك.

(8)وقوع الضوء عليه فإن الجسم الملون لا يشاهد في الظلمة.

* * *

يعلق الحلي على هذه الشروط فيقول ان العقلاء جميعاً اجمعوا عليها عدا الأشاعرة فإنهم لم يجعلوا للإدراك شرطاً من هذه الشروط. وذلك منهم، كما قال الحلي، سفسطة ومكابرة محضة لا يشك بفسادها عاقل.

ويعرض الحلي في كتابه آراء الأشاعرة في هذا الخصوص، فيذكر منها: انهم جوزوا ان تكون بين ايدينا جبال شاهقة إلى عنان السماء، محيطة بنا من كل جانب وملاصقة لنا، تملأ الأرض شرقاً وغرباً بالوان مضيئة ظاهرة، ونحن لا نشاهدها ولا نبصر منها شيئاً البتة. وكذلك جوزوا ان تكون بحضرتنا اصوات هائلة تملأ اقطار الأرض بحيث ينزعج منها كل احد يسمعها، ونحن لا نحس بها مع العلم ان حواسنا سليمة ولا حجاب بيننا وبينها ولا بعد، بل هي في غاية القرب منا. ولكنهم من الجهة الأخرى يجوزون في الأعمى إذا كان في المشرق ان يشاهد اثناء الليل المظلم نملة سوداء على صخرة سوداء في طرف المغرب، وكذلك يجوزون ان يسمع الأطرش في المشرق اخفى صوت في المغرب...

وينتهي الحلي من ذلك فيقول: "لا شك ان هذا هو عين السفسطة، والضرورة تقضي بفساده. ومن يشكك في هذا فقد انكر اظهر المحسوسات عندنا"[10].

هل هي سفسطة؟

يبدو أن هذا القول الذي جاء به الحلي كان له رواج كبير في الأزمنة القديمة، وكان الحلي قادراً ان يفحم به خصومه وان يغلبهم في الجدل. وهنا نريد ان نتساءل: لو بعث الحلي حياً في عصرنا هذا وأخذ يدلي بأقاويله التي ادلى بها في القرن الثامن الهجري، فهل يمكن أن تلقى رواجاً على منوال ما كانت تلقى في عصره.

مشكلة الحلي من الناحية العلمية انه لم يأت بتلك الشروط نتيجة استقراء شامل وتمحيص موضوعي. إنه فعل كما اعتاد أمثاله من المفكرين القدامى ان يفعلوا، حيث جلس يفكر طويلاً فوجد ان تلك الشروط لا بد أن تكون من البديهيات والضرورات العقلية. إنه يشعر بصحتها في مجال حياته الاعتيادية فيحسب انها لا بد ان تكون صحيحة في كل مجال من هذا الكون الواسع.

إننا حين ندرس الآن الشروط التي جاء بها قد نوافقه عليها ونقول معه إنها صحيحة. ولكن الذي يجب ان لا ننساه هو ان صحة تلك الشروط ربما كانت محدودة بحدود الواقع الضيق الذي نعيش فيه والذي تستوعبه حواسنا، وهي تملأ الأرض حولنا دون أن نحس بها او نعرف عنها شيئاً؟

حدود الحس البشري:

مما قرره العلم الحديث ان لكل حاسة من حواسنا الخمس نطاقاً محدوداً لا تتعداه عند الاحساس بشيء خارج عنها. خذ حاسة السمع مثلاً، فإنك لا تستطيع أن تسمع الصوت إلا إذا كانت ذبذبته ضمن حد معين. فإذا زادت الذبذبة على ذلك الحد أو نقصت عنه عجزت الأذن عن سماعها. معنى هذا ان اصواتاً عالية جداً قد تملأ الجو حولنا ونحن لاهون عنها لا ندركها ولا نحس منها شيئاً.

ويحدث مثل هذا بالنسبة لحاسة البصر فينا. فالعين لا تحس من سلم الأمواج الكهرطيسية إلا بسبع درجات فقط، وهي تلك التي تعطينا إياها الألوان السبعة المعروفة. إن الفضاء إذن قد يكون مشحوناً باضواء هائلة وصور متنوعة ولكننا لا نرى منها شيئاً إذ هي خارجة عن نطاق حاستنا البصرية.

إن هذا هو الذي حدا بالعلماء إلى القول بأن حواسنا الخمس ليست سوى منافذ صغيرة يتطلع الانسان من خلالها إلى الكون الهائل. والانسان بهذا يشبه السجين المحجور في غرفة ضيقة ليس فيها من النوافذ غير ثقوب صغيرة هنا وهناك. فهو لا يرى من أحداث الكون إلا جزءاً محدوداً جداً، وتبقى الأجزاء الأخرى مختفية عنه وراء الجدران.

توسع الثقوب:

مما تجدر الإشارة إليه ان هذه الثقوب الصغيرة التي يتطلع الانسان منها إلى العالم الخارجي لا تبقى على حالها من غير توسع. فقد وضع العلم في يد الانسان اجهزة متنوعة استطاع بها ان يوسع مجال إدراكه للكون. وهذه الأجهزة في نمو مستمر وتحسن لا يقف عند حد.

كان الانسان في أول أمره لا يملك تلك الأجهزة طبعاً. فكان حينذاك ينظر إلى الكون من خلال حواسه المجردة. ولهذا كانت معرفته للكون محدودة جداً. وقد لجا

عقله من جراء ذلك إلى الأساطير يسد بها الثغرة الكبيرة بين ما يرى وما لا يرى من غرائب الكون.

ثم شرع بعدئذ يوسع "الثقوب" شيئاً فشيئاً. فاخترع المناظير والمقاييس والأجهزة الدقيقة... وأخذ يكتشف بها في كل مرة سراً جديداً من اسرار الكون. وكان من شأن كل اكتشاف جديد أن يقلص الأساطير التي كانت تسيطر على عقل الانسان.

نتيجة العادة:

اشرنا من قبل إلى ان كثيراً من البديهيات والضرورات العقلية التي كان المفكرون القدماء يثقون بصحتها ثقة مطلقة ليست سوى مألوفات اعتبارية اعتاد عليها الناس زمناً طويلاً حتى حسبوا انها حقائق ثابتة لا يمكن ان يشك بها عاقل. فقد مضى زمن طويل على الانسان مثلاً وهو واثق بأن الأرض مسطحة. وكيف يمكن ان تكون غير ذلك وهو يراها رأي العين. وعندما ظهرت فكرة كروية الأرض استهزأ بها الناس وكذبوها تكذيباً قاطعاً، وعدّها كثير منهم من باب الكفر الذي لا يرضى عنه الله والرسول(2).

ويجوز ان نقول مثل هذا في شأن الحواس الخمس. فقد اعتاد الناس عليها حتى ظنوا انها تشمل باحساسها الدنيا كلها. اما إذا حدث في الدنيا امر لا يستطيعون الإحساس به فلا بد ان يكون من عمل الجن أو الأرواح. وهكذا انقسم العالم في نظرهم إلى قسمين متمايزين، احدهما محسوس والآخر غيبي.

وجرى الفلاسفة على هذا المنوال ايضاً، حيث وجدناهم يقسمون العالم إلى قسمين: فيزيقي وميتافيزيقي. ولا تزال آثار هذا التقسيم الموهوم واضحة في تفكير كثير من الناس حتى يومنا هذا.

قصة ذات مغزى:

يحكى ان احد الرعاة في قديم الزمان كان يمشي في منطقة جبلية وكان ينتعل حذاء فيه مسامير من الحديد. وعلى حين غرة شعر الراعي بأن حذاءه التصق بالأرض التصاقاً شديداً. فقد كان في الأرض شيء من حجر المغناطيس، فانجذبت إليه مسامير الحذاء. ولكن الراعي المسكين ظن بأن الجن تعبث به فهلع قلبه واشتد

به الخوف. ولم يجد مناصاً آخر الأمر إلا بأن يخلع حذاءه ثم يفر هارباً وهو يلعن الجن بغير حساب.

لا يلام هذا الراعي فيما فعل. إنه لا يعرف تعليلاً لما حدث له. فهو لا يدري بوجود شيء اسمه المغناطيس وانه يجذب الحديد. وهو لا بد أن يلجأ إلى اسطورة الجن يريح بها عقلة الحائر.

وهنا قصة أخرى شبيهة بهذه القصة، إنما هي قد حدثت في القرن العشرين ولم تحدث في قديم الزمان:

يحدثنا الشيخ حافظ وهبة، الوزيرالسعودي المعروف، ان مشايخ الدين في نجد لم يستطيعوا ان يصدقوا باللاسلكي عندما نصبت محطاته لأول مرة في المملكة السعودية عام 1928[3]. فعقولهم لم تتحمل كيف يمكن ان ينتقل الخبر بين مكة والرياض في لحظة واحدة، بينما تقطع الأباعر هذه المسافة في عدة ايام. لا بد ان يكون في محطة اللاسلكي سر جهنمي او العوبة من الاعيب الكفار لعنة الله عليهم. وبعد تامل طويل، استنتج المشايخ ان الذي ينقل الخبر من محطة إلى اخرى هو الشيطان، إذ لا يستطيع غيره أن يقوم بهذا العمل العجيب.

يقول حافظ وهبة أن بعض المشايخ كانوا يترددون على المحطة اللاسلكية التي انشات في الرياض، فيسالون العامل فيها عن موعد زيارة الشيطان؟ وهل الشيطان الكبير في مكة ام في الرياض؟ وكم عدد اولاده الذين يساعدونه في وظيفة نقل الأخبار؟

لقد ادى بهم اجتهادهم اخيراً إلى ان الشيطان لا يقوم بعمل في خدمة الانسان إلا بعد ان يذبح الإنسان له قرابين يذكر عليها اسمه من دون الله. وبناء على ذلك فقد ذهب احدهم سراً إلى المحطة واخذ يبحث عما تبقى من ذبائح الشيطان كالقرون او العظام او الصوف، وربما قدم الشيخ رشوة إلى العامل ليحصل منه على سر الشياطين.

يخيل لي انه لو كان المغناطيس غير معروف لدى مشايخ نجد، ثم راوه لأول مرة في حياتهم لأسرعوا في الحكم عليه على منوال ما حكم عليه الراعي المسكين، ولربما اصدروا فتواهم بتحريم استعماله على كل مسلم ومسلمة.

عادة العقلاء:

الظاهر أن مشايخ نجد اصبحوا اليوم موقنين بأن الشيطان لا دخل له في أمر اللاسلكي. فهم إنما استنكروا اللاسلكي في أول الأمر لأنهم لم يكونوا قد رأوه من قبل، ولكنهم بعدما اعتادوا عليه وشهدوا المذياع يلقي عليهم اخبار العالم كل يوم، سهل عليهم أن يصدقوا به وسلموا أمرهم إلى الله!

الواقع أن هذه هي طبيعة العقل البشري بوجه عام. فهو لا يستطيع أن يصدق بأي أمر غريب لم يكن يألفه من قبل، وربما عدّه مستحيلاً، إنما هو لا يكاد يعتاد عليه حتى يتحول الأمر في نظره من دائرة المستحيل الذي لا يقبله العقل الى دائرة الممكن المعقول.

إن الفرق بين الممكن والمستحيل في نظر عامة "العقلاء" هو كالفرق بين الشيء المألوف الذي اعتادوا عليه والشيء الذي لم يألفوه من قبل. إنه إذن فرق اعتيادي ينبع من داخل الذهن لا من خارجه.

عندما شاع استعمال المذياع في العراق رايت رجلاً يسخر منه ويسخر من الناس الذين يصدقون به. كان يقول عن المذياع انه بضاعة تجارية اريد بها الغش: فليس من المعقول ان يلتقط المذياع صوتاً منبعثاً من بلد بعيد، ولو كان المذياع صادقاً لاستطعنا أن نسمع به صوت الحاج محمد الساكن في ناحية الدجيل. وعندما سألت الرجل عن مصدر الصوت الذي نسمعه في المذياع قال انه لا بد أن يكون قد جاء من مكان قريب عن طريق السلك الكهربائي عل منوال ما يحدث في التليفون.

إن هذا الرجل قد اعتاد على استعمال التليفون فاعتبره امراً معقولاً واخذ يفسر به اعجوبة المذياع. ارجح الظن انه لو كان من ابناء جيل سابق وشهد التليفون لأول مرة في حياته لحكم عليه كما حكم على المذياع. ولست ادري ماذا يقول الآن حين يشهد اعجوبة التلفاز[4]. بأم عينيه؟!

البراهين النسبية:

عندما وردت نظرية داروين الى العراق في اواخر العهد العثماني، هب "العقلاء" يشجبونها ويسخرون منها. فليس من الممكن في نظرهم ان يتطور الانسان من الحيوان، وهل يقبل عاقل ان يكون جده قرداً او حماراً؟ كلا والله العظيم!

يقال أن أحد الشيوخ الكبار في النجف الأشرف كتب رسالة طويلة جمع فيها مختلف الأدلة العقلية والنقلية لتفنيد نظرية داروين، وأرسلها إلى الاستاذ شبلي شميل في مصر إذ كان هذا الرجل حامل لواء تلك النظرية في العالم العربي يوم ذاك. ظن الشيخ ان الأستاذ شميل سيقرأ براهينه وسيعترف بصحتها حالاً. كيف لا وهي براهين ساطعة كالشمس في رائعة النهار. وبقي الشيخ ينتظر جواب الأستاذ شميل على أحر من الجمر. وجاء الجواب المنتظر بعد لأي، فأسرع الشيخ إلى الغلاف يفضُه بلهفة ولكنه لم يجد في داخله سوى عبارة واحدة هي: "عذرك جهلك والسلام".

لقد تبين اخيراً ان الأستاذ شميل كان يقرأ براهين الشيخ فيضحك عليها مثلما كان الشيخ يضحك من جانبه على براهين الأستاذ. كل واحد منهما كان يفهم الأمور من خلال المألوفات الفكرية التي اعتاد عليها، وكل منهما يعتقد جازماً بأن الحق في جانبه.

في البلاد الراقية:

ارجو ان لا يظن القارىء بأن هذه الأمور التي ذكرناها يقتصر حدوثها على بلادنا وحدها، فهي قد تحدث في كثير من البلاد التي ننسب إليها الرقي وعند كثير من الناس الذين نطلق عليهم اسم العلماء.

يحدثنا الأستاذ وليم باريت: انه عندما عرض جهاز الحاكي (الفوتوغراف) لأول مرة في اكاديمية العلوم بباريس أعلن العلماء الحاضرون جميعاً انه مستحيل حيث لم يكن من المعقول في زعمهم ان يسجل صوت الانسان على اسطوانة من المعدن. والأدهى من ذلك انهم اتهموا صاحب الحاكي بأنه يخفي تحت المنضدة رجلاً ينطق بشكل خاص ليوهم الحاضرين بأن الصوت منبعث من الحاكي ذاته.

ويروى مثل هذا عن الأستاذ تيت من جامعة ادنبرة. فقد قال عند سماعه باختراع التليفون: "كل ما في الأمر طنين، ذلك ان اختراع مثل هذا الشيء مستحيل من الناحية الفيزيائية" [5].

ويحدثنا اغا خان في مذكراته انه قابل في شبابه اللورد كالفن الذي كان يومذاك معدوداً كأعظم عالم فيزيائي في العالم. وقد اكد كالفن في حديثه مع اغا خان ان

الطيران بآلات أثقل من الهواء مستحيل من وجهة النظر المادية، وأن ليس في مقدور البشر بلوغه على الاطلاق[6].

كالفن والسيد محسن:

يبدو أن الأستاذ كالفن لا يختلف من هذه الناحية عن جدي السيد محسن رحمه الله. يحكى عن جدي أنه لم يصدق بخبر الطائرة عند سماعه به لأول وهلة. فقد قيل له ذات يوم بأن الأفرنج اخترعوا عربة تطير في الهواء وهي مصنوعة من الخشب والحديد. فقال أن هذا امر غير معقول بتاتاً، واخذ يدلي بالأدلة العقلية للبرهنة على استحالة طيران عربة مصنوعة من الخشب والحديد. ثم التفت إلى مطرقة كانت مطروحة بجانبه فقال: "هذه مطرقة مصنوعة من الخشب والحديد فهل من الممكن أن تطير؟!". فهتف الحاضرون معه: "لا تطير..لا تطير!...".

كان السيد محسن لا يستطيع ان يتصور عربة تتحرك من غير ان يكون امامها حيوان يجرها، فكيف يستطيع إذن ان يتصور عربة تطير في الهواء. ذلك امر لا يقبله إلا المجانين!.

مهما يكن الحال فقد عاش السيد محسن إلى اليوم الذي شهد فيه العربة تطير في السماء بخشبها وحديدها، واخذ يدور بعينيه في السماء لا يدري ما يقول. ولو أنه عاش مدة اطول لرأى حفيده، الذي هو كاتب هذه السطور، يركب تلك العربة الطائرة وهو شامخ الأنف!.

استدراك:

ليس من الانصاف أن ننتقد السيد محسن أو ننتقد غيره على تلك الأحكام القاطعة التي اصدرها اعتماداً على الضرورات العقلية التي وثقوا بصحتها في وقت ما. فنحن جميعاً قد نصدر مثل هذه الأحكام ثم يظهر لنا اخيراً باننا كنا مخطئين كل الخطأ فيها. إن هذه هي عادة العقلاء في كل زمان ومكان، كما اشرنا إلى ذلك من قبل. ولكننا نستطيع أن نستدرك فنقول بأن هذه العادة قد تشتد في بعض الناس فتجعلهم يصرون على التمسك بها على الرغم من تجاربهم المرة فيها. وهي

قد تضعف في البعض الآخر فتجعلهم يترددون عند كل حكم يصدرونه إذ هم لا يدرون ماذا سوف تأتي به الأيام من مستحدثات عجيبة.

مما تجدر الإشارة إليه ان هذه العادة اخذت تضعف بوجه عام في القرن العشرين. فبعدما كان العلماء قبل هذا القرن لا يختلفون عن سائر العقلاء اختلافاً كبيراً، إذ كانوا يميلون إلى تكذيب أي امر غريب غير مألوف، اصبحوا اليوم في حيص بيص لا يدرون ماذا يكذبون وماذا يصدقون.

علماء القرن الماضي:

وقف أحد العلماء في اواخر القرن الماضي يخطب في حشد من العلماء فقال: إن من المحتمل ان تكون اهم المكتشفات في علم الطبيعة قد انتهت خلال القرن التاسع عشر. ولن تكون للمكتشفات المقبلة اية اهمية كبيرة. إن تجاربنا القادمة لن تكون إلا تكراراً للتجارب السابقة، وسوف تقتصر نتائجها على تعديل النظريات التي نعرفها[7].

والأغرب من هذا خبر نشرته جريدة التايمز اللندنية في سنة 1886 جاء فيه: ان مدير إدارة تسجيل الاختراعات قدّم إلى الحكومة تقريراً طلب فيه إلغاء إدارة التسجيل إذ ليس من المنتظر ان تظهر من الاختراعات في المستقبل غير اشياء قليلة جداً، فلقد تم الآن اختراع كل شيء فعلاً.

حين نقرأ الآن هذا الخبر نندهش منه. الواقع اننا لا ننكر ان المخترعات والمكتشفات العلمية التي ظهرت في القرن التاسع عشر كانت عظيمة جداً، وكان من حق العلماء ان يفخروا بها، ولكننا حين نقيسها بمكتشفات القرن العشرين ومخترعاته نكاد نشعر بانها تافهة وكانها شبيهة بالاعيب الأطفال.

الثورة الكبرى:

لقد شهد القرن العشرين ثورة علمية كبرى لا تقاس بأية ثورة حدثت في الماضي. وكان من نتائج هذه الثورة ان صار العلماء اضعف إيماناً بصحة الضرورات العقلية القديمة واقل اعتماداً عليها في إصدار الأحكام القاطعة. وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن لم يبق في الكون امر مستحيل[8]:

إن اهم مظهر من مظاهر تلك الثورة العلمية هو التفسير الذي حدث في مفهوم "المادة" . فقد كان علماء القرن الماضي يعتقدون بأن الكون كله مؤلف من أمرين لا ثالث لهما هما: المادة والحركة. ولو اتيح لنا ان نسألهم عن سر المادة لأجابوا بأنها شيء لا سر فيه، فهي هذه المادة التي نلمسها بأيدينا ونقيسها ونعالجها في شؤوننا اليومية.

لم يكن العلماء آنذاك يعرفون شيئاً عن أعماق الذرة وما يكمن فيها من طاقة هائلة. فلقد كان يمسكون الحجر بأيديهم مثلاً ويفحصونه بآلاتهم فلا يجدون فيه سراً خفياً، وخيل إليهم من جراء ذلك ان مادة الكون كلها هي من نوع هذا الحجر.

جاء دالتون في اوائل القرن التاسع عشر بنظريته المعروفة عن الذرة، ولكن نظريته تلك لم تكن تختلف في اساسها عن نظرية الجوهر الفرد التي قال بها فلاسفة الأغريق. انها جزء صغير من المادة لا يمكن تجزئتها وهي لا تختلف في طبيعتها عن طبيعة العنصر الذي يتألف منها.

وفي عام 1897 كان احد العلماء يمرر تياراً كهربائياً في انبوب مفرغ من الهواء. فاكتشف في الأنبوب هباءات دقيقة جداً هي اصغر بالفي مرة من اية ذرة دالتونية معروفة. لقد كانت هذه التجربة حدثاً هاماً في تاريخ العلم، حيث ادرك العلماء بها لأول مرة ان الذرة يمكن تجزئتها وانها ليست على النمط الذي كانوا يتخيلونه من قبل. وتوالت من بعد ذلك تجارب اخرى عرف العلماء بها طبيعة تلك الهباءات الدقيقة، إذ هي "الكترونات" مؤلفة من امواج كهرطيسية.

يقول الاستاذ جينز: ان ليس هناك فرق جوهري بين قطعة المادة التي نتناولها بأيدينا وشعاع الضوء الذي نلمحه بأبصارنا، كل منهما مؤلف من امواج كهرطيسية. إن الفرق الظاهري بين المادة والشعاع سببه ان امواج المادة معلبة او مجمدة حيث تدور في افلاك صغيرة داخل الذرة بينما امواج الشعاع منطلقة في الفضاء... [9].

إذا صح قول جينز هذا جاز لنا ان نقول بأن المادة التي نلمسها بأيدينا هي من وهم حواسنا المحدودة. فهي ليست "مادة" بالمعنى الذي كان علماء القرن التاسع يفهمونه من هذه الكلمة، إنما هي بالأحرى طاقة معلبة. ولو استطعنا فرضاً أن

نجمع مقداراً كبيراً من أشعة الضوء وجعلناها تدور حول نواة لصارت ذرة مادية من نوع هذه الذرات التي تتكون منها احجار الأرض والسماء.

إن العلماء لم يستطيعوا حتى الآن أن يصنعوا المادة من الأشعة ولكنهم استطاعو أن يحولوا المادة إلى أشعة عندما فجروا القنبلة الذرية. ومن يدرينا ماذا سوف يصنعون غداً؟!

المادية والميتافيزيقية:

نستطيع أن نقول عن مادية القرن الماضي أنها أقرب إلى الميتافيزيقية من مادية القرن الحالي. فلقد كان علماء القرن الماضي يعتقدون بأن المادة ساكنة بطبيعتها إذ هي مؤلفة من ذرات جامدة، ولهذا فهي في حاجة إلى دافع خارجي يحركها. ومن هنا جاء رايهم في الكون باعتباره مؤلفاً من أمرين متمايزين هما المادة والحركة.

وحين نأخذ برايهم هذا يجب علينا أن نسأل عن مصدر الحركة الدافعة للمادة، وهذا السؤال يجرنا إلى الإيمان بقوة غيبية تحرك الكون من خارجه كما يحرك الانسان الماكنة. وتلك هي إحدى السمات المميزة للفكر الميتافيزيقي[10].

إن الأبحاث الذرية الأخيرة قد اغنتنا عن أي تفسير ميكانيكي للكون. فقد اتضح من هذه الأبحاث ان ليس هناك انفصال أو تمايز ثنائي بين المادة والحركة. وقد يصح القول بانهما مظهران لحقيقة واحدة. فالمادة حركة والحركة مادة. أو هما بعبارة اخرى طاقة كهربائية مغناطيسية تظهر لحواسنا المحدودة بمظهرين مختلفين.

فضاؤها العجيب:

إن هذا المفهوم الجديد للمادة يجعلنا نفهم الكون على غير ما فهمه القدماء. فالعلماء اليوم يفترضون، كما قلنا سابقاً، ان في الكون عدداً لا يحصى من الأمواج الكهرطيسية وهي تتصادم وتتفاعل في فضائنا دون أن نعرف عنها شيئاً. ولو كان لدينا من الحواس ما ندرك بها جميع أمواج الفضاء لأغمي علينا من شدة ما نرى فيه من ملايين الألوان والصور والأشياء المتنوعة.

يقول العالم الفيزيائي روبرت دنكان: ان الأمواج الكهرطيسية تنطلق بلا انقطاع

من كل مادة في الوجود فتصطدم بما حولها من مواد وتؤثر فيها[11]. معنى هذا ان الانسان يعيش في هذا الكون وكأنه "اطرش في زفة" كما تقول العامة. فهو يمشي ساهياً ولا يدري ان الدنيا حوله في صخب شديد. إنه مغرور بحواسه واثق بها بينما هي لا تريه من الكون إلا قدراً ضئيلاً. ولعل من الخير له ان يكون احساسه محدوداً بهذا المقدار فلو ادرك الانسان الهول المحيط به لربما انقلبت الدنيا كلها إلى دار للمجانين!

بعض العلماء:

إن هذا المفهوم الجديد للكون دفع بعض العلماء إلى القول ببطلان الفلسفة المادية. وقد اشتهر من هؤلاء العلماء ثلاثة هم السر ارثر ادنكتون والسر جيمس جينز والفيزيائي المصري الدكتور محمد مصطفى مشرفة.

في رأي هؤلاء العلماء ان المادة لم يبق لها وجود معترف به في الكون، فقد حلت الطاقة محل المادة. ولما كان العلم عاجزاً عن إدراك كنه الطاقة فلا بد لنا من ترك الباب مفتوحاً للوصول إلى المعرفة عن غير طريق العلم[12].

الواقع ان هذا الرأي صحيح إذا اخذنا بنظر الاعتبار مادية القرن التاسع عشر، لا سيما تلك التي نادى بها بخنر ومن لف لفه. فهذه المادية قد اصبحت في هذا القرن باطلة إذ هي في اساسها مادية ساذجة لا تختلف عن مادية رجل الشارع حين ينظر إلى اثاث بيته وبضائع دكانه. اما مادية القرن العشرين فهي من طراز آخر.

إن المادية في هذا القرن لا تبالي ان يكون الكون مؤلفاً من طاقة أو من غيرها. إنها مفتوحة الذهن إزاء اي رأي يأتي به العلم، وهي لا تتوانى عن ان تتخذ لنفسها وجهاً جديداً مع كل اكتشاف علمي عظيم[13].

كل ما تقتضيه المادية الجديدة من الباحث هو ان يكون موضوعياً في تفكيره يسير به إينما سارت التجربة العلمية، فلا يتعصب لفكرة سابقة او يغتر بنظرية مهما كانت في حد ذاتها رائعة. ومن هنا صح القول ان المادية الجديدة ليست سوى تعبير عن النزعة الموضوعية في الباحث. ولعل من الجائز ان نضع "المادية" و"الموضوعية" كلاً مكان الآخر بلا تفريق، إذ هما اصطلاحان مترادفان يعطيان مفهوماً واحداً.

الخلاصة أن المادية انقلبت في القرن العشرين من كونها فلسفة ثابتة إلى كونها منهجاً علمياً، وهي لذلك تستمد احكامها من الواقع الخارجي لا من الاعتبارات الذهنية التي اعتاد عليها العقل.

عود إلى مرض الطفولة:

لعل من المناسب هنا ان اعود مرة اخرى إلى دغدغة اولئك الذين وصفتهم من قبل بانهم مصابون بمرض الطفولة. إنهم يزعمون انهم ماديون او موضوعيون في تفكيرهم بينما هم لا يعرفون من المادية سوى تلك الصورة الساذجة التي اعتادوا عليها منذ عهد مضى.

خبرت "مادية" هؤلاء حين اصدرت كتاب "خوارق اللاشعور" عام 1952 . فقد كنت في تاليف الكتاب حريصاً على اتباع المنهج العلمي جهد امكاني، ولكنهم انبروا يسخرون منه ويستنكرون ما جاء فيه بحجة انه ينافي العقل ويخالف المفاهيم المادية.

تحدثت مرة إلى احدهم، وهو اليوم مصباح من مصابيح الفكر في العراق، وكان الحديث يدور حول الاحساس الخارق الذي اكتشفه الباحثون في بعض الأفراد، فقال صاحبنا انه من الأمور المستحيلة التي لا يقبلها العقل. عند هذا تناولت حجراً صغيراً من الأرض وقلت له: كيف يقبل العقل ان تكون في مثل هذا الحجر طاقة هائلة قادرة على تحريك باخرة كبيرة حول الأرض عدة مرات؟!

لعلي لا اغالي إذا قلت ان بعض متعلمينا هم كالقطار لا يستطيعون أن يخرجوا في سير تفكيرهم عن السكة الموضوعة امامهم. إنهم حفظوا بعض المفاهيم العلمية في أيام تلمذتهم الأولى فخيل إليهم انهم تناولوا بها سر الكون. وما دروا أن المفاهيم العلمية في تطور مستمر يوماً بعد يوم.

حجة مكافحة الخرافات:

هناك نوع آخر من المتعلمين يحاربون الأفكار التي جئت بها في كتاب "خوارق اللاشعور" بحجة انها تشجع الخرافة بين الناس وتساعد على نشر الأفكار "الغيبية" بينهم.

الواقع اني لا اخالف هؤلاء في وجوب مكافحة الخرافات والأفكار الغيبية، ولكن السؤال الذي يراود ذهني في هذا الصدد هو: هل يصح ان نتطرف في امر مكافحة الخرافة إلى الدرجة التي نعرقل فيها سير العلم والبحوث الموضوعية؟ وبعبارة اخرى: هل يجوز ان نسد باب العلم عن كل قضية فيها شبه بالأساطير التي كانت سائدة بين الناس قديماً؟

في رايي ان الذين يحاربون بحث الخوارق النفسية بحجة مكافحة الخرافة إنما هم يشجعون الخرافة من طريق غير مباشر. لنفرض اننا وافقناهم على سد هذه الباب واتهمنا كل من يحاول البحث فيه بانه مخرف، فماذا تكون النتيجة؟

فقد يشهد احدنا عملاً خارقاً من اعمال التنويم المغناطيسي مثلاً، فيعجب منه وتتملكه الحيرة الشديدة فيه. إنه يريد تعليلاً لما شاهده بنفسه عياناً. فإذا لم نقدم له التعليل الموضوعي اضطر هو إلى اتخاذ تعليل ذاتي يختلقه لنفسه اختلاقاً، وربما لجا من اجل ذلك إلى الأفكار الغيبية القديمة او إلى الايمان بالسحر والأرواح. وبهذا تنفتح بين يديه ابواب الخرافة فيبتعد بها عن مفاهيم الحضارة الجديدة.

بلاء الشرق:

لقد ابتلى الشرق بالسحرة والمنجمين والمشعوذين منذ قديم الزمان ولا يزال مبتلياً بهم حتى يومنا هذا. فالذي يتجول في ازقة بغداد اليوم لا يفوته ان يرى في هذه الزاوية أو تلك احد المنجمين وقد بسط بين يديه الرقي والطلاسم، ويتهافت عليه الفقراء يسألونه اين ذهب حظهم التاعس من هذه الدنيا، ويطلبون منه أن يسعفهم بشيء من عون الجن. ولا يقتصر الأمر على الفقراء وحدهم، فهناك أمراء واغنياء مترفون يلجؤون إلى السحرة والمنجمين ويصدقون بأقوالهم. والمنجمون قد يقومون ببعض الخوارق من جراء امتلاكهم لبعض المواهب التنويمية أو غيرها، فتشيع اخبارهم بين الناس وتشيع الخرافات معها. وبهذا قد يضيع كثير من الأموال والجهود البشرية عبثاً، وقد يقع اثناء ذلك كثير من الضحايا أيضاً.

لا فائدة من مكافحة هؤلاء المنجمين كفاحاً مباشراً. فإذا كافحناهم هنا ظهروا هناك.إنهم يلقون سوقاً رائجة بين الناس. ونحن لا نؤثر في الناس حين ننصحهم

بأن يكونوا "عقلاء" وأن يكذبوا كل ما يأتي به المنجمون من خزعبلات. فالناس قد يجيبوننا بأنهم عقلاء فعلاً وانهم شهدوا بأم أعينهم عجائب التنجيم.

أعتقد أن خير علاج نعالج به هذا البلاء الاجتماعي هو أن ننشر الأفكار العلمية بين الناس حيث نحاول بها تعليل تلك الخوارق التي يقوم بها المنجمون تعليلاً موضوعياً. إنها قد تكون خوارق واقعية أحياناً ولا جدوى إذن من أن نتخذ إزاءها طريقة النعامة التي تخفي راسها في التراب عند مطاردة الصياد لها، فهي لا تراه وتحسب انه لا يراها ايضاً.

انقل للقارئ فيما يلي نص ما قاله احد العراقيين اثر زيارته للصين الشعبية في عام 1957:

"واغرب ما شاهدناه في كانتون عدة تجمعات ضخمة من الناس متجمعين حول "السحرة" اي الذين يلعبون العاب الخفة ووقفنا بين جماعة من هذه الجماعات: الساحر ومعاونوه يمزقون منديلاً ثم يخرجونه من جيب احد الأشخاص، يكسرون بيضة ثم يعيدونها... إلى آخره من العاب الخفة التي تدل على مهارة فائقة معروفة عند الصينيين. ولقد عجبنا لهذه المشاهدة. كيف لا تمنع الحكومة الشعبية مثل هذه الألعاب؟ هذا ما سألنا انفسنا عنه. ولم نعثر له على جواب معقول إلا بعد زيارتنا لمدينة شنغهاي حيث عرفنا ان التنويم المغناطيسي والعاب الخفة هي من جملة المواد التي يدرسونها للأطفال مع الموسيقى والرقص والتمثيل وغيره، وفهمنا آنذاك السر في تعليمها للأطفال، فهم يطلعونهم عليها حتى يتعرفوا بانفسهم الى انها مسائل متعلقة بالخفة وليس في الأمر اي عامل خارجي، لا أرواح ولا شياطين. وهم بذلك يقلعون الاعتقاد بها من اذهان الأطفال من الجذور"[14].

هوامش الملحق الثاني:

(1) انظر: العلامة الحلي، كشف الحق ونهج الصدق، ص 5 - 6 .

(2) أعرف رجلاً كبيراً من رجال الدين كان يعيش في بغداد وقد مات منذ سنوات معدودة، وكان حتى آخر يوم من حياته يعتقد أن الأرض لا يمكن أن تكون كروية أبداً ويقول: "كيف يجوز لنا أن ننكر ما يأتي به الحس يا ناس... وإذا كانت الأرض كرة تدور فلماذا لا تسقط المنائر... يا ناس!؟".

(3) انظر: حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص 270 - 273 .

(4) أود أن أنتهز هذه المناسبة لأقول بأني أفضل استعمال كلمة "التلفاز" بدلاً من التلفزيون، التي هي ثقيلة على اللسان العربي. ومن الجهة الأخرى. نستطيع أن نشتق من هذه الكلمة فعلا ومصدراً فنقول "تلفز يتلفز تلفزة". فما هو رأي اخواننا النحويين في ذلك؟ افتونا مأجورين!

(5) انظر: Tyrrell, Personality of Man, p 266.

(6) انظر: اغاخان، مذكرات اغاخان، ص 26 ، 106 .

(7) انظر: عبد الحميد أحمد أمين، الطاقة الذرية، ص 11 .

(8) انظر: Rhine, Reeach of Mind, p. 58.

(9) انظر: Jeans, Mysterious Universe, p. 93.

(10) انظر: بوليتزير، المادية والمثالية في الفلسفة، ص 38 .

(11) انظر: سينل، الحاسة السادسة ، ص 14 .

(12) انظر: محمد مصطفى مشرفة، النظرية النسبية الخاصة، ص 50 - 51 .

(13) انظر: بوليتزير، المادية والمثالية في الفلسفة، ص 44 .

(14) انظر: حميد حمدي، عراقي في الصين الشعبية، ص 20 - 21 .

الملحق الثالث

الحاسة السادسة

غرائب الحيوان:

لاحظ الباحثون في عالم الحيوان ظواهر غريبة جداً لا يسهل تعليلها بالحواس الخمس المعروفة. خذ حمام الزاجل مثلاً. فالمشهور عنه انه يحمل في صندوق مغلق ويسير به مسافة طويلة عبر الجبال والبحار، فإذا اطلق بعد ذلك رجع إلى مكانه الأول...

كان علماء القرن الماضي يعللون مقدرة الحمام هذه بانها "غريزة" . ولكن هذا التعليل اصبح اليوم غير مقبول، إذ هو يشبه من يفسر امراً مجهولاً بمجهول آخر. فإذا كانت الغريزة هي سر تلك المقدرة الخارقة، فما هو سر الغريزة نفسها؟

* * *

مما له صلة بهذا الموضوع ما حدث لأحد علماء الحشرات. فقد عثر هذا العالم يوماً على يرقة نوع كبير من الحشرات فحملها إلى بيته ووضعها في صندوق وترك الصندوق في غرفة مكتبه. وبينما هو جالس في غرفة الطعام إذ دخل عليه خادمه فزعاً واخبره بان غرفة مكتبه امتلأت بفوج كبير من الحشرات الضخمة. فلما ذهب العالم ليرى ما حدث وجد أن يرقته ادركت طور البلوغ وان عدداً من ذكورها يحوم حول الصندوق. ولما كانت الحشرات من نوع غير مألوف في تلك المنطقة فقد استنتج العالم بانها لا بد ان جاءت من مكان بعيد جداً.

وجمع العالم تلك الحشرات الوافدة فقطع ملامسها التي تتركز فيها حاسة الشم ووضعها في كيس ثم وضع الكيس في قمطر وحملها إلى غابة تبعد عن بيته بما يناهز الميلين. ولم تمض على ذلك بعض ساعات حتى وجد الحشرات كلها متجمهرة في غرفة مكتبه حول الأنثى مرة أخرى[1].

لقد كانت هذه تجربة ذات دلالة علمية لا يستهان بها. فما الذي أرشد الحشرات إلى مكان الأنثى؟ إنها لم تستعن في ذلك بحاسة الشم أو بحاسة البصر طبعاً، فهل استعانت بحاسة أخرى من حواسها الخمس، أم بحاسة سادسة لا نعرفها؟

أعجوبة الخفاش:

من الظواهر الغريبة التي لفتت أنظار الباحثين أيضاً ما شوهد في الخفاش من مقدرة خارقة على رؤية الأشياء في الظلام. فالخفاش يكاد يكون أعمى، إذ أن له عينين صغيرتين جداً، وهما ليستا بذات فائدة له على أي حال، حيث يصعب عليه أن يبصر بهما شيئاً في ضوء النهار. ولكنه يمسي قوي البصر في ظلام الليل، حيث يستطيع أن يطير فيه بسرعة كبيرة دون أن يرتطم بما حوله من الجدران وغصون الشجر.

وبعد دراسة مستفيضة اكتشف العلماء في الخفاش جهازاً خاصاً به غير موجود في غيره من الحيوانات. اتضح أن الخفاش لا يبصر الأشياء بهذا الجهاز إنما هو يسمعها به. فهو يصدر أصواتاً ذات ذبذبة عالية. وهذه الأصوات ترتطم بالحواجز المادية ثم تنعكس عنها كما ينعكس الصدى. والخفاش يلتقط بجهازه الخاص صدى أصواته وبه يعرف مقدار البعد بينه وبين تلك الحواجز بكل دقة واتقان[2].

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أننا نحن معاشر البشر لا نستطيع أن نسمع أصوات الخفاش لأن آذاننا اعتادت أن لا تسمع من الأصوات إلا ما كانت ذبذبته تقل عن العشرين ألف ذبذبة في الثانية. أما الخفاش فهو يصدر صوتاً ذا خمسين ألف ذبذبة في الثانية، وهو يسمعه وحده لا يشاركه فيه حيوان آخر.

وقد ثبت أن كل خفاش له ذبذبته الخاصة حيث يتميز بها بين زملائه الخفافيش، بالرغم من اشتراكه معهم في نوع الذبذبة العام. وهو بهذا يشبه

محطات الإذاعة التي تذيع على موجات متفاوتة. ولذا فإن اصوات الخفافيش لا يختلط بعضها ببعض حينما تطير جماعة في مكان واحد.

والغريب أن الخفاش يواصل اصدار الصوت والتقاطه حتى عند وقوفه. وهو بذلك يستطيع أن يفحص الأشياء المحيطة به ويتبين الخطر المحتمل مجيئه منها. أن الخفاش، بعبارة اخرى، ينظر إلى الأشياء باذنه على منوال ما ينظر بنو آدم إليها بعيونهم!

مقارنة واستنتاج:

مهما يكن الحال فإن اعجوبة الخفاش قد تفتح لنا باباً للتساؤل فإذا كان الخفاش يستخدم امواج الصوت في سبيل التعرف إلى الأشياء القريبة منه فماذا يستخدم حمام الزاجل لكي يتعرف إلى معالم طريقه البعيد.

يقال ان اعجوبة الخفاش هي التي حفزّت العلماء على اختراع الرادار. فهم عندما درسوا جهاز الخفاش خطر ببالهم انهم قادرون على صنع جهاز مثله يرى الأشياء من بعيد، لا سيما إذا استبدلوا بأمواج الصوت الأمواج اللاسلكية. وتم للعلماء اخيراً ما ارادوا، فكان الرادار!

نحن نعرف ان أمواج الصوت ذات مدى قصير وسرعة قليلة جداً بالمقارنة إلى الأمواج اللاسلكية التي هي نوع من الأمواج الكهرطيسية. فهل يجوز لنا ان نفترض الطبيعة قاصرة عن انتاج جهاز في بعض الحيوانات يستخدم الأمواج الكهرطيسية كما انتجت جهاز الخفاش الذي يستخدم الأمواج الصوتية؟

لا يصح أن نتعصب لحواسنا الخمس بحيث نعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله لم يخلق غيرها في الحيوان او الانسان. فإننا بهذا التعصب لا نختلف عن الدودة التي لا تملك حاسة البصر وتظن ان هذه الحاسة غير موجودة في جميع الأحياء.

خبـر مهم:

روت إحدى المجلات الأمريكية مؤخراً خبراً هو في رايي ذو اهمية بالغة بالنسبة لهذا الموضوع الذي نحن فيه.

تقول المجلة ان جمعية حمام الزاجل في امريكا اطلقت في الأونة الأخيرة

(1700)حمامة، فلم يرجع منها إلى أماكنها المعينة سوى أربعين حمامة فقط. حدث هذا في الوقت الذي كانت الحكومة الأمريكية فيه تجري تجارب نووية جديدة في صحراء نيفادا من الولايات المتحدة. وقد صرح أحد أرباب الحمام في هذه المناسبة قائلاً: أن الحمام ربما سار في نطاق الأشعة الذرية مما جعله يفقد "غريزة التاويب"[(3)].

إذا صح هذا الخبر كان في إمكاننا أن نستنتج منه أن حمام الزاجل يمتلك في مخه جهازاً قادراً على التقاط الأمواج الكهرطيسية الصادرة إليه من المكان الذي نشأ فيه، وهو حين يرجع إلى ذلك المكان إنما يهتدي بتلك الأمواج على وجه من الوجوه. والظاهر أن الانفجارات النووية تربك الحمام وتمنعه من التقاط الأمواج الخاصة التي يستعين بها في تأويبه. وهذا هو الذي جعله عاجزاً عن الاهتداء إلى محله الأول ـ كما راينا.

إن هذه على اي حال فرضية لا نعرف مبلغ انطباقها على الواقع ولكن من الجائز الركون إليها ما دمنا لا نجد من القرائن ما يخالفها. والفرضيات العلمية بوجه عام تبقى صحيحة حتى تظهر إزاءها قرائن جديدة مناقضة لها.

رأي سينل:

ذكرنا الأستاذ سينل وبعض آراءه في فصل سابق، ولا بأس هنا من ذكر آراء له اخرى ذات صلة وثيقة بموضوع الحاسة السادسة.

يعتقد سينل أنه ما دام الكون مشحوناً بالأمواج الكهرطيسية من كل نوع، فليس من العسير أن نفترض وجود جهاز في المخ الحيواني يشبه جهاز المذياع في وظيفته وانه قادر على التقاط بعض الأمواج به.

ويركز سينل انتباهه في هذا الشأن على نتوء صغير موجود في مخ الحيوان يسميه العلماء "الجسم الصنوبري". فهذا الجسم لم يعرف العلماء له أية وظيفة حتى الآن. ويزعم سينل بانه جهاز الحاسة السادسة في الأحياء. أما الطريقة التي يستطيع الجسم الصنوبري ان يلتقط بها امواجاً معينة دون غيرها فهي أنه يضبط خلاياه أو شعيراته التي تخصصت لهذا الغرض بحيث يجعلها في حالة

تذبذب مطابق لذبذبة الأمواج المطلوبة، وهو بهذا يكون "متناغماً" مع تلك الأمواج على منوال ما يتناغم المذياع مع محطة معينة من محطات الإذاعة[4].

مخ الإنسان:

من الثابت أن الجسم الصنوبري موجود في مخ الإنسان أيضاً بيد أنه هناك صغير جداً. وهو في الذكر من البشر أصغر مما هو في الأنثى، وفي البالغ أصغر منه في الطفل.

يقول سينل ان مخ الانسان قد تخصص للتفكير وهو لذلك قد أهمل استخدام الجسم الصنوبري. معنى هذا أن الانسان اعتاد ان يشغل نفسه بمشكلاته اليومية يفكر فيها ويدبر لها الخطط ويضرب من اجلها الأخماس بالأسداس. وهو إذن لا يجد مجالاً يصغي فيه إلى ومضات الحاسة السادسة التي يحس بها الجسم الصنوبري.

أما الحيوان فهو يختلف في هذا عن الانسان. إنه لا يعرف التفكير ولا يشغل نفسه به، وهو إذن قادر على استخدام حاسته السادسة، يستشف بها مقتضيات حياته مباشرة من غير تردد أو روية. ولهذا وجدنا الجسم الصنوبري في الحيوان اكبر منه في الانسان. وهو يزداد حجماً كلما كان الحيوان أوطأ في سلم التطور.

لا يعني هذا أن الحاسة السادسة معدومة الأثر في الانسان نهائياً. الواقع أنها قد تؤثر فيه أحياناً على الرغم من ضعفها الشديد وقد اتينا على ذكر بعض ظواهرها العجيبة في فصول سابقة عندما بحثنا عن تنبؤات الأحلام وخوارق التنويم، حيث راينا كيف انها تظهر في الانسان في الأوقات التي يغفو فيها العقل الواعي وتخمد إرادته.

الظاهر ان هناك تعاكساً بين قوة التفكير وقوة الحاسة السادسة في الانسان. فكلما اشتد التفكير فيه خفت لديه قابلية التاثر بومضات تلك الحاسة. ولعل هذا هو الذي جعل المراة أصح حدساً من الرجل في بعض الأمور التي لا تحتاج إلى تفكير. فالمراة لطول مكوثها في البيت وقلة اتصالها بمشكلات الحياة، صارت أكثر اعتماداً على حاستها السادسة من الرجل[5].

في رأي سينل أن الحاسة السادسة ذات أثر واضح في حياة البدائيين الذين لا يزالون يعيشون على الفطرة. فهؤلاء لم يعتادوا على التفكير المركز الذي اعتاد عليه المتمدنون. وهم لذلك أقدر على استثمار الحاسة السادسة من اخوانهم المتمدنين.

نماذج بشرية شاذة:

مهما يكن الحال، فقد يظهر بين المتمدنين أحياناً افراد لهم حاسة سادسة قوية،وهم قادرون على استثمارها بشكل يلفت النظر ويثير الدهشة.

من هؤلاء رجل عاش في القرن الثامن عشر اسمه سويدنبرغ وقد اشتهر هذا الرجل بحاسته السادسة شهرة واسعة، ومما تجدر الإشارة إليه انه كان يعيش في غوتنبرغ وهي المدينة التي كان يسكنها كانط الفيلسوف الألماني المعروف. وقد اتيح لكانط أن يدرسه وأن يسجل في أحد كتبه شيئاً عن أعماله الخارقة.

يقول كانط أن سويدنبرغ رجع ذات مساء إلى بيته وهو مصفر الوجه مرعوب، فأعلن بأن ناراً هائلة تشب في ستوكهلم وهي توشك أن تلتهم داره هناك، وكان سويدنبرغ يملك داراً في ستوكهلم، وبعد قليل أعلن سويدنبرغ أن الدار قد سلمت وأن النار أخمدت على بعد أمتار منها. وقد أثار عمل سويدنبرغ هذا استغراباً بين سكان غوتنبرغ فمدينة ستوكلهم تبعد عن غوتنبرغ بما يناهز الثلاثمئة ميل، ولم يكن في ذلك الوقت من وسيلة لنقل الخبر بين المدينتين سوى ما يأتي به المسافرون والسعاة. فما الذي تمكن سويدنبرغ من العلم بنشوب النار وهو على تلك المسافة الكبيرة منها؟ أكان يملك في رأسه تلفازاً؟

يقول كانط: أن حاكم غوتنبرغ اضطر عند سماعه الخبر إلى استدعاء سويدنبرغ للتحقيق معه. وبعد يومين جاء رسول من ستوكهلم يؤيد ما قال سويدنبرغ تأييداً تاماً[(6)].

رجل آخر:

واشتهر بحاسته السادسة رجل آخر اسمه لدوغ كهن. وقد حضر هذا الرجل إلى المعهد الفلسفي بباريس عام 1925 حيث أجريت عليه التجارب العلمية. وكان ممن اشترك في تلك التجارب العالم المعروف شارل ريشيه الذي كان حينذاك استاذ

الفسلجة في كلية الطب في جامعة باريس، وإلى القارىء نص الشهادة التي ادلى بها ريشيه بعد انتهاء إحدى التجارب:

قال ريشيه: لما حضرت الجلسة في المعرض الفلسفي مع كثيرين غيري كنت لا ازال كثير الشك في صحة دعوى الرجل، ولعل ذلك يجعل لشهادتي قيمة. فقد طلب مني الرجل ان اكتب جملتين على ورقتين فكتبتهما وكنت في جانب من مكتبي بينما كان الرجل في الجانب الآخر منه. ثم طويت كل ورقة ثماني طيات ووضعت إحداهما في يميني والأخرى في يساري، ولم أسمح له أن يلمسهما. فوقف متردداً نصف دقيقة ثم أخبر بما كتبت في الورقتين بالنص. ثم اجريت تجربة ثانية حيث ذهبت إلى غرفة أخرى وجلست فيها وحدي فكتبت أربع فقرات في أربع ورقات، وضعت إحداها تحت كتاب واحرقت الثانية، وامسكت بالباقيتين في يميني ويساري. ثم دعوت الرجل فإذا هو يخبر بما جاء في الأوراق الثلاثة. أما الورقة المحروقة فلم يعرف ما كان فيها إلا بعد أن تمهل نحو ثلاثة أرباع الدقيقة، ثم نطق فاصاب... (7).

الرادار البشري:

قرات في إحدى المجلات المصرية عام 1951 تقريراً مدعوماً بالصور عن رجل اسمه توجانز ظهر على بعض مسارح القاهرة وكان يستطيع أن يقرأ أفكار المتفرجين بشكل عجيب. وقد اطلقت المجلة على هذا الرجل اسم الرادار البشري وقالت عنه أنه يملك حاسة سادسة. ويروي توجانز كيف اكتشف الحاسة السادسة في نفسه في أول الأمر، فيقول انه أثناء الحرب العالمية الأولى أصيب برصاصتين في رأسه. فنقل إلى المستشفى وظل في غيبوبة طويلة تقارب العشرين يوماً. وعندما أفاق من غيبوبته تنبأ بأن الجريح الذي كان ينام بجواره سيموت في خلال يومين. وقد تحققت نبوءة توجانز فعلاً ثم تحققت له نبوءات أخرى نطق بها بعد ذلك.

وفي عام 1921 خرج توجانز إلى الريف يتريض فيه مع بعض أصدقائه. ولكنه لم يكد يمر بجانب حقل للقطن حتى أغمى عليه. وتبين أخيراً أن هذا الحقل كان منبعاً قديماً للنفط. وخرج توجانز مرة ثانية إلى الريف فمر بالقرب من احد حقول النفط، فأغمى عليه كذلك وبعد الفحص عليه في أحد معاهد الاشعاع ظهر أن

إشعاعات جسده أقوى جداً من تلك التي تنبعث من أجساد الآخرين عادة، وأنه يتأثر بأمواج المعادن المختفية تحت الأرض لا سيما أمواج النفط..

ولا تقتصر مقدرة توجانز على ذلك وحده، بل هو يستطيع كذلك أن يفهم ما يجول بخاطر أي شخص قريب منه ولو كان ذلك الشخص يتكلم بلغة لا يفهمها توجانز. ويستطيع توجانز ايضاً أن يعرف علة المريض إذا لامس جسمه، إذ هو يشعر عندئذ بنفس الألم الذي يشعر به المريض.

ولعل اعجب خوارق توجانز أنه يستطيع أن يقود سيارة ويسير بها في أشد الشوارع إزدحاماً وهو معصوب العينين. حدث له مرة أن كان يفعل ذلك في شوارع مدينة الجزائر فاصيب بنوبة إغماء حادة فامره الأطباء بأن لا يعاود التجربة مرة أخرى لئلا يقع له مالا تحمد عقباه(8).

قصة مماثلة:

لا أكتم القارىء أني عندما قرأت قصة تواجانز هذه ظننت أنها من صنع المبالغات الصحفية. ونحن نعرف ما تقوم به الصحف والمجلات أحياناً من مبالغات وتزويق في نقل الأخبار. ولكن اطلعت أخيراً على قصة مماثلة لقصة توجانز في مصدر موثوق مما جعلني أميل إلى تصديق القصة الأولى ـ في بعض أجزائها على الأقل.

والقصة الثانية ترويها جمعية المباحث النفسية في بريطانيا وقد اثبتتها في سجلاتها بعد أن تأكدت من صحتها. وخلاصة القصة أن رجلاً هندياً اسمه كودا بوكس جاء إلى بريطانيا وأخذ يسير على دراجته في الشوارع المزدحمة وهو معصوب العينين. وقد أراد أحد الأطباء في مدينة مانجستر أن يمتحنه بنفسه، فوضع على عينيه عجيناً خاصاً من شأنه أن يحجز الضوء حجزاً تاماً، ثم لفهما بعصابة كثيفة، وقال له: "إنك تستطيع الآن يا عزيزي أن تتنزه فوق دراجتك في شوارع المدينة كما تشاء، ولكني لو كنت مكانك لترددت مئة مرة قبل الاقدام على هذه المغامرة الخطرة" . ونهض الرجل فامتطى دراجته وسار بها في الشوارع المزدحمة كأنه كان مفتوح العينين، وذهل المارة منه، وأخذت السيارات تصطدم بعضها ببعض اشفاقاً عليه من موت محقق. أما هو فقد كان في منتهى الهدوء والطمأنينة...

ما هو السر؟

من الممكن تعليل هذه المقدرة الخارقة التي رأيناها لدى كودا بوكس أو توجانز أو غيرهما بأنها نوع من الحاسة السادسة. ولكن الذي يصعب علينا تعليله هو لماذا ظهرت الحاسة السادسة في هؤلاء الأفراد ولم تظهر في غيرهم بهذا الوضوح؟

يجيب بعض الباحثين على هذا بقولهم أن لهؤلاء الأفراد قابلية خاصة على التنويم الذاتي، أي أنهم قادرون أن ينوموا انفسهم بأنفسهم، وبهذا يوقفون حركة تفكيرهم ويسمحون للحاسة السادسة ان تقوم بعملها من غير تشويش. ولعلهم فوق ذلك يملكون قسطاً من هذه الحاسة اكبر مما يملكه سائر الناس عادة.

يبدو أن الأستاذ سينل يذهب هذا المذهب في التعليل. فهو يعرف فتاة لها حاسة سادسة قوية، وكان يجري عليها التجارب طيلة ثماني سنوات. يقول سينل أن الفتاة قد تكون في بدء التجربة مشغولة الذهن بأمر ما، وهي لذلك تعجز عن القيام بالتجربة. ولكنها تقول له: اصبر قليلاً لا بد من اخلاء فكري" . وبعد ان تتمكن من تصفية ذهنها وإعداده تقول: "والآن انا على استعداد" . ثم تقوم بالتجربة وتنجح فيها نجاحاً كبيراً.

يعتقد سينل ان بعض المشهورين باكتشاف المغيبات عن طريق التحديق في الماء او الكرة البلورية او نقطة الحبر او الفنجان، إنما هم يستخدمون هذه الوسائل لوقف حركة التفكير في أذهانهم، وبذلك يساعدون حاستهم السادسة على العمل. وكل هذه وسائل قديمة العهد ظهرت بظهور التاريخ او لعلها ظهرت قبله، وآية ذلك أن قدماء المصريين كانوا يستخدمونها جميعاً. ونشأ عن ذلك طائفة "البصارين" ، أي الذين ينعمون النظر في شيء ما. وقد كانت الحجارة المقدسة في دروع كهنة اليهود تستعمل لهذا الغرض نفسه، فكان الكاهن ينطق بالأمور العجيبة بعد أن ينظر في تلك الحجارة ملياً(9).

اعتراض وجيه:

قد يعترض معترض فيقول: إذا صح لدينا وجود أفراد لهم مقدرة على اكتشاف المغيبات عن طريق حاستهم السادسة، فلماذا لا يستطيعون ان يكتشفوا بها الكنوز الثمينة المخفية تحت الأرض مثلاً فينالوا بها الثروة العريضة؟

إن هذا اعتراض وجيه حقاً. وقد خطر مثل هذا الاعتراض ببال أحد الأغنياء في بريطانيا حين سمع عن الأعمال الخارقة التي يقوم بها بعض الأفراد هنالك. وأراد الرجل أن يتحدى أولئك الأفراد تحدياً عملياً صارخاً، فأعلن في الصحف أنه وضع ورقة نقدية قيمتها ألف جنيه داخل مظروف، ووعد أنه سوف يمنحها مكافأة لكل من يستطيع أن يتنبأ عن رقم تلك الورقة بحاسته السادسة. وظل الرجل يعلن عن المكافأة مدة طويلة دون أن يأتيه أحد للفوز بها. وكانت النتيجة أن فشلت التجربة. وقد اتخذ الكتاب في بريطانيا هذا الفشل دليلاً على كذب ما يقال عن وجود حاسة سادسة في الانسان.

يعلق الأستاذ سينل على هذه التجربة فيقول: إن الأمل بالحصول على ورقة قيمتها ألف جنيه يبعث في صاحب الحاسة السادسة الحرص والتفكير المتقصد، ومن شأن هذا التفكير أنه يعرقل تصفية المخ ويمنع صاحبه من توجيه ذهنه نحو اكتشاف رقم الورقة. معنى هذا: أن الانسان ما دام يريد شيئاً ويفكر في الحصول عليه فإنه لا يستطيع أن يستخدم حاسته السادسة استخداماً مجدياً. إن الحاسة السادسة موهبة تلقائية تنبعث من اللاشعور، وكلما شغل العقل الواعي بأمر كان ذلك حاجزاً يمنع اللاشعور من العمل. وربما صح القول بأن الإرادة القاصدة والهام اللاشعور شيئان متعاكسان حيث يقوى احدهما بمقدار ما يضعف الآخر[10].

إن هذا على اي حال امر نلاحظه في جميع ما يتصل باللاشعور من مواهب تلقائية، لا فرق في ذلك بين الحاسة السادسة أو غيرها. فأنت حين تريد أن تقابل رجلاً كبيراً من رجال الدولة مثلاً، فكلما كان حرصك شديداً على التأثير عليه بحديثك شعرت بالعجز ورجعت بالخيبة. إن حرصك هذا يحجب عنك ما ينبعث فيك من حركات وأقوال تلقائية ملائمة. اما إذا قابلت الرجل الكبير على رسلك وطوع بديهتك، من غير تكلف وتقصد، فإنك تكون أقدر على الافصاح له والتأثير فيه غالباً.

ومثل هذا يمكن ان نقول في شأن الخطيب الذي يلقي كلمة ارتجالية، أو القائد الذي يجابه موقفاً عسكرياً مفاجئاً، أو الجراح الذي يقوم بعملية جراحية دقيقة. فكل هؤلاء وغيرهم إنما ينجحون في مواجهة ساعة الحرج بمقدار ما يسترسلون فيها على بديهتهم ويندفعون فيما يلهمهم به اللاشعور من غير حرص او تكلف.

ومن هنا نعرف سبب الفشل الذي يصاب به المتحذلقون المتكلفون في كثير من الأحيان. فهم يهملون ومضات عقلهم الباطن وينهمكون في أمور مصطنعة يتعمدونها تعمداً إذ هم يحسبونها مفتاح النجاح بينما هي في الحقيقة مفتاح الخيبة.

الحظ والحاسة السادسة:

يعتقد الكثيرون من ابناء هذا الجيل أن الحظ حديث خرافة وأن نجاح الانسان في الحياة يكون بمقدار ما يبديه الانسان فيها من جد ومثابرة وتفكير مركز. الواقع أن هذا رأي صحيح في حدوده الواسعة، وليس لنا اعتراض عليه من الناحية المبدئية، إلا أن هناك موهبة لاشعورية قد تظهر في بعض اناس فتكون عاملاً مساعداً في نجاحهم بالإضافة إلى ما لديهم من عوامل النجاح الأخرى. وهذه الموهبة قد نطلق عليها اسم الحظ او نطلق عليها اسماً آخر. ولا عبرة بالأسماء في هذا الصدد.

وقد فطن اهل السوق عندنا إلى هذه الحقيقة بطريقة ساذجة. فهم يعرفون من تجاربهم العديدة ان السعي والتفكير لا يكفيان وحدهما لنيل النجاح في التجارة. فكثيراً ما يكدح تاجر في عمله ويجهد تفكيره فيه. فلا ينال منه ما يكفيه معاشاً متواضعاً، بينما يأتي تاجر آخر فينال الأرباح تلو الأرباح دون ان يكون لديه أي حرص على الجد والتفكير. إن هذا هو الذي جعل أهل السوق عندنا يقولون في أمثالهم الدارجة: "الذي يدخل السوق يجب ان يضع عقله على الرف".

التعليل الذي اميل إلى الأخذ به في هذا الشأن هو ان للحاسة السادسة اثراً غير قليل في النجاح التجاري وفي غيره.

حين نفحص سلوك التاجر الناجح في السوق نجده هادئاً يستقبل عملاءه دون أن تبدو عليه اية علامة من علامات الحرص أو التوتر الفكري. وقد يأتيه الدلال يعرض عليه صفقة تجارية كبيرة فيجيبه التاجر بكلمة "لا" أو "نعم" من غير مبالاة وكأنه يريد ان يشرب كأساً من الماء.

لعلني لا اخطىء إذا قلت أن هذا التاجر كان يستلهم حاسته السادسة اثناء عمله، وربما كان يستشف بها حالة العرض والطلب وما سوف ينشأ عنها من

ارتفاع في الأسعار أو انخفاض. ويصح القول انه كلما كان أكثر هدوءاً أثناء العمل ازدادت قدرته على استثمار حاسته السادسة.

أما التاجر الفاشل فهو مشغول بهمومه الواعية يريد بها الربح ويحرص عليه. وهذا الحرص يصبح في ذهنه بمثابة العقدة تحجز عنه ومضات الحاسة السادسة. وعند هذا يصدق عليه المثل القائل "يركض والعشا خباز".

ليس هذا شأن النجاح والفشل في حقل التجارة وحدها. إنما هو شأنهما في مختلف حقول الحياة. ونستطيع أن نشهد أمثلة واقعية له حتى عند الشحاذ أو الحمال أو راقع الأحذية. فالواحد من هؤلاء قد يجد نفسه دون زملائه في الرزق مع العلم أنه لا ينقص عنهم في ظاهر الأمر شيئاً، فيأخذ بالتساؤل عن السر في شحة رزقه. وقد يحلو له في ساعة اليأس أن يعزوه إلى القدر - والقدر منه بريء!

حاسة سابعة؟

بعد هذا الذي ذكرناه عن وجود حاسة سادسة في الانسان ومبلغ أثرها في حياته، نود أن نلفت نظر القارىء إلى رأي أخذ الباحثون يتجهون إليه مؤخراً هو احتمال وجود حاسة سابعة في الانسان. والباحثون لا يميلون إلى تسمية هذه الحاسة الجديدة بالحاسة السابعة، كما نريد أن نسميها تجاوزاً، إنما هم يطلقون عليها اسماً خاصاً هو (psychometry). ومن يدرينا لعلها جزء من الحاسة السادسة أو وجه خاص من وجوهها المتنوعة.

إنها على أي حال حاسة عجيبة للغاية، وقد يصعب على القارىء التصديق بها عند سماعه بها لأول مرة. ولكي يعرف القارىء بعض خصائصها أنقل في ما يلي خلاصة قصة واقعية عنها. وهذه القصة طويلة لها تفاصيل متشعبة، وهي الآن محفوظة بجميع تفاصيلها في سجلات الجمعية الطبية في المكسيك وفي سجلات جمعيتي المباحث النفسية في بريطانيا والولايات المتحدة.

خلاصة القصة:

في عام 1921 اشتكت سيدة مكسيكية اسمها السنيورة ماريا ريس من أرق أصابها. وهي من عائلة محترمة في المكسيك وأبوها حاكم إحدى المقاطعات هناك. وكان في عاصمة المكسيك يومذاك طبيب ألماني مشهور يدعى الدكتور باجنستيخر.

فذهبت السيدة إليه. لجأ الطبيب في علاجها إلى التنويم المغناطيسي. ثم وجد أنها أثناء التنويم تملك مقدرة نفسية خارقة. فهو لا يكاد يضع بين يديها شيئاً حتى يجدها قد بدأت تذكر تفاصيل دقيقة عن تاريخ ذلك الشيء وعن مصدره وعن صفة صاحبه. وقد أثار هذا الخبر دهشة كبيرة بين الباحثين. وجاء الدكتور والتر فرانكلن برنس، رئيس جمعية المباحث النفسية الأمريكية، إلى السيدة لكي يدرس عن كثب مقدرتها العجيبة.

من التجارب التي أجريت عليها أن جيء بقطعة من المرمر انتزعت من أحد المسارح الرومانية القديمة التي لا تزال بقاياها قائمة في روما. فأخذت السيدة ماريا تصف المسرح كأنها تنظر إليه من ناحية معينة. مع العلم انها لم تكن تعرف من قبل شيئاً عن قطعة المرمر تلك.

وجيء إليها، في تجربة أخرى، بحجر بركاني انتزع من قعر إحدى البحيرات. فشرعت السيدة ماريا تصف الأسماك التي تمر فوق الحجر أثناء وجوده في قعر البحيرة.

وحدثت التجربة الكبرى يوم وصلت إلى الدكتور باجنستيخر رسالة من صديق له في اليابان. والرسالة تحتوي على ورقة مختومة قيل عنها انها وجدت في قنينة طافية في مياه المحيط. وتناولت السيدة تلك الورقة واخذت تقص ما جرى عليها من الحوادث ولماذا القيت في المحيط بداخل قنينة. قالت السيدة ان الورقة كتبها رجل كان في سفينة تعبر المحيط ثم أوشكت على الغرق. وعلامة الرجل الفارقة ان له فوق حاجبه الأيسر ندبة جرح قديم. وهو عندما أحس بالخطر ورأى ركاب السفينة فزعين يتصايحون وقد تمنطقوا بأحزمة النجاة، انتزع ورقة صغيرة من مفكرته فكتب عليها رسالة إلى زوجته جاء فيها: "السفينة تغرق، وداعاً يا عزيزتي لويزا. احرصي على أن لا ينساني أولادي... اسأل الله ان يرعاني ويرعاك. وداعاً. زوجك رامون" . ووضع الرجل الورقة في قنينة ثم سدها ورماها في الماء.

تبين بعد البحث أن الرجل من أهل هافانا في كوبا، وانه ركب الباخرة لوزيتانيا عام 1916 ، وهي الباخرة التي أغرقها الألمان أثناء الحرب العالمية الأولى. واستطاع الباحثون أخيراً أن يعثروا على عائلة الرجل في هافانا. وجاءت زوجته فقرات الورقة

وايدت أن الخط خط زوجها وانه قد غرق فعلاً مع الباخرة لويزيتانيا وأن له علامة فارقة هي ندبة جرح قديم فوق حاجبه الأيسر.

دراسة جامعية:

اتضح لدى الباحثين ان السيدة ماريا ليست الوحيدة في امتلاكها لتلك المقدرة العجيبة. فهناك اشخاص آخرون يشابهونها في ذلك قليلاً او كثيراً. وقد حاولت جامعة لندن أن تدرس حالة هؤلاء الأشخاص دراسة موضوعية. وتقدم إلى الجامعة عام 1940 باحث اسمه هتنجر حيث كتب في هذا الموضع رسالة احتوت على كثير من الأسرار[11].

حاول هتنجر في هذه الرسالة ان يجمع اكبر عدد ممكن من المعلومات المتوافرة في هذا الشان، ووضحها بجداول احصائية وخطوط بيانية متنوعة. ثم خرج هتنجر من البحث قائلا بأن تلك المقدرة الخارقة حقيقة موجودة ولكنه لا يستطيع لها تعليلاً.

رأي اسبورون:

يحدثنا اسبورن عن وسيط كان يملك مثل تلك المقدرة. وكان اسبورن يجري عليه التجارب بنفسه. حدث له مرة انه كان في استراليا ثم وصله خطاب من صديقة له في بريطانيا. وتناول الوسيط الخطاب وهو في داخل المظروف دون أن يفتحه أو يقرأ ما كتب على ظاهره، وقال ان كاتب الخطاب إمرأة ذات شعر أبيض تغلب عليها البشاشة والرقة. ثم اخذ الوسيط يذكر ماذا كانت المراة تفعل اثناء كتابة الخطاب، ومن كان واقفاً بالقرب منها وما هي صفاته النفسية والخلقية.

يميل اسبورن إلى الظن بأن مقدرة الوسيط هذه تشبه ان تكون من قبيل تناقل الأفكار بين مخين. ففي رأي اسبورن أن الوسيط لم يستخلص المعلومات من الخطاب، إنما هو استخلصها من ذهن اسبورن نفسه[12]. وهذا امر ميسور لكثير من الوسطاء حين يقعون تحت تأثير التنويم الموجه، كما هو معروف.

ويميل الأستاذ تيرل إلى تاييد هذا التعليل. فهو عند ذكره قصة السنيورة ماريا قال بأن السنيورة ربما كانت تستخلص المعلومات من ذهن المنوم الواقف بقربها، وليس من الشيء الذي يوضع في يدها اثناء التنويم. ومما يذكره تيرل في هذا الصدد

أن السنيورة ماريا كانت تتجاوب نفسياً مع المنوم فأي وخز أو احساس يشعر به المنوم كان يصل إليها بطريقة ما فتحس به[13].

تعليل آخر:

من الذين حاولوا تعليل هذه المقدرة النفسية العجيبة كاتب انكليزي اسمه هوبرت ستانسبري. وهو ضابط بحري متقاعد اشتغل في الدراسات اللاسلكية والكهربائية فيما يخص حركات السفن الحربية. وقد الف كتاباً اسماه "في البحث عن الحقيقة"، وهو كتاب لا بأس به من حيث قيمته العلمية.

يقول هذا الكاتب: ان الجمادات قد تستطيع في ظروف معينة أن تتلقى بعض التاثيرات الكهربائية من افكار الشخص الذي يتناولها أو يدنو منها، وهي قد تستطيع كذلك أن تنقل هذه التأثيرات إلى مخ شخص آخر. فالجمادات بهذا الاعتبار تمسي كالبطارية الخازنة، تلتقط الكهرباء تارة وتفرغه تارة أخرى[14].

ويميل سينل إلى تأييد هذا الرأي الذي جاء به ستانسبري. وقد وجد سينل في بعض التجارب التي اجراها في هذا المضمار، ان الفتاة التي كان يجري عليها التجربة قد تعجز احياناً ان تكتشف ما يرسم في ورقته إلا بعد ان تقول له "اسمح لي أن امسك بيدي قلم الرصاص الذي استخدمته". فإذا امسكت بالقلم انجلى في مخيلتها الرسم بشكل واضح. فما معنى هذا؟ الا يعني ان القلم قد خزن شيئاً مما خطر في مخ سينل، ثم نقله إلى مخ الفتاة بعد أن أمسكت به[15].

يبدو أن هذا التعليل وجيه من بعض الوجوه. ولعل الأبحاث الفيزيائية الحديثة تؤيد هذا التعليل قليلاً أو كثيراً. فنحن لو جئنا بأسطوانة صغيرة من مادة الفوسفور مثلاً، ووضعناها بالقرب من مصباح شديد الضوء مدة من الزمن، فإننا نجدها تخزن شيئاً من الضوء الملقى عليها. وإذا وضعناها في الظلام بعد ذلك رأيناها تشع الضوء الذي خزنته. الا يجوز أن تكون كل مادة في الكون هي كالفوسفور تخزن الأمواج الكهرطيسية الواردة إليها ثم تطلقها بعدئذ بشكل غير منظور.

نحن نعرف أن الأمواج الكهرطيسية عديدة ومتنوعة، وليست أمواج الضوء سوى جزء يسير منها، كما اشرنا إلى ذلك من قبل. فما الذي يمنع إذن من أن

تخزن بعض المواد أمواجاً غير منظورة على منوال ما تخزن مادة الفوسفور أمواج الضوء. وما الذي يمنع كذلك ان يدرك بعض الأفراد من أولى الحاسة الخارقة تلك الأمواج الخفية كما ندرك نحن أمواج الضوء، بحيث إذا تناول احدهم قطعة من المادة تاثرت مخيلته بما يصدر عنها من أمواج وصار يرى ما حدث على القطعة من حوادث أو انطبع فيها من أفكار.

من أماني العلماء:

من الأماني التي تراود اذهان بعض العلماء أحياناً ان سياتي يوم على العلم يكون فيه قادراً على اختراع جهاز يمكن به رؤية حوادث التاريخ وسماع أصواتها. إن هذه امنية بعيدة التحقيق طبعاً وربما كانت مستحيلة، إنما هي مما يمكن احتماله والتفكير فيه على أي حال في ضوء الدراسات العلمية الحديثة. فمن المحتمل مثلاً ان تكون جميع الأمواج والذبذبات التي انبعثت من حوادث التاريخ موجودة بيننا الآن، إذ هي لا تزال تتصادم في أركان الفضاء المحيط بنا، وربما اختزن بعضها في الآثار القديمة التي شهدت تلك الحوادث.

لا شك ان الأمواج تضعف بمرور الزمن. ولكنها لا يمكن أن تفنى فناءاً تاماً. وإذا كانت اجهزتنا العلمية في حالتها الراهنة لا تستطيع أن تكتشف الأمواج الضعيفة جداً، فإننا لا يجوز ان نفقد الأمل بمقدرة العلم على اختراع اجهزة أدق منها بحيث نستطيع أن نكتشف بها أمواج الأزمنة الماضية.

لتوضيح ذلك دعنا نتأمل في الضوء الذي يأتينا من النجوم البعيدة. فهذا الضوء قد وصل إلينا بعد أن سار في الفضاء ملايين عديدة من السنين. إن من المحتمل أن تكون إحدى النجوم قد انفجرت واختفت من الوجود قبل بضعة ملايين من السنين، ولكننا حين ننظر إليها الآن نراها لا تزال باقية في مكانها. السبب في هذا أن ضوء انفجارها لم يصل إلينا بعد، ولعلنا نحتاج إلى ملايين اخرى من السنين حتى نكتشف ما حدث لها من انفجار. ونحن سنظل أثناء هذه الملايين المقبلة ننظر إليها ونحسب أنها موجودة في مـانها.

معنى هذا أن النجمة قد صارت حدثاً من أحداث الماضي السحيق في القدم ولكننا

ننظر إليها ونظن انها من احداث الوقت الحاضر، وبعبارة اخرى: إننا حين ننظر إلى النجوم في ليلة صاحية إنما نبصر بعيوننا تاريخ السماء!

إذا كان الأمر كذلك، فهل من المستحيل أن يخترع العلماء يوماً ما جهازاً نستطيع أن نبصر به تاريخ الأرض، ونرى الأحداث الماضية التي حدثت فيها؟

إني اشتهي ان اعيش إلى ذلك اليوم الذي استطيع أن اشتري فيه من السوق مثل هذا الجهاز، فاذهب به إلى المستنصرية مثلاً لأشهد هنالك الغزالي وهو يلقي على تلاميذه محاضرة فلسفية، او اذهب به إلى طاق كسرى لأشهد أنوشروان جالساً على عرشه وهو محاط بالجلادين والجلاوزة.

في قصور فرساي:

لا احب ان انتهي من هذا الفصل قبل ان انقل قصة عجيبة حدثت للآنستين موبرلي وجوردين، وهما من اساتذة جامعة اكسفورد سابقاً. وخلاصة القصة ان هاتين الآنستين زارتا باريس عام 1901 فعرجتا على فرساي. وبينما كانتا تتجولان بين قصور فرساي التاريخية شعرتا بالكآبة وانقباض الصدر، ثم تراءى لهما بعد قليل كأنهما تبصران ماري انطوانيت زوجة لويس السادس عشر بملابسها التقليدية وهي جالسة على شرفة احد القصور. ثم بدات بعض المناظر التاريخية تظهر لهما وكأنهما تعيشان فيها... لم يحدث هذا للآنستين مرة واحدة فقط، بل حدث لهما عدة مرات.

وقد قامت الآنسة جوردين وحدها بعد ذلك بزيارة فرساي مرتين. فمرت بتجارب مماثلة، حيث رات شخوصاً من القرن الثامن عشر وتكلمت معهم. وقالت الآنسة في زيارتها الأخيرة ان المنظر بدا لها كأنه قد مسته هزة مفاجئة قصيرة الأمد فارتج كما ترتج الستارة على المسرح.

وفي سنة 1914 حضر لمقابلة الآنستين ثلاثة رجال، وقد كان هؤلاء قبل ست سنوات يسكنون قرب فرساي ويشرفون على تنسيق حدائقها، فقالوا أنهم رأوا مثل ما رات الآنستان واعتادوا على ذلك ولكن تلك الرؤى أثرت في أعصابهم وأرهقتها فغادروا المكان لأنهم أرادوا أن يعيشوا في القرن العشرين وليس في القرن الثامن عشر[16].

اعرض هذه القصة على القارىء وانا اشعر بالحيرة منها. إنها قد تكون نتيجة وهم سيطر على الآنستين المحترمتين عند تجولهما بين قصور فرساي، ولكنها قد تكون غير ذلك. إن من المحتمل ان تكون لدى الآنستين حاسة خارقة تستطيع أن تلتقط امواج التاريخ من تلك القصور. ولكني اسأل هنا: لماذا ظهرت تلك المقدرة في الآنستين عند تجولهما بين قصور فرساي ولم تظهر فيهما في مكان آخر؟

اعود فأقول ما كنت قد قلته سابقاً، هو اننا لا يجوز أن نحكم في هذه الأمور حكماً قاطعاً. ومن يدرينا ما سوف يأتي به العلم من رأي فيها في مستقبل الأيام.

هوامش الملحق الثالث:

(1) انظر: سينل، الحاسة السادسة، ص 21 .
(2) انظر: عبد السلام فهمي، البساط السحري، ص 8 - 9 .
(3) انظر: Life Magazine, July 22, 1957.
(4) انظر: سينل، الحاسة السادسة، ص 31 .
(5) الرجاء من المرأة أن لا تغضب من قلونا هذا، فنحن نأمل أن تخرج المرأة إلى ميدان الحياة وتساهم في بناء الحضارة مثل مساهمة الرجل فيه. وعند هذا فسوف لا يبقى أي فرق بينها وبين الرجل في طريقة التفكير أو في مستواه. قل: إن شاء الله.
(6) انظر: Sulivan, Outine of Modern Belief, Vol, II, p. 908.
(7) انظر: المقتطف، رسائل الأرواح، ص 22 - 23 .
(8) انظر: مجلة آخر ساعة، بعددها الصادر في 21 / 11/ 1951 .
(9) انظر: سينل، الحاسة السادسة، ص 57 - 58 .
(10) انظر: علي الوردي،خوارق اللاشعور، ج 1 ص 201 .
(11) انظر: Heltinger, The Ultra Perceptive Faculty.
(12) انظر: Obsom, The Superphysical.
(13) انظر: Tkisall, Personality of Man, p. 187.
(14) انظر: Trosbury, In Quest of Truth, p. 187.
(15) انظر: سينل،الحاسة السادسة، ص 113 .
(16) انظر: Joad. Guide to Modern Thought, p. 175 - 177.

الملحق الرابع

ما هو اللاشعور

قد يلاحظ القارىء اني أكثرت في هذا الكتاب من التحدث عن اللاشعور أو العقل الباطن[1]. وكذلك فعلت في مختلف كتبي السابقة، حيث اعتبرت اللاشعور من اهم العوامل في تكوين الشخصية البشرية. وهذا امر لم يرتح له كثير من الكتاب والنقاد في العراق، وقد اتهمني بعضهم بالغلو فيه تارة وبالتخريف تارة أخرى. ولهذا وجدت من المناسب هنا أن ابحث في ماهية اللاشعور كما اراه.

هل هو موضوع ميتافيزيقي؟

يحلو لبعض النقاد في العراق ان يصفوا اللاشعور بانه موضوع ميتافيزيقي. وقد جابهوني بهذا الوصف غير مرة. وليس لي ما اقول في هؤلاء النقاد إلا انهم يتصدون للنقد احياناً دون ان يكون لهم اطلاع كاف في الموضوع الذي ينقدونه. وكثيراً ما نجدهم يتلقفون بعض العبارات من هنا وهناك ثم يتخذونها في ايديهم كالسيوف القاطعة يصولون بها متى شاؤوا، والويل لمن يقف في طريقهم إذ هو يصبح عند ذاك رجعياً أو وكيلاً للاستعمار ـ والعياذ بالله!

ويهون الأمر لو انهم فهموا تلك العبارات التي يصولون بها فهماً حقيقياً. لكنهم مع الأسف يكتفون منها بحفظ نصها الظاهر، وبهذا يضيع عليهم مغزاها الأصيل.

فرويد واللاشعور:

أشرت في الفصل السادس من هذا الكتاب إلى أن فرويد كان أول من لفت الأنظار إلى موضوع اللاشعور. وكان هذا العمل من فرويد نافعاً كل النفع في حينه إذ قد أظهر فيه خطأ العقليين القدماء الذين كانوا يثقون بالتفكير الواعي ثقة عمياء ويجعلونه الأساس الوحيد الذي يقوم عليه السلوك البشري. ابان فرويد أن الانسان لا يسير في سلوكه دائماً بناءاً على ما يمليه عليه التفكير أو الإرادة. فهناك في أعماق النفس حوافز خفية تدفع الانسان نحو عمل ما من غير أن يعرف الانسان مأتاها من نفسه.

لا نستطيع أن ننكر فضل فرويد في هذا الاكتشاف الذي فضح به خفايا النفس البشرية، ولكننا لا نستطيع كذلك أن ننكر التطرف الذي تورط به فرويد في هذا الصدد. كان فرويد ككل ذي نظرية في هذه الدنيا يصيب من ناحية ليخطىء من الناحية الأخرى. انه نظر إلى الحقيقة من زاوية معينة فتعصب لها وافرط في التركيز عليها، وبذلك اهمل ما في الحقيقة من زوايا اخرى متعددة.

ميتافيزيقية فرويد:

حين ندرس نظرية فرويد في اللاشعور نلاحظ فيها شيئاً من النزعة الميتافيزيقية قليلاً أو كثيراً. انه عدَّ اللاشعور بمثابة قوة غيبية تخلق مع الانسان منذ بداية تكوينه دون أن يكون لها سبب موضوعي في واقع الحياة الذي ينشأ الانسان فيه.

ونحن إذ نعترف بوجود النزعة الميتافيزيقية في نظرية فرويد لا يجوز أن نتطرف في ذلك إلى درجة نرفض بها النظرية كلها بجميع ما فيها. الواقع اننا لو جردنا نظرية فرويد من قشرتها الميتافيزيقية لبقي لدينا منها نواة صالحة نستطيع أن ننتفع بها في دراسة الشخصية البشرية نفعاً لا يستهان به.

لو فحص كل واحد منا نفسه وتأمل في تصرفاته المتنوعة لما استطاع أن ينكر وجود حافز غير إرادي في نفسه يدفعه إلى بعض الأفعال والأقوال من حيث لا يشعر. وهذا الحافز قد لا يكون مطابقاً لمفاهيم فرويد، إنما هو موجود بمعناه الفطري في كل إنسان. ونحن قد نطلق عليه اسم "الشعور" او نطلق عليه اسماً

آخر. والتسمية لا اهمية لها في هذا الشأن. الذي يهمنا هو أن ندرك أن وراء عقلنا المفكر عقلاً ثانياً يدفعنا الى اتخاذ سلوك معين نحو الناس والأشياء دون أن تكون لنا إرادة واعية فيه.

معنى هذا اننا نوافق فرويد على قوله بوجود الحوافز اللاشعورية في الانسان، لكننا نختلف معه في تعليل تلك الحوافز. فنحن نعللها بما يقع للإنسان في حياته من احداث وتجارب واقعية، بينما هو يعللها بمفهوم الغريزة أو غيره من المفاهيم التي اعتاد عليها المفكرون في القرن التاسع عشر.

مخزن المخ:

تقع للإنسان في كل يوم من حياته احداث شتى يكاد لا يحصيها عداً. وهو يتلذذ بها او يتألم، وينتفع او يتضرر. ويمر الزمن عليها بعد ذلك فتذهب في طي النسيان ويحسب صاحبها انها زالت من ذهنه الى غير رجعة. وكذلك يحفظ الانسان معلومات جمة فينسى اكثرها ويظن انها اصبحت غير مفيدة له إذ هي في زعمه اختفت من ذهنه اختفاءاً ابدياً.

الواقع ان جميع الأحداث التي تقع للإنسان تؤثر في ذهنه على صورة من الصور، ويبقى تأثيرها كامناً في اعماق الذهن مهما ظن الانسان انه نسيها. وليس النسيان إلا اختفاء الفكرة من العقل الواعي، إذ هي تذهب عند ذاك الى العقل الباطن، وتظل كامنة هناك تنتظر الفرصة الملائمة للظهور. وهي كثيراً ما تظهر في الأوقات التي يتخدر فيها العقل الواعي او ينام ـ كما راينا سابقاً.

لقد اظهرت ابحاث الدكتور بلومنفلد، كما ذكرنا في الفصل السادس عشر، كيف ان المخ البشري يشبه العقول الالكترونية التي اخترعها العلماء مؤخراً، فهو يختزن في اعماقه كل خبرة تطرا عليه. وهنا يجب ان لا ننسى ان العقل الالكتروني يختلف عن المخ البشري بكونه يختزن المعلومات النافعة التي يسجلها العلماء فيه عن قصد وتصميم. أما المخ البشري فهو يختزن جميع الأحداث التي تمر بالانسان، سواء الضارة منها والنافعة. ومن هنا وجدنا اللاشعور يسف ببعض الناس فيجعلهم مجانين او رقعاء، ويسمو بآخرين فيجعلهم عباقرة او اولي مواهب

خارقة. وهذا هو مصداق ما قال الأستاذ مايرز حين وصف النشاط اللاشعوري في الانسان بأنه يحتوي على منجم من الذهب وكومة من الأقذار[2].

ليس من مصلحة الانسان أن ينكر أثر اللاشعور في حياته، إذ هو يهمل بذلك جانباً هاماً من تركيب شخصيته. وهذا الاهمال قد يؤدي به إلى استفحال بعض الالتياثات النفسية فيه من جهة، وإلى ضعف استثمار مواهبه اللاشعورية من الجهة الأخرى.

الروحيون واللاشعور:

الغريب أنه في الوقت الذي نجد فيه بعض الناس يصفون اللاشعور بأنه موضوع ميتافيزيقي، نجد فيه اناساً آخرين يصفونه على العكس من ذلك حيث يعدونه مفهوماً "مادياً" يؤدي إلى الإلحاد.

من طريف ما يذكر في هذا الصدد اني قرات في إحدى المجلات الدينية الصادرة في العراق مقالاً ينعي فيه كاتبه على المسلمين انتشار الأفكار اللادينية بينهم، وهو يطالب وزارة المعارف بتطهير أجهزة التعليم منها. ومن جملة ما طالب به هذا الكاتب المغوار هو تطهير المدارس من نظريات داروين وفرويد وغيرها من النظريات المخالفة للقرآن والدين الإسلامي[3].

وظهر في مصر كاتب آخر ينحو هذا المنحى، اسمه احمد ابو الخير. وقد انثال هذا الكاتب باللوم والنقد العنيف على علماء النفس الذين يقولون بوجود اللاشعور في الانسان. إنه يريد أن يلغي مفهوم اللاشعور ليضع مكانه مفهوم الروح، وهو يعتقد أن التفسير الروحي للظواهر النفسية أقرب إلى المنهج العلمي من غيره[4].

الظاهر أن هناك كثيرين من أمثال ابي الخير في الشرق والغرب. وقد اخذ عددهم يزداد في الآونة الأخيرة لسبب لا يخفى على القارىء اللبيب. ولست هنا بصدد مناقشتهم على رأيهم، إنما أود أن الفت نظر القارىء إلى انهم على الرغم من تظاهرهم باتباع المنهج العلمي فيما يكتبون ليسوا سوى أناس "عقائديين" يسيرون بأفكارهم في ضوء ما تملي عليهم العقيدة الموروثة، ثم يريدون من العلم أن يتبعهم فيها رغم أنفه.

رأي مكدوجل:

وليم مكدوجل من علماء النفس المعروفين. وقد صار له في عام 1908 اسم مدوي عندما حاول ان يضع علم النفس في خدمة العلوم الاجتماعية، وكانت له في ذلك مدرسة خاصة به. وليس من قصدنا هنا أن نبحث في مدرسة مكدوجل النفسية، إنما نريد أن نقول بأن مكدوجل كان من خصوم "اللاشعور" وقد هاجمه مهاجمة عنيفة، وانكر وجوده على النمط الذي جاء به فرويد واتباعه. وقد اتخذ بعض البسطاء آراء مكدوجل حجة بأيديهم حيث حاولوا بها تبيان خطأ نظرية "اللاشعور" من اساسها. ومن المؤسف ان نجد بعض الأساتذة في العراق يجرون وراء أولئك "البسطاء" في هذا السبيل.

يصح القول ان مكدوجل لم ينسف مفهوم اللاشعور من أساسه، إنما هو قد اظهر خطأ المفهوم "الفرويدي" له. انه بعبارة اخرى قد اعترف بما في أعماق النفس من حوافز خفية تدفع الانسان إلى السلوك من حيث لا يشعر بها. استمع إليه يقول:

"إنني اقبل بلا تحفظ الرأي الذي يقول بان كثيراً من الفعاليات الذهنية تحدث خارج نطاق الجهد الواعي منا. ولست امانع من تسمية تلك الفعاليات باللاشعور وإن كنت افضل تسميتها بما تحت الشعور...وهذه الفعاليات لها أهمية كبرى..." (5).

نادرة طريفة:

ارجو ان يسمح لي القارئ ان اقطع عنه سلسلة هذا الحديث لأقص له نادرة وقعت لي في اللحظة التي اكتب فيها هذه السطور. فقد كان امامي وانا مشغول بالكتابة، فنجان قهوة ودواة حبر. وقد بدأت افتح الدواة لكي أملأ منها القلم، ولكني بدلاً من ان اضع القلم فيها رفعتها إلى فمي كأني اريد ان اشرب منها...ولم افطن إلى خطأي إلا بعد ان كاد الحبر ينسكب على فمي وثيابي.

إن هذه القصة قد تعطي للقارئ مثالاً بسيطاً يتبين به كيف يعمل اللاشعور في الانسان. فأنا عندما رفعت الدواة إلى فمي كنت مدفوعاً بدافع شرب القهوة الموضوعة امامي. معنى هذا ان نية شرب القهوة خطرت ببالي اول الأمر ثم نسيتها

بعد أن شعرت بجفاف قلمي الذي أكتب به. ولكن تلك النية بقيت كامنة في عقلي الباطن وهي التي دفعتني إلى محاولة شرب الحبر بدلاً من شرب القهوة.

لا حاجة إلى القول بأن هذا العمل الذي قمت به قد يقوم به أكثر الناس في مختلف شؤون الحياة. وقد لا يقتصر الأمر عندهم على مثل هذا العمل البسيط، بل يكون أحياناً ذا شأن خطير له عواقبه المحمودة أو غير المحمودة. فكثيراً ما يندفع الانسان في عمل وهو يريد غيره لا سيما في الحالات التي يتصادم فيها دافع الشعور واللاشعور. وهو قد يقسم عندئذ بالله على أنه غير متعمد لما فعل، فلا يصدقه الناس!

وقد يسهو الانسان أحياناً فيعجز عن رؤية شيء قريب منه لأن عقله الباطن متجه إلى غيره. وهو يظل يبحث عن ذلك الشيء دون جدوى. يحكى أن إمرأة كانت تحمل طفلها على ذراعها وتبحث عنه، فهي تسأل عنه الناس: أين ذهب؟ والناس لا يدرون أنها تسأل عن الطفل الذي تحمله. سبب ذلك أنها كانت تخاف على ابنها من الضياع. وقد كمنت فكرة الخوف هذه في عقلها الباطن، مما جعلها تتخيل ضياعه على الرغم من وجوده بين سمعها وبصرها.

تجربة بافلوف:

نعود الآن إلى دراسة اللاشعور من حيث طبيعته الموضوعية. ولعل من المجدي هنا أن أتحدث عن التجربة المشهورة التي قام بها الأستاذ بافلوف على الكلب. ففي رأيي أن هذه التجربة ذات مساس كبير بموضوع اللاشعور في الانسان.

خلاصة التجربة أن بافلوف جاء بكلب فثقب فكه الأسفل ثم وصل الثقب بأنبوبة تسمح للعاب أن يتسرب فيها إلى وعاء خاص معد للقياس. وكان بافلوف يحضر للكلب مرة بعد مرة طعاماً لذيذاً في عين الوقت الذي يدق فيه جرساً. والقصد من ذلك أن يكون تناول الطعام مصحوباً برنين الجرس في كل مرة.

وعمد بافلوف أخيراً إلى الاكتفاء بدق الجرس من غير تقديم للطعام. فوجد بأن لعاب الكلب أخذ يسيل مع صوت الجرس. عند هذا استنتج بافلوف القاعدة العلمية المعروفة وهي أن من الممكن لأي مؤثر ثانوي أن يصير مؤثراً أولياً متى

صحب مؤثراً أولياً عدداً كافياً من المرات. وقد أطلق بافلوف على هذه القاعدة اسم "الاستجابة المشروطة" (6).

الانسان والاستجابة المشروطة:

اتضح اخيراً ان الاستجابة المشروطة تصدق على الانسان كما تصدق على الكلب، واصبح في الامكان تفسير كثير من الظواهر النفسية بها.

لنفرض على سبيل المثال ان شاباً من أهل الهيام والغرام اتيح له أن يجتمع بحبيبته في بستان بضعة ايام، فكانت تلك الأيام اسعد فترة في حياته. واتفق أن كان في البستان ناعور ينبعث منه صوت خاص طيلة تلك الفترة. فماذا تكون النتيجة؟ إن الشاب قد ينسى بمرور الزمن تلك الفترة السعيدة التي مرت به، ولكنه مع ذلك يبقى مولعاً بصوت الناعور وبأي صوت آخر له شبه به. وهو قد يطرب للصوت ويهتز له دون أن يعرف السبب فيه. من الممكن القول أن أثر الصوت قد تغلغل في اعماق نفسه وصار يؤثر في سلوكه تأثيراً لا شعورياً لا إرادة له فيه.

إن كثيراً من مظاهر السلوك البشري تجري على هذا النمط، والانسان يقوم بها دون ان يعرف مصدرها في نفسه. فانت قد تشاهد شخصاً ما لأول مرة في حياتك ولكنك تشعر بكراهية شديدة له. وحين تسأل عن سبب هذه الكراهية الاعتباطية لا تستطيع ان تأتي بالجواب الوافي له. الواقع انك تكرهه لسبب مدفون في أعماق نفسك وانت لا تعرفه معرفة واعية.

إن الشخص المكروه ربما كان شبيهاً في ملامح وجهه أو حركاته بشخص آخر كان قد اعتدى عليك أو آذاك في سالف الأيام، فكرهته في حينه كرهاً شديداً وربما حاولت الانتقام منه فلم توفق. ومرت بعدئذ عليك الأيام فنسيت بها حادثة الاعتداء، إنما بقيت تكره اي شيء يذكرك بها.

مثال واقعي:

يحدثنا المرحوم سلامة موسى عن رجل يعرفه انه كان يكره التدخين كراهية بالغة فكان إذا اضطر إلى تناول سيجارة عمد فوراً إلى الماء يغسل يده به. وسبب ذلك أن الرجل كان في طفولته برعاية خادم سمين ضخم، ولم تكن علاقته بالخادم

مرضية لأن الخادم كان يحمله أحياناً إلى المدرسة مرغماً. وكان للخادم بالإضافة إلى ذلك طريقة قذرة في جمع أعقاب السجاير وتدخينها فتنبعث منها رائحة خبيثة تؤذي الطفل حين يحمله الخادم. فلما شب الطفل رسخت في عقله الباطن عقدة الكراهية للتدخين على الصورة التي رأيناها[7].

الانسان والكلب:

كان فرويد يفسر هذه الظاهرة النفسية وأمثالها بأنها ناتجة عن رغبة مكبوتة. أما بافلوف فيفسرها بقاعدة الاستجابة المشروطة كما أسلفنا. وسواء أصح فيها تفسير فرويد أم تفسير بافلوف فإن النتيجة واحدة، هي أن الانسان قد يقوم بعمل ما دون أن يكون له فيه وعي أو تفكير.

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن بافلوف لم يكن قاصداً بتجاربه أن يدرس اللاشعور البشري. إنه كان متخصصاً بعلم الفسلجة وقد درس فسلجة الكلب باعتبارها شبيهة من بعض الوجوه بفسلجة الانسان. وفي الحقيقة أنها كذلك إذ أن الانسان لا يختلف عن الكلب أو غيره من الحيوانات اللبونة من الناحية الفسلجية اختلافاً كبيراً. ولكننا حين نقارن بين الكلب والانسان من الناحية النفسية نجد بينهما فرقاً لا يستهان به. فالكلب لا يملك العقل الواعي والتفكير على منوال ما يملكه الانسان. معنى هذا أن الكلب يندفع باستجاباته المشروطة كما تندفع الآلة الصماء تقريباً، فلا يميز بينها وبين غيرها من الاستجابات العادية. أما الإنسان فهو حيوان مفكر، ولهذا فهو قد يعاني أحياناً شيئاً من الصراع النفسي بين ما يدفعه إليه تفكيره الواعي وما تدفعه إليه استجاباته المشروطة.

فالإنسان حين يكره شخصاً دون سابق معرفة به لا يستطيع أن يندفع بعاطفته هذه اندفاعاً آلياً كما يفعل الكلب. إن عقله الواعي يردعه عن ذلك. وهو يمسي عندئذ في موقف حرج، حيث يصعب عليه أن يهمل نداء العقل من جهة، فيتعرض لغضب الناس واستنكارهم، ويصعب عليه من الجهة الأخرى أن يكبت عاطفته من غير تنفيس.

تجربة جنسية:

أجرى أحد الباحثين تجربة على كلب تشبه تلك التي أجراها بافلوف. فقد أحضر

كلباً نكراً ورباه معه في المنزل وكان يحضر له الإناث للتعارف ويتركه معها ثم يرقبه عن كثب. وإذا هم الكلب ان يستجيب لغريزته الجنسية مع إحدى الكلبات سلط عليه الباحث تياراً كهربائياً مما يجعله يعوي ويهرب. وأعاد الباحث التجربة مرة بعد مرة حتى جاء وقت على الكلب المسكين صار فيه يهرب من كل انثى يلمحها بين الكلاب[8].

إن هذه التجربة على بساطتها قد تساعدنا على فهم الانحرافات الخلقية التي نشهدها في بعض الناس احياناً، ومدى تاثير اللاشعور فيها. فالإنسان قد يميل بطبيعته إلى شيء، ولكنه يصبح كارهاً له بعد ان يمر بتجارب قاسية من شانها تكريه الشيء إليه.

خذ مثلاً الانحراف الجنسي الذي شاع بين الرجال في العهد العثماني عندنا. فنحن نعرف أن كثيراً من هؤلاء الرجال يميلون بطبعهم إلى المراة ولكنهم عاشوا في محيط كانت المراة فيه قذرة جاهلة لا تعرف من دنياها سوى العويل والشكوى، وكان المفروض في الرجل ان يستكبر عليها فلا يجالسها أو يطيل المكوث معها، وإذا اشتهر رجل بالميل إلى مجالسة المراة اتهمه اقرانه بالتخنث ونقص الرجولة.

من الممكن القول بأن هذا الوضع الاجتماعي يشبه ما حدث لذلك الكلب الذي كان معرضاً لهزة التيار الكهربائي كلما اقترب من الأنثى. والرجل الذي يعيش في مثل هذا الوضع يميل إلى التعويض عن حب المراة بحب الغلمان. والمشكلة هنا لا تعدو أن تكون عقدة لا شعورية تؤدي بالرجل إلى التقزز من المراة قليلاً أو كثيراً، وهو حين يفعل ذلك لا يعرف مصدره فيه، إنما هو يندفع فيه بدافع العقدة النفسية التي اورثها المحيط الاجتماعي فيه.

من طريف ما يروى في هذا الصدد ان شاعراً عراقياً من أبناء القرن التاسع عشر اسمه الشيخ صالح التميمي كان يكره النساء ويتقزز من ثرثرتهم وشكل اجسادهن، وقد قال مرة في أحد قصائده يصف صدر المراة بأنه ورم يتلاشى بمرور الزمن[9]. ارجح الظن ان الشاعر قال هذا القول تحت تاثير عقدته النفسية، ولو كان خالياً منها لجاء بقول آخر معاكس له، وعند هذا يصبح صدر المراة في نظره اجمل نتوء خلقه الله وتنقلب ثرثرتها في سمعه كشدو البلابل.

إن هذا هو شان كثير من الناس في مختلف مظاهر سلوكهم وأخلاقهم. فهم

يسيرون فيها تحت تأثير الإيحاء الاجتماعي الذي تغلغل في عقولهم الباطنة، ثم يأتون بعد ذلك بالأعذار والحجج المنطقية لتبرير ما صنعوا.

الآراء والمعتقدات:

لا يقتصر تأثير اللاشعور على مجال الأخلاق فقط، بل هو قد يؤثر كذلك في مجال الآراء والمعتقدات التي يؤمنها بها الانسان وهو يظن أنه توصل إليها بعد تفكير سليم.

خذ مثلاً أولئك المتزمتين الذين يتعصبون لعادة الحجاب تعصباً شديداً ثم يأتون بالأدلة العقلية والنقلية للبرهنة على أن تلك العادة خير حصن لشرف المرأة وعفتها. علة ذلك أن كل واحد منهم قد عاش في مجتمع تشتد فيه عادة الحجاب بحيث صار الناس يصفون المرأة الشريفة بأنها "بنت بيت" لا يسمع صوتها ولا يرى اصبع واحد منها.

إن هذا الايحاء الاجتماعي يتغلغل في النفس، وكلما ازداد تكراره على الانسان اشتد تغلغله في أعماق عقله الباطن. وحين يفكر الانسان بعد ذلك يشعر بأنه حر في تفكيره، إنه لا يدري بوجود الدافع اللاشعوري الكامن تحت سطح تفكيره والذي يدفعه إلى التقزز من كل فكرة تدعو إلى نبذ الحجاب.

التعصب والعقيدة:

ينشأ الانسان عادة في بيئة ذات عقيدة معينة. فهو لا يكاد يفتح عينه للحياة حتى يرى أمه وأباه وأهل بيته وأقرانه يقدسون صنماً أو قبراً أو رجلاً من رجال التاريخ، وينسبون إليه كل فضيلة. وعقل الانسان ينمو في هذا الوضع حتى يصبح كأنه في قالب، وهو لا يستطيع أن يفكر إلا في حدود ذلك القالب. إنه مقيد ويحسب أنه حر. ولهذا نجد كل ذي عقيدة واثقاً من صحة عقيدته وثوقاً تاماً، أما المخالفون له فهم متعصبون ـ تعساً لهم!

أرى أحياناً بعض الطائفيين الذين ورثوا عقائدهم من آبائهم وهم يقولون انهم اعتنقوا تلك العقائد بعد أن بحثوا في مختلف العقائد الموجودة لدى الناس وقارنوا بينها. وقد قرأت لأحد هؤلاء في الآونة الأخيرة مقالة رنانة يقول فيها بكل تأكيد وجزم: أن جميع أصحاب الأديان متعصبون ما عداه وعدا القليلين أمثاله. إن هذا

الرجل، سامحه الله، لا يدري أن أصحاب الأديان الأخرى يقولون عن أنفسهم مثلما يقول. فكل واحد منهم يجول بذهنه بين الأديان فلا يرى ديناً أفضل من دينه. أنه اعتاد عليه منذ نشأته الأولى وبهذا أصبحت جذور العقيدة الموروثة ممتدة في أعماق عقله الباطن، وهي إذن تقيد تفكيره من حيث لا يشعر. وهذا كان من العوامل الرئيسة التي جعلت أكثر الناس يقاومون الأنبياء ويضطهدونهم ويقذفونهم بالأحجار، لا فرق في ذلك بين محمد أو عيسى أو بوذا أو سقراط. ولو كان كاتب المقالة المشار إليها في زمان نبيه لكان من المحاربين له في أرجح الظن.

لقد صدق الجاحظ حين قال: أن آراء الانسان وعقائده ليست إرادية، بل هي مفروضة عليه فرضاً، وانها نتيجة حتمية لكيفية تكوين عقله وما يعرض عليه من آراء. فمن عرض عليه دين فلم يستحسنه عقله فهو مضطر الى عدم الاستحسان، وليس في الامكان ان يستحسن. وهو إذن ليس مسؤولاً عن اعتقاده، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. فمن أصيب بعمى الألوان فرأى الأحمر أسود فلا لوم عليه في ذلك إذ ليس في استطاعته إلا ان يفتح عينه أو يقفلها، اما ان يرى هذا اسود أو احمر فلا دخل له فيه. وكذلك الشأن في المعقولات ....[10].

رحم الله الجاحظ! إنه فطن الى تأثير اللاشعور في الآراء والعقائد قبل الف سنة تقريباً، مع العلم ان كثيراً من ابناء القرن العشرين لا يزالون يجهلونه.

البـراهين والعقيدة:

كان المفكرون القدماء، باستثناء نفر قليل منهم، يحاولون نشر مبادئهم وعقائدهم بوساطة البراهين العقلية وحدها. إنهم يعدون التعصب أمراً طارئاً على العقل البشري إذ هو ينتج عن الجهل وسقم التفكير. ولهذا رأيناهم ينهالون بالبراهين العقلية على كل من يتعصب لعقيدة غير عقيدتهم، ظناً منهم انه لا يكاد يستمع الى براهينهم حتى يقتنع بصحتها ويترك تعصبه القديم. فإذا وجدوه لا يتأثر بها اغتاضوا منه وربما اضطهدوه او قتلوه قربة الى الله.

إنهم يجهلون أن البراهين التي هي قوية في نظرهم قد لا تكون كذلك في نظر غيرهم، والانسان إنما ينظر في البراهين من خلال المعايير اللاشعورية المتغلغلة في عقله الباطن. فليس هناك برهان عام يراه كل الناس كالشمس في رائعة النهار كما

يقولون. ولو كان في الدنيا مثل هذا البرهان لاستراح الناس وأراحوا منذ زمان بعيد.

إنك لا تستطيع أن تقنع أحداً بصحة عقيدة جديدة إلا إذا تمكنت أول الأمر من تغيير معاييره اللاشعورية بحيث تكون ملائمة لتلك العقيدة. وهذا هو ما أدركه المحنكون من دعاة العقائد والمبادىء قديماً وحديثاً، إذ هم يحاولون جذب الجماهير إلى عقائدهم عن طريق الشعائر والاحتفالات، والمواكب والهتافات، أكثر ما يجذبونهم عن طريق البراهين العقلية المجردة. وهم مع ذلك لايهملون أمر هذه البراهين، إنما هم يأتون بها من خلال الشعائر والهتافات فيجعلونها أقدر على التغلغل في أعماق النفس.

كان دعاة العقائد قديماً يستعملون الأدعية والصلوات والشعائر الدينية لترسيخ العقيدة في عقول اتباعهم. أما دعاة العقائد في هذا الزمن فهم يستخدمون الهتافات والتظاهرات والمواكب والمهرجانات. وسواء أكانت هذه أو تلك، فإنها من طبيعة واحدة وذات تأثير متشابه.

طبيعة هذه الأعمال الاجتماعية انها تؤثر في الذهن تأثيراً لا شعورياً عميقاً. فالإنسان حين يشترك فيها يشعر بحرارة العاطفة تسري في أغوار نفسه. وكلما اشتدت الهتافات حول فكرة معينة وتكررت فيها خيل إلى الانسان أن تلك الفكرة اصبحت حقيقة ملموسة يصعب الشك فيها وهو يكاد يراها رأى العين. فإذا أنت تجرأت وجادلته فيها غضب منك واعتبرك أعمى. إنه يرى ما لا ترى!

وقد يحدث لمثل هذا الانسان أن يتحول عن تلك الفكرة التي آمن بها إلى فكرة جديدة. وهو لا يستحي عندئذ أن يعزو العمى إلى الذين لا يتحولون معه عن فكرتهم القديمة.

دافع المصلحة الخاصة:

لا ننكر أن كثيراً من الذين يحاربون الأفكار الجديدة هم من أصحاب المصالح القائمة، فهم يكرهون الفكرة الجديدة مخافة أن تنهار مصالحهم بها. وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم القرآن اسم "المترفين". وهنا نستطيع ان نفهم ما جاء في

القرآن حيث قال: "ما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون" (١١)

هذا ولكن المترفين في كل مجتمع قلة، وقد لا يتجاوز عددهم أحياناً عدد أصابع اليدين والرجلين. أما الكثرة الكاثرة من الناس فهم قد يحاربون الفكرة الجديدة على الرغم من ملائمتها لمصالحهم. والسبب في ذلك أن افكارهم وعقائدهم القديمة قد انغمست في أغوار نفوسهم. ويأتي المترفون بعد ذلك فيرفعون راية الحرص على تلك العقائد "المقدسة"، فيتبعهم بقية الناس فيها كالأغنام.

والمترفون أنفسهم قد يخادعون أنفسهم احياناً من حيث لا يشعرون. فمصالحهم القائمة قد يكون لها جذور فكرية ممتدة في أعماق عقولهم الباطنة وهي إذن قد تحفزهم نحو اخفاء الحقيقة، على انفسهم وعلى الناس، من حيث يظنون انهم مجاهدون في سبيل الحقيقة.

إن الذين حاربوا الدعوة المحمدية مثلاً كانوا فريقين، فالفريق الأكبر منهما هو المؤلف من غوغاء الناس وجمهرتهم الغالبة. وكانت الدعوة المحمدية ملائمة لمصالح هؤلاء الناس، غير انهم كانوا يحاربون محمداً بتأثير الدعاية المضللة التي شنها عليه الفريق الأصغر المؤلف من المرابين والتجار وأهل الجاه. وحين ندرس نفسية هؤلاء نجدهم لا يعترفون بحقيقة الدافع الأصيل لهم في محاربة محمد، بل يزعمون أنهم إنما يكافحونه في سبيل صيانة التراث المقدس الذي ورثوه عن آبائهم. ولعل بعضهم مؤمن بصحة ما يزعم، حيث انطلت عليه الحيلة التي اختلقها هو نفسه. وعند هذا يصبح بلاؤه على المجتمع شديداً إذ اتحد في اعماق نفسه دافع المصلحة ودافع العقيدة معاً. وهو إذن يندفع في قتل الأبرياء وانتهاك الحرمات اندفاعاً طائشاً لا يقف عند حد.

اللاشعور والأخلاق:

بدأت التربية الحديثة تعالج اخلاق الانسان في ضوء نظرية بافلوف التي أجراها على الكلب اكثر مما تعالجها في ضوء المواعظ المجردة التي كان المفكرون القدماء يستخدمونها في دعواتهم الطوبائية.

الانسان حيوان قبل أن يكون إنساناً. وانت حين تنصحه بما يخالف عادته

واستجاباته المشروطة قد يستمع إليك باحترام وقد يقول لك: "احسنت بارك الله فيك" ولكنه يبقى كما كان مثابراً على عاداته القديمة، وهو لا يتردد أثناء ذلك أن ينصح غيره بما نصحته به. إن عقله الواعي يفكر على نمط، بينما عقله الباطن يدفعه نحو نمط آخر وشتان بين النمطين!

اشتكى لي صديق من أخلاق أولاده. فهو قد رباهم في زعمه تربية صالحة. وقد وصف لي تربيته لهم فقال: "كنت أشتد عليهم في النصائح، فلا ادع ساعة تمر دون أن أنصحهم بنصيحة تنفعهم... ولكنهم كبروا مع الأسف على غير ما كنت أريد لهم".

يظن هذا الرجل أن النصائح هي التي تهذب اخلاق الانسان، فإذا امتلأ الانسان بالأفكار العالية اخذ يسلك في الحياة طبقاً لها. وهذا هو ما كان يؤمن به اكثر المربين في الأزمنة القديمة، ولا يزال بعضهم يتبعونه حتى يومنا هذا. إنهم لا يعترفون بوجود شيء اسمه اللاشعور في الانسان. وهم لا يعرفون سوى العقل الواعي حيث جعلوه مصدر السلوك البشري كله. فإذا شذ الانسان في سلوكه عللوا ذلك بوجود نقص في تفكيره واخذوا يمطرونه بالنصائح والمواعظ السامية بغية اصلاحه في زعمهم، غير أنهم لا يجنون من ذلك كله سوى نفخ الرماد!

كان القدماء يعدون "العارف الفاهم" الذي يجمع في عقله كثيراً من المعلومات التقليدية كأنه نموذج الشخصية الكاملة، فإذا قصر في سلوكه عما يأملون منه أظهروا له دهشتهم وقالوا عنه انه يسلك سلوك العوام الذين لا يفهمون. إنهم بعبارة أخرى يجعلون المعرفة المجردة منبع الفضيلة وهم لا يدرون أن المعرفة المجردة لا يتعدى تأثيرها نطاق الأقوال والحذلقات اللفظية، أما الأعمال فهي تقع تحت تأثير آخر هو ما ينبعث من أعماق الشخصية من حوافز غير واعية.

دلت تجارب بافلوف ان الكلب لا يترك عادته تجاه رنين الجرس إلا إذا مر بتجارب جديدة تعاكس في تأثيرها التجارب القديمة التي اعتاد عليها. وكذلك يفعل الانسان، فإنه لا يترك عاداته إلا بعد ان يجد من مجتمعه ما يشجعه على اتخاذ عادة أخرى معاكسة لها. ولهذا وجدنا الناس أخياراً في المسجد لا سيما بعد أن يستمعوا إلى المواعظ الرنانة، ولكنهم لا يكادون يخرجون إلى السوق حتى ينقلبوا إلى

لصوص. وهم لا يجدون في الأمر غضاضة لأنهم لا يلقون من أهل السوق احتقاراً على ما يفعلون.

عود على بدء:

اشرنا من قبل إلى أن الانسان قد يقع أحياناً في مواقف حرجة. فهو من جهة يعيش في بيئة لها مالوفاتها وقيمها الاجتماعية وهو من الجهة الأخرى يحمل في اعماق نفسه رغبات خاصة تخالف تلك القيم والمألوفات فماذا يصنع؟

هناك ثلاث وسائل يستطيع الانسان بها معالجة مثل هذا الموقف الحرج:

1 ـ إنه يحاول قبل كل شيء ان يكبت رغباته الخاصة فلا يظهرها للناس مخافة أن يضحكوا عليه أو يعاقبوه. ولكن تلك الرغبات قد تكون في بعض الأحيان قوية بحيث تفلت من بين يديه من حيث لا يشعر بها، كأن يشرب الحبر بدلاً من القهوة، أو يسلط نظرات مريبة على أرداف حسناء تتغنج أمامه في الشارع.

2 ـ عند هذا يلجأ الانسان إلى حيلة "التبرير"[12]، أي انه يلجأ إلى اصطناع حجة ظاهرية أو عذر منطقي يستر به فعله الشنيع. فهو قد يقول مثلاً أنه شرب الحبر لأنه مفيد للصحة، أو يقول انه نظر إلى بطيخ البقال لا إلى أرداف الحسناء ـ أبداً والله العظيم!

3 ـ وقد ياتي على الانسان وقت يعجز فيه عن كبت رغباته الخاصة، وهي قد تفلت منه بشكل فاضح يعجز هو عن تبريرها. وكلما حاول التغطية عليها وتبريرها ضحك الناس عليه. وعند هذا يجد الانسان نفسه مضطراً إلى اعلان انفصامه عن المجتمع الذي يعيش فيه، فيندفع برغباته العارمة لا يبالي بما يقول الناس عنه. وذلك منه أول خطوة في طريق الجنون!

أشكال التبرير:

إن التبرير الذي يستخدمه الانسان لتغطية دوافعه الفردية يتخذ أشكالاً متنوعة ويكون على مستويات متفاوتة. وكلما كان الدافع أقوى كان تبريره أرفع وأكثر تحليقاً في سماء الخيال والمثل العليا. فالناظر إلى أرداف الحسناء قد يبرر فعله، كما قلنا، بانه كان ينظر إلى بطيخ البقال. اما الذي يحارب فكرة جديدة فهو يبرر فعله بأنه يجاهد في سبيل الله او الوطن أو الأخلاق أو الحق والحقيقة أو ما أشبه.

مشكلة الانسان أنه كلما ازداد معرفة وبراعة في فنون الكلام كان أقدر على التبرير وأكثر استعمالاً له في معاملاته اليومية. وهنا نتبين مبلغ الخطر من أولئك المتفيهقين الذين يحسنون الجدل. فهم لا يختلفون عن غيرهم من الناس بدوافعهم اللاشعورية إلا أنهم يتظاهرون بالمثل العليا يصفعون بها من لا يداري دوافعهم أو يجاريهم فيها.

إن هؤلاء أشد ضرراً على المجتمع من جهلاء العامة. فالجاهل حين يكرهك كرهاً لا شعورياً قد يشتمك أو يصفعك أو يشهر عليك خنجره. أما المتفيهق الجدلي فهو لا يفعل ذلك حين يشعر بالكراهية نحوك، إنما هو لا يتردد أن يشهر في وجهك سيف البراهين العقلية والنقلية، ولعل سيفه هذا اخطر عليك من خنجر الجاهل المصنوع من الحديد.

تجربة بسيطة:

إذا أردت أن تختبر حقيقة الناس ومبلغ تأثير المعرفة الجدلية على سلوكهم فعليك أن تقوم بتجربة عملية بسيطة لا تكلفك سوى قليل من الجهد والمال. مضمون التجربة هو أن تهيء وليمة دسمة تتوافر فيها صنوف متنوعة من المأكولات والمشروبات والملطوعات مما يسيل له اللعاب. ثم تتعمد بعدئذ أن تدعو إلى الوليمة فريقاً من أصدقائك من حيث تهمل الفريق الآخر، والأفضل أن يكون الفريق المهمل من أولئك المتعلمين المتمشدقين بسمو ثقافتهم ونضوج عقلهم. وانتظر بعد انتهاء الوليمة بضعة أيام لترى ما سوف يفعل بك هؤلاء "العقلاء المثقفون".

أرجح الظن أنهم سيضمرون لك حقداً وكراهية عميقة، وسوف لا ينفع فيهم ما تقدم لهم من أعذار عقلية أو براهين علمية. إنهم لا يفهمون العقل والعلم في هذا المجال، كل ما يفهمونه أنك قد أهملتهم واحتقرتهم بينما احترمت غيرهم ممن لا يستحقون الاحترام في زعمهم.

وإذا أردت أن تكون التجربة ذات نتيجة واضحة فكرر القيام بها مرة بعد مرة. وبهذا سوف تجد الأصدقاء قد انقلبوا إلى أعداء، وانقلبت محاسنك في نظرهم إلى

مساوىء. والويل لمن يريد أن يدافع عنك عندهم، فهو يمسي في نظرهم مثلك من الخائنين للوطن أو المارقين عن الدين.

مغزى التجربة:

تلك تجربة بسيطة، ولكنها ذات مغزى نفسي واجتماعي كبير. فهي نموذج لكثير مما يحدث بين الناس من صلات الحب والكره، وظواهر التعاون والتنازع . والناس قد لا يحسون بالدوافع الحقيقية التي تدفعهم إلى ما يفعلون في هذا الشأن، ولعلهم ينسون تلك الدوافع بمرور الأيام لكنهم لا ينسون نتائجها اللاشعورية في أنفسهم. وتراهم يتمشدقون بحب الله والوطن، او بالسعي وراء الحق والحقيقة. ولكن هذا لا يمنعهم من إيذائك أو الكيد لك أو التشهير بك. وإذا سئلوا عن ذلك قالوا انهم إنما فعلوه في سبيل الله والوطن طبعاً!

حدث لي مرة بعد صدور كتاب من كتبي السابقة ان دخلت مجلساً صغيراً من مجالس احد الأصدقاء. فرايت الوجوه متجهمة. ولم يكد يستقر بي القيام حتى انهال بعض الحاضرين ينقدون كتابي نقداً لاذعاً. ثم لاحظت على وجوه بقية الحاضرين انهم يؤيدون ما قال اولئك تاييداً عاطفياً واضحاً. وكنت لحسن الحظ احمل معي في تلك الساعة نسخاً من كتابي الجديد تكفي لجميع الحاضرين. وقد اسرعت باهدائها حالاً مع تسجيل شيء من "الإعجاب" بهم على ظهر كل نسخة مهداة. عند هذا لاحظت ابتشاشاً مفاجئاً يسود الوجوه. وبدأ حديثهم يتجه نحو المديح شيئاً فشيئاً حيث اصبحت في نظرهم استحق التقدير على الجهود العلمية التي ابذلها في خدمة هذا الوطن الأمين!

ارجو أن لا يفهم القارىء من هذا أن الناس كلهم من هذا الطراز فالناس قد يختلفون من هذه الناحية كما يختلفون في النواحي الأخرى. ولكني مع ذلك أستطيع ان أقول بأنه اختلاف في الدرجة لا في النوع. من الناس من تحفزه دوافعه اللاشعورية نحو اقتراف المنكر وانتهاك الحرمات، ومنهم من تحفزه إلى الامتعاض والعتب البسيط. ولكن الناس جميعاً لا يستطيعون أن يتخلصوا من نزعة التبرير تخلصاً تاماً. وهم قد ينكرون ذلك عن أنفسهم حين يتجادلون او يتنازعون. وفي الحقيقة انهم كاذبون، ولعلهم لا يدرون انهم كاذبون.

شخص أعرفه:

أعرف شخصاً مملوءاً بالعقد النفسية على الرغم من ثقافته الواسعة فهو يظن السوء بكل احد، فلا يكاد يلمح حركة من احد حتى يفسرها تفسيراً خبيثاً. ومن النادر له أن يعزو نية طيبة إلى إنسان مهما كان. وهذه صفة تدل على لؤم صاحبها، إذ هو لئيم ويظن أن الناس كلهم لئام مثله.

والظاهر أن هذا الشخص درس موضوع اللاشعور دراسة لا بأس بها، إنما هو لم يجنِ من دراسته هذه فائدة عملية أو يتعلم منها ما ينفعه في حياته. فتراه يندفع في اكثر اعماله تبعاً لما توحي به ظنونه السيئة وعقده النفسية. فإذا جادلته فيها انهال عليك بالبراهين العقلية والعلمية، وربما النقلية ايضاً، ليبرهن بها على أن ما يريده هو الصحيح والواجب الذي ينبغي أن يسير عليه الناس جميعاً. انه قادر على تبرير أي أمر يشتهيه بالبراهين المختلفة. وقد يتفق له أن يشتهي أمراً آخر بعد ساعة، وهو لا يعجز عن الاتيان بالبراهين لتأييد الأمر الأخير ناسياً البراهين المناقضة التي جاء بها قبل ذلك.

ومن صفات هذا الشخص انه لا يقتنع بأي برهان غير برهانه إياه الذي يأتي به في ساعة معينة. فإذا ذكرته ببرهان له سابق مناقض لبرهانه الحالي، عمد إلى الانكار وجاء ببراهين جديدة لتأييد إنكاره. معنى هذا أن حياته الفكرية اصبحت سلسلة من البراهين يتلو بعضها بعضاً... إلى مالا نهاية له.

إنه يريد كل شيء من الناس ولا يحب أن يعطي أي شيء لهم مقابل ذلك، وبراهينه تؤيده طبعاً في كل ما يريد. وكانت نتيجة امره ان صار مكروهاً من قبل أكثر الناس.

لعلي لا أغالي إذا قلت أن كل انسان يحمل في ثنايا نفسه بذرة صغيرة أو كبيرة من هذه الصفة التي رأيناها في صاحبنا. فكل انسان يحمل عقداً نفسية خاصة به، وكل انسان يملك نزعة التبرير لتسويغ تلك العقد. ولكن أكثر الناس لا يندفعون في هذا السبيل اندفاعاً شديداً، لأنهم يدركون بفطرتهم انهم لو فعلوا ذلك في كل حين لنفر منهم المجتمع وأضمر الحقد لهم.

إن الحياة الاجتماعية عبارة عن شبكة من الأخذ والعطاء. ولا بد لمن يرجو

النجاح في حياته أن يداري الناس وأن يعطيهم بمقدار ما يأخذ منهم. أما إذا أصر على التمسك بجميع مطاليبه باعتبار انها المطاليب المعقولة والواجبة، فإن الناس سيجابهونه بمثلها، وبهذا تنقلب الدنيا عليه وعلى غيره جحيماً لا يطاق.

الخلاصة:

نستخلص من هذا الفصل الطويل ان موضوع اللاشعور واثره في حياة الانسان موضوع مهم جدا لا يجوز لنا التغاضي عنه أو التقليل من شأنه. ومن مصلحة كل انسان أن يدرس هذا الموضوع لينتفع به في استثمار مواهبة النفسية من جهة، وفي معالجة عقده النفسية من الجهة الأخرى. ولكن الدراسة لا يجوز أن تكون "حفظية" على منوال ما رايناها في صاحبنا الآنف الذكر. ورب محفوظة تضر وتنفع. ولا خير في معرفة يطبقها المرء على غيره دون أن ينتفع منها لنفسه شيئاً.

هوامش الملحق الرابع:

(1) اللاشعور والعقل الباطن كلمتان مترادفتان في المعنى. ومما يجدر ذكره أن أول من أذاع اصطلاح "العقل الباطن" في البلاد العربية هو المرحوم سلامة موسى. ولكنه في أواخر أيامه ترك هذا الاصطلاح وأخذ يدعو إلى استعمال "العقل الكامن" مكانه بحجة أن الاصطلاح الأخير أقرب دلالة وأصح معنى. فلم تلق هذه الدعوة أذناً صاغية لدى جمهرة الكتاب العرب، بعد أن شاع استعمال الاصلاح الأول بين الناس.

أما أنا فقد اعتدت على استعمال "اللاشعور" و "العقل الباطن" كليهما بلا تمييز، ولست أبالي أن يكون هذا أو ذاك خطأً أو صواباً ما دام القراء قد فهموه وراج بينهم، معنى هذا أني أتبع القاعدة المعروفة "رب خطأ شائع خير من صحيح مهجور".

(2) انظر: Tyrell, Personality of Man, p. 26.

(3) مسكينة وزارة المعارف، فلو أنها استجابت لجميع ما يطلب منها في هذه الأيام لما بقي في مناهج مدارسها شيء من العلم!

(4) انظر: أحمد فهمي أبو الخير، السيكولوجيا والروح، ص 11 - 13 .

(5) انظر: Macdogal, Psychoanalysis and Social Psychology. p. 18 - 19.

(6) انظر: يعقوب فام، المذهب السلوكي، ص 3 - 4 .

(7) انظر سلامة موسى، اسرار النفس ، ص 19 - 92 .

(8) انظر: يعقوب فام، المذهب السلوكي ، ص 6 .

(9) انظر: داود سلوم، الأدب العراقي ، ص 68 .

(10) انظر: أحمد أمين، ضحى الاسلام، ج 3 ، ص 133 - 134 .

(11) انظر: القرآن ، سورة سبأ، آية 34 .

(12) يطلق علماء النفس على حيلة التبرير هذه اسم Rationalzation وهو اسم مشتق من Ration الذي هو العقل .

الملحق الخامس

بين الجنون والعبقرية

وجهة نظر:

في شهر نيسان من عام 1958 القى احد الأساتذة المختصين بعلم النفس محاضرة عامة في قاعة كلية العلوم تعرض فيها إلى موضوع اللاشعور وأثره في سلوك الانسان. ومما جاء به الاستاذ في محاضرته قوله: " ... إن تاثير اللاشعور يتناسب عكسياً مع ثقافة الفرد وصحته النفسية. فكلما كان الفرد مالكاً لعقله وفكره قلّ تاثير اللاشعور على سلوكه. إن قولنا بسيطرة اللاشعور على سلوك الانسان يعني حتماً ضعف تاثير العقل والفكر على سلوكه. وهذا يتفق حتماً مع الملاحظة البسيطة لحياة الأفراد اليومية.

واضاف الأستاذ على ذلك مؤكداً فقال: "نعم، قد يحاول اللاشعور ان يعمل ويظهر في منطقة الشعور. ولكن هناك رقيباً يمنعه. هذا الرقيب هو العقل. وفي الوقت الذي يصبح اللاشعور موجهاً لسلوك الأفراد، في ذلك الوقت نقرأ على الدنيا السلام. في حالة واحدة فقط يسيطر اللاشعور على سلوك الانسان ويوجهه. هذه الحالة هي عندما يكون الانسان مريض العقل" [1].

نقد وتعليق:

هذا هو ما قاله الأستاذ بالحرف الواحد. وهو قول صحيح إذا فهمنا اللاشعور بالمعنى الخاص الذي أسبغه عليه علماء التحليل النفسي. وهؤلاء العلماء، كما لا يخفى، يقصرون مفهوم اللاشعور على العقد والميول والرغبات المكبوتة التي تناقض مفاهيم العقل الواعي، وهي إذن لا تسيطر على السلوك إلا في حالة ضعف هذا العقل ومرضه.

مهما يكن الحال فإننا نستطيع أن نستنتج من قول الأستاذ نقطتين:

الأولى: أن تاثير اللاشعور يتناسب تناسباً عكسياً مع ثقافة الفرد.

الثانية: ان تاثير اللاشعور ينحصر في الجانب السيء من سلوك الانسان، فهو يضر به ولا ينفع.

وقد اتضح للقارىء من الفصول السابقة أني اختلف مع الأستاذ في هاتين النقطتين، ونقلت آراء بعض العلماء الذين يؤيدونني في ذلك. ولست أدري على أي حال من هو المخطىء منا والمصيب.

إني أعتقد، كما ذكرت من قبل، أن الثقافة لا تجدي أحياناً في كبت الدوافع العارمة التي تنبعث من اللاشعور. فالمثقف قد لا يختلف عن زميله الأمي في هذا المجال، ورب ثقافة ساعدت صاحبها على تبرير ما يقوم به من أفعال الحقد أو الحسد أو العنجهية، وهي بذلك تفتح له الطريق ليندفع برغباته المكبوتة ثم يدعي أنه إنما فعل ذلك سعياً وراء الحق والحقيقة.

ذكرت في الفصل السابق قصة ذلك المثقف "العارف" الذي هو مملوء بالعقد النفسية، وهو يندفع بها ثم ياتي بالبراهين لتاييد ما يفعل. وليس هذا المثقف نادراً بين اخواننا المثقفين والأساتذة والمجتهدين الكبار. وربما كان التحاقد والتنافس اللئيم بين هؤلاء اكثر مما هو بين السوقة. ولكن السوقة مفضوحون تظهر حوافزهم اللاشعورية على ملامح وجوههم وفلتات السنتهم. اما المثقفون فهم قادرون على أن يظهروا ما لا يضمرون. إنهم بعبارة أخرى اقدر على تغطية دوافعهم الخفية بوساطة المعلومات "الرائعة" التي ملأوا ادمغتهم بها. ولهذا كان بلاءهم على المجتمع اشد وافظع ـ مع الأسف الشديد.

النقطة الثانية:

أما من حيث النقطة الثانية التي جاء بها الأستاذ في محاضرته السالفة الذكر، فإني أعتقد أن تأثير اللاشعور لا ينحصر في الجانب السيء من سلوك الانسان. في رأيي أن اللاشعور، كما أشرت إليه سابقاً، عبارة عن مخزون كبير يحتوي في أعماقه على أمور ضارة ونافعة في آن واحد. وقد تتغلب الأمور النافعة في نفسية فريق من الناس فتجعله عبقرياً أو ذا مواهب خارقة، وقد تتغلب الأمور الضارة في نفسية فريق آخر فتدفعه نحو الالتياث العصبي أو نحو الرقاعة والجنون.

إن هذا هو رأي كثير من الباحثين والعلماء. وقد جاؤوا فيه ببحوث مستفيضة لا مجال لذكرها هنا. وسوف اكتفي في هذا الفصل بتركيز الانتباه على جانب واحد من هاتيك البحوث وهو الذي يخص أوجه الاختلاف والتشابه بين العبقرية والجنون وكيف أنهما ينبعان من منبع واحد - اللاشعور!

وهنا أرجو من القارىء ان لا ينتظر مني شرح هذا الموضوع الدقيق على منوال ما يجده في الكتب العلمية. فهذا أمر لا أرى فيه كبير فائدة لا سيما وأنا اكتب للقارىء العام وليس للعلماء. وقد اعتدت في جميع كتبي ومقالاتي ومحاضراتي على اتباع طريقة التبسيط والتوضيح والتكرار، وهي طريقة قد لا يرضى عنها بعض الأساتذة بحجة انها تنافي الدقة العلمية. ولكني لا ابالي بما يقولون فيها، إذ هي في نظري انفع للناس من الطريقة الجافة المعقدة التي يتبعها بعض الأساتذة الفضلاء. إني تاجر وهم علماء - والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه!

أسطورة قديمة:

مما يجدر ذكره في هذه المناسبة أن عرب الجاهلية كانوا يعزون الجنون والعبقرية معاً إلى فعل الجن. فالمجنون في زعمهم رجل ركبه الجن وعبثوا بعقله، أما العبقري فهو رجل يستلهم ابداعه من وادي عبقر وهو الوادي الذي كان الجن يسكنونه كما كانوا يقولون.

ولم يكن عرب الجاهلية وحدهم على هذا الزعم، بل شاركهم فيه كثير من الأمم القديمة. ومن هنا وجدنا لفظة العبقرية في لغات الافرنج قريبة من لفظة الجن العربية. فهي في الانكليزية والفرنسية والألمانية: "جينس" أو "جيني" أو ما

أشبه، وهي على اختلاف أشكالها تقابل لفظة "ديمون" الأغريقية ومعناها الشيطنة أو الشيطان[1].

ولم يكتف القدماء بهذا، بل رأيناهم يخلطون بين العبقرية والجنون خلطاً عجيباً، حيث جعلوا بعض المجانين عباقرة كما جعلوا بعض العباقرة مجانين. وقد حدثنا التاريخ عن كثير من العباقرة أنهم اتهموا بالجنون في بداية أمرهم.

مشكلة الناس بوجه عام انهم يتوقعون من كل إنسان أن يكون مثلهم في عاداته وأفكاره. وعند هذا يسمونه "عاقلاً". وهم لا يكادون يلمحون فيه شيئاً من الشذوذ عن مألوفاتهم حتى يسخروا منه ويصفونه بالجنون. إنهم لا يبالون عندئذ أن يكون هذا الانسان مجنوناً حقاً أو عبقرياً. فإذا اتضح لهم أخيراً أن شذوذه كان من النوع العالي، وإنه كان مبدعاً جباراً، تحولوا إلى تعظيمه بعدما كانوا يسخرون منه. والناس يفعلون ذلك مرة بعد مرة على توالي الأجيال دون حياء أو ندم.

من هو العاقل؟

دأب الناس، كما قلنا، أن يطلقوا اسم "العاقل" على كل من يجاريهم في مألوفاتهم وقيمهم الاجتماعية. وقد اعتادت الأمهات منذ قديم الزمان أن يردعن أطفالهن عن كل عمل يخالف العادة الجارية، فإذا قام الطفل بعمل مخالف ضربت أمه على يده وقالت له "عيب"، أما إذا قام بعمل ملائم ربتت على كتفه وابتسمت له ومنحته شيئاً من الحلوى أو النقود مكافأة له.

وعندما يكبر الطفل يلقى من مجتمعه الأكبر مثلما لقي من امه. فالناس يحترمونه على مبلغ ما يجيد من عمل مطابق للقيم السائدة وهم يحتقرونه على ما يخالفها. على هذا تنشأ شخصية الانسان في الغالب، ومن هنا نجد الشخص العادي "عاقلاً" ينظر في الأمور من خلال المنظار الذي صنعه المجتمع له، ولا يحب أن يحيد عنه.

الانسان والخجل:

مما يمتاز الانسان به عن أبناء عمه الحيوانات أنه حيوان خجول. فهو يميل دوماً إلى مراعاة مألوفات الناس وقيمهم، ويستحي أن يخرج عليها لئلا يضحك عليه الناس. وهذا هو الذي جعل ظهور المجتمع بين بني الانسان أمراً ممكناً.

الواقع أن كل انسان يملك في أعماق نفسه رغبات محرمة يحب التنفيس عنها. وهو كذلك يحمل نزعة خفية للتجديد والابتكار قليلاً أو كثيراً. وما دام الانسان يعيش في مجتمع ذي قيم معينة، فلا بد له من ان يجد في تلك القيم مانعاً يمنعه من اشباع بعض رغباته المحرمة وحوافزه العارمة. وهو مضطر إذن أن يكبت تلك الرغبات والحوافز فلا يظهرها للناس مخافة أن يستهجنها الناس منه ويحتقروه عليها.

هنا يجب أن لا ننسى بأن هذه القاعدة ليست عامة أو خالية من استثناء. فقد يظهر في المجتمع احياناً أفراد تضعف فيهم طبيعة الخجل. فهم يندفعون بما ينتفض في أعماق نفوسهم من حوافز لا شعورية. وهذه الحوافز قد تكون سخيفة أو ضارة فيصبح صاحبها مجنوناً، أو تكون ذات معنى وفائدة فيصبح صاحبها عبقرياً.

والسؤال الذي قد يرد في هذا المجال هو: لماذا هذا الفرق بين الناس؟ وكيف يندفع بعضهم في طريق الجنون بينما يندفع آخرون في طريق العبقرية؟

نقطة البدء:

لي صديق كان يزاملني في الدراسة الجامعية. وكان ضعيفاً في الدراسة جداً. مما جعله يترك الجامعة ويرجع إلى بغداد خاسراً كئيباً. ومضت مدة طويلة غاب فيها الصديق فلم أعلم منه شيئاً. وفي يوم من الأيام اخيراً فوجئت بمجيئه إلى بيتي وهو يحمل في جيبه ورقة صغيرة قال عنها أنها تحتوي على اكتشاف فلكي عظيم.

واخذ الصديق يشكو من محاربة الناس له ومن مقاومتهم لاكتشافه العظيم. قال انه ذهب إلى بعض الجرائد المحلية يعرض عليها اكتشافه ويطلب منها أن تنشره على الناس، فرفضت الجرائد طلبه. وهو قد جاءني إذن يرجوني أن أساعده على نشر اكتشافه في الجرائد وغيرها لينتفع به الناس وتنمو به المعرفة البشرية.

نظرت في الورقة فلم أجد فيها سوى بضعة سطور كلها لغو فارغ عن القمر. وتبين لي أن صاحبي مجنون يظن أن هذا اللغو الفارغ اكتشاف فلكي عظيم. فلقد سيطرت عليه عقدة نفسية قوية نتيجة فشله في الدراسة الجامعية. إنه كان يأمل

أن يكون عالماً مشهوراً يشار إليه بالبنان، فلم يوفق في أمله. ودفعه ذلك إلى السعي وراء الشهرة العلمية عن طريق القمر.

إني لا أزال احتفظ بالورقة التي سجل صاحبي فيها اكتشافه. وكلما أعدت قراءتها أدركت كيف تختلط حوافز الجنون بحوافز العبقرية في الانسان أحياناً. فصاحبي يشتهي أن يكون عبقرياً ولكن المعلومات التي تمكنه من الابداع غير موجودة لديه، فاستعاض عنها بمعلومات مزيفة اختلقها لنفسه واعتمد فيها على ما توحي إليه رغبته المكبوتة من خيال عريض.

وحين ندرس العباقرة المعروفين نجدهم يشبهون صاحبي في بداية أمرهم. فهم يحرصون على اكتشاف شيء جديد وينهمكون فيه انهماكاً غريباً قد يدفع الناس إلى السخرية بهم. ولكنهم ينجحون أخيراً فيما يبتغون فتتبدل نظرة الناس إليهم، وينقلبون بين عشية وضحاها من مجانين إلى عباقرة، فيضحك الناس لهم بدلاً من أن يضحكوا عليهم.

قصة اختراع المظلة:

إن المظلة التي نقي بها انفسنا من المطر اختراع عظيم من غير شك. وصاحب هذا الاختراع لا بد أن كان عبقرياً ـ على الأقل في فترة قيامه بالاختراع. وحين ندرس تلك الفترة من حياته نستطيع أن نكتشف بها بعض أوجه الشبه والخلاف بين العبقري والمجنون.

يصح القول بأن مخترع المظلة لم يبتكر مظلته من لا شيء. فهو كأي مخترع آخر لا بد أن تلاحقت في عقله الباطن فكرتان قديمتان حيث نتجت عنهما فكرة الاختراع. والظاهر انه كان يكثر من مشاهدة المارة في الشوارع أثناء سقوط المطر، فلفت نظره أمران. احدهما أن المارة كانوا يرفعون فوق رؤوسهم أي غطاء يقع في يدهم بغية الوقاية من قطرات المطر. والثاني أن بعضهم كانوا بعد انقطاع المطر يحملون بأيديهم العصي يتقون بها الزلق في الوحول. فأومضت في رأس صاحبنا فكرة هي أن يخترع شيئاً يجمع بين العصا والغطاء الواقي. وربما جاءته هذه الفكرة من حيث لا يدري، بعد مشاهدته للمظلات المزخرفة التي كان سلاطين

الشرق يتخذونها في مواكبهم الباذخة. ولكنه استبدل الغطاء المزخرف بغطاء مشمع يمكن طيه ونشره حسب الإرادة.

لا شك أن كثيراً من الناس قد خطر ببالهم مثل هذه الفكرة البديعة. ولكنهم كبتوها في أعماق انفسهم فلم يحققوها فعلاً مخافة أن يضحك عليهم الناس. أما صاحبنا فقد تجرا على اخراج فكرته إلى حيز العمل دون خوف أو خجل، وسار بها في الشارع بين ضحك الناس واستهجانهم.

ليس غريباً ان يتهم الناس هذا المخترع العبقري في اول امره بالجنون، وان يركض الأطفال وراءه يرمونه بالحجارة. وقد قاموا بمثل هذا معه فعلاً. فهو قد خرج على مالوفاتهم. وربما كان الدافع له في ذلك هو رغبته المكبوتة في حب الشهرة. لكنه لم يطلب الشهرة عن طريق التحديق في القمر كما فعل صديقي المجنون، بل طلبها عن طريق الابداع الذي ينفع الناس. فكان بذلك عبقرياً!

ما هو السبب؟

نعود إلى السؤال مرة أخرى: ما هو السبب الذي فرق بين شخصين فدفع احدهما في طريق الجنون ودفع الآخر في طريق العبقرية؟

كان فرويد يعتقد أن الجنون والعبقرية كليهما ينتجان عن رغبة مكبوتة، ولكن المجنون يحاول التنفيس عن رغبته بالأوهام بينما العبقرية يحاول التنفيس عنها بالدأب والابداع المجدي.

ويذهب ادلر إلى مثل هذا في تعليل الجنون والعبقرية، غير أنه يضع عقدة النقص مكان الرغبة المكبوتة. ففي رأيه أن المجنون والعبقري مصابان بهذه العقدة حيث يحاول كل منهما اشباعها بطريقته الخاصة.

مهما يكن الحال فإن هذا الرأي الذي جاء به فرويد أو ادلر لا يحل لنا المشكلة، على الرغم من وجاهته الظاهرة. فنحن لا نزال عاجزين عن إدراك السبب الذي جعل شخصاً ما يلجأ إلى الأوهام في التنفيس عن عقدته أو رغبته المكبوتة، وجعل شخصاً آخر يلجأ إلى الدأب والابداع. لقد ذكر فرويد وأدلر اختلاف الطريقة عند

المجنون والعبقري للوصول إلى هدف واحد، لكنهما لم يذكرا السبب في هذا الاختلاف.

الذكاء والعبقرية:

يميل بعض الباحثين إلى القول بأن العبقري شخص له نصيب من الذكاء عظيم، وهذا هو الذي جعله يمتاز عن المجنون في طريقة التنفيس عن رغبته المكبوتة. إنه يدرك بثاقب ذكائه أن الأوهام لا تجديه في الوصول إلى المجد أو الشهرة بين الناس. وهو فوق ذلك قادر على القيام بالعمل المبدع الذي يساعده على نيل ذلك المجد.

ونحن إذ نريد أن نأخذ بهذا الرأي يجب أن نسأل: هل العباقرة كلهم أذكياء كما يظن القائلون بهذا الرأي؟

لقد دلت الدراسات التي قام بها بعض علماء النفس أن الارتباط ضعيف نسبياً بين حدة الذكاء والعبقرية. وهذه حقيقة قد يعجب منها القارىء، فالشائع بين الناس أن كل عبقري لا بد أن يكون مفرط الذكاء، وهذا رأي مغلوط.

لا ننكر أن بعض العباقرة أذكياء جداً، ولكن بعضهم الآخر ليسوا بأذكياء ـ على الأقل بالمقياس الذي يقاس به ذكاء عامة الناس. فقد تبين من البحث الذي قامت به الدكتورة كوكس، الأستاذة في جامعة ستانفورد، أن كثيرين من العباقرة لم يحظوا بدرجات عالية في اختبار الذكاء(2).

الواقع اننا حين نتصل ببعض العباقرة الكبار، ندرس حركاتهم وسكناتهم، قد نلاحظ عليهم شيئا من الغباء على وجه من الوجوه، وكثيراً ما نراهم يجهلون أبسط الامور أو يعجزون عن فهم بعض المسائل العادية التي يفهمهما كل أحد. وكم حدثنا التاريخ عن عبقري يئس أهله فى بداية امره واعتبروه دون أقرانه في الذكاء.

والسؤال الذي يعترضنا في هذا الصدد: هل إن النقص الظاهر في ذكاء بعض العباقرة هو نقص حقيقي، أم أنه بالأحرى نقص في المقياس الذي اختبرنا به ذكاءهم؟.

المعروف عن مقياس الذكاء الذي يستخدمه علماء النفس عادة انه يظهر الفرق في الذكاء الشائع بين عامة الناس، وهو يعتمد في اختباراته على المعلومات التي يتداولها الناس في الحضارة التي يعيشون فيها. فهل يصلح هذا المقياس لاختبار ذكاء العباقرة الذي ربما كان من نوع خاص بهم؟

المشكلة في كل عبقري انه يختص في ناحية واحدة من نواحي المعرفة أو الفن، وهو ينهمك بها ويكاد يهمل كل شيء سواها. ولعل هذا هو السبب الذي يجعلهم اغبياء في نظر الناس. وعلى أي حال فنحن لا نستطيع ان نفهم علاقة الذكاء بالعبقرية إلا بعد أن نفهم طبيعة الذكاء وهل هو ذو مقياس واحد في جميع الناس، أم انه يختلف باختلاف الفن الذي يبرعون فيه.

العبقرية والالتياث النفسي:

لبعض علماء النفس رأي في العبقرية يلفت النظر. فهم يقولون أنها ليست حالة سليمة من حالات الشخصية، إنما هي مظهر من مظاهر الالتياث النفسي. وهذا هو سبب ما نلاحظه في أكثر العباقرة من سلوك شاذ يدفعهم إلى القيام بأفعال مضحكة تشبه افعال الحمقى او المجانين.

في راي هؤلاء العلماء ان العبقري قد يكون ذكياً من نوع خاص، ولكنه يملك بالإضافة إلى ذكائه التياثاً نفسياً يبعث فيه القلق والتوتر العصبي ويجعله معذباً غير مرتاح من حياته الاجتماعية. يقول الأستاذ كرشمر: أننا لو جردنا العبقري من خمرة القلق الشيطاني والتوتر النفسي لما بقي فيه سوى شخصية عادية لها نصيب من الذكاء. إن الالتياث النفسي في نظر كرشمر يؤدي بصاحبه إلى العجز عن التكيف الاجتماعي، وهذا ما يدفعه إلى مقاومة المجتمع والسعي نحو تغييره عن طريق الابداع[3].

إن هذا الرأي ليس من السهل علينا الأخذ به. فنحن نعرف عن كثير من العباقرة أن لهم شخصية متزنة وسلوكاً مألوفاً، وإذا ظهر على بعضهم شيء من الالتياث والسلوك الشاذ فلا يعني ذلك أنهم جميعاً من هذا الطراز. وربما كان الالتياث المعروف عن بعضهم مبالغاً فيه. فمن طبيعة الناس أنهم يبالغون في رواية

كل خبر يجدون فيه شيئاً من الغرابة لا سيما فيما يخص سلوك العظماء والعباقرة.

ونستطيع أن نقول أيضاً بأن الحوافز اللاشعورية المبدعة إذ تسيطر على العبقري قد تدفعه أحياناً إلى انتهاج سلوك غير مفهوم من قبل الناس. ويميل الناس عندئذ إلى تفسير ذلك السلوك حسب مفاهيمهم الساذجة، وقد يزوقون فيه ويبالغون كما يشتهون.

استعراض واستقراء:

إننا إذ نستعرض هذه الآراء التي أسلفنا ذكرها نجد فيها عيباً لا يستهان به، هو عيب الاستقراء الناقص. مما تجدر الإشارة إليه أن العبقرية ليست من نمط واحد، وقد يكون لها عوامل ومظاهر شتى. والباحث في العبقرية يجب أن لا يركز نظره على نمط واحد منها ثم يعمم استنتاجه على بقية الأنماط.

ليس من الصعب علينا أن نكتشف في فريق من العباقرة رغبات مكبوتة، وفي فريق ثان ذكاءاً حاداً، وفي فريق ثالث التياثاً نفسياً، وفي آخرين عوامل أخرى قد نعجز عن استقصائها. ولكن المشكلة تبقى لدينا من غير حل. فما هو العامل المشترك الذي يظهر في جميع العباقرة فيمكنهم من إبداع الأفكار الجديدة؟

حاول الأستاذ هايلبرونر الإجابة على هذا السؤال. وفي رأيي انه كان موفقاً في جوابه. فقد نشرت له مجلة "مايفير" مؤخراً مقالة جاء فيها أن للعباقرة صفتين أساسيتين نلاحظهما فيهم جميعاً:

أولاهما: قدرة العبقري الهائلة على تركيز الذهن. فالعباقرة بغير استثناء ينهمكون في عملهم بكل جوارحهم، وهم قادرون على ان يحملوا في اذهانهم مشروعاً معيناً سنوات طويلة دون أن ييأسوا. ولا شك أن هذا يدل على وجود تماسك نفساني عميق ومقدرة على حشد جميع الجهود الواعية وغير الواعية لخدمة غرض واحد.

والصفة الثانية البارزة في أعمال العباقرة هي قدرتهم على ملاحظة العلاقة النمطية بين الأشياء. إنهم يستطيعون أن يخترقوا حجب المظهر الخارجي الخامل

للحقائق وأن يعيدوا تصويرها في هيئة قشيبة باهرة. معنى هذا أنهم ينظرون إلى الكون بعين الطفل الفاحصة أكثر من النظر إليه بعين البالغ المرهقة.

إذا صح هذا الرأي الذي جاء به هايلبرونر استطعنا أن نقول بأن العبقري يجمع في نفسه النقيضين. فهو طفل ورجل في آن واحد. إنه طفل في كثرة تساؤله وتعجبه من الظواهر المحيطة به والتي يحسبها الرجل العادي بسيطة لا داعي للاستفهام عنها. ولكن العبقري يختلف عن الطفل من ناحية أخرى هي أنه لا يمل بسرعة. إنه شديد المثابرة والصبر، إذ هو لا يبدأ بمشروع فكري معين حتى يوالي البحث فيه، وهو قد "يفنى" في بحثه حتى يكاد ينسى نفسه وشؤون رزقه وبيته.

تساؤل العبقري:

إن الشخص العادي ميال إلى النظر في ظواهر الكون من غير عجب أو تساؤل. فهو بمجرد أن يعتاد على الظاهرة يعدها بديهية ليس فيها سر غامض. وهو قد يسخر بكل من يسأل عن سرها أو يعجب منها، وقد يعتبره سخيفاً أو مجنوناً.

إنه مثلاً قد اعتاد على رؤية المغناطيس وهو يجذب إليه قطع الحديد. والواقع أن هذه الجاذبية المغناطيسية ظاهرة عجيبة جداً إذ كيف يتأتى لقطعة من المادة الجامدة أن تجذب إليها قطعة أخرى من غير أن تكون بينهما أية واسطة محسوسة. ولكن الشخص العادي لا يبالي أن يسأل نفسه مثل هذا السؤال. وإذا خطر السؤال بباله ذات مرة اخذ يسأل عنه "العارفين" من بني قومه، فيكتفي بما يقولون له ثم ينصرف إلى حال سبيله...

أما العبقري فهو، على خلاف ذلك، لا يفتر عن السؤال ولا يكتفي بما يجيبه العارفون عنه. مزيته انه لا يحب تقليد الناس فيما اعتادوا عليه من أعمال وأفكار. ابغض الأمور إليه ان يكون نسخة طبق الأصل عن غيره من الناس. وهذا هو الذي يجعل العبقري قادراً على اكتشاف حقائق جديدة من ابسط الظواهر المألوفة.

يقال عن نيوتن انه اكتشف قانون الجاذبية اثر سقوط تفاحة بالقرب منه. وهنا أود أن أسأل: كم من الناس شهدوا مراراً في حياتهم سقوط التفاح، فلماذا لم ينتفعوا من ذلك في اكتشاف حقائق جديدة كما انتفع منه نيوتن؟

ويقال كذلك عن غاليليو إذ هو اكتشف قوانين الحركة وسقوط الأجسام بعد تأمله في قنديل معلق من سقف كنيسة وهو يتأرجح يمنة ويسرة. وأنا شخصياً طالما رأيت القناديل تتأرجح من شتى السقوف فلم أجد فيها ظاهرة تستحق الملاحظة، وكنت كأمثالي من عامة الناس اعتبر حركة القناديل أمراً طبيعياً لا داعي للتعجب منه.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن العباقرة الباحثين في الظواهر الاجتماعية والنفسية. فأحدهم دائم النظر في كل ما يتفوه العوام به أو يفعلونه وهو يجد في ذلك منبعاً علمياً لا ينضب وقد يكتشف فيه حقائق جديدة حيناً بعد حين. أما الشخص العادي فهو ينظر إلى الظواهر الاجتماعية المحيطة به دون أن يكترث بها. إنه يراها تتكرر يوماً بعد يوم فيحسبها تافهة لا أهمية لها، بينما هي في نظر العبقري ذات أهمية قصوى.

انهماك العباقرة:

والعبقري لا يكتفي بهذه النظرات العميقة في ظواهر الكون، بل هو، كما أشرنا إليه، ينكب على البحث فيما يكمن وراء الظواهر من أسرار وينهمك فيه انهماكاً شديداً يذهل به عن نفسه.

إن العبقري يستطيع أحياناً أن يذيب ذاته أو يفنيها في الشيء الذي يدرسه. ولعل الذهول المعروف عن العباقرة ليس سوى مظهر من مظاهر فناء الذات لديهم. وهم في ذلك يشبهون المتصوفة الذين يزعمون أنهم عند الوجد يفنون في ذات الله.

إن العبقري لا يفنى في ذات الله كما يفعل المتصوفة، إنما هو يفنى فيما خلق الله في كونه من أسرار. وربما كان في ذلك أقرب إلى الله من المتصوفة.

لست هنا بصدد البحث عن الذات البشرية وكيف يمكن أن تفنى أحياناً في موضوع خارج عنها. فهذا بحث معقد لا مجال له هنا[4]، يكفينا منه الآن أن نقول بأن الانسان العادي يصعب عليه أن ينسى ذاته أو يهمل مصالحه الخاصة في سبيل شيء خارجي. فهو دائم التفكير في نفسه يسعى لرفع شأنها المادي والمعنوي في كل حين. إنه قد يتمشدق أحياناً فيبرىء نفسه من هذه النزعة الذاتية، ولكنه في

حقيقة أمره على النقيض من ذلك، وقد يدوس على كل ما تمشدق به إذا وجده يقف عقبة في طريق مصالحه الخاصة.

وحين نأتي إلى العبقري نجده يختلف في هذا عن الانسان العادي قليلاً أو كثيراً. لا ننكر أن العبقري هو انسان عادي قبل أن يكون عبقرياً، وشخصيته إذن لا يمكن أن تخلو من النزعة الذاتية على أي حال. إنما هو قد يمتاز عن الانسان العادي عندما ينهمك في عمله المبدع. ونراه عندئذ لا يبالي بالخسارة تقع عليه أو بالإهانة تلحقه، وقد يستقبل الموت والعذاب بصدر رحيب.

وهنا نلاحظ شيئاً من التناقض في سيرة العبقري مرة أخرى. فهو حين يرجع إلى شخصيته الاعتيادية قد يهتم بذاته كسائر الناس. ولكنه حين تستحوذ عليه نزعة الابداع ينسى ذاته وما يقتضيه حب الذات من تكالب على متاع الحياة.

يتضح لنا هذا التناقض بوجه خاص إذا درسنا سيرة العباقرة الذين يتخذون سبيل الاصلاح الاجتماعي. فالرجل منهم قد يأتي بمبدأ جديد في الاصلاح. ونراه يذوب في هذا المبدأ وينسى كل شيء سواه، ويبقى مثابراً عليه إلى أن يموت. بيد انه قد تعتريه بعض الفترات اثناء ذلك حين تظهر عليه بعض نقائض النفس البشرية.

العبقري لا يتخلص من أدرانه البشرية تخلصاً تاماً. ولهذا نجده ذاتياً وموضوعياً في آن واحد، كما وجدناه من قبل: طفلاً ورجلاً، غبياً وذكياً، مجنوناً وعاقلاً.

انه بعبارة أخرى مجموعة من النقائض والمفارقات . يعيش مع الناس وهو غريب عنهم. يمشي على الارض وذهنه معلق في السماء!

التناقض والعبقرية:

يقول المنطق الحديث أن التناقض صفة أصيلة في طبيعة الأشياء كلها. فالتناقض سبب التغير في الكون ومبعث القفزات المتتابعة فيه نحو المجهول. والمظنون أن الكائن كلما ارتفع في سلم التطور العام اشتد التناقض فيه على وجه من الوجوه. معنى هذا أن الحيوان اشد تناقضاً من الجماد، والانسان اشد تناقضاً

من الحيوان. وإذا اعتبرنا العبقري أرقى في تكوين شخصيته من الانسان العادي جاز لنا القول أنه أشد تناقضاً منه طبعاً.

مما يجدر الإشارةإليه أن القدماء لم يكونوا يفهمون هذا الرأي أو يستسيغونه. وقد دفعهم ذلك إلى الخطأ في تصوير عظماء التاريخ وعباقرته. إنهم يتخيلون العبقري مخلوقاً كاملاً لا يتطرق إليه النقص ابداً، فإذا سمعوا عنه انه قام بعمل غير مستحسن في يوم من أيام حياته اسرعوا إلى تكذيب ذلك حالاً اعتقاداً منهم ان العبقري لا يمكن أن يقوم به.

وهذا الخطأ لا يزال شائعاً بين كثير من الناس. فهم يحيطون العبقري بهالة من العصمة والكمال. وإذا قدر لأحد العباقرة أن يعيش بينهم توقعوا أن يسير في جميع أعماله وأقواله طبق ما كانوا يتخيلون عنه. وهم لا يكادون يلمحون فيه شيئاً من النقائص البشرية المعتادة حتى يتسرعوا في ثلبه، وربما جردوه من كل نبوغ. والويل للعبقري الذي يعيش بين هؤلاء الناس. إنه يعيش كغيره من الناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولكن الناس يأملون منه غير ذلك باعتباره من العباقرة، ناسين انه بشر قبل أن يكون عبقرياً.

أعود فاقول أن العبقري لا يستطيع ان يتخلص من نقائصه البشرية، ولعل هذه النقائص تظهر عليه أكثر مما تظهر على الانسان العادي. فالانسان العادي ميال الى تقليد الناس في أفعالهم وأفكارهم، ولذا فهو يكبت حوافزه اللاشعورية، الصالحة والطالحة معاً، خوفاً من احتقار الناس له. اما العبقري فهو يكره التقليد ويستهين بالمألوفات الاجتماعية. وكثيراً ما يدفعه ذلك إلى الاندفاع بحوافزه اللاشعورية من غير حياء ـ كما اندفع أرخميدس حين خرج من الحمام وأخذ يركض في الشارع عارياً "ربي كما خلقتني!".

إن الانسان العادي يخضع لعقله الواعي غالباً، وهذا العقل كما اسلفنا ليس سوى تصنيعة المجتمع ونتاج مألوفاته وتقاليده. اما العبقري فقد يصح وصفه بأنه ذو عقلين، إذ هو يخضع لعقله الواعي تارة فنحسبه من أكثر الناس حكمة وتبصراً، ويخضع لعقله الباطن تارة أخرى فنراه عند ذاك مذهولاً كالطفل او سخيفاً كالمجنون.

ومن هنا جاز لنا تصنيف الناس، على سبيل التبسيط والتوضيح، إلى ثلاثة أصناف:

1 ـ صنف يخضع لعقله الواعي وهو العاقل.

2 ـ صنف يخضع لعقله الباطن وهو المجنون

3 ـ صنف يخضع للعقلين معاً وهو العبقري.

فإلى اي صنف من هذه الأصناف الثلاثة يود أن ينتمي القارىء الكريم؟ أرجح الظن أنه يود الانتماء إلى الصنف الثالث.

إنما يجب عليه قبل أن يقرر انتماءه إلى هذا الصنف أن يعلم بانه صنف كثير المتاعب، فليس في الدنيا شيء من غير ثمن. ولا بد دون الشهد من ابر النحل ـ كما قيل في المثل القديم.

العبقري والدأب:

يقول كارليل في تعريف العبقرية انها مقدرة غير محدودة على تحمل الألم[5]. وهو يقصد بهذا ان العبقري يملك طاقة هائلة في البحث وفي الصبر عليه. الواقع أنه كذلك، إذ هو شديد الداب في السعي وراء الحقيقة، يجمع المعلومات ويوازن بينها ويقلب أوجه النظر فيها. ولكنه لا يتخذها وسيلة للحذلقة والتفاخر في المجالس. وهو بذلك يختلف عن أولئك الذين لا يفهمون من دنياهم سوى حفظ المعلومات والعبارات المنسقة يلتقطونها من هنا وهناك ثم يقينونها على الناس دون أن يفهموا منها شيئاً.

كثير من الناس يشتهون ان يكونوا عباقرة، ولكنهم يريدونها لكي يتباهوا بها على الناس. أما العبقري الحقيقي فهو مشغول بهمّه عن الاهتمام بالناس. وهو عند انهماكه في عمله لا يفهم الناس ولا يفهمونه. إنه يخرج أثناء ذلك من عالم المجتمع ليدخل في عالمه الخاص. ولهذا فهو يرى في التفاحة الساقطة أو القنديل المعلق معنى لا يراه غيره. إنه في واد والناس في واد آخر.

العبقري والمجتمع:

وصف شوبنهور العبقري بانه شخص يحاول أن يمحو شخصيته وينكر ذاته في

سبيل أن يرى الحقائق الخارجية كما هي. يقول شوبنهور: إن هذا هو الذي يجعل العبقري نابياً في قومه لأن هؤلاء ينظرون إلى الأشياء من خلال ذواتهم، ولذا ترى العبقري غريباً بين الناس لا يلتقي معهم في وجهة النظر، فهو لا يرى ما هو قريب منه بل يلقي بصره إلى الأفق البعيد النائي. ومن ثم نشأ شذوذ العبقري في المجتمع وعدم مخالطته للناس لأنه يفكر في أصل الأشياء الشامل الخالد، أما هم فيفكرون في الصور المؤقتة الفردية المباشرة فليس بين عقله وعقولهم قدر مشترك تلتقي عنده .إن العقبري يميل إلى العزلة، فليس هو في حاجة إلى العشيرة والرفيق كعامة الناس الذين يعتمدون في حياتهم على ما هو خارج عنهم. فاللذة التي يستمدها من صور الجمال والسلوة التي يلقاها في الفن يمكنانه من نسيان مشاغل الحياة إذ هما يعوضانه عن الألم الذي يزداد في الانسان بنسبة وضوح إدراكه(6).

إن هذا الوصف الذي وصف شوبنهور به العبقرية قد لا يخلو من مبالغة، ولكنه مع ذلك ذو مغزى لا يستهان به، وهو قد يوضح لنا شيئاً من علاقة العبقري بالمجتمع.

من الأقوال المأثورة أن الرجل يكون اجتماعياً بمقدار ما هو ضحل في تفكيره، وهذا القول لا يخلو من صواب كبير. وقد يصح أن نقول أيضاً بأن الانسان كلما كان كثير الاندماج في مجتمعه اشتد ابتعاده عن العبقرية. فالشخص الاجتماعي اللبق الذي يعتاد على حسن المعاشرة ويسعى نحو التحبب إلى الناس وكسب رضاهم يصعب عليه أن يبدع الأفكار الجديدة التي هي من مستلزمات العبقرية. إنه يستطيع أن يكون ناجحاً في حياته الاجتماعية، ولكن النجاح الاجتماعي شيء والعبقرية شيء آخر.

لا ننكر أن بعض العباقرة قد نالوا نجاحاً غير قليل في حياتهم الاجتماعية، ولكن هذا النجاح لم يكن غاية مقصودة منهم، ولعله جاءهم عرضاً بعد أن ادرك الناس عظمة إبداعهم فالتفوا حولهم يحترمونهم ويغفرون لهم كل جفوة تظهر على سلوكهم.

هوامش الملحق الخامس:

(1) انظر: جريدة الشعب البغدادية، في عددها الصادر في 1958/4/30 .

(1) انظر: Encyclopedia of Social Sciences, Art Genius.

(2) انظر: مجلة المختار، بعددها الصادر في كانون الثاني 1958 .

(3) انظر: Encyclopedia of Social Sciences, Art Genius.

(4) بحثت هذه الناحية من أسرار الطبيعة البشرية بشيء من الاسهاب في أحد كتبي المعدة للطبع وهو كتاب "لغزالشخصية البشرية". ولست أدري متى أستطيع نشره؟

(5) انظر: Tyrrell, Personality of Man. p. 36.

(6) انظر: أحمد أمين وزكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ج 2 ، ص 442 - 443 .

الملحق السادس

الجنون والمجتمع

تمهيد منطقي:

اعتاد المفكرون القدماء على تصنيف البشر إلى صنفين اثنين لا ثالث لهما: مجنون وعاقل. فالإنسان في نظرهم اما أن يكون عاقلاً أو مجنوناً، ولا يمكن أن يكون عاقلاً ومجنوناً في آن واحد.

وجرى القدماء على هذا التصنيف الثنائي في مختلف الصفات البشرية. فهم يقسمون الناس فيها إلى قسمين: خيّر وشرير، عادل وظالم، شجاع وجبان، صالح وفاسد، قبيح وجميل... إلى آخره. وهم يضعون بين كل صنف ونقيضه حداً فاصلاً لا يجوز تعديه في الأحكام إذ هم يعتبرونه حداً طبيعياً. فإذا كان الرجل عندهم عادلاً وجب أن يكون كذلك في جميع حركاته وسكناته، إذ لا يمكن أن تظهر عليه اية بادرة من الظلم مهما كانت ضئيلة.

وجدنا هذا واضحاً في كتب الطوائف الاسلامية. فهم إذا ذكروا رجلاً من رجال التاريخ ونسبوا له صفة معينة تعذر عليهم بعد ذلك أن يذكروا عنه أية رواية تدل على خلاف تلك الصفة. وكان من نتيجة ذلك أنهم لجؤوا إلى التأويلات والتعليلات المتكلفة يستخدمونها في جدلهم كل حين.

إن هذا هو ما يعرف في المنطق القديم بقانون "الوسط المرفوع" أو "الثالث

المرفوع" . وهو قانون كان القدماء يعتقدون أنه من الضرورات العقلية التي لا يجوز الشك فيها. وقد تبين الآن خطأ هذا القانون وبعده عن واقع الحياة. فليس هناك صفة محضة في أي انسان بحيث تخلو من نقيضها مهما كان ذلك الانسان كاملاً في زعمنا. لا بد لكل انسان من أن يجتمع فيه النقيضان من كل صفة، غير أن احد النقيضين قد تزداد نصبته فيه من حيث تقل نسبة النقيض الآخر، فنطلق عليه لقباً معيناً. ونحن مع ذلك لا بد أن نتوقع منه صدور ما يناقض ذلك اللقب في بعض الأحيان.

إن المنطق الحديث ترك قانون الوسط المرفوع، واتخذ بدلاً عنه قانون التدريج(Continuum). معنى هنا أن الناس في جميع صفاتهم يختلفون بالدرجة لا بالنوع. فإذا أردنا تصنيفهم وجب أن نضعهم على درجات متتابعة حسبما تكثر أو تقل نسبة إحدى الصفات فيهم.

لتوضيح هذا نأتي بمثال الطوال والقصار من الناس. فنحن حين نجمع عدداً كبيراً من الناس ونضعهم في صف واحد حسب طولهم، نجد رؤوسهم قد اتخذت شكل خط مائل أو درجات متقاربة وبهذا يصعب علينا أن نعين حداً فاصلاً يميز بين الطوال منهم والقصار. فإذا اضطررنا إلى تعيين هذا الحد لغرض من الأغراض العملية، كان ذلك حداً اعتبارياً ليس له أساس من الواقع. فالفرد الذي يقف بجانب هذا الحد الاعتباري قد تعده قصيراً مثلاً بينما هو لا يختلف في طوله اختلافاً كبيراً عن صاحبه الذي يفصله الحد عنه.

بين المجنون والعاقل

أخذ علماء النفس أخيراً ينظرون إلى المجانين والعقلاء بهذه النظرة التدريجية. فليس بين الناس مجنون محض أو عاقل محض. ومن الممكن وضع الناس من حيث الجنون والعقل في صف تدريجي على منوال ما وضعناهم من حيث الطول والقصر. أما الحد الذي اعتاد العامة عليه في التفريق بين المجنون والعاقل فليس إلا حداً اعتبارياً. وكثيراً ما تلعب القيم الاجتماعية دورها في تعيين هذا الحد فتجعل أحد الناس مجنوناً بينما هو في ضوء قيم أخرى قد يكون سيد العقلاء.

وقد نسمع عن رجل من العقلاء انه قام بعمل جنوني لا يقبله العقل أحياناً. فإذا

كنا نحب الرجل أسرعنا إلى نفي هذا العمل عنه. فليس من الممكن في نظرنا أن يقوم الرجل به وهو العاقل المعروف. إننا بهذا لا نختلف عن المناطقة القدماء في إيمانهم بقانون الوسط المرفوع حيث نظن بأن العاقل لا يمكن أن يقوم بعمل جنوني مطلقاً كما أن المجنون لا يمكن أن يقوم بعمل معقول، هذا مع العلم أن كلا الأمرين ممكن. إن الفرق بين المجنون والعاقل هو، كما أسلفنا، فرق بالدرجة لا بالنوع.

إن كل انسان يعيش على هذه الأرض لا بد ان يحمل في أعماق نفسه بذرة الجنون قليلاً او كثيراً. ولكن اكثر الناس قادرون على مداراة هذه البذرة وعلى تغطيتها. وقد تساعدهم على هذه التغطية اموالهم او مناصبهم أو جاههم الموروث. والويل للفقير الذي لا يملك من هذه الأمور شيئاً، فهو يصبح عرضة للإصابة بالجنون المفضوح قبل غيره. وإذا جاز للقدماء ان يقولوا "كاد الفقر ان يكون كفراً"، جاز لنا أن نقول: "كاد الفقر ان يكون جنوناً".

فذلكة علمية

جاء شاب إلى طبيب نفساني يشكو إليه من عقدة نفسية استحوذت عليه وهو يخشى ان يصاب من جرائها بالجنون. وعقدة الشاب انه يحب فتاة حباً جماً وهو يعتقد بأن الفتاة تحبه كذلك. وقد ادى به هذا الاعتقاد إلى اوهام سخيفة جداً. فقال له الطبيب: "...ما دمت تعتقد في باطن نفسك أن الفتاة تحبك وتكتفي بذلك فلا بأس عليك، اما إذا اظهرت هذا الاعتقاد إظهاراً فعلياً واخذت تسلك في الحياة وفقاً له فانت مجنون" (1).

إن هذا القول الذي ادلى به الطبيب يضع في يدنا مفتاحاً نستطيع ان نفهم به طبيعة العقل والجنون، فكل واحد منا قد يتخيل نفسه احياناً كانه جميل تعشقه النساء، او عبقري يشار إليه بالبنان، او بطل يخافه الناس، ولكنه يستحي أن يعلن ذلك للناس جهاراً، ولعله يكتمه ويتظاهر بخلافه تواضعاً. إن رقابة العقل الواعي فيه قوية تمنعه من التظاهر بما لا يرضى عنه الناس. وقد تضعف فيه هذه الرقابة في بعض الفترات، حيث يشرب الخمر مثلاً أو يصاب بالحمى الشديدة، وعند ذلك نجده يعلن ما كان يخفيه. ولكن تلك الفترات مؤقتة تنتهي

بزوال سببها. أما إذا استمرت تلك الفترات وأصبح الانسان فيها لا يبالي بما يقول الناس عنه، فإنه يبدأ بدخول فردوس الجنون شيئاً فشيئاً.

يقول الاستاذ كمبال يانغ: إن الانسان يواجه في حياته عالمين: احدهما داخل ذاتي وهو مؤلف من الحوافز العارمة والشهوات والمطامع والأهداف الخاصة. والآخر موضوعي خارجي وهو مؤلف من القيم الاجتماعية وما يفرض الناس على الفرد من اعتبارات. فالإنسان ذو الشخصية السوية هو من يستطيع ان يوفق بين عالمه الداخلي وعالمه الخارجي. أما الشاذ من الناس فهو الذي يندفع في رغباته الخاصة دون اهتمام بما يتوقع الناس منه(2).

سبب الجنون:

قد يسأل سائل: ما هو السبب الذي يجعل شخصاً معيناً يشذ عن اقرانه في الاندفاع مع رغباته الخاصة إلى الدرجة التي يصير بها مجنوناً؟

ارجو من القارىء ان لا ينتظر مني جواباً دقيقاً في هذا الشأن فلست من الأخصائيين في الطب النفساني حتى استطيع ان اجد الجواب الوافي لهذا السؤال العويص. والظاهر ان الأخصائيين انفسهم لم يتفقوا بعد على تعيين سبب الجنون تعييناً لا اختلاف فيه. ومهما يكن الحال فإني سأحاول في هذا الفصل ان اتحدث عن الجنون من حيث علاقته بالمجتمع الذي ينشأ فيه. فقد اتضح الآن ان كثيراً من الأفراد أصبحوا مجانين تحت وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة بهم. ولو انهم كانوا يعيشون في ظروف اخرى لربما اتيح لهم أن يتخلصوا من مغبة الجنون على وجه من الوجوه.

كان القدماء يعزون سبب الجنون إلى عوامل فردية خالصة وبذا اهملوا العوامل الاجتماعية فيه. وكان ذلك منهم خطأ فظيعاً ادى بهم إلى الاضرار بالمجانين والعقلاء في آن واحد. ومثل هذا كانت الشعوب القديمة تفعل، حيث كانت تعزو الجنون إلى الجن، فالمجنون في نظرها شخص استحوذ عليه الجن، ولهذا كانت تأتي له بالدراويش ليطردوا الجن من راسه، وهم عند ذلك يقرؤون التعاويذ عليه أو يضربونه ضرباً مبرحاً صارخين "اخرج... اخرج"، اعتقاداً منهم ان الجن

ستتركه من جراء ذلك. ولكن النتيجة قد تكون على العكس مما يأملون، حيث تصر الجن على البقاء في رأسه وتعاند فيه عناداً طويلاً.

إن البحوث الحديثة في موضوع الجنون أخذت تتجه اتجاهاً مخالفاً لإتجاه القدماء فيه، حيث بدأت تركز اهتمامها على العوامل الاجتماعية في تكوين شخصية المجنون. إنها لا تنكر وجود عوامل نفسية وفسلجية تعمل عملها في المجنون، ولكن هذه العوامل الفردية لا تؤثر فيه إلا من خلال العوامل الاجتماعية.

لقد بطلت الفكرة القديمة التى كانت تعد العقل البشري جهازاً فطريا قائماً بذاته. ان العقل، كما أشرنا اليه من قبل، صنيعة المجتمع. وسواءً أكان العقل شاذاً او سوياً فهو لايعدو ان يكون نتاج التفاعل الاجتماعي المحيط به في اكثر الاحيان.

وفيما يلي سوف ناتي بأمثلة واقعية من الشعوب والمراحل التاريخية إذ يظهر فيها كيف أن الحد الفاصل بين الجنون والعقل ليس سوى حد اعتباري ينبعث من مالوفات الناس وقيمهم الاجتماعية.

في الشعوب البدائية

حين ندرس القيم الاجتماعية الموجودة في بعض الشعوب البدانية ينقلب لدينا مفهوم الجنون انقلاباً كبيراً. إن من النادر ان يظهر في هذه الشعوب شخص مجنون على النمط المعروف عند المتمدنين. ولو افترضنا ذهاب أحد مجانيننا إلى قبيلة بدائية لربما اصبح فيها كاهناً او ساحراً تاتي على يديه المعجزات.

قد يصح القول بأن من مستلزمات شخصية الساحر أو الكاهن في بعض الشعوب البدائية أن يكون قبل كل شيء شاذاً في سلوكه وأفكاره. ولا تزال بقية من هذا موجودة بين عوامنا حيث نجدهم يحترمون المجانين أحياناً وينسبون إليهم شيئاً من الكرامة أو القدسية. شهدت في بغداد قبل سنوات رجلاً مجنوناً اعتاد ان يركب على مقدمة اية سيارة تمر به، وكان سواق السيارات لا يمنعونه من هذا الفعل الشاذ مخافة ان "يدعو" عليهم فتتعطل سيارتهم عن العمل بسبب دعائه كما كانوا يظنون.

يقول الأستاذ سذرلند ان الشذوذ البدني او العقلي من مستلزمات شخصية

الساحر في الشعوب البدائية، فالساحر لا بد أن يكون مصاباً بهذا الشذوذ على وجه من الوجوه، ويكثر في السحرة التشوه البدني أو البرص او العمى أو الانحراف الجنسي أو القصر المفرط او الالتياث العصبي والهستريا[3].

ويحدثنا الأستاذ باستيد عن إحدى القبائل البدائية وكيف يستطيع الرجل فيها أن يكون ساحراً، إذ يجب عليه أولاً أن يقتل شخصاً ثم يلقي بجثة القتيل في حفرة ويربط نفسه بها حيث يلتصق الجسد بالجسد والفم بالفم، ويبقى على ذلك بضعة أيام من غير أكل أو شرب. إن هذه الرياضة النفسية البشعة تسبب فيه شيئاً من الالتياث العصبي،وعند انتهائها يخرج إلى الناس ساحراً[4]

وتحدثنا الاستاذة بنكت عن بعض قبائل الهنود الحمر أن الذي يريد أن يصير فيها ساحراً أو كاهناً يجب أن يبتعد عن الناس ويتغلغل في الغابات والأماكن الموحشة، وهناك يمتنع عن الأكل ويدخل في رياضة نفسية عنيفة يعذب نفسه بها ويبكي ويرجو من الأرواح الخفية أن تمنحه الرؤيا المقدسة، ويثابر على ذلك أياماً حتى تأتيه الرؤيا فتأمره بان يرجع إلى قومه إذ هو قد منح الموهبة السحرية لشفاء المرضى أو النصر على العدو

في القبائل البدوية:

كانت القبائل البدوية في أيام الجاهلية تنظر إلى الجنون بما يخالف، من بعض النواحي، نظرة الشعوب البدائية إليه. كان يظهر بينهم بعض المجانين فيلجؤون الى معالجتهم بوساطة التعاويذ أو الضرب المبرح. وهؤلاء المجانين كانوا يتخذون لأنفسهم نمطاً من السلوك مخالفاً للقيم البدوية السائدة كان يهذون بالأقوال الفارغة أو يقومون بحركات لا سبب لها ولا معنى فيها . في نظر أقرانهم من البدو طبعاً.

وقد ظهر في أيام الجاهلية نمط أخر من المجانين، لكن القبائل البدوية كانت تنظر إليهم نظرة تقدير ومهابة. وكان هؤلاء المجانين يعرفون في أيام الجاهلية باسم " فتاك العرب " .

كان "الفاتك" الجاهلي شاذاً في سلوكه إذ كان يحمل في أعماق نفسه ميلاً شديداً نحو القتل وسفك الدماء. فهو لا يكاد يرى شخصاً ويشعر بالنفور منه حتى يسرع إلى قتله. يحدثنا التاريخ عن "فتاك العرب" إنهم هجروا قبائلهم واتخذوا

القفار لهم مقراً، وكانت قبائلهم لا تصبر على وجودهم بينها لأنها لا تريد ان تتحمل مغبة الثارات التي تنشأ عن فتكهم المتواصل، ولكن القبائل كانت على الرغم من ذلك تحترمهم وتعتبرهم من الشجعان الأبطال. وقد اشتهر منهم شعراء كبار من امثال الشنفري وتأبط شراً اللذين خلدتهما كتب الأدب العربي واخذت تتناقل قصائدهما العارمة باعجاب!

من طريف ما يحكى في هذا الصدد ان بدوياً سمع عن "فتاك العرب" واراد ان يكون بطلاً مثلهم، فذهب الى احدهم يسأله ان يعلمه "الفتك"، فاجابه الفاتك بقوله: "إذا هممت فافعل". والظاهر ان الرجل لم يفهم الجواب فاعاد السؤال مرة ثانية وثالثة. عند هذا رفع الفاتك سيفه يريد قتل الرجل وقال: "هذا الفتك...هممت بضربك" (6)

أرجح الظن ان هؤلاء "الفتاك" لو كانوا يعيشون في مجتمع حضري لقيدهم الناس بالسلاسل وحجروهم في السراديب، ولربما جاؤوا لهم بالدراويش يضربونهم بالعصا ليطردوا الجن من رؤوسهم.

في التاريخ الاسلامي:

يصح القول بان الاسلام قضى على امثال هؤلاء المجانين "الأبطال" فلم يبق لهم مجال يعيثون به في الأرض فساداً. وظل الأمر كذلك في ايام الخلافة الراشدة، إذ هي امتداد لعهد النبوة. ولكنهم بدؤوا يظهرون من جديد عندما حاول معاوية ان يرجع بالعرب الى سيرتهم الجاهلية الأولى. ويبدو ان معاوية استفاد منهم في بعض حروبه التي اراد ان يرهب بها الناس.

يحكى عن رجل منهم اسمه بسر بن ارطاة ان معاوية بعثه على راس جيش الى الحجاز واليمن، فاقترف هناك الجرائم المنكرة والسفك الفظيع، وكان يتلذذ بذلك، حتى قيل انه كان يقتل الأطفال.

لقد كان الرجل في حقيقة امره مجنوناً وقد وجد في تلك المرحلة الاجتماعية الصاخبة مجالاً يشبع به رغباته العارمة. ولم يظهر الجنون عليه إلا بعدما عجز عن العمل وتقاعد في بيته. يقول المؤرخون انه كان اثناء تقاعده في البيت "يهذي بالسيف"، فكان لا يطمئن إلا إذا امسك بالسيف واخذ يضرب به، حتى اضطر

اهله إلى ان يتخذوا له سيفاً من خشب ويضعوا بين يديه الوسائد، فما يزال يضرب الوسائد بالسيف حتى يدركه الاعياء فيغشي عليه، فإذا افاق عاد إلى مثل ما كان فيه. وما زال هذا دابه حتى مات واستراح(7).

بين الشعوب المتمدنة

لم يخل تاريخ الأمم المختلفة من افراد يشبهون "فتاك العرب" من بعض الوجوه، حيث وجدوا لأنفسهم اعمالاً تلائم جنونهم، ولولا ذلك لكانوا من المجانين المفضوحين. ويكثر هؤلاء في فترات الظلم والاستبداد، فيصيرون جلادين أو سجانين او محققين، وعندئذ ينهالون على ضحاياهم بالتعذيب او القتل، وهم يتلذذون بذلك، ثم يدعُون انهم يقومون به طاعة لأمر السلطان الذي فرض الله طاعته على العباد.

ويكثر هؤلاء ايضاً في الفترات الصاخبة التي تضعف فيها سلطة القانون. فنراهم عندئذ يقودون الغوغاء يحرضونهم على الاعتداء والتعذيب والمثلة. وهم حين يفعلون ذلك يشعرون بالسعادة، إن منظر الدماء وانين الجرحى وعويل النساء تتجاوب مع ما في اعماق نفوسهم من الرغبات المكبوتة.

جنون الملوك

طالما حدث في التاريخ ان يرتقي العرش، في امة من الأمم، ملك مجنون، ولكن رعاياه المساكين لا يعرفون عن جنونه شيئاً. إنه محاط بالخدم والحاشية والوزراء وهم يزينون له عمله ويتزلفون إليه ويمدحونه فيحسب نفسه سيد العقلاء. وإذا خرج إلى الناس احاط به الفرسان وتقدمت بين يديه المواكب وسار خلفه الوجهاء، وينظر الناس إليه فيظنون ان الحكمة قد تجسمت فيه، وهم لا يدرون انه في حياته الخاصة يسلك سلوك الأطفال.

يحدثنا اغا خان في مذكراته عن ملك إيران الأسبق مظفر الدين شاه. فقد قابله الآغا في باريس عام 1900 ثم وصفه بانه كان جاهلاً إلى درجة هائلة، متقلب الأطوار شاذ المزاج بدد ثروة طائلة على البهارج الزائفة حيث كان له ولع صبياني يدعو إلى الرثاء باسخف الحراتيق واغلاها ثمناً مثل الصناديق الموسيقية المطعمة بالجواهر والذهب والفضة، وكان رئيس وزرائه في ذلك الوقت يستغل سلوكه الطفلي لأغراضه

الخاصة، فكان في جلساته الصباحية لا يقدم إليه أية تقارير جدية بل يقص عليه ذلك النوع من قصص الجنيات الخيالية التي يقصها المرء عادة على الطفل الصغير بغية تسليته وادخال السرور والمتعة إلى قلبه.

وسمع الشاه ذات يوم أثناء مكوثه بباريس بأعجوبة الراديوم الذي اكتشفته مدام كوري، فأحب أن يراه. فاستجابت مدام كوري للطلب وجاءت هي وزوجها بقطعة من الراديوم فعرضاه على الشاه في قبو مظلم. ولما رأى الشاه البريق الساطع ينبعث من الراديوم فيعم أرجاء القبو، انتابته نوبة ذعر شديد وأخذ يركض في القبو وهو يزعق ويهذي ويتهم مدام كوري وزوجها بمحاولة قتله[8]

يعلق آغا خان على هذه القصة فيشير الى أنها ليست بالقصة النادرة في تاريخ الملوك الذين يرثون العرش عن آبائهم. ففي جميع الأسر الحاكمة التي حدثنا عنها التاريخ نشهد في بدايتها مقداماً ذا شخصية قوية، وهو يؤسس الملك لكي يسلمه بعد موته إلى ذرية ضعيفة عاجزة تحيط نفسها بهالة مقدسة. وتظل الذرية تحكم الناس بسخافاتها وحمقها حتى ينهار حكمها بعد زمن يطول ويقصر، فيظهر من بعد هذا رجل جديد ليؤسس أسرة حاكمة جديدة... وهكذا تتوالى الأسر الحاكمة على عروش الأمم مرة بعد مرة.

إن هذا الرأي الذي جاء به آغا خان لا يخلو من صواب كثير. والظاهر أنه اقتبس الرأي من ابن خلدون[9]. والغريب أن آغا خان، إذ يقول بهذا الرأي في تبيان مثالب الأسر الوراثية، ينسى أنه نفسه من أبناء أسرة وراثية، وقد اعترف في مكان آخر من مذكراته كيف أنه نصب إماماً على طائفته وعمره ثمان سنوات[10]، وكان أبوه من قبل إماماً كما كان أجداده كلهم أئمة "سلام الله عليهم".

ليس هناك فرق بين أن يكون الوارث ملكاً أو إماماً. فما دام قد نشأ في بيت أبيه المترف وهو محاط بالخدم والمتزلفين يؤيدونه في كل ما يشتهي ويبدون إعجابهم بكل كلمة ينطق بها وبكل حركة يقوم بها، فإنه لا بد أن يتمادى في غيه فيكون ظالماً أو مجنوناً وهو يحسب نفسه ظل الله على عباده!

إن هذا هو الذي جعل المسلمين الأولين يستبشعون عمل معاوية حين بدل الخلافة الراشدة إلى ملك وراثي. وقد وقع فعلاً ما كانوا يخافون منه حيث صعد إلى

عرش الخلافة عن طريق الوراثة كثير من الظالمين والمجانين من أمثال المتلذذ بأمر الله هارون الرشيد.

هارون الرشيد

انخدع كثير من الناس بهذا الرجل وجعلوه من أكثر الملوك حكمة وأعظمهم عدلاً، بينما كان في حقيقة أمره ظالماً ومجنوناً في آن واحد.

يحدثنا التاريخ عنه فيقول أنه كان في بعض الأحيان يضحك ويمزح،ويطرب ويتلذذ، ثم ينقلب فجاة، لا سيما إذا سمع موعظة أو شعراً في الزهد، فياخذ بالبكاء والصراخ خوفاً من الله. لو فعل هذا رجل من أبناء الفقراء، وكرره مرة بعد مرة، لضحك الناس عليه وقذفوه بالأحجار، ولربما صار من جراء ذلك مجنوناً مقيداً بالسلاسل.

قال صاحب الأغاني: "كان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة، واشدهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة" . وقال غيره: "إن هارون الرشيد كان متديناً شديد التقوى يصلي في اليوم مئة ركعة، غضوباً يسفك الدم لغير ما سبب، وطروباً يملك الطرب عليه نفسه ومشاعره، وهذه صفات ليس من السهل اجتماعها كلها في صعيد واحد وشخص واحد" (١١)

يرى بعض المؤرخين أن اجتماع هذه الصفات المتناقضة في شخصية الرشيد من إمارات الفروسية وحدّة العاطفة. ولكني أسأل هؤلاء المؤرخين: لو أنهم شهدوا هذه الصفات في البقال المجاور لبيتهم أو في الحمال الذي يحمل أمتعتهم، فهل يفسرونها على منوال ما فسروا صفات الرشيد؟

الواقع أن هذه الصفات المتناقضة قد توجد لدى كثير من الأفراد العاديين، إنما هم يحاولون كبتها في أنفسهم والستر عليها مخافة أن يستهجنها الناس فيهم، وإذا عجزوا عن كبتها أصبحوا عرضة للسخرية والاضطهاد، وربما أدى ذلك بهم في نهاية المطاف إلى الجنون. هذا مصداق ما ذكرناه سابقاً وهو أن الظروف الاجتماعية المحيطة بالانسان لها دخل كبير في وضعه في قائمة المجانين أو في قائمة العقلاء.

التناقض والجنون:

إن التناقض، كما ذكرنا في الفصل السابق، موجود في كل إنسان وهو في العبقري اكثر مما هو في الرجل العادي. وهنا يجب ان نذكر بان المجنون كثير التناقض كالعبقري لكن هناك فرقاً كبيراً بين تناقض العبقري وتناقض المجنون.

العبقري يؤلف من صفاته المتناقضة جهازاً للابداع. فهو يجمع في نفسه مزايا الشعور واللاشعور، أو مزايا الموضوعية والذاتية، ويستخدمها معاً للتوصل الى الفكرة الجديدة. اما المجنون فالموضوعية ضعيفة فيه كل الضعف، إذ هو لا يستطيع ان يفهم الواقع فهماً صادقاً، ولهذا نراه يندفع بحوافزه اللاشعورية العارمة من غير رادع. ومن هنا يظهر التناقض عليه.

معنى هذا ان التناقض في المجنون ينبعث من نزعته الذاتية الشديدة، فهو يسير في سلوكه حسبما تملي عليه عقده النفسية وشهواته الآنية وهو لا يبالي أن يفعل الآن عكس ما فعله قبل ساعة.

اكتشف العلماء مؤخراً نوعاً من الجنون اطلقوا عليه اسم "الجنون السيكوباثي" . وصاحب هذا الجنون يمتاز عن غيره من المجانين بكونه عاقلاً وذكياً فيما يتصل بمصلحته الخاصة، وكثيراً ما يكون مجاملاً بشوشاً حسن المعاشرة، وهو لا يختلف بهذا عن الذين نسميهم بالعقلاء، لكن فيه نقطة ضعف فظيعة هي قلة التماسك في شخصيته من الناحية الزمنية. فهو قد يستقرض منك مبلغاً من المال على ان يرجعه إليك بعد ساعة، ثم تمضي الساعة والساعتان وعشرات الساعات دون ان يشعر باهمية وعده. ولعله يقابلك بوقاحة عجيبة كانه لم يستقرض منك شيئاً ولم يعدك بالوفاء. فإذا سألته عن سبب هذا العمل الشائن ابتسم لك ابتسامة بلهاء وقال: "لا بأس، ساعطيك المبلغ بعد ساعة، انتظرني حتى آتيك" ، ثم يذهب من غير رجعة.

إن الشخص العادي لا يستطيع ان يقوم بمثل هذا العمل وهو مطمئن، فإذا عجز عن الوفاء بما وعد به مثلاً شعر بالخجل على الأقل. إنه قادر ان يفهم شعور الغير نحوه ونحو مواعيده. اما الشخص السيكوباثي فهو لا يشعر بالخجل الى درجة مذهلة[12]. إن انانيته قائمة بذاتها لا يهمها نظر الغير إليها.

يقول الاستاذ جرجيس: "إن حياة السيكوبانيين تدور في نطاق القيم القصيرة الأجل ووفقاً لها. فهم يجرون في حياتهم على مبدا اللذة، لأنهم يشعرون دوماً بالحاجة الملحة إلى إرضاء إندفاعاتهم ورغباتهم على وجه عاجل، ويعجزون عن إتباع هذا الإرضاء العاجل للذات اكثر بقاءاً. ومن المرجح ان ذلك يرجع الى ان النضوج والبلوغ والتوافق الاجتماعي تتوقف، إلى حد ما، على قدرة الفرد على تضحية لذاته المؤقتة في سبيل القيم البعيدة او الباقية. والسيكوباني يؤثر اللذة العاجلة على الرغم من انه يعرف انها تهدم القيم الباقية للصحة والحياة الأسرية والعمل المهني..." (13)

ويصف الأستاذ سلامة موسى السيكوبانيين: "إنهم غارقون في ذاتية مسرفة. فشعارهم انا. انا. انا. يبغون النجاح واحياناً يتفوقون. وليس للغير اية مكانة في حسابهم وهم على استعداد لأن يدوسوه" (14).

يصح القول ان هذه الذاتية المسرفة هي صفة جميع المجانين، غير أن الشخص السيكوباني يستطيع ان يغطي عليها آنياً ببشاشته ومجاملاته فيحسبه الناس عاقلاً بينما هو مجنون. وقد يحاول بعض الناس اصلاح الشخص السيكوباني عن طريق الموعظة فيقولون له مثلاً: "إن الوفاء من الخصال الحميدة التي امر الله بها" . والسيكوباني يصغي إليهم بتأدب ويوافقهم على صحة ما يقولون له، وقد يأتي لهم بمواعظ مماثلة وقرائن مؤيدة. والظاهر انه مخلص في قوله، لكن اخلاصه لا يتعدى اللحظة التي يتحدث فيها، فلا تكاد تاتيه لحظة اخرى حتى ينقلب هو إلى شخص آخر تبعاً لرغباته الآنية الجديدة.

انقلاب المقاييس:

مشكلة الشخص السيكوباني هي كمشكلة غيره من المجانين حيث يكون للظروف الاقتصادية والاجتماعية دخل كبير في تخفيفها او في تضخيمها. فالشخص السيكوباني قد يكون غنياً أو ذا جاه وسلطان وعند هذا يجد الناس له عذراً فيما يفعل، وقد يعدون افعاله المتناقضة من علامات العبقرية والعظمة.

رأيت أحد أولادي ذات يوم وهو يقرأ في كتاب للمطالعة اعطي له في المدرسة، وكان الكتاب يحتوي على فصل عنوانه "عظمة الرشيد" والأدهى من ذلك اني

سمعته يتغنى بنشيد "بغداد يا بلد الرشيد!"[15]، فادركت عندئذ كيف أن الترف والعرش الموروث والمظاهر الباذخة تستطيع أن تجعل من المجنون عبقرياً ومن الشخص السيكوبائي عظيماً.

رأينا كيف كان الرشيد، رضي الله عنه، غريب الأطوار، يشتد في الطرب حتى تخاله مستهتراً ثم ينقلب فجاة فيجهش في البكاء زهداً وتقوى. وهو يشتري بأموال الأمة ثلاثة آلاف جارية ثم يغمى عليه من خشية الله. وهو يصلي في اليوم مئة ركعة ثم يسفك الدم لشيء لا يستحق سفك الدم[16]

إذا لم يكن الرشيد مجنوناً فهو على الأقل كان شخصاً سيكوبانياً، ولكنه كان في الوقت ذاته أمير المؤمنين وظل الله على العالمين!

الوجاهات المزيفة:

لعلني لا أغالي إذا قلت أن كثيراً من الوجهاء الذين يعيشون في العهود السلطانية هم من طراز الرشيد. فهم يحملون في أعماق أنفسهم بذرة جنون قوية ولكن وجاهتهم المزيفة تستر عليهم. إنهم قادرون على تغطية تناقضهم السافل بالفخفخة المصطنعة وشموخ الأنف، وإذا تكلموا حاولوا أن يتخذوا لهم لهجة فخمة ذات رنين. فيستمع إليهم الناس ويحسبون أنهم من أرباب الدهاء والنظر البعيد.

عرفنا من أمثال هؤلاء عدداً لا يستهان به في العهد البائد وفي العهود السلطانية السابقة له. فقد أتاح لهم الوضع الشاذ أن يتسنموا المناصب العالية أو المقامات الاجتماعية المحترمة، وأعتاد الناس على مهابتهم والقيام لهم في كل مجلس. وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت أزمة الأمور أحياناً في أيدي مجانين.

من خصائص العهود السلطانية بوجه عام أن الناس فيها يقدرون عظمة الرجل بما يملك من مظاهر باذخة وميل للاستكبار والفخفخة. ولا تزال بقية من ذلك شائعة بين كثير من الناس حتى يومنا هذا، فهم لا يحترمون إلا من كان مصعر الخدين عظيم الكرش يخرج الكلام من انفه. فإذا رأوه مسكيناً متواضعاً احتقروه وجردوه من كل مزية. وهم بعملهم هذا يظلمون أنفسهم من حيث لا يشعرون. فكم من عبقري ضاعت عبقريته من جراء ذلك، وكم من مجنون أصبح عندهم زين العارفين.

كان في العهد البائد شخص يعد من الأساتذة الكبار. وكانت الدولة كلها معجبة بعبقريته توكل إليه المهام الجسام. فمحطة الإذاعة تكاد تذوب هياماً به وتقديراً لأحاديثه الرائعة، ووزارة المعارف الجليلة "تموت" عليه. أما جو الكليات والمعاهد العالية فقد ساده الهدوء أصغاءاً لما يخرج من بطن الاستاذ من أفكار جديدة. وقد أتيح لي أن أدرس هذا الرجل الجبار فلم أجد فيه من مزية سوى أنه اعتاد أن يخرج الكلام من أنفه، وقد كان له لحسن الحظ أنف عظيم!

الجنون والرقاعة:

ما دمنا نتحدث عن الجنون وأنواعه المختلفة فلا بد لنا من أن نتحدث عن الرقاعة، إذ هي في نظري ليست سوى نوع خفيف من الجنون، وهي قد تؤدي ببعض الناس أحياناً إلى جنون صارخ حين تقسو عليهم الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

الرقاعة تتمثل عادة بالأقوال والأفعال "الفطيرة" التي يتقزز منها الناس، ولكن صاحبها يظن أنها خير ما يمكن أن يفعله انسان فهو ياتي مثلاً بالنكتة الفطيرة ويكون أول الضاحكين لها، وقد يشتد في الضحك حتى يخيل إليه ان الضحك قد ساد الحاضرين بينما هم قد ضحكوا عليه بدلاً من الضحك معه.

من الممكن أن نقول مثل هذا عن مختلف الأقوال والأفعال التي يقوم بها الرقعاء. ويشتد البلاء على الناس حين يكون هؤلاء الرقعاء من اصحاب العروش المورثة أو الثروات العريضة أو الوجاهات المزيفة.

ومن بلايا الرقاعة أنها قد تكون معدية. فإذا كان السلطان، وهو رأس المجتمع، رقيعاً، أخذ الوجهاء والقواد والوزراء يحتذون به قليلاً أو كثيراً. إنهم قد وصلوا إلى مكانتهم "العالية" عن طريق التزلف للسلطان وتمجيد افعاله وأقواله الرقيعة، وهم لذلك يتوقعون من أصحابهم وحاشيتهم ان يعاملوهم على منوال ما عاملوا هم به سيدهم السلطان "عز نصره". وتصبح عادة التزلف إذن تقليداً اجتماعياً عاماً يعامل به كل فرد من هو اعلى منه مقاماً. وبهذا تنتشر الرقاعة بين الناس انتشاراً فظيعاً. وتقع معرة هذه الرقاعة العامة على الطبقة السفلى من الفقراء والمساكين.

إنهم يجب أن يجدوا عذراً لكل عمل رقيع أو ظالم يصدر من الطبقة العليا، أما أعمالهم فيجب أن يتحملوا وزرها كاملاً غير منقوص.

أوزار الفقيـر:

الفقير في العهود السلطانية يجب أن يتحمل أوزار الدنيا والآخرة معاً. إنه لا بد أن يدخل النار في الآخرة من جراء ذنوبه الكثيرة، وهو في دنياه محتقر محروم. وعادة الناس في العهود السلطانية أن يحاسبوا الفقير على جميع حركاته وسكناته. إنه مفضوح أمام ابصارهم بملابسه الرثة وشكله الدميم، فلا يكادون يلمحون فيه شيئاً قليلاً من الرقاعة او التناقض حتى ينهالوا عليه بالتقريع والسخرية. إنهم يستلذون بنصب "القايش" عليه وتدبير "المقالب" حوله.

والناس إذ يفعلون ذلك مع الفقير، لا يجرؤون على فعله مع الغني لا سيما إذا كان جميل المحيا أنيق المظهر. فإذا تكلم هذا الغني قالوا له "أحسنت بارك اله فيك". ولا يكتفون بذلك بل نراهم يلتفتون إلى الفقير الجالس معهم فيوبخونه قائلين له "لماذا لا تتكلم ويلك مثل هذا الرجل العظيم؟!" والفقير ساكت لا يدري بماذا يجيب، إنه قد جاء بخير مما جاء به الغني المحترم،إنما هي الثروة قبحها الله، قد تخلق من الحمق حكمة ومن الخطل اصالة.

إن الفقير الذي يعيش في مثل هذا المجتمع لا بد أن يكون عرضة للإصابة بالجنون قبل غيره. وهذا هو الذي جعل اكثر من في دور المجانين عندنا من الفقراء وأصحاب الوجوه الكالحة.

اعرف مجنوناً كان في بدء امره شاباً سوياً ولكنه كان دميم الخلقة فقيراً. فهو يريد أن يكون محبوب النساء كشأن غيره من الشبان. واخذ اصحابه يدبرون له "المقالب" في هذا الشأن حيث يكتبون له الرسائل الغرامية على لسان الفتيات، وهو يصدق بها ويبني عليها الآمال العراض.

إن أصحابه يحبون أن يرفهوا عن أنفسهم بالضحك عليه. وكلما اشتد الضحك عليه ازداد هو من جانبه تحليقاً في الأوهام وجميل الأماني. وانتهى المطاف به أخيراً أن صار يتخيل نفسه كأنه يوسف الصديق في الجمال وأن الفتيات يقتلن انفسهن هياماً به. وعندما تمادى اصحابه في الضحك عليه واخذوا يؤذونه ويعتدون عليه،

ظن أنهم يحسدونه على جاذبيته الجنسية. ولم يجد علاجاً لحسدهم إلا بأن يشهر عليهم الساطور يهددهم به. واشتهر بينهم بأنه "بطل الساطور" ... إنه اليوم مقيد بالسلاسل في سرداب مخافة أن يقتل أحداً بساطوره البتار. وقد صدق من قال أن المجتمع قد يصنع قاتليه بيده!

لو كان هذا الشاب من أبناء الأغنياء لوجد في حياته الواقعية ما يشبع رغباته الجنسية المكبوتة، ولربما عثر بين الفتيات من ترضى به عشيقاً، ثم يأتي إليه المتزلفون يزينون له جماله "اليوسفي" . ولعله عند ذلك سوف لا يجد سبباً كافياً لأن يكون مجنوناً.

الجنون والظروف العائلية:

للظروف العائلية تأثير كبير في تكوين شخصية المجنون. وربما كانت هذه الظروف أقوى أثراً فيه من الظروف الاجتماعية العامة. وقد فطن إلى ذلك أرباب التربية الحديثة واهتموا به اهتماماً بالغاً.

خذ على سبيل المثال طفلاً ينشأ في عائلة فقيرة، ويريد أهله منه أن يدخل المدرسة وأن يصير كغيره من أبناء الناس موظفاً كبيراً أو طبيباً مشهوراً أو مهندساً ناجحاً أو ما أشبه. والطفل المسكين قد لا يجد في نفسه المؤهلات التي تجعل منه تلميذاً ناجحاً، وربما كان من الخير له أن يكون عطاراً أو نجاراً أو بائع احذية، ولكن أهله لا يقبلون منه ذلك أبداً. إنهم يريدون أن يكايدوا به الحساد وأن يرفعوا به رؤوسهم بين الناس على منوال ما فعل أهل فلان أو فلانة.

مما يجدر ذكره أن الطفل الذي يولد في عائلة غنية قد يستطيع أن يصل إلى ما يطمح إليه من منصب رفيع أو مهنة محترمة. إن طرق الوساطة والرشوة وغيرهما مفتوحة بين يديه، والناس مستعدون لمساعدته في كل سبيل. وهو عندئذ يصعر خده ويشمخ بأنفه اعتقاداً منه أنه نجح بسعيه وإرادته، وقد لا يتردد أن يتباهى على أقرانه بقوله "من جد وجد" و"كل من سار على الدرب وصل" . ويسمع الفقراء هذا القول منه فيصدقون به، وتراهم ينهالون على أولادهم بالنصيحة الفارغة والتقريع المتواصل، صارخين فيهم: "من جد وجد!" .

الفقير يريد من ولده أن ينجح في الحياة كما نجح فيها ابن الغني "المدلل" .

والولد المسكين يحك رأسه ويبذل أقصى جهده دون جدوى. إن سيف "من جد وجد" مسلط فوق رأسه دائماً، فهو لا يستطيع أن يجادل فيه أو ينكر صحته من ناحية، وهو لا يستطيع من الناحية الأخرى أن يستفيد منه. وهذا قد يؤدي به إلى معاناة الصراع النفسي في بداية الأمر، وربما أدى به أخيراً إلى الجنون.

مجنون أعرفه:

أعرف شاباً هو الآن مجنون. وقد أتيح لي أن أدرس حياة هذا الشاب منذ بداية أمره فأدركت أن الجنون قد نشأ فيه من جراء صراع قوي حدث بين عالمه الداخلي وعالمه الخارجي ثم استفحل هذا الصراع النفسي فيه حتى أدى به إلى الانفصام عن المجتمع وإلى العيش في عالم من الأوهام خاص به.

عاش هذا الشاب منذ طفولته في بيئة فقيرة جاهلة. وكانت له أم مغرورة جداً تنظر إلى الناس جميعاً بعين الاحتقار وكانت توحي له بهذا الغرور يوماً بعد يوم. ودخل الشاب المدرسة في طفولته كغيره من ابناء الجيران والأقارب فلم يوفق فيها. وأخذ يرسب في دروسه سنة بعد سنة، فتألمت امه من ذلك ألماً شديداً. إنها كانت تريد أن تتباهى بولدها وتفاخر به الجيران والأقارب ولكنها وجدته دون غيره من ابناء الناس. وصارت تنهال عليه بالتقريع واللوم المقذع قائلة له: "إيه يا خائب. حظك مثل حظ ابيك الناس يصعدون وانت تنزل".

واصبح البيت على هذا الشاب المسكين جحيماً لا يطاق.إنه يريد من ناحية أن يشبع غروره وغرور أمه، وهو من الناحية الأخرى يجد نفسه عاجزاً عن مجاراة أقرانه في الدراسة. وكان كل تقريع يتلقاه من أمه يزيد من استفحال الصراع في نفسه.

وجاء زمن استطاع بعض أقرانه فيه أن يدخلوا في سلك الوظيفة الحكومية أو غيرها من شؤون الحياة وينجحوا فيها، بينما هو باق في مكانه يطلب الدرهم والدرهمين من أبيه فلا ينالهما إلا بشق النفس. إن له شهوات ومطامح يحب التنفيس عنها كما ينفس عنها أقرانه من الشبان فلا يتمكن..

ومن هنا بدأ ينطوي المسكين على نفسه. وأخذ يشبع غروره عن طريق الأحلام.

فاخذ يتخيل نفسه عبقرياً مظلوماً ومفكراً عظيماً لا يقدره الناس حق قدره. وكلما قل تقدير الناس له ازداد هو تحليقاً في أوهامه وأحلامه.

إنه اليوم ساكت يمشي وحده ولا يلتفت إلى أحد، ولكن في أعماق نفسه ثورة عارمة. التقيت به ذات مرة فسألته عن حاله، فأخذ يتحدث عن عظمته وأفكاره العبقرية وكيف أن الاستعمار يخشى منه ويؤلب عليه الناس. وهو يزعم أن الجواسيس تطارده في كل مكان والخصوم يدبرون له الدسائس والمؤامرات. وإني أخشى أن يتمادى الشاب في خياله "الرفيع" هذا فيشهر على خصومه الساطور كما فعل زميل له من قبل.

العهد البائد:

حالة هذا الشاب ليست نادرة بين شبابنا. وقد يصح القول بأن أمثال هذا الشاب كثروا في العهد البائد. والظاهر أن ظروف ذلك العهد قد ساعدت على ازدياد عددهم قليلاً أو كثيراً.

بدأ العهد البائد بعد الحرب العالمية الأولى حين جاءتنا الحضارة الغربية بمساوئها ومحاسنها. فقد أخذت المدارس الحديثة تفتح أبوابها يومذاك، وكان جو تلك المدارس مملوءاً بالنصائح والمواعظ الفارغة من طراز "من جد وجد" . وقد وقع الأطفال من جراء ذلك بين حجري الرحى.

كانت المدارس اجهزة لتخريج الموظفين، وكانت الوظيفة الحكومية مطمح أكثر الآباء والأمهات تقريباً، فأخذوا يدفعون أطفالهم إلى المدارس دفعاً بغية أن يروهم بعد ذلك "افندية" يشار إليهم بالبنان. وكان التلميذ يجد في المدرسة أفكاراً تناقض ما يجده في واقع الحياة. وإذا قدر له أن يتخرج من المدرسة وجد الدنيا تسير على خلاف ما كان يتخيل. فأروقة الدوائر مزدحمة بالرائحين والغادين من اصحاب الوجاهة والنفوذ يتوسطون لأبنائهم ومن يلوذ بهم. أما أبناء الفقراء فليأكلوا التراب!

أذكر أني عندما تخرجت من المدارس الثانوية عام 1937 أصبحت من رواد الدوائر الحكومية لا سيما دوائر وزارة المعارف "الجليلة" . فكنت أتمشى في أروقتها أو أقف متكئاً على سياجها من الصباح إلى المساء. وحدث لي ذات مرة أن شهدت عجوزاً ترتاد الدوائر مثلي في سبيل ابنة لها معلمة. فسألتها: "أيتها الخالة، هل لديك

واسطة؟!" . فأخذت تبكي وتقول: "واسطتي هي الله" .فلم أملك جواباً لها غير قولي: "ابحثي عن واسطة أخرى...ايتها الخالة العزيزة!" . ولست أدري هل انتفعت العجوز بنصيحتي أم بقيت معتمدة على وساطة الله في ذلك العهد الذي كان الشيطان يسيطر عليه.

وفي الوقت الذي شهدت فيه تلك العجوز كنت أشهد كذلك أبناء المترفين يأكلون الدنيا وما فيها، يعتدون على الناس وينتهكون الحرمات وينهبون الأموال، والحكومة تجد لهم عذراً فيما يفعلون. وكيف لا تجد لهم العذر وقد حف بهم الوسطاء من كل جانب.

لنفرض أن أحد هؤلاء الغلمان "المدللين" دهس رجلاً بسيارته عمداً فقتله، أو امسك بتلابيب ضابط شرطة في الشارع وكال له الصفعات والشتائم جزافاً، أو ساعد على تهريب دهن باسم دبس، فماذا تفعل الحكومة معه؟ أرجح الظن انها ستعذره وتعفو عنه. ولكنه لو كان من ابناء الصعاليك وأخذ ينتقد الحكومة على تساهلها مع ابناء المترفين، لقامت الدنيا عليه ولم تقعد ولجعلته عبرة لغيره من أولاد الخائبات والخائبين.

ولم تكتف الحكومة البائدة بذلك بل جعلت أكثر مرافق الدولة ومناصبها ومعاهدها احتكاراً لأولئك الغلمان "المدللين" . ولعلها كانت ترمي بفضلات تلك المرافق احياناً الى بعض ابناء الصعاليك من امثالي ستراً للفضيحة.

أشيع في العهد البائد ذات سنة أن المقبولين في إحدى الكليات في تلك السنة كانوا فريقين: فريق منهما دخل الكلية بوساطة اصحاب المعالي والفخامة، والفريق الآخر دخل الكلية بوساطة السيدة عفيفة اسكندر. إن هذه حكاية أشيعت، وربما كانت إشاعة غير صحيحة. وما أكثر الإشاعات من هذا النوع في ذلك العهد. ولا يهمنا أن تكون تلك الحكاية صحيحة أو غير صحيحة، المهم أنها راجت وصدق بها الكثيرون، إذ هم وجدوا في محيطهم ما يدل على صحتها قليلاً أو كثيراً. وهي على أي حال قد تعطينا صورة "كاريكاتورية" عما كان يجري في البلد يومذاك من دناءات. ونحن نقسو على أبناء الصعاليك إذن حين نطلب منهم أن يكونوا كلهم "عقلاء" في مثل هذا الوضع العجيب!

التـربية السليمة:

إننا إذ نذكر مساوىء العهد البائد يجب أن لا ننسى كذلك مساوىء القيم القديمة التي ورثناها من عهود سابقة وكان لها اثر في مسخ تـربية الكثيـرين من أطفالنا.

من خصائص التربية السليمة أنها لا تقسـر الطفل على ما ليس له طاقة به. ثبت اليوم ان الذكاء والمواهب العقلية على أنواع مختلفة، فرب طفل لا يصلح لمهنة معينة إنما هو يصلح لمهنة اخرى. اما قيم التربية القديمة فهي لا تعير لهذا الأمر عناية كافية. ومن هنا وجدنا امهاتنا يطلبن منا ان نتخذ المهنة التي يشتهينها لنا من غير نظر إلى نوع ذكائنا ومواهبنا العقلية.

رحم الله أمي وغفر لها، انها كانت تشتهي لي ان اكون عطاراً وأن انجح في مهنة العطارة حتى أصير في النهاية شيخ العطارين. لقد كانت معجبة بعطار غني من معارفها، وكانت تـريد مني أن أتبع سبيله حذو النعل للنعل. وهذا كان من أسباب إنفصالي عن المدرسة في صباي خمسة اعوام صرت في بدايتها صانع عطار. واخفقت في "صناعتي" هذه اخفاقاً فظيعاً.

كنت مولعاً منذ طفولتي بمطالعة الكتب. ولكن العطار، استاذي المحتـرم، كان يعتقد بأن الكتب هي شر ما يبتلي بها كاسب يجلس على باب الله. فالكتب في نظره لا تعطي خبزاً ولا تشبع جائعاً. أنه كان يريد مني أن أنتصب في جلستي متيقظاً اتصيد المشترين وأقابلهم بترحاب ووجه بشوش، بينما كنت في قرارة نفسي أكره المشتـرين جميعاً، ولا يكاد يقبل أحدهم على الدكان حتى اتمتم باللعنة عليه وعلى استاذي معه. وكنت أنتهز فرصة غياب استاذي عن الدكان لأنهمك في مطالعة الكتب، ولا أبالي آنذاك بمن يأتيني او يذهب عني من المشتـرين. وكانت العاقبة أن طردني الاستاذ من دكانه شر طردة...

أحمد الله على هذه الطردة فقد استطعت بها أن أتفرغ إلى كتبي الحبيبة إلى قلبي. والمظنون أني لو بقيت عطاراً لكنت الآن في دار المجانين . والعياذ بالله!

هوامش الملحق السادس:

(1) انظر: Young, Personality. p. 765.
(2) انظر: Loe. eit.
(3) انظر: Sutherland. Introductory Sociology. p. 149.
(4) انظر: روجيه باستيد، مبادىء علم الاجتماع الديني، ص 39 - 40 .
(5) انظر: Benedict, Patterns of Cultture, P. 72 – 80.
(6) انظر: محمد بن حبيب، المجبر، ص 192 .
(7) انظر: طه حسين، الفتنة الكبرى، ج 2 ص 151 .
(8) انظر: آغا خان، مذكرات آغا خان. ص 121 - 12 .
(9) انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 136 - 137 .
(10) انظر: أغا خان، مذكرات آغا خان، ص 60 .
(11) انظر: عمر أبو النصر، هارون الرشيد ، ص 11 .
(12) انظر: Bowlbey, Personality and Mental Illnese, p. 179.
(13) انظر: صبري جرجيس، مشكلة السلوك السيكوبائي، ص 258 .
(14) انظر: سلامة موسى، عقلي وعقلاء،، ص 175 .
(15) يؤسفني في هذه الأيام أن أسمع مـ شيد ينشد في مدارسنا وقد ينشد أحياناً في دار الاذاعة. ليس من العجيب أن ينشد هذا النشيد في العهد البائد. إذ أن ذلك العهد لم يختلف كثيراً عن عهد الرشيد أو عهد غيره من السلاطين المترفين، إنما العجيب أن ينشد في عهد جموريتنا الشعبية!
(16) انظر: أحمد أمين، ضحى الاسلام، ج 1 ، ص 117 .

كلمة الوداع

لا بد لي من كلمة وداع اودع بها القارىء في خاتمة كتابي هذا الذي هو فيما اعتقد آخر كتاب اخرجه الى الناس. ويخيل لي ان الكثيرين من القراء سوف لا يأسفون لهذا الوداع، ولعل البعض منهم سيفرح به.

اصدرت في العهد البائد خمسة كتب وهذا هو كتابي السادس والأخير. وقد اختلفت آراء القراء في كتبي السابقة، فمنهم من اعتبرها تمهيداً للثورة وتحبيذاً لها، ومنهم من جعلها على النقيض من ذلك إذ هي في نظره ليست سوى اداة لتشويش الأذهان ونشر الأفكار المدسوسة. وليس لي ما اقوله إزاء هؤلاء واولئك شيئاً، بل اترك أمري وامرهم الى التاريخ ليحكم فيهما بما يشاء.

وعلى اي حال فلست ادعي باني كنت في العهد البائد من الكتاب المكافحين المناضلين. فتلك صفة يجمل بي ان لا انسبها لنفسي، فقد ظهر في العهد البائد كتاب كانوا اشد مني مراساً واوضح هدفاً، وهم إذن احق مني بتلك الصفة المحمودة.

لا انكر اني كنت احمل شيئاً من النزعة الشعبية او اليسارية، وقد ظهرت هذه النزعة في بعض كتبي السابقة بشيء من النضوح واتهمتني بها الحكومة احياناً. وإني إذ اعترف اليوم بهذه النزعة لا اريد ان افخر بها او اتبجح، ولعل وراء النزعة الشعبية في نفسي دافعاً ذاتياً يحفزني نحوها، هو اني كالملايين من ابناء الشعب

عانيت من مذلة الفقر وألم الحرمان ما عانيت، ولهذا فإني لا استسيغ أن أرى فئة صغيرة تستكبر على الناس وتحتكر الفضل لها من دونهم.

ولست أماري حين أقول بأن العالم الحديث كله متجه نحو هذه النزعة على اختلاف مذاهبه وأهوائه. إنها في الواقع هدف التاريخ، وقد تختلف الأمم الآن في تفاصيل هذا الهدف أو في طريقة الوصول إليه، إنما هي لا تستطيع أن تختلف في أن الشعب سيد أمره وأن الفقير أولى بالعناية من الغني.

السم في العسل:

وصفني أحد المسؤولين في العهد البائد بأني كنت في كتبي السابقة "أدس السم في العسل" . ولست في حاجة إلى تفسير المقصود من هذا القول في عرف ذلك العهد. فالسم كان يعني يومذاك كل ما لا يرضى عنه الحكام من آراء. واعترف اني كنت لا أتوانى عن دس "السم" في جميع ما كنت أكتبه أو أحاضر فيه، ولكني اعترف كذلك بأني كنت ادس "السم" دساً خفياً يكاد لا يبين له طعم أو ينتج الأثر المنشود منه.

لقد كنت، بعبارة أخرى، أتبع سبيل المراوغة والمداراة في مختلف كتاباتي ومحاضراتي، اي اني كنت اتبع طريقة "كليلة ودمنة" الذي ألفه بيدبا في قديم الزمان. وقد جابهني البعض بالنقد الشديد على هذه الطريقة "البيدبائية" . فكانوا يقولون عني أني أدور حول الفكرة دون أن أدخل في صميمها، وأخرج منها أحياناً بغير النتيجة.

هذا كله صحيح أعترف به ولا أريد أن ابرئ نفسي.

كنت في العهد البائد مخيراً بين أمرين: اما أن افصح عن رأيي بصراحة تامة فأذهب إلى السجن أو أراوغ فيه وأداري فأتخلص من السجن ومن مغبة قطع الأرزاق. وبعد تأمل وتمحيص وجدت الأمر الثاني أجدى واصلح،لي وللقراء.

مهما يكن الحال، فقد لقيت كتبي السابقة من القراء رواجاً لا بأس به على كثرة ما طبعت منها، حيث نفدت من الأسواق بعد مدة قصيرة من صدورها. ولعل

القراء وجدوا فيها، على عيبها، بعض ما يتحسسون به أو يتألمون منه. والغريب أن الكثيرين منهم كانوا يقرؤون كتبي ويشتمونها في آن واحد. ويصح أن يقال عن كتبي من هذه الناحية كما قيل عن لحم السمك: "مأكول مذموم" .

ناحية أخرى:

وهناك في كتبي ناحية أخرى لم يرض عنها بعض القراء هي اتباع طريقة التشكيك، حيث كنت أكثر من استعمال "لعل" و"ربما وما أشبه عند إبداء رأي من الآراء. إن هذه طريقة مارستها في حياتي الجامعية واعتدت عليها طويلاً حتى صار من الصعب التخلص منها. وهي في الحقيقة مما يفرضها المنهج العلمي على كاتب وباحث في العصر الحديث.

مشكلة بعض كتابنا انهم اعتادوا على طريقة أخرى هي طريقة الحزم والتأكيد وإصدار الأحكام القاطعة التي لا يجوز الشك فيها. وهي طريقة ورثناها من عهود قديمة حين كان المنهج "العقلي" يسيطر على الأذهان. فمن مفاهيم هذا المنهج القديم اعتبار العقل البشري قادراً على اكتشاف الحقيقة المطلقة بتفكيره المجرد، ولهذا أصبح من حق المفكر عند اكتشافه للحقيقة المطلقة أن يصدر حكمه القاطع فيها وأن يعد جميع الآراء المخالفة لحكمه غير صحيحة. وقد أشرت في فصل سابق من هذا الكتاب إلى مبلغ الخطأ في هذا المفهوم "العقلي" القديم.

يؤسفني أن أرى بعض الناس في هذا العصر، وفي هذا البلد بالذات، يريدون من الكاتب ان يكتب لهم على طريقة "مما لا شك فيه" و"مما لا يتنازع فيه اثنان" .فهم يؤمنون ببعض الآراء إيماناً جازماً ثم يطلبون من الكاتب أن يجاريهم فيها. فإذا امتنع الكاتب عن ذلك ارتابوا في نيته واشمأزوا منه.

مثلهم في ذلك كمثل الرجل الريفي الذي يجد أخاه مقتولاً، فهو يسرع إلى خصوم أخيه يريد قتلهم حالاً وهو موقن بأنهم هم الذين قتلوا أخاه. فإذا جاء محققون عادلون يتبعون في التحري عن القاتل طريقة التشكيك والبحث الموضوعي، فإن الرجل الريفي سيرتاب منهم أو يغضب عليهم،ولعله سيتهمهم بالتحيز نحو الخصوم.

قراء عهد الثورة:

أشرت في مقدمة الكتاب إلى أن ذوق القراء قد تبدل في عهد الثورة عما كان عليها قبلها، فبعد ما كان القراء يقبلون على كتبي وكتب أمثالي إذا بهم اليوم يقبلون على مؤلفين من نوع جديد. وليس هذا التبدل في ذوق القراء بالأمر الغريب، إذ هو يقع إبان كل ثورة تقريباً.وقد حدثنا التاريخ عن كثير من المؤلفين الذين كان لهم رواج في العهود السابقة للثورات، فلما قامت الثورة فعلاً قبعوا في بيوتهم لا يعرفون كيف يكتبون أو يفكرون.

من طبيعة كل ثورة أنها تنتج في أبناء الشعب حماساً شديداً لتأييدها. وهذا الحماس يحتاج إلى مؤلفين من نوع جديد يجارون الناس في حماسهم ويتخذون لهم اسلوباً مفعماً بالأحكام القاطعة والتوجيه الصارم. أما المؤلف الذي اعتاد على أسلوب ما قبل الثورة من حيث اتباعه لطريقة التشكيك أو المداراة فإنه يجب أن يرضخ للواقع ويتنازل عن مكانته السابقة يقدمها راضياً إلى أصحاب الأسلوب الجديد. أما إذا أصر على الاحتفاظ بمكانته فإن التيار سيسحقه، وليس في الدنيا كتيار الزمن من ساحق جبار!

قد يظهر في بعض فترات التاريخ مؤلفون قادرون على تغيير اسلوبهم تبعاً لتغيير الأحوال.ولكن هؤلاء قليلون أو نادرون. عثرت مثلاً في الآونة الأخيرة على كتاب للأستاذ لينين كان قد كتبه في العهد القيصري ثم وضع له مقدمة جديدة بعد القضاء على ذلك العهد. وقد كتب لينين في مقدمته يقول أنه أخذ بعين الاعتبار خطر الرقابة القيصرية حين ألف كتابه، وأنه التزم منتهى الحذر عند صياغة الملاحظات السياسية حيث سلك فيها سبيل التلميح على طريقة "ايزوب"(1). وقد يسأل القارىء عن "أيزوب" هذا الذي ذكره لينين. إن "إيزوب" شخص شبه خيالي نسب إليه الأغريق القدماء حكايات رمزية من طراز حكايات كليلة ودمنة..

معنى هذا أن لينين استطاع أن يغير أسلوبه بعد الثورة عما كان عليه قبلها. وهنا يجب أن لا ننسى أن لينين كان زعيم حزب وصاحب مبدأ قبل أن يكون مؤلفاً. وهو بهذا يختلف عن المؤلفين المحترفين من أمثال كاتب هذه السطور. إننا نريد أن نكتب لكي نعيش، بينما هو يعيش من أجل حزبه ومبادىء حزبه. هو عبقري ونحن من سائر الناس حيث قد نخشى على انفسنا وأولادنا حتى من عواء الكلاب.

سوق الكتب:

اتفق لأحد المؤلفين أن أخرج كتاباً في فترة خاصة من الزمن. فراج الكتاب رواجاً كبيراً. وظن المؤلف أن الناس أقبلوا على كتابه اعجاباً بأسلوبه وأفكاره "العبقرية" . وأسرع يخرج كتاباً آخر فلم يلق من القراء سوى الصدود. عند هذا أخذ المؤلف ينعي على القراء قلة اكتراثهم بالعبقريات.

لا يصح لي أن أكون مثل هذا الرجل. فالغرور داء وبيل يؤذي صاحبه أكثر مما يؤذي غيره. وقد قلت في كتاب "اسطورة الأدب الرفيع" أن الناس يقبلون على شراء الكتاب كما يقبلون على شراء حذاء أو اية بضاعة أخرى من بضائع السوق. فليس في الأمر تشجيع للعبقريات أو تثبيط لها. والمؤلف في هذا كصاحب الدكان إذ هو يخرج للناس ما يريدون منه لا ما يريد هو منهم. وقد يتحول القراء من كتاب إلى آخر تبعاً لتغير الظروف. وما على المؤلف إذن إلا ان يجاريهم في ذلك، أو يقبع في بيته ليريح ويستريح.

الأدباء والتجارة:

لقد استهجن بعض الأدباء هذا القول مني حين قرؤوه في كتاب "اسطورة الأدب الرفيع" . فالكاتب في نظرهم لا يجوز أن يكون تاجراً، إذ ان التجارة عندهم مهنة شائنة وهي إذن غير لائقة بأرباب الأدب الرفيع!

ورث اخواننا الأدباء هذا الرأي من عهودهم السلطانية البائدة كما لا يخفى. فقد كان الأدباء في تلك العهود يعيشون على فضلات موائد السلاطين وأعوانهم من المترفين، ويقلدونهم في آرائهم ومفاهيمهم وكان السلاطين وأعوانهم يحتقرون التجارة ومختلف أنواع العمل المنتج باعتبارها من أعمال الأذلاء الخانعين(2)

ولهذا وجدنا الأدباء يفضلون أن يكون أحدهم شحاذاً يستجدي الرزق في باب أسياده على أن يكون تاجراً يكسب الرزق بعرق جبينه. ولا تزال بقية من هذه النعرة موجودة لدى بعض الأدباء حتى يوم الناس هذا، فهم يحترمون من يتزلف للمترفين بقصائده أو كتبه بينما هم يحتقرون من يبيع أفكاره في سوق الكتب.

لقد تبدلت مفاهيم الناس في هذا الزمن، ولكن اخواننا الأدباء لا يزالون متمسكين بمفاهيمهم السلطانية القديمة. إنهم لا يزالون يحسبون أن التجارة

معناها الغش والخداع. وما دروا أن هذه صفة التجار الذين يعتمدون في تجارتهم على رشوة الأمراء والمترفين وعلى التزلف إليهم[3]. أما التاجر الذي يعتمد في عمله على نفسه دون معونة من ارباب الجاه والسلطان فهو لا يستطيع ان ينجح في تجارته إلا إذا كان أميناً صادقاً، وهذا هو الذي يجعل الناس يقبلون عليه ويطمئنون إلى معاملته.

البضائع المادية والفكرية:

مما يجدر ذكره أن هناك فرقاً من هذه الناحية بين تجارة البضائع المادية وتجارة البضائع الفكرية. إن للبضائع المادية معايير واضحة يستطيع المشترون ان يقيسوا بها جودة البضائع ويفضلوا بعضها على بعض فيها. أما البضائع الفكرية فليس لها مثل هذه المعايير الواضحة، وكثيراً ما يختلف الناس عليها وينقسمون فيها إلى مادح وذام تبعاً لما يخالج نفوسهم من اتجاهات اجتماعية ونفسية.

وهذا هو الذي أتاح لبعض الغشاشين من تجار الأفكار ان ينجحوا في بعض الأحيان، لكنهم مع ذلك لا يستطيعون ان يستمروا في نجاحهم زمناً طويلاً. فلا بد لغشهم من أن ينفضح في يوم ما بعد أن يتثقف الناس ويتمكنوا من التمييز بين الصالح والطالح من الأفكار.

إن التاجر الأمين من باعة الأفكار يعرف هذا كل المعرفة ويدرك بأن الغش في بيع الأفكار مضر بمصلحته الدائمة. وليس معنى هذا انه يجب أن يكون مصيباً في جميع أفكاره. إنه على الأقل يجب أن يكون مؤمناً بصحة الفكرة عند تقديمها إلى الناس. إنه بعبارة أخرى يبيع الفكرة على نفسه قبل أن يبيعها على غيره. ولا بأس عليه أن يتحول عن تلك الفكرة بعد أن يتبين له وجه الخطأ فيها. حسبه من ذلك أنه مقتنع بصحة رأيه مرة بعد مرة، ولا يهمه ان يعترف بخطئه بعد كل مرة.

والتاجر الأمين قد يضطر إلى اتباع سبيل المداراة والمراوغة عند حدوث ما يخشى منه على نفسه أحياناً، إنما هو لا يندفع في هذا السبيل إلى حد الغش والخداع. ولعله عند ذلك يفضل أن يسد دكانه على أن يبيع للناس البضاعة المغشوشة.

ما أخشى منه:

لا ازعم لنفسي اني كنت في كتبي السابقة من طراز هذا التاجر الأمين، ولكنني

استطيع ان ادعي باني حاولت ان اتشبه به جهد امكاني. وقد فلتت مني، على الرغم من ذلك، فلتات غير محمودة لا ازال نادماً عليها.

ومهما يكن الحال، فقد كتبت في العهد البائد كتباً دون ان اخرجها الى الناس. ولو كنت قد اخرجتها فعلاً لكان مأواي في اعماق السجون. واظن اني لا استطيع ان اخرجها في هذا العهد الجديد ايضاً.

هنا اود ان اصارح القارىء بقول قد لا يرتضيه مني، هو اني كنت في العهد البائد اخشى من غضب الحكام، وقد اصبحت في العهد الجديد اخشى من غضب "الغوغاء". وارجو من القارىء ان لا يسيء فهم قولي هذا. فالغوغاء ظاهرة اجتماعية موجودة في كل مجتمع، شهدنا اثرها في العراق كما شهدناه في مختلف البلاد والمجتمعات. وكلما اشتد الجهل في بلد ازداد خطر الغوغاء فيه.

وقد اشار الى خطر الغوغاء مفكرون لا نشك في نزعتهم الشعبية والديمقراطية. اشار إليه ماركس وانجلز في "البيان الشيوعي". واشار إليه علي بن ابي طالب قبل مئات السنين، حيث قال عن الغوغاء انهم همج رعاع ينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح، وقال عنهم كذلك انهم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا[4]

مما يلفت النظر ان بعض مفكرينا في عهد الثورة اخذوا يمتعضون من الإشارة إلى الغوغاء اعتقاداً منهم ان الغوغاء جزء من الشعب او هم الشعب ذاته. وهذا خطأ من شأنه ان يؤدي احياناً إلى عواقب اجتماعية ضارة.

الواقع ان الشعب غير الغوغاء. فإرادة الشعب تتمثل في القرارات الهادئة الرصينة التي تنبعث من مصلحة الأكثرية. اما الغوغاء فكثيراً ما تظهر اصواتهم بشكل هياج محموم لا رادع له ولا هدى فيه. لا ننكر ان الشعب والغوغاء قد يظهران في جبهة واحدة في بعض الأحيان، ولكن هذا لا يجيز لنا أن نخلط بينهما في جميع الأحيان.

سمعت عن بعض الفظائع التي اقترفها الغوغاء في بعض مناطق العراق، وقد رواها لي ثقاة كانوا شهود عيان فيها، فكدت لا اصدق بها لهول بشاعتها. فقد يهاجم الغوغاء رجلاً وهو على مرأى من اهله وزوجته واولاده فيقطعونه بالخناجر

ويفقؤون عينه ويجرونه بالحبل بينما هو يستغيث بهم ويتضرع إليهم دون جدوى. وقد يحمل أحد الغوغاء بيده ساطوراً يهاجم به من يعرف أو لا يعرف، وهو قد يهوي بالساطور على وجه المسكين وكتفيه وصدره كأنه يضرب وسادة من تبن.

إن أكثرية الناس من أبناء الشعب لا يستسيغون هذا ولا يتحملون سماعه. وقد لا يتحمل بعضهم رؤية فأر يعذب أمامه أو طير يذبح. وتلك لعمري طبيعة كل انسان سوي يحمل في قلبه شيئاً من الرحمة. ومهما كان الانسان شعبياً في نزعاته فإنه لا يستطيع أن يتطرف في نزعته الشعبية إلى هذه الدرجة العجيبة.

دناءة الغوغاء:

جيء إلى الإمام علي بن أبي طالب، في يوم من أيام خلافته، برجل اقترف ذنباً. وكان الرجل محاطاً بجماعة من الغوغاء يهرجون حوله ويحاولون الاعتداء عليه. فصاح فيهم الإمام قائلاً: "لا مرحباً بوجوه لا تُرى إلا عند كل سوأة!".

وحدث لي شخصياً، ذات يوم، أن شهدت جماعة من الغوغاء يجرون بالحبل جثة شخص ويمثلون بها فلم أر فيهم رجلاً يحترم نفسه. عند هذا تذكرت قول الإمام الآنف الذكر. فهؤلاء الذين يقومون بمثل هذا العمل الفظيع لا نتوقع منهم عادة أن يكونوا مواطنين صالحين. إنهم من سفلة الناس وحثالاتهم. وقد دلت الأبحاث الاجتماعية الحديثة أن الكثيرين منهم يندفعون في افعالهم الغوغائية تحت تأثير دوافع دنيئة كامنة في أعماق نفوسهم(5) فهم لا يستطيعون أن يحققوا تلك الدوافع في الأوقات الاعتيادية، ولهذا نراهم ينتظرون الفرصة المؤاتية لهم، وقد تأتيهم الفرصة أثناء التظاهرات والانتفاضات الشعبية، فيدسون أنفسهم بين صفوف الشعب ويستغلون فترة الحماس السائد فيندفعون في القتل والمثلة وهم فرحون مستبشرون.

إن الشعب مؤلف من أفراد طيبين يعانون من شظف العيش أشد العناء. ويقضي الواجب علينا أن نرعى هؤلاء ونسعى جاهدين في رفع مستواهم المعاشي والاجتماعي، ولكن هذا لا يجوز أن يحفزنا إلى رعاية كل لئيم سفاك بحجة أنه من أبناء الشعب.

وجهة نظر:

اعتاد الحكام في العهود السلطانية البائدة على احتقار الشعب واعتباره كله من الغوغاء، وكانوا يتهمون كل زعيم شعبي بانه مهرج غوغائي، وقد ذكرت هذا في أحد كتبي السابقة وأظهرت جوانب الخطأ فيه[6]. انه في الحقيقة رأي يمثل وجهة نظر الطبقة الظالمة المستكبرة. وقد دأبت هذه الطبقة على نشر الرأي بين الناس لكي تدعم به امتيازاتها وترفها. فالشعب في نظرها جاهل اعتدائي وهو إذن لا يستحق أن يتسلم زمام الحكم بيده أو ينافسها عليه.

ونحن إذ نعترف اليوم بخطأ هذا الرأي لا يصح أن نتطرف في رد الفعل تجاهه بحيث نجعل كل تجمع غوغائي كأنه من صميم الشعب الذي يجب علينا احترامه.

كان حكام العهد البائد يصفون الشعب كله بأنه غوغاء وصار البعض منا في عهد الثورة يصف الغوغاء كلهم بانهم يمثلون الشعب. وقد ضاعت الحقيقة الوسطى بين هؤلاء وأولئك!

أطلق ماركس على الغوغاء اسم "لومب بروليتاريا" وقصد به تلك العناصر المتفسخة المهترئة التي تعيش على هامش الطبقة العاملة، وهو يصفهم بقوله: "هذه الحشرات الجامدة، حثالة ادنى جماعات المجتمع القديم، فقد تجرهم ثورة البروليتاريا إلى الحركة، ولكن ظروف معيشتهم وأوضاع حياتهم تجعلهم أكثر استعداداً لبيع أنفسهم إلى الرجعية"[7]. إن هذا قول صحيح جداً. فالغوغاء الذين نشهدهم متحمسين اليوم للثورة قد ينقلبون غداً إلى اعداء الداء لها إذا قدر للثورة أن تنتكس لا سمح الله.

أنا والغوغاء:

لست أقول هذا جزافاً، فقد خبرت خطر الغوغاء وادركت مبلغ دناءتهم عندما أخرجت كتاب "وعاظ السلاطين" عام 1954 .

كنت أبتغي من كتاب "وعاظ السلاطين" تنقية الدين مما لحق به من أدران سلطانية آثمة. فالدين في اصل طبيعته حركة ثورية، ولكن السلاطين ووعاظهم وجلاوزتهم حرفوه عن طبيعته الأولى فجعلوه وسيلة للتخدير والطاعة العمياء. ومهما يكن الحال فقد هاج الغوغاء على كاتب هذه السطور هياجاً عجيباً وهددوه

بالقتل غير مرة وثلبوه ثلباً قبيحاً. ولم يتردد بعضهم عن رؤيته في أحلامهم يساق إلى نار الجحيم مصحوباً بلعنة الله وملائكته أجمعين.

كانوا يقولون لي: كيف يجوز لك أن تصف النبي وأصحابه الميامين وأهل بيته الأطهار بأنهم ثوار مع العلم أن الثورة مشتقة من "الثور" وأنها عصيان لأمر الله ودعوة إلى الفتنة والفوضى. وصرت تجاه قولهم هذا في موقف حرج، حيث لم أستطع من جهة أن أفصح لهم عن طبيعة الثورة بمعناها العلمي الحديث فيؤدي ذلك إلى غضب الحكام، ولم أستطع من الجهة الأخرى أن أسكت فيتمادى الغوغاء في هياجهم. وأمسيت من جراء ذلك كمن بلع الموسى إذ هو لا يقدر على إخراجه من بلعومه ولا على إدخاله فيه.

ومن العجيب حقاً أن أرى أفراداً من أولئك الغوغاء الذين كانوا يرومون قتلي في ذلك الحين سائرين الآن في الاتجاه المعاكس، إذ هم يرومون قتل خصومي. ولست أدري ماذا سوف يفعلون في الأيام المقبلة؟ أرجح الظن أنهم سيحاولون عندئذ قتلي وقتل خصومي في آن واحد.

خطر الشبان المتحمسين:

هنا أناس آخرون أخشى من خطرهم مثلما أخشى من خطر الغوغاء، هم أولئك الشبان المتحمسون الذين نالوا من الثقافة الحديثة قسطاً قليلاً أو كثيراً. وهؤلاء في نظري أخطر من الغوغاء أحياناً، إذ هم يحاربون بسلاح البراهين العقلية والعلمية. وهذا السلاح، كما قلت في فصل سابق، قد يكون أوخم عاقبة من السلاح المصنوع من الحديد.

مشكلتهم أنهم يدرسون قليلاً ويجادلون كثيراً. وهم إذا اعتنقوا فكرة معينة اكتفوا منها بحفظ نصها الشكلي وأخذوا يصولون به ويجولون، وربما هاجموا بها أي رأي لا يعجبهم ولو كان من صلب الفكرة التي يزعمون الدعوة إليها.

وهم قد لا يقفون عند هذا الحد، بل نراهم يتبعون سبيل الحدة والعبوس والفظاظة في كل جدل يثار معهم، وقد يسرع أحدهم إلى التهمة المقذعة يقذفها بها في وجه من لا يجاريه في رأيه وربما عمد إلى إهانته والاعتداء عليه. إنهم لا يدرون أنهم بعملهم هذا ينفرون الناس من المبدأ الذي يتحمسون في سبيله.

إن الإنسان بوجه عام ذو قلب وعاطفة أكثر مما هو ذو عقل ومنطق. وطالما وجدنا الناس يأخذون عن أي مبدأ الصورة التي يرون أتباعه عليها، فإذا كان أولئك الأتباع غير صالحين في سلوكهم ظن الناس أن المبدأ نفسه غير صالح. وكثيراً ما تضيع الحقيقة على يد أصحابها من جراء ذلك!

يقول القرآن ناصحاً أتباعه الأولين: "ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم"(8). وما أحرى شباننا أن ينتفعوا بهذه النصيحة التي جاء بها القرآن قبل مئات السنين.

توضيح ضروري:

أرجو أن لا يفهم القارىء من هذا أني أقصد به شبان حزب معين من أحزابنا المتصارعة في هذه الأيام فالذي ذكرته يصدق على كثير من الشبان المتحمسين من كل حزب وفي كل بلد، لا سيما في هذا البلد الأمين!

لو أتيح لأي حزب أن ينتصر في فترة من فترات الزمن لفعل شبانه مثلما فعل شبان حزب آخر. فقد مرت بنا تجارب متنوعة اختبرنا بها الشبان من شتى الأصناف والألوان فوجدناهم لايختلفون في سلوكهم كثيراً عندما يشتد بهم الحماس. وها أنا ذا الآن أسمع عن سلسلة من الاعتداءات الصارخة يقوم بها عصابات من الشبان في بعض مناطق بغداد، إذ هم يركبون الدراجات يبحثون بها عن صيد لهم في زوايا الشوارع لكي يشبعوه ضرباً وتنكيلاً. ولو أتيحت لهؤلاء فرصة كافية لما ترددوا عن القيام بأبشع الأعمال والفظائع.

قادة الأحزاب:

يعاني قادة الأحزاب في هذه المرحلة الصاخبة مشكلة طاحنة. ونحن نظلمهم حين نحملهم مسؤولية جميع الأعمال التي يقوم بها اتباعهم. إنما يجب أن نتألم لهم أكثر مما نلومهم.

إنهم يعانون عين المشكلة التي عاناهم قبلهم قادة المبادىء والعقائد والأحزاب في العصور المختلفة. فالرجل منهم يقع بين أمرين كلاهما مرّ. فهو إما أن يتساهل مع اتباعه فيندفعون في حماسهم اندفاعاً طائشاً ضاراً، أو يتشدد معهم فيقل حماسهم وتضعف قوتهم.

مما يجدر ذكره أن كل حزب من الأحزاب يكسب قوته من كثرة أتباعه. ولكن الأتباع حين يتكاثرون قد يندس بينهم الانتهازي والسفاك والطائش. وقائد الحزب يقع في حيرة مرضية من جراء ذلك. فهو لا يدري أي جانب يأخذ من ذينك الجانبين. ورب اندفاع قليل منه في أحد الجانبين يؤدي إلى انتكاس الحزب وفشله.

أتيح لي أن أتحدث إلى بعض قادة الأحزاب عندنا فرأيت فيهم كثيراً من اللطف والمروءة والجدل الهادىء الرصين. وقد قص لي أحدهم كيف أنه حاول في إحدى المرات أن يخفف من حماسة أتباعه وأن يرشدهم إلى طريق الاعتدال، فلم يسمعوا له أو يأبهوا. وهناك قصة أخرى يرويها الكثيرون عن رجل معروف من رجال حزب معين: أنه كان بين حشد من أتباع حزبه، وأخذ يصرخ فيهم ناصحاً مرشداً، فانهالوا عليه بالضرب المبرح وكادوا يقتلونه. فلقد رأوه سميناً منتفخ الأوداج فحسبوه من أرباب الأقطاع أو من وكلاء الاستعمار. ولو لم ينقذه بعض أصحابه من أيديهم الباطشة لكان اليوم مدفوناً تحت التراب يترحم الناس عليه ويتأسفون لموته.

فذلكة اجتماعية:

حدثنا التاريخ عن كثير من الحركات والانتفاضات الشعبية التي ظهرت في الأمم المختلفة قديماً وحديثاً. وقد وجدنا في معظم هذه الانتفاضات غوغائية مقيتة وحماساً طائشاً. ولكن الذي يجب أن لا ننساه في هذا الصدد هو أن الغوغائية والحماس يختلفان في نتائجهما باختلاف طبيعة المجتمع الذي ينشآن فيه.

ففي الثورة الفرنسية شهدنا المقاصل تنصب ويساق إليها العدد الغفير من الأبرياء والمذنبين زرافات ووحدانا، وكانت الجماهير تجلس حول المقاصل تضحك على ضحاياها وتتفرج على الطريقة التي يذبحون بها كأنها كانت تتفرج على مسرحية جميلة.

لم تنصب المقاصل في ثورتنا كما نصبت في الثورة الفرنسية، إنما استخدمت فيها الحبال والخناجر والهراوات والقناني. ولو استمرت فترة الحماس في ثورتنا مدة أطول لربما شهدنا فيها أشياء أخرى لا يعلمها إلا الله.

ويحدثنا الرواة عما جرى في الصين إبان ثورتها الكبرى. ففي عام 1951 مثلاً

ظهرت في الصين حركة شعبية أطلق عليها في اللغة الصينية اسم "سن فن وو فن" وكان المقصود بها تطهير البلاد من الخونة ومفسدي جهاز الحكم. فقد كان الناس يتجمهرون أحياناً أمام مخزن بعد أن تلصق الحكومة على واجهته اعلاناً بتهمة معينة. ويشعر صاحب المخزن بالخزي الكبير فيركع على الأرض مطرق الرأس. وإذا سيق إلى المحكمة أحاط الناس به يهينونه أو يقذفونه بالطماطة والبيض الفاسد.

ومهما فعل أهل الصين بمثل هذا المتهم فإنهم لا يجرؤون على مهاجمته بالساطور أو على جره بالحبال. اقصى ما يقومون به نحوه أنهم ينتظرون أن تصدر المحكمة حكمها عليه، وقد يطالبون اثناء ذلك بتشديد العقوبة عليه أو إعدامه. وكثيراً ما يعترف المتهم بذنبه ويعلن التوبة فيطلق سراحه ويرجع إلى بيته آمناً.

الظاهر أن لأهل الصين تراثاً اجتماعياً يمنعهم من التطرف في حماستهم الثورية إلى الحد الذي شهدناه عندنا. وربما صح القول بأننا اندفعنا في حماستنا إلى درجة يندر ان نجد لها مثيلاً في بلد آخر.

سمعت احد شبابنا يقول مفاخراً: "إن الشعب العراقي امتاز على الشعوب الأخرى بابتكاره لطريقة السحل". ولست أدري مبلغ هذا القول من الصحة، ولكني اتمنى من صميم قلبي ان لا يكون صحيحاً. فالأمم اليوم تبتكر الوسائل للصعود إلى القمر والمريخ، بينما نحن نفتخر بابتكارنا وسائل المثلة والتعذيب.

ما وراء الأحزاب:

اشتد الصراع الحزبي عندنا في هذه الأيام، وأخذ كل حزب يشتم خصومه وينسب إليهم التطرف والطيش واقتراف الجرائم. وقد ضاعت الحقيقة العلمية في هذا الصراع العنيف.

في رأيي أننا ينبغي ان لا نتمادى في شتائمنا الحزبية بحيث نغفل عما يختفي وراء الأحزاب من طبيعة اجتماعية. فالحزب الذي ينسب الأعمال الفظيعة إلى خصومه لا يدري أنه هو نفسه قد يقوم بها، أو بجزء منها على الأقل، لو سنحت له الفرصة الملائمة. فهو يعيش في نفس المجتمع الذي يعيش فيه خصومه، وهو إذن مصاب بعين العلل التي اصيب بها من يعيشون في مثل ظروفه.

خذ على سبيل المثال تلك الفظائع المشهورة التي حدثت في كركوك. فهي قد صارت لدى الكثيرين منا كقميص عثمان، حيث أخذ البعض منا يقلل من شأنها أو يغض النظر عنها، بينما أخذ البعض الآخر يبالغ فيها ويزخرف في روايتها. وهم جميعاً ينظرون إليها من وجهة نظر حزبية ضيقة فيهملون ما فيها من ناحية اجتماعية عامة. ولعل البعض منهم اتخذ فيها موقف القدماء من قميص عثمان إذ هم يتباكون عليه "بغضاً لعلي لا حباً بمعاوية".

لا يجوز لنا أن ننكر ما حدث في كركوك وفي غيرها من فظائع. وهي كانت، والحق يقال، بشعة جداً لا يستطيع أن يتجاهل أمرها انسان يشعر بكرامته. ولكننا مع ذلك لا يجوز أن نعزوها كلها إلى هذا الحزب أو ذاك. فالأفراد الذين قاموا بها كانوا من الغوغاء والشبان المتحمسين. وهم كانوا قبل كل شيء عراقيين، ولا استبعد منهم أن يقوموا بها مرة أخرى بتأثير أي ناعق ينعق أو ريح تميل.

إنها ليست مشكلة أحزاب بمقدار ما هي مشكلة مجتمع مريض تعاودت عليه الأدواء والمصائب على مدى أجيال متعاقبة. ونحن إذ نهمل النظر إليها من هذه الناحية قد نساعد على تكرارها في بلدنا مرة بعد مرة، وفي ذلك من الضرر بثورتنا ما فيه.

يقولون أن وراء مجازر كركوك يداً اجنبية. وهذا قول صحيح تدعمه قرائن لا يستهان بها. ونحن إذ نعترف بصحة هذا القول يجب أن نعترف كذلك بأن اليد الأجنبية لا تؤثر في مجتمع ما لم تجد فيه مجالاً لتأثيرها. فهي تلقي الشرارة الخبيثة على الناس، وما لم يكن في الناس مجال لاندلاع النار انطفأت الشرارة حال انطلاقها.

طبيعة الشعوب:

إذا كان لكل فرد من الناس شخصية خاصة به يتميز بها عن غيره، فإن لكل شعب من شعوب العالم كذلك طبيعته الخاصة أو طابعه الذي يختلف به عن بقية الشعوب. ومثلما يكون الشعب، أي شعب، طيباً في بعض صفاته قد يكون رديئاً في صفاته الأخرى. فليس في الدنيا شعب كامل كما ليس فيها بشر معصوم.

قد لا يستسيغ هذا القول بعض شبابنا المتحمسين. فقد تكونت لديهم في هذه

الأيام "حساسية" شديدة نحو الشعوب. وهم يريدون منا، حين نذكر الشعب العراقي بصفة خاصة، أن نمجده تمجيداً تاماً ونعزو له فضائل البشر كلها.

اتفق لي في عام 1951 أن أخرجت كتاباً صغيراً بعنوان "شخصية الفرد العراقي" قلت فيه أن الشعب العراقي ذو شخصية مزدوجة. ومن طريف ما أذكره في هذا الصدد أني لقيت بعد قيام الثورة بيوم واحد شاباً متحمساً كان في الماضي من أصحابي المقربين، ولكني وجدته في ذلك اليوم عابساً لا يحب أن يكلمني. وقد تحقق لي أنه صار يكرهني بعد قيام الثورة مباشرة. لاحظت ذلك فيه حين أخذ يوبخني ويسال: "كيف يجوز أن يكون هذا الشعب العظيم مزدوج الشخصية يا ترى؟". فلم أجد له جواباً إلا بأن أعتذر إليه قائلاً: "إني قد أذنبت في حق هذا الشعب العظيم، واستغفر الله وأتوب إليه".

لا أنكر أن هذا الشاب وأمثاله مخلصون فيما يقولون ويفعلون. إنهم متحمسون في تأييد الثورة. وهي ثورة عزيزة علينا جميعاً إذ يجب أن نعمل في سبيلها ما نستطيع. ونحن وإن كنا نؤيد الشبان في حماستهم تلك ولكننا لا نستطيع أن نجاريهم فيها إلى الدرجة التي نهمل واجبنا العلمي فيها.

إن الثورة تحتاج إلى البحوث العلمية كما تحتاج إلى التأييد الحماسي. والواقع أن الشبان المتحمسين لهم وظيفة غير قليلة في كل ثورة، إذ هم وقود الحركة فيها ومبعث لهيبها المتوقد. ولا بد لكل حركة من أن يكون لها وقود لكي تستطيع السير به على منوال ما تفعل السفينة البخارية، ولكن السفينة تحتاج في الوقت ذاته إلى ربابنة حكماء يضعون الوقود في محله منها ثم يوجهونها نحو الهدف المنشود، وإلا فهي قد تندفع في حركتها الطائشة نحو الهلاك(9)

الشعب العراقي:

نرجو من شبابنا أن يدرسوا طبيعة شعبهم قبل أن يتحمسوا في سبيله، فربما كان الحماس الشديد ضاراً بهذا الشعب أكثر مما هو ضار بأي شعب آخر.

عاش الشعب العراقي زمناً طويلاً تحت وطأة ظروف اقتصادية وسياسية جائرة، وتحمل سياط الجلاوزة فيها بصبر عجيب. ومما يجدر ذكره أن الشعب العراقي لم يتحمل الظلم خلال أربعين عاماً فقط، كما يحلو لبعض كتابنا أن

يقولوا. الواقع أنه تحمل الظلم على مدى مئات السنين، ولم يكن العهد العثماني، أو العهد المغولي والتتري، خيراً من العهد الملكي البائد على أي حال. معنى هذا أن الشعب العراقي قد اعتاد خلال هاتيك العهود البغيضة على أخلاق ليس من السهل عليه التخلص منها فور قيام الثورة فيه.

والشعب العراقي من الناحية الثانية قد اعتاد على أخلاق أخرى جاءته من الصحراء. وهذه الأخلاق، كما لا يخفى، تختلف من حيث أسبابها ونتائجها الاجتماعية عن تلك التي نشأت تحت سياط الجلاوزة.

لعلني لا أغالي إذا استنتجت من ذلك أن الفرد العراقي بوجه عام أصبح ذا شخصيتين مختلفتين. فهو في إحدى شخصيتيه بدوي شديد الإباء سريع الغضب، وهو في شخصيته الثانية حضري خانع يكثر من الشكوى والعتب على الزمان. وهو يتخذ أية واحدة من هاتين الشخصيتين تبعاً للظروف المحيطة به.

نجد هذا واضحاً في الشخص الأمي الجاهل، خصوصاً حين يتناول الخمرة وتخرج بها طبيعته الكامنة من أعماقه. فتراه عندئذ يتغنى بأغاني العويل والشكوى ولعله يبكي تأثراً بها، إنما هو لا يكاد يلمح في من حوله بادرة احتقار له حتى ينقلب دفعة واحدة إلى أسد هصور فيشهر خنجره يريد أن يسقط به "الدول السبع" .

وهذا الشخص قد لا يتردد أن يفعل مثل ذلك في حياته الاعتيادية أحياناً. إنه قد يواجه سياط الجلاوزة بالشكوى إلى ربه من ظلم الظالمين، حتى إذا مشي خطوات ورأى من هو أضعف منه صار بدوره "جلوازاً" ونسي عندئذ ربه الكريم.

إنه بعبارة مختصرة يسلك سلوك البدوي الغالب تارة وسلوك الحضري المغلوب تارة أخرى. والظاهر أنه اعتاد على هذا الازدواج في شخصيته منذ زمان بعيد حتى صار لديه تقليداً اجتماعياً لا داعي للعجب منه(10)

استدراك

لم يكن قصدي من هذا القول أن الشعب العراقي كله من طراز ذلك الأمي الجاهل. إن للشعب العراقي فضائل ليس من السهل علينا انكارها، وهو في ذلك لا

يختلف عن بقية الشعوب من حيث احتوائه على المحاسن والمساوىء معاً. ولكن الذي أريد ان الفت النظر إليه هو وجود أفراد بيننا يتوضح في سلوكهم تراثنا المزدوج وضوحاً شديداً، إذ هم يحملون في أعماق انفسهم عنجهية البدوي وخنوع الحضري في آن واحد. وهؤلاء هم الذين يلفون جمهور "الغوغاء" عندنا، لا سيما بعد قيام الثورة. فقد وجدناهم من أكثر الناس قسوة وتمثيلاً بالأموات، بينما كانوا قبل ذلك من اكثر الناس خنوعاً وبكاءاً على الأموات.

شهدت ذات يوم جماهير غفيرة تملأ شوارع بغداد وهي تهتف بالسلام وتكاد تذوب هياماً به، ولكنها كانت في الوقت ذاته تحمل الحبال تهدد بها من لا يؤيدها في دعوتها السلمية. إن دعوة السلام جديرة بأن يدعو بها كل انسان يحمل في قلبه شيئاً من الرحمة، فهي تنبعث من ازكى عواطف الانسان ومثله العليا. والمفروض في دعاتها ان يلتزموا فيها سبيل الحسنى واللين، ولكنا وجدناهم في العراق يغالون فيها إلى الحد الذي يخال الناظر إليهم فيه كأنهم من دعاة الحروب.

هناك وقائع أخرى عديدة استطعت جمعها بعد قيام الثورة، وهي تدل على مبلغ الازدواج المتغلغل في نفوس البعض منا. ولست ادعي بأن الرأي الذي جئت به في تفسير هذا الازدواج هو الصواب بعينه. فربما كنت مخطئاً فيه. انه على اي حال محاولة بدائية قد تخطىء او تصيب. والخطأ في هذا الشأن طريق الصواب!

اعتـراض وجيه:

رب قائل يقول لي: إن هذا المنهج الذي تتبعه في التحري عن عيوب شعبنا قد يضر بنا في هذه المرحلة الاجتماعية التي نمر بها، فالشعب الذي يركز نظره على عيوبه قد يصبح ضعيف الثقة بنفسه، وفي ذلك توهين لقوة الشعب تجاه أعدائه الواقفين له بالمرصاد.

إن هذا القول صحيح، وهو الذي جعلني احجم عن التأليف والكتابة في عهد جمهوريتنا الزاهر. ولكني مع ذلك استطيع ان اقول بأن التطرف في اتباع هذا القول قد لا يخلو من ضرر بالشعب كذلك. فإذا كان البحث في العيوب الشعبية يضعف ثقة الشعب بنفسه فقد يكون التكتم عن تلك العيوب والستر عليها مضعفاً للشعب من جهة اخرى، إذ هو يؤدي به إلى الطيش والحماس الزائد.

إن الشعب الذي لا يعرف نقائصه ولا يدرك مكامن الضعف في نفسه لا يسهل عليه أن يكون قوياً إزاء أعدائه. والعدو الكامن في داخل النفس ربما كان أشد خطراً من العدو المتربص لها في الخارج.

إننا إذا ألقينا في روع الشعب بأنه شعب كامل ثم صدق الشعب بما نقول له، كان ذلك من أسباب الغرور فيه، ولعله سيندفع بغروره بما ينفع الأعداء ويفتح لهم في صفوفه ثغرة ينفذون منها إلى الاعتداء عليه مرة أخرى.

لقد ذهب زمان الغرور الشعبي كما ذهب زمان الغرور القومي قبله. ويؤسفنا أن نرى الناس بالأمس يتهموننا بـ "الشعوبية" لأننا كنا لا نجاريهم في غرورهم القومي، وأحسبهم اليوم يتهموننا بـ "الرجعية" لأننا لا نجاريهم في غرورهم الشعبي.

خطأ شائع:

يزعم بعض المفكرين منا أن لا حاجة لنا بالبحث عن عيوب شعبنا إذ هي في نظرهم عيوب نشأت عن ظروف اقتصادية بائدة، وحين تتبدل تلك الظروف تنقشع معها عيوب الشعوب حالاً، فلا مشكلة تبقى إذن، ولاهم يحزنون!

إن هذا رأي كان له أتباع كثيرون في السنوات الماضية يتعصبون له ويدافعون عنه بحماس شديد. ولكن هؤلاء الأتباع أخذوا يقلون تدريجياً في الآونة الأخيرة بعدما أظهرت الأبحاث الاجتماعية الحديثة خطأ رأيهم[11]

هناك رواسب فكرية واجتماعية ترسبت في أعماق نفوسنا على مدى أجيال عديدة، وليس من الممكن زوالها حالاً بمجرد تغيير نظامنا الاقتصادي والسياسي. إنها ليست طفحاً طارئاً نشأ في يوم واحد حتى يمكن إزالته في اليوم الثاني. أرجح الظن أنها ستبقى فعالة تؤثر في سلوكنا مدة طويلة، ولعلها ستصبح ركيزة لكل من يبتغي الكيد بنظامنا الجديد مرة بعد مرة.

نحن نحتاج إلى ثورة فكرية واجتماعية مثلما نحتاج إلى ثورة سياسية واقتصادية. ونحن لا ننتظر من ثورتنا أن تواصل السير في طريقها المنشود ما لم

نرشد الشعب إلى ما يكمن في عقولهم الباطنة من رواسب قديمة تنخر في كيانهم الاجتماعي وتعرقل عليهم سبيل الحياة.

وزير ثوري:

دعا أحد وزراء المعارف في عهد الثورة جماعة من الأساتذة إلى الاجتماع به في مكتبه بديوان الوزارة. وكان غرضه من هذا الاجتماع هو ان تكون ثورتنا فكرية واجتماعية مثلما هي ثورة سياسية واقتصادية. وقد طلب الوزير من الحاضرين أن يقوموا بواجبهم نحو هذه الثورة.

لقد كانت من الوزير فكرة عظيمة أعجب بها الحاضرون ووعدوه بالتأييد. وكنت انا من بين الحاضرين، وقد وعدت الوزير بمثل ما وعده به زملائي الآخرون، ولكني نكثت بوعدي أخيراً ـ مع الأسف الشديد!

أعود فأقول ما قلته سابقاً، هو اننا اليوم في حاجة إلى كتّاب من نوع آخر غير هذا النوع الذي يبتغيه سيادة الوزير. فهذا اوان كاتب يندفع في صيانة الجمهورية بأسلوبه الصارم البليغ، وليس هو اوان كاتب "بارد" يقف على التل متفرجاً يتحرى عن العيوب فيصيب فيها مرة ويخطىء مرات.

عبد الكريم قاسم:

يجدر بي قبل أن انتهي من كلمة الوداع هذه أن اشير إلى موقف الزعيم عبد الكريم قاسم في هذه المرحلة الاجتماعية الهامة من تاريخنا. فلقد اعلن الرجل غير مرة أنه فوق الميول والاتجاهات، وأعتقد أنه صادق فيما قال. ولكني مع ذلك لا استطيع أن أعد موقفه هذا خالياً من الدقة والحراجة.

إنه ليس قائد حزب إنما هو قائد بلد تتصارع فيه الأحزاب، وهو إذن معرض للحيرة اكثر من تعرض أي قائد حزبي لها. وكلما تأملت في حراجة موقفه هذا شعرت بالثقل الهائل الموضوع على عاتقه ـ ساعده الله!

إنه لا يستطيع أن يتجاهل أهمية الحماس الشعبي في تأييد الثورة التي تكاثر عليها الأعداء،وهو لا يستطيع كذلك ان يجاري هذا الحماس إلى الدرجة التي اندفع بها المتعصبون المتسرعون. بين يديه من جهة بلد يحتاج إلى استقرار، وبين يديه

من الجهة الأخرى ثورة تحتاج إلى تأييد. ولا بد للرجل من أن ينظر في هذه الجهة تارة وفي تلك الجهة تارة اخرى.

إني أشعر بالعجز في سياسة صف واحد من الطلاب حين يشتد الجدل بينهم، فكيف بالرجل وهو يقود ثورة كبرى كثورة 14 تموز وفي مجتمع كالمجتمع العراقي. ومهما يكن الحال فإننا يجب أن نحني رؤوسنا اعترافاً بما وهب الرجل من مهارة في قيادة سفينة البلد بين هاتيك الأمواج المتلاطمة.

هوامش كلمة الوداع:

(1) انظر: لينين، الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية، ص 5 - 6 .

(2) انظر: Veblen, Theory of Leisure Class.

(3) أعرف من التجار "إخوانا" لهم مخزن كبير في شارع الرشيد وهم من أكثر الناس غشاً ودناءة في تجارتهم ولكنهم نجحوا في العهد البائد نجاحاً كبيراً. إنهم قد اعتمدوا في نجاحهم على التزلف إلى وجهاء الدولة ووزرائها يرشونهم ويقدمون لهم البضاعة الغالية بالثمن البخس. ونحن نأمل أن ينفضح هؤلاء وأمثالهم بعد انقشاع غمة ذلك العهد الظالم البغيض.

(4) أنظر : محمد عبده، نهج البلاغة، ج 3 ، ص 198 .

(5) انظر: Young, Social Psychology, p. 397.

(6) انظر: علي الوردي، خوارق اللاشعور، ج 1 ، ص 272 - 273 .

(7) انظر: ماركس وانجلز، البيان الشيوعي، ص 28 .

(8) انظر: القرآن، سورة السجدة، آية 34 .

(9) أود أن انتهز هذه الفرصة لكي أبدي شكري نحو طلابي في الكليات المختلفة. فقد وجدت في أكثر هؤلاء الطلاب روحاً علمية وميلاً إلى الجدل العلمي الرصين، ولولا ذلك لاضطررت إلى ترك التدريس كما اضطررت إلى ترك التأليف والكتابة.

(10) انتقد بعض الأساتذة اصطلاح "الشخصية المزدوجة" الذي جئت به في وصف الفرد العراقي، إذ هو في نظرهم اصطلاح غير علمي. إني أرجو من هؤلاء الأساتذة الفضلاء أن ينظروا في الاصطلاح من حيث تصويره لواقع الحال لا من حيث صحته اللفظية، فالمهم عندي هو صحة المعنى لا صحة اللفظ.

(11) انظر: ابراهيم كبة، نظرة سريعة في تطور النظام الاقتصادي، ص 19 وانظر: ماوتسي تونغ، حول التناقض، ص 45 - 46 .

الفهرست

KMH

هذا الكتاب

ان الموضوع الذي يتناوله الكاتب ويبحث فيه بشكل علمي وتاريخي جميل هو الاحلام .

موضوع مثير بمادته ومحتواه لانه يمس جميع الناس على كافة مستوياتهم .

يبحث الكاتب الاحلام من الناحية الاجتماعية واثرها على المجتمع ، ويستعرض بعض أراء القدماء في الاحلام وكذلك اراء المسلمين واثر الاحلام في المجتمع الاسلامي وتأثيره في بعض العقائد الاسلامية الى درجة يصبح الحلم مسلماً به لا اعتراض عليه .

ثم يتناول الكاتب الآراء الحديثة في الاحلام واهم النظريات التي تعالج الموضوع في ضوء علم التحليل النفسي وعلم الباراسكيولوجي ، وكذلك النظريات البارانية "الغيبية" لذا فان القارىء سوف يجد متعة وفائدة جمّة في هذا الكتاب .

الناشر

التوزيع

مكتبة بيسان

هاتف 865126 ـ ص.ب 13/5261 ـ بيروت .

صمم الغلاف: محمد تقي مرتضى

لوحة الغلاف: بديع محمد